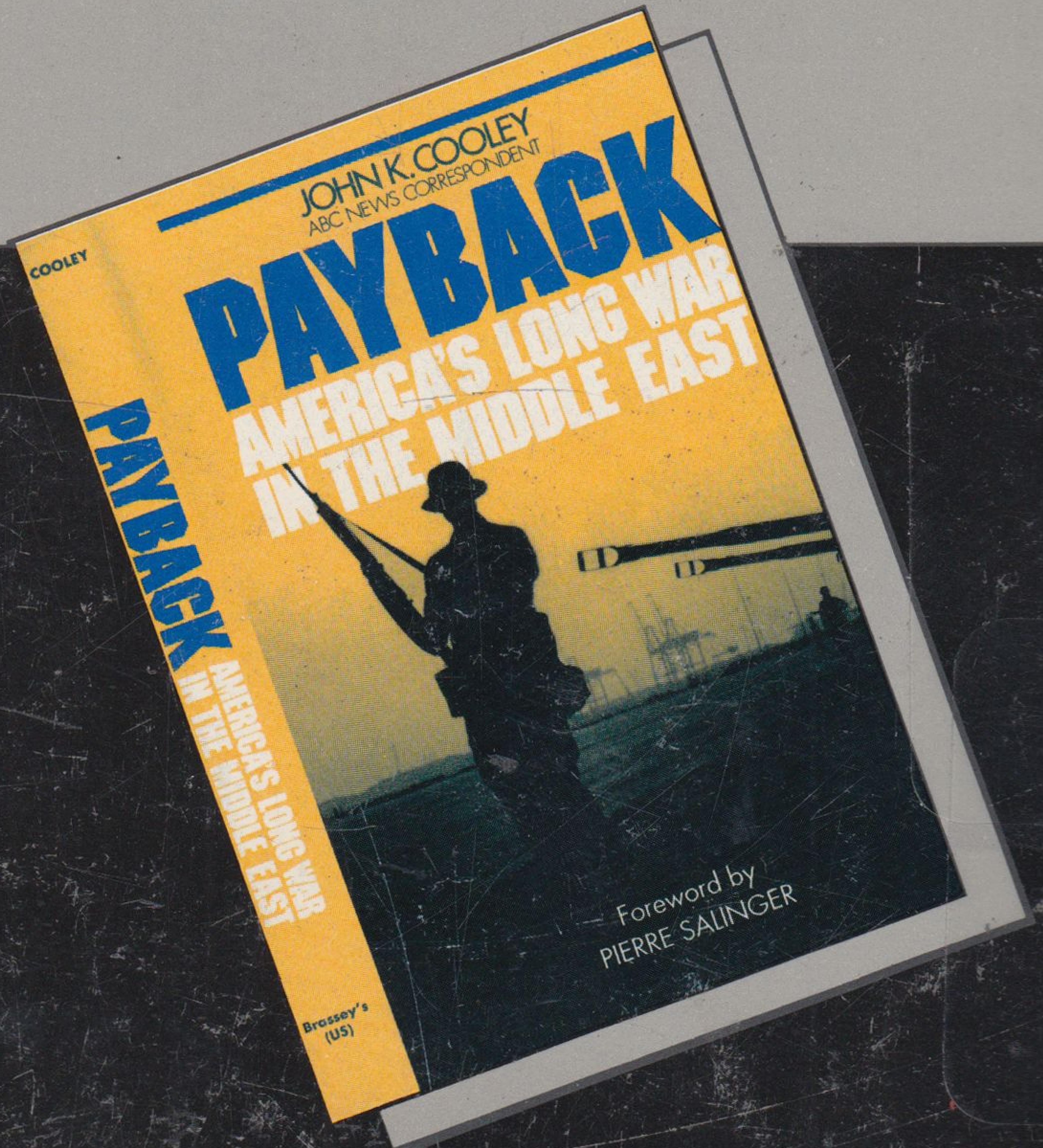
جون كوولي

كاتب وصحفي اميركي كبير ، ومراسل شبكة ABC News الاميركية في لندن

الحصاد

حرب أميركا الطويلة في الشرق الاوسط



تقديم

بيار سالينجر



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
بيروت - لبنان
ص.ب - ٨٣٧٥
هاتف: ٨٦٢٤٣١ - ٨٦٥٤٠٧
تلكس - ٢٢٦٦١
فاكس - ٠٠٣٥٧٩٥٢٢١٠٧
بناية الوهاد - شارع جان دارك - بيروت

الطبعة الأولى
١٩٩٢م - ١٤١٢هـ

جون كوولي

الحصـــــاد

ترجمة: عاشور الشامس

تصميم الغلاف : عباس مكّي

المقدمة

بينما كانت سنة ١٩٨٩ تلفظ أنفاسها، كان العالم مشدوداً يراقب الأحداث التي تجري في دول أوروبا الشرقية والإتحاد السوفييتي. لقد استحوذت تلك الأحداث ـ انهيار الشيوعية وسقوط حائط برلين والاطاحة بدكتاتور رومانيا نيكولاي تشاوشيسكو ـ على جميع اهتمام وسائل الاعلام الغربية، ولم يعد هناك سوى نفر قليل من الناس يلقي بالاً لما يدور من أحداث هائلة في مناطق أخرى من العالم. ولا زلت أذكر ذلك اليوم في أواخر ١٩٨٩ عندما دخل جون كوولي مكتبي يقول: «لا نستطيع أن نغض النظر عما يجري في الشرق الأوسط. إن ما يجري في دول الكتلة الشرقية مهم، ولكننا في الشرق الأوسط نسير شيئاً فشيئاً نحو الصدام وهذا أمر لا يمكن أن نتجاهله». كنت أتفق مع ذلك القول تماماً ولكن لم يكن من السهل تنفيذه عملياً. وجاءت سنة ١٩٩٠ لتثبت صحة ما قاله جون كوولي.

أخذت منطقة الشرق الأوسط تتقدم نحو الفوضى منذ أوائل السبعينات. وقد ساهمت في ذلك الحرب الأهلية في لبنان وظهور قوة آية الله الخميني في ايران وبروز ظاهرة الأصولية الاسلامية واغتيال الرئيس المصري أنور السادات واندلاع انتفاضة الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة والتزايد المفجع في نشاط الارهاب واختطاف الرهائن الغربيين. ومن المؤكد ان ما زاد في نمو تلك الفوضى الأزمة التي اندلعت في الخليج في الثاني من أغسطس/آب ١٩٩٠، والتي لم تكن انتهت عند اعداد هذا الكتاب. ولعل أحدى المعضلات الخطيرة في الشرق الأوسط هي غياب الفهم الأساسي في الغرب للتوجهات الدينية والسياسية والأهداف البعيدة المدى لتلك التوجهات في المنطقة. فقد ارتكبت الدول الغربية ـ دولة تلو أخرى ـ وفي مقدمتها الولايات المتحدة أخطاء فادحة في المنطقة. فلم تكن أميركا تفهم أن الرئيس المصري أنور السادات الذي نال إعجاب العالم الغربي كان مكروهاً في بلده نفسها وكان هدفاً للاغتيال طول حياته. كما أثبت موت عدة مئات من الأمريكيين نتيجة أعمال أرهابية في لبنان عندما تدخلت إدارة الرئيس ريغان هناك، مدى جهلنا بحقيقة الأوضاع في ذلك البلد. وفي الوقت الذي كان صدام حسين يتقدم نحو غزو الكويت، لم تقم الولايات المتحدة إلا بإرسال

الاشارات الخضراء إليه، والتي أقنعته أن الولايات المتحدة لن ترد بقوة إذا قام باحتلال جارته الكويت.

لم أقابل في حياتي الصحفية كلها من يفهم الشرق الأوسط أحسن مما يفهمه جون كوولي، وهذا الكتاب ـ الحصاد ـ عمل لا يمكن الاستغناء عنه للتعرف على حقيقة كنه سوء الفهم القائم في الغرب. ان من الحقائق الثابتة أن المرء لا يمكن أن يمد ببصره نحو المستقبل قبل أن يفهم الماضي، وانه لمن المؤكد أن مستقبل الأوضاع في الشرق الأوسط سيكون معقداً بل وخطيراً كذلك. إلا أن هذا الكتاب سيزيد من معرفة القارىء للمنطقة بما يجعله أقدر على تقييم مستقبلها.

انني أعتز كل الاعتزاز بعلاقتي مع جون كوولي التي كانت لها آثار رائعة وعميقة في فهمي الشخصي لمنطقة الشرق الأوسط. إلا أن الذي يثيرني حقاً هو كيف يستطيع رجل يعمل لمدة ثماني عشرة ساعة في اليوم يقضيها في متابعة وتغطية أحداث تلك المنطقة، ثم يظل لديه من القدرة والوقت ما يقضيه في تأليف الكتب كذلك. ولكن مثل جون كوولي لا يعجز عن ايجاد الوقت لانجاز الأعمال الهامة وهذا الكتاب واحد من تلك الانجازات الهامة.

بيار سالينجر

تمهيد

كان المراسل الصحفي لجريدة لوس أنجلس تايمز جو أليكس موريس ـ وهو واحد من أعز أصدقائي وزملائي ـ يفهم الشرق الأوسط أكثر من أي شخص عرفته في حياتي. كان آخر حديث لي معه في عام ١٩٧٨ وقبل شهور من سقوطه ضحية الرصاص في طهران أثناء تغطيته لأحداث الثورة الايرانية هناك. قال لي جو يومها: «اياك أن تعتبر نفسك خبيراً في شؤون الشرق الأوسط، وإذا اعتقدت ذلك فأنت في مأزق خطير».

لقد كان جو على صواب. فقد حلت الولايات المتحدة بنفوذها المتفوق في الشرق الأوسط محل القوى الاستعمارية القديمة بريطانيا وفرنسا. أما القوة العظمى الأخرى ـ أي الاتحاد السوفييتي ـ فهى مشغولة بكفاحها الداخلي من أجل البقاء، ولن تكون عاملاً أساسياً في المنطقة. ومع نمو قوة أمريكا في المنطقة فقد زادت مسؤلياتها كذلك، ولكنها مع كل أسف أخفقت طوال فترة احتلال العراق للكويت ـ مثلاً ـ وما تلاه من حرب التحالف لتحريرها أن تصل في فهمها للشرق الأوسط إلى نفس درجة قدرتها على التخطيط للعمليات العسكرية وتنفيذها.

بدأت حياتي الصحفية في شمال افريقيا والشرق الأوسط في أواخر الخمسينات، وعينت في عام ١٩٦٥ مراسلاً لصحيفة الكريستيان ساينس مونيتر لشؤون الشرق الأوسط وكان مقري الرئيسي في بيروت. في عام ١٩٨١ التحقت للعمل بشبكة أي. بي. سي. نيوز للأخبار ABC News حيث أصبحت لندن منذ ذلك التاريخ هي المكان الذي أتابع منه وأسعى فيه إلى فهم طبيعة شعوب منطقة الشرق الأوسط ودياناتها وصراعاتها . . . تلك المنطقة العجيبة من العالم حيث مولد التاريخ البشري المتحضر.

لقد ظلت الولايات المتحدة الأمريكية خلال السنوات الحرجة ما بين ١٩٧٩ و١٩٩١ ـ وهي الفترة التي يغطي أحداثها هذا الكتاب ـ تتلقى بصورة مستمرة تسديد الحساب من جراء تقديرات سقيمة وأخطاء سياسية فادحة أدت إلى كوارث. ولم يقتصر الأمر فقط على وجود عدد قليل من الخبراء في مراكز صناعة القرار فيما يتعلق بالسياسة

الأمريكية في الشرق الأوسط ولكن حتى القلة التي وجدت ـ كبعض المحللين في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA الذين حاولوا في عام ١٩٩٠ انذار البيت الأبيض أن صدام حسين قد يقدم على غزو الكويت ـ كانت على ما يبدو تعمل خارج أروقة القوة والتأثير.

ويتضح سوء الفهم الأمريكي هذا للصراعات العرقية والدينية والسياسية في الشرق الأوسط أحياناً ـ كما هو الحال في لبنان ـ عندما تتخذ الحكومة موقفاً متحيزاً في خلافات تافهة أو محدودة. وتنشأ في أحيان أخرى حالة رهيبة من الفوضى بسبب تحيز بعض الأفراد أو الوكالات في المؤسسات السياسية الأمريكية ودعمها لأطراف مختلفة في الصراع الواحد. ولعل موضوع السلاح مقابل الرهائن الذي نشأ بين الولايات المتحدة وإيران هو أحسن مثل على ذلك حيث يمكن ارجاعه في النهاية إلى تضارب في الولاءات خلال الحرب الإيرانية العراقية. وهكذا أدت تلك السياسات المتناقضة الغبية حتماً إلى تسديد الأطراف المعادية للولايات المتحدة حسابها، إذ أنه عندما تحركت أمريكا لملء الفراغ الذي نتج عن تراجع القوى الاستعمارية وجدت أمريكا نفسها تخوض حرباً سرية لا نهاية لها.

إنني ـ كصحفي ـ كنت دائماً أسعى للتعامل مع الأخبار كأحداث لتاريخ يصنع ويسجل وليس كومضات خاطفة من أحداث اليوم، وقد ظل من الواضح لدي أنه إذا لم نحاول فهم أحداث الحاضر وأخطاء الماضي فإننا مدانون حتماً بتكرار تلك الأخطاء خاصة في منطقة مضطربة كاضطراب الشرق الأوسط. ويتناول هذا الكتاب أحداث عقد مفعم بالتطورات قد ظهرت فيه الأخطاء مراراً وتكراراً كبقع سوداء كثيرة مظلمة.

إلا أنني ـ وبعد قضاء ثلاثين عاماً كمراقب لسياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، لا أدعي أي خبرة متميزة. وكل أملي أنه بتسليط النور على تلك البقع السوداء، قد يكون في هذا الكتاب ما يشجع على اتخاذ سياسات أكثر وعياً وتنوراً في المستقبل. فقد آن الأوان أن تنتهي حرب أمريكا الطويلة في الشرق الأوسط كما آن الأوان أن يتوقف تسديد الحسابات.

جون كوولي

الفصل الأول

ملك الملوك... نور الآريين

مقابلة مع شاه إيران

طهران: ٢٠ سبتمبر/ ايلول ١٩٧٨

صوت كصوت الطبول الوارد من بعيد يقهر السكون وأنا ادخل حرم القصر الملكي. لا يوجد امامي سوى عدد قليل من الحرس يداعبهم النعاس، والسائق الصامت الذي جاء بي في سيارة فارهة سوداء إلى القصر يبدو وكأنه جن اسود في فيلم سوريالي وصل لتوه من تحت سطح الأرض.

بإيماءة يحيلني السائق على احد الخدم، ورجل آخر نحيف مفتول العضلات من رجال التشريفات، أو لعله أحد أعضاء جهاز السافاك المسلحين ـ جهاز البوليس السري الذي يخافه الجميع ـ أو أحد «الخالدين» في زيه المدني. . . أولئك الصفوة من أعضاء الحرس الامبراطوري. في صحبة هؤلاء اسير على الطريق المعبد بالحصى الذي ينتهي بنا إلى رصيف من الحجر الصلب تغطي جانبيه اشجار الورد. ولا يزال ذلك الصوت الذي يشبه صوت الرعد المتقطع المتناهي عن بعد يصارع السكون من حولنا ونحن نصعد درجات السلم الرخامي.

وجدت نفسي للحظة قصيرة افكر في ذلك الصوت: هل هو صوت جماهير جنوب طهران الغاضبة التي تصرخ وتموج، صوتٌ حملته مرة اخرى رياح الشؤم كل هذه المسافة نحو الشمال منذرة الحاكم بسوء العاقبة. ذلك الغضب المتنامي لدى تلك الجماهير المضطربة التي لم تنس تلك المئات من المواطنين الذين قتلوا قبل ايام في مذبحة ميدان (جاله).

اختفى مرافقاي فجأة، واختفى معهما ذكر الجماهير المحتشدة في المدينة.

وجدت نفسي الآن امام رجل يقف منفرداً وحده، انه الرجل الذي التقيته في مقابلات سابقة على مدى اثنتي عشرة سنة، انه محمد رضا شاه بهلوي المعروف للمتملقين والمتذللين من رعيته بشاهنشاه اريامهر. . . ملك الملوك، ونور الآريين.

ووجدتني اتساءل عما إذا كان هو نفس ذلك الرجل الذي تحدثت إليه في أكثر من اثنتي عشرة مقابلة خلال العقد الماضي. لقد عرفته متكبراً يقف منتصب القامة مظهراً زهو الملوك وينظر إليّ بعينين من جليد، وقد يظهر شيئاً من اللطف ولكن في كبرياء... وعلى استعداد ان يبتسم ابتسامة ترحيب خفيفة أو يضحك ضحكة ساخرة اثناء حديث حول فساد المجتمعات الغربية مثلاً، أو للتهكم على سجل حقوق الانسان في الولايات المتحدة أو بريطانيا أو فرنسا ـ تلك البلاد التي ظلت حكوماتها تسانده بكل اخلاص حتى تلك اللحظة.

ولكن الرجل الذي يقف أمامي الآن يختلف اختلافاً مدهشاً. شعره الفضي منسجم مع لون بزّته الرمادية المزدوجة الصدر، ونظاراته الكبيرة، مما اضفى عليه هيبة الشخصية الامبراطورية. ان الذي تغير فعلاً هو الهيكل الكائن داخل تلك البزّة الرمادية. انه هيكل اصابه الهزال واضعفه المرض. ولكنني ـ لسبب ما واسوة بمعظم الذين قابلوا الشاه لفترات قصيرة ـ لم الاحظ المرض بادياً عليه، فقد كان وجهه شاحباً كأنه مصقول من الشمع، وكانت نظراته الترحيبية ثاقبة وخالية من الدفء لا تتعدى الحد الأدنى من الأدب واللياقة.

وفي جهل كامل بما يخفيه القدر من احداث، حاولت أن اوجه مسار المقابلة نحو ما كنت اعتقد ان المحررين والقراء يرغبون في معرفته: هل يستطيع هذا الرجل ـ الذي وصفه الرئيس جيمي كارتر مؤخراً بأنه «صرح (دعامة) الاستقرار»، وهذا يعني أنه دعامة من دعائم سياسة الولايات المتحدة الخارجية ـ ان يستمر في الحكم؟ لقد كانت اسئلتي تنطوي على تساؤل آخر لم افصح عنه، وهو ماذا سيكون مصير السياسة الأميركية غير المكتوبة التي تعتمد على الشاه بصورة كاملة في الدعم الحاسم والحقيقي في الشرق الأوسط، من تزويد إسرائيل بالنفط إلى القيام بدور الشرطي في الخليج الفارسي أو ـ كما يفضل أن يسميه العرب ـ الخليج العربي.

ثم خطر على بالي سؤال آخر بإمكانه أن يضمن نجاح المقابلة أو يقضي عليها بالكامل، والذي لو طرح على الشاه منذ سنوات ـ أو حتى أشهر ـ قليلة قبل ذلك التاريخ، لأنهى الشاه المقابلة وغادر الغرفة للتو... ولكانت النتيجة الطرد مع التعنيف بغض النظر عن هوية السائل ما دام ينوي نشر الإجابات.

لقد كانت تصرفات الرجل الجالس أمامي ومظهره الهزيل مصدر شجاعتي، فأخذت نفساً عميقاً ثم بدأت في وضع سؤالي:

«ما قولك» . . . انني أذكر جيداً بعد كل هذه السنوات أنني لم استخدم عبارة «يا صاحب الجلالة»!.

«ما قولك لهؤلاء الشيوخ الذين يتهمونك بمخالفة تعاليم الدين الاسلامي؟».

إن الشاه، بدلاً من أن يشتاط غيظاً أو يتشنج، ظل يحدق ببصره فيما وراء ظهري وظلت عيناه ثابتتين على نقطة ما في الفراغ. لقد ظل صامتاً لما يقرب من عشر ثوان خالجني اثناءها شعور خاطف بأنه قد ضغط بأصبعه على زر خفي ليظهر الحرس فجأة فيأخذوني ويلقون بي في الخارج. ولكنه ـ بعكس ذلك ـ صوب نظره إليّ قائلاً في هدوء: « لا اعتقد أنني خالفت الدين الاسلامي في شيء، وإذا كان هؤلاء يعتقدون ذلك فإني على استعداد أن اناقش الأمر معهم».

اتجهت افكاري مرة اخرى نحو المحررين والقراء. لم يعرف عن الشاه انه قال مثل هذا الكلام من قبل ابداً، أو على الأقل منذ الاضطرابات السياسية والدينية التي شهدتها بلاده في بداية الستينات عندما طرد آية الله الخميني الذي سمع الكثيرون ـ بمن فيهم الخبراء بشؤون ايران ـ باسمه لأول مرة في ذلك التاريخ.

لقد دأب محمد رضا بهلوي ـ الذي تولى عرش الحكم في ايران عام ١٩٤٧ واستعاده بعد هروبه منها في عام ١٩٥٣ بمساعدة وكالة المخابرات المركزية الأميركية (CIA) ـ يحط من قيمة الدين والتنظيمات الدينية أو يتجاهلها بالكامل. فهو ينظر إلى شيوخ الدين ـ من اصغرهم درجة إلى آية الله العظمى نفسه ـ بأنهم عناصر يجب مراقبتها أو ـ في بعض الأحيان ـ معاقبتها أو طردها أو ترضيتها، وألا يجب ـ بأي حال من الأحوال ـ التفاوض معها سواء حول العلوم الدينية أو الحكم الديني أو فيما يتعلق باعادة تأسيس الدولة الايرانية بكاملها على أسس علمانية بحتة. لقد استولى الشاه خلال الستينات على أراضي وممتلكات شيوخ الدين ضمن الإصلاحات التي قام بها تحت اسم «الثورة البيضاء».

انتقلت بعد ذلك إلى المزيد من الأسئلة حول تنازل الشاه عن السلطة وتسليمها لابنه رضا، ولي العهد. هل يا ترى ان ولي العهد (الموجود حالياً في الولايات المتحدة

يتلقى تدريباً على الطيران العسكري في القوات الجوية الأميركية) عندما يحين وقت استلامه للسلطة ـ وكما سمعت من معارضي الشاه «المخلصين» من امثال كريم سنجابي عضو الجبهة الوطنية ـ سيرث دولة ملكية دستورية؟ ويرد الشاه باجابات ضبابية مقتضبة وينتهي بذلك الجزء الرسمي من المقابلة، ويتوقف الجهاز الصغير الذي احمله معي عن التسجيل ونبدأ في حديث غير رسمي وليس للنشر.

وهنا ـ وللمرة الأولى ـ تظهر على الشاه بوادر البشاشة والسرور، فينحني قليلاً إلى الأمام وتنبعث الحياة من جديد في عينيه السابلتين ويرفع ذراعه قليلاً إلى أعلى ويشير بسبابته قائلاً: «هل تعلم ماذا يقول الناس هنا؟» وهو يقصد بالناس حاشيته ومستشاريه واعضاء حكومته وليس الناس الذين يتظاهرون في الشوارع.

«إنهم يقولون لي إن السوفييت ودول الكتلة الأوروبية الشرقية ليسوا وحدهم الذين يقفون وراء هذه الاضطرابات والمظاهرات. إنهم يقولون إن هناك عناصر غربية أيضاً وراء هذه الأحداث، امريكان ـ في الغالب ـ وبريطانيون كذلك».

جاء ردي بأن «هذا غير ممكن على الاطلاق... فهل تعتقد أن وكالة المخابرات المركزية الأميركية ستقطع انفها لتشوه وجهها بيديها وتعمل ضدك انت؟».

ينتصب الشاه في جلسته ويلوح بيده يمنة ويسرة قائلاً: «لا، ولكن هناك من يقول إن بعض شركات النفط الأميركية والبريطانية لها دور في الأحداث». وفجأة يعود الشاه ـ وكأنه قد افاق من نرفانة عابرة ـ منتصباً في جلسته الرسمية المتصلبة.

وكانت تلك نهاية اللقاء.

وعاد المرافقون إلى الظهور من جديد. وفي غضون لحظات كنت في السيارة الفارهة السوداء اياها تنطلق بي إلى مكاني الآمن ـ فندق هيلتون ـ وفي ذهني مئات المواضيع التي كان ينبغي أن اناقشها مع الشاه ولكنها لم ترد على خاطري إطلاقاً أثناء اللقاء.

لم افِ بوعدي الذي وعدت به السيدة التي استضافتني بشمال طهران الليلة البارحة. فهي سيدة بهائية من اتباع ذلك المذهب الذي عانى الاضطهاد في ايران ـ بلاد ابائها واجدادها ـ وفي بلدان عربية واسلامية اخرى كذلك على مدى فترات متعددة

خلال القرن الماضي، والذي ـ بالرغم من ذلك ـ ارسى دعائمه في الولايات المتحدة واجزاء اخرى من العالم الغربي. لقد طلبت مني تلك السيدة عندما علمت بأني سأجري مقابلة مع الشاه ان اسأله «ماذا سيعمل من اجل حمايتنا بعد كل هذا الاخلاص الذي اظهرناه له؟». وماذا عن يهود ايران الذين قد اثرى الكثير منهم تحت حكم محمد رضا بهلوي؟ فهو حليف لإسرائيل مهم للغاية وإن كان في السر. كما كان ينبغي ان اناقش معه بالتحديد وضع النفط كذلك، فلعله كان يفصح عن بعض جوانب ذلك الأمر. . . وما الذي يدفعه إلى الاعتقاد بأن شركات النفط تعمل ضده؟.

ولكن الشاه قطع الحديث في ذلك الموضوع، ويخالجني شعور بأن علاقتنا المتوترة التي بدأت في لقائنا الأول عام ١٩٦٦ قد انتهت.

الثورة والثورة المضادة:

لقد عبر الشاه في البداية عن رغبته في إقامة علاقة جيدة مع الصحيفة التي امثلها وهي الكريستيان ساينس مونيتر. لقد اساء إليه ـ أو على الأقل اثاره ـ احد الصحفيين المستقلين (يعتقد الشاه أنه كان رجلاً اسود اللون) في اوائل الستينات عندما كتب مجموعة مقالات في نفس الصحيفة يقول الشاه إنها «لم تكن منصفة لبلدي»، ولم يقل إنها لم تكن «منصفة لي».

لقد كان ذلك اثناء الفترة التي كانت الولايات المتحدة تعتمد على منافس الشاه وجاره الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية كحجر الأساس في منطقة هلال الصداقات والتحالفات التي كانت قائمة في الشرق الأوسط آنذاك. لقد كان الشاه في ذلك الوقت لا يزال يعتبر شريكاً مؤقتاً لا يشكل منافساً حقيقياً لملك السعودية لكسب عواطف الأميركان، وذلك على الرغم من انه كان في طريقه إلى أن يصبح أكبر زبون في المنطقة للتكنولوجيا والأسلحة التي كانت تعرضها الأسواق والشركات الغربية وخاصة الأمريكية.

لقد كانت تلك المقابلة في ٢٠ سبتمبر/ ايلول ١٩٧٨ من آخر المقابلات التي اجراها الشاه مع صحفيين أمريكيين أو أوروبيين، وذلك قبل أن يلم به المرض وتجتاحه عواصف الثورة، وقبل أن يرحل إلى منفاه الأخير في أوائل عام ١٩٧٩. لقد كان قدره أن

يعيش متنقلاً بين المغرب وباناما والولايات المتحدة ومصر، يصارع آلام المرض والموت، منبوذاً من كل دول العالم وممهداً بذلك الطريق لعودة حكم العجوز الغاضب آية الله الخميني الذي كان قد نفاه الشاه إلى خارج ايران قبل أكثر من عقد ونصف من الزمن.

لقد اخرج الشاه من ايران بالقوة قبل ذلك في عام ١٩٥٣ وذلك لأيام معدودة نتيجة موجة شعبية قادها منافسه القومي آنذاك محمد مصدق رئيس الوزراء الذي تحدى الشاه والأميركان والبريطانيين. لقد قام كيرمت روزافيلت ومايلز كويلاند وغيرهما من العاملين في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بتمويل جماعات مضادة لمحمد مصدق، لتناصر الشاه الغائب ولتهتف بالتأييد له، والدفع بقياداتها «الملكية» المناصرة للشاه، ان تصطدم بانصار رئيس الوزراء القومي محمد مصدق وتضربهم في الشوارع.

كما تحدى محمد مصدق شركة النفط الأنجلو ـ ايرانية بالتجرؤ على الاعلان بأن نفط ايران ملك للإيرانيين وينبغي أن يشترى منهم مباشرة حسب قواعد التجارة المعمول بها وبأسعار عادلة، بدلاً من ان يكون محتكراً من قبل جهة اجنبية تتضاعف ارباحها نتيجة الأجور المنخفضة التي تدفعها للعمال وتكاليف الانتاج الرخيصة. لقد وضع ذلك القوة البريطانية والقوة الأميركية امام مسؤولياتها بصورة مباشرة. ولكن الشاه عاد بعد ذلك بقليل مع قرينته من مأواه في الفندق الايطالي الفاخر بروما منتصراً... وانتهت ايام مصدق إلى التقاعد في وابل من الدموع بعد أن أصبح رمزاً خالداً لجيل كامل من الايرانيين الذين وصلوا اليوم سن الكهولة، وللطموحات الايرانية القومية.

بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ جاءت ثورة عام ١٩٦٣ التي كان الخميني احد شخصياتها الرئيسية، وكان الدين هو محركها الأساسي. لقد كانت تلك الانتفاضة في ارهاصاتها للثورة المقبلة في عام ١٩٧٨ ـ ٧٩ ذات اثر أكبر بكثير من حركة محمد مصدق أو الانقلاب المضاد الذي اعاد الشاه إلى الحكم عام ١٩٥٣، إلا أن قليلاً من خبراء الولايات المتحدة ـ وكما هي عادة أميركا في التعامل مع ايران ـ انتبهوا إلى أهمية ذلك في حينه.

المعارضة تزداد قوة

انطلقت في فجر اليوم التالي لمقابلتي الأخيرة مع شاه ايران، في صحبة زميل تركي

نجول شوارع طهران الخلفية والأحياء السكنية الفقيرة في جنوب طهران. . . ومنها انطلقنا عبر الصحراء القاحلة التي تمتد إلى مشارف مدينة قم المقدسة. لقد كنا نأمل أن نتعرف خلال تلك الجولة على ما إذا كان العرض الذي تقدم به الشاه باستعداده للتفاوض مع رجال الدين المسلمين يلقى أي ترحيب أو قبول عندهم.

كنا نتحرك ببطء، تلفحنا حرارة شمس الصباح الحارة ونحن نسير عبر زقاق مبنية بالطين والطوب في مدينة كالحة عابسة. لقد كنا نجهل تماماً آنذاك ان هذا الجو القاتم ـ بنسائه اللاتي يتحركن في صمت ملفوفات في شادورهن الأسود القاتم وطلبة الدين المعممين ـ انما يعكس صورة ايران التي سيقيمها الخميني يوماً ما في بقية مدن ايران الحديثة.

أخيراً وصلنا إلى منزل الرجل الذابل الصغير آية الله قاسم شريعة مداري الذي ينتمي إلى مدينة تبريز بأذيربيجان حيث مركز عمله الأساسي. استقبلنا شريعة مداري في ساحة البيت الداخلية بالشاي المنعش وكان حوله جمع غفير من الزوار ضم عدداً كبيراً من اشهر معارضي الشاه آنذاك. كان من بين هؤلاء رجل مهندس من خريجي فرنسا ظهرت عليه علامات القوة والصدق هو السيد مهدي بازرجان صاحب التاريخ الطويل في الكفاح السياسي والذي خرج لتوه من المعتقل. لقد ناهز السيد بازرجان سن الثانية والسبعين دون ان تبدو عليه علامات الشيخوخة.

لقد كان وصول بازرجان متأخراً عن الآخرين. . . وقد كان الجميع يشعر ان البوليس لن يتتبعهم أو يضايقهم ما داموا في حرم سكن السيد شريعة مداري، إلا أن السافاك كان على الأرجح يراقب الاجتماع بطريقة أو أخرى. وبعد تبادل التحيات مع الحاضرين جلس بازرجان ليتحدث معنا لبضع دقائق.

لقد قدر لبازرجان بعد ذلك ان يتولى رئاسة حكومة الثورة في عام ١٩٧٩، ثم اختار الخميني أن يستعمل أزمة الرهائن الأميركيين المحتجزين في السفارة الأميركية في طهران، كوسيلة للتخلص منه. إن بازرجان ـ الذي ظل في المعارضة ضد الشاه طوال هذه السنوات ودخل السجن خلالها اربع مرات وشارك من قبل في حكومة محمد مصدق في أوائل الخمسينات ـ يمثل حلقة الوصل بين المشايخ الثوريين الجدد والسياسيين العلمانيين القدامى.

لقد اخبرني بازرجان انه في عام ١٩٧٧ ـ وقد احس ببوادر العاصفة المقبلة ـ شارك في تكوين الهيئة الايرانية للدفاع عن الحرية وحقوق الانسان.

لقد كانت الثورة الايرانية ـ كالثورة الروسية من قبلها ـ مفعمة بروح السمو العقائدي الذي تمتاز به، إذ كان قادتها يعتقدون أن حركتهم سوف تجتاح العالم كله ـ أو العالم الاسلامي على أقل تقدير ـ وسوف تستلم مقاليد السلطة في كل مكان. وبناء على ذلك انطلقوا ينشرون فكرتهم كثوريين إسلاميين في بلاد مثل لبنان وافغانستان والباكستان حيث توجد تجمعات شيعية مسلمة، وسعوا لكسب الحلفاء من أمثال سوريا التي ينتمي حكامها لأقلية دينية ذات علاقات حميمة بالحركة الشيعية.

لقد جاءت الثورة الايرانية لتعلن الحرب بين اتباعها وبين الولايات المتحدة الأمريكية... وظهرت روح العداء تجاه الحضارة الغربية، التي كانت مكبوتة خلال حكم الشاه الحديدي بكل قوتها. لقد استخدمت طهران في ردها على التحيز العسكري الأمريكي لصالح العراق في المراحل الأخيرة من الحرب العراقية الايرانية (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨) جميع وسائل الحرب السافرة وأسلحة التخريب والارهاب التي كثيراً ما كانت تستخدم من قبل حلفاء ايران والمتعاطفين معها كلبنان مثلاً.

ترأس تلك الجلسة المستديرة في منزل شريعة مداري التي حضرها بازرجان وعدد من الرجال الذين خرجوا قريباً من سجون الشاه، ذلك الشيخ القصير آية الله شريعة مداري الذي جلس متربعاً كأحد بائعي الأقمشة في سوق عربي أو في أحد أسواق فارس، بينما ظلّت نظاراته الحديدية تلمع في الضوء من أعلى انفه.

لقد خيم السكون على المجلس بعد أن ترجم مرافقي لشريعة مداري الذي يتحدث اللغة التركية ما قاله لي الشاه بالأمس من انه على استعداد للتحاور مع المعارضة حول ما يزعمونه من مخالفاته للاسلام. لقد ارهفت آذان جميع الحاضرين لتستمع إلى رد آية الله شريعة مداري الذي جاء خافتاً متقطعاً.

هز الشيخ رأسه بهدوء وبحركة يغلب عليها الحزن قائلاً: «كان ينبغي عليه أن يفكر في ذلك منذ وقت طويل... أما الآن فقد فات أوان التحاور مع الشاه».

ورطة أمريكا

اتجهنا في طريق العودة إلى طهران، وكنا نستقل السيارة في صمت متواصل،

وكلانا يتصور التغيير المقبل الذي لا رجعة فيه والذي سيعم ايران حتماً. إلا أن أحداً منا لم يكن يتصور طبيعة ذلك التغيير أو مداه، ولم يكن في وسع أي منا أن يقدر أن الثورة الايرانية سيكون لها على الولايات المتحدةالأمريكية وبقية بلدان العالم ذلك الأثر الذي فاق أثر أي ثورة أخرى منذ الثورة الروسية في عام ١٩١٧.

لقد ازداد الحمل ـ بعد سقوط شاه ايران الذي كانت أمريكا تعتمد عليه اعتماداً كبيراً في الشرق الأوسط ـ على أنظمة الدول الأخرى التي تعتبر من دعائم السياسة الأميركية في المنطقة مثل إسرائيل والمملكة العربية السعودية. ففي عام ١٩٨٠ انتهز دكتاتور العراق المتعجرف صدام حسين الفرصة التي كان يعتقد أن التاريخ قد اتاحها له لكي يقضي على ايران. وفي تلك الحرب التي اندلعت آنذاك بين العراق وايران انحازت أمريكا في الظاهر إلى صف العراق بينما انتهجت إسرائيل وعناصر معينة داخل الادارة الأمريكية سياسة خفية في الاتجاه المعاكس من أجل دعم ايران وتسليحها.

إلا أن ذلك لم يمنع الثوريين الايرانيين من وضع الرئيس الأمريكي جيمي كارتر بل وأمريكا نفسها آنذاك رهينة في يد ايران. وجاءت بعد ذلك ورطة الكونترا وايران التي قضت في النهاية على إدارة الرئيس رونالد ريغان، وشاء القدر ـ مع أواخر عقد الثمانينات ـ أن يجد رئيس أميركي ثالث وهو جورج بوش نفسه رهينة كذلك، عندما قرر صدام حسين الزحف لاحتلال الكويت في أغسطس ١٩٩٠. وفي أواخر ذلك العام ـ ورغم إطلاق سراح آلاف المواطنين الأمريكان وغيرهم من المدنيين الذين احتجزوا في العراق ـ وجد مئات الآلاف من الجنود الأمريكيين وجنود الحلفاء أنفسهم في صحراء الجزيرة العربية يتأهبون للدفاع عن المملكة العربية السعودية ودخول الكويت ـ بل والعراق كذلك ـ وطرد الغزاة من أراضيها. إن الوضع الدبلوماسي والعسكري الذي اسفرت عنه تلك الأحداث سوف يحدد النمط الجديد للاقتصاد العالمي، كما سيحدد وجهة مستقبل الوضع الدولي بأكمله.

لقد كانت الكويت هي منتهى دراما التورط الأمريكي في الشرق الأوسط، وهي الجزاء الأخير لسنوات من الأخطاء وسوء التقدير في السياسة الأميركية... ولكن شاء القدر أن يرتفع الستارعن الفصل الأول لهذه الدراما في ايران الثورة.

لقد اسفر النجاح الباهر والسريع لعمليتي عاصفة الصحراء ودرع الصحراء ـ وهي

من أكبر العمليات العسكرية التي شهدها العالم منذ الحرب العالمية الثانية ـ على احتلال ما يقرب من ثلث مساحة العراق احتلالاً عسكرياً لفترة محدودة. وكانت تلك هي المرة الأولى التي تشارك فيها القوات الأميركية في مغامرة من هذا النوع في الشرق الأوسط. كما افرزت الحرب انتفاضات بين الأكراد والشيعة وغيرهما من التجمعات القومية والدينية الأخرى التي طالما ظلت تغلي متحفزة للتحرر من ربقة صدام حسين.

كما دفعت الاعتداءات المضادة التي شنها صدام حسين ضد المتمردين بملايين الأكراد العراقيين وآلاف من الشيعة العرب إلى الهروب إلى تركيا وايران، وكان خروج اللاجئين الأكراد في عام ١٩٩١ من العراق هو أكبر حركة نقل سكانية جماعية شهدها العالم منذ خروج الأرمن من تركيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

وهكذا تلاحقت الجزاءات التي تلقتها أميركا مقابل سياستها في الاعتماد أكثر من اللازم على حكام أقوياء غير محبوبين من قبل شعوبهم. ففي مصر وقع الرئيس أنور السادات ـ وهو أحسن صديق عرفه الغرب في المنطقة في التاريخ الحديث ـ ضحية قتل على ايدي عناصر دينية متحمسة من داخل الجيش وخارجه، لأنهم اعتبروه يفضل الغرب على شعبه في مصر ولأنه وقع اتفاقية سلم منفصلة بين مصر وإسرائيل. وفي لبنان ـ حيث سعت الولايات المتحدة لمساعدة من ادعوا انهم اصدقاؤها ـ لم تجد إسرائيل ومن بعدها قوات المشاة البحرية الأميركية سوى الأعداء الألداء.

إلا أن أعظم جزاء استلمته أميركا في عام ١٩٩٠ ـ ٩١ لم يأت على يد اللاجئين الفلسطينيين الحانقين أو الايرانيين الذين يحركهم التعصب الديني أو غيرهم ممن تحولوا إلى ارهابيين. ولكنه جاء على يد صدام حسين الذي كان يصبو إلى أن يكون الأب الروحي لمنطقة الخليج كلها. لقد ظلت الولايات المتحدة تدلل صدام حسين وتقدم له العون بأكثر من مجرد غمزة أو إشارة عندما كان يقف مدافعاً عن القيم الغربية العلمانية في وجه عدوته ايران الاسلامية الأصولية المتعصبة. لقد أثرت أميركا وأثرى معها أصدقاؤها في أوروبا بتزويدهم لمصانع صدام حسين الحربية بمختلف أنواع التكنولوجيا بما في ذلك الأسلحة الكيماوية والبيولوجية والامكانيات النووية الكبيرة.

لقد سدد صدام حسين حسابه مع الغرب باحتلاله لدولة الكويت التي تعتبر من أهم مصادر النفط، ومركزاً هاماً للأعمال المصرفية وأحد أهم الأسواق التجارية في

المنطقة. لقد عاثت قواته فساداً في النفط الكويتي واشعلت النيران في حقول النفط ومنشآته وقضت ـ وإلى الأبد ـ على امكانيات الكويت لانتاج النفط الرخيص ان لم نقل انتاج النفط بالكامل. كما بدد صدام حسين كل ما وصلت إليه يداه من ثروة الكويت، وقتل وعذب الآلاف من مواطنيها. . . وعندما فشلت الدبلوماسية الأميركية والعربية والأوروبية في حل الأزمة بالوسائل السلمية اشعل صدام حسين النيران في الكويت في الوقت الذي كانت فلول قواته ـ التي اذهلتها وبائل القنابل ـ تعود القهقرى إلى وطن دمره القصف الجوي الذي قامت به القوات الأميركية والقوات المتحالفة معها.

إن ما لقيته أميركا جزاء سياستها في الشرق الأوسط في الفترة ما بين ١٩٧٩ و ١٩٩١ يمكن ايعازه ـ جزئياً على الأقل ـ إلى اعتماد تلك السياسة منذ أواخر السبعينات على ثلاث دعائم رئيسية. الأولى هي شاه ايران وقوته العسكرية الضاربة التي صنعتها له الولايات المتحدة بتمويل هائل من النفط الايراني. والثانية هي إسرائيل التي تعيش ـ على حد تعبير الرئيس المصري الراحل أنور السادات ـ على الإعانات الأميركية في كل شيء «من الزبد إلى المدافع». اما الدعامة الثالثة فهي المملكة العربية السعودية.

لقد ظل الدفاع عن النفط السعودي وحماية الحكام المسيطرين عليه في المملكة هو أهم دعامة للسياسة الأميركية في الشرق الأوسط ـ وإن كانت الأقل حظاً من الشهرة والدعاية ـ منذ تولي إدارة الرئيس فرانكلين روزفلت الحكم في أميركا في عام ١٩٣٣.

وقد كان لسقوط شاه ايران الذي تدعمه الإدارة الأميركية آثار سيئة على لبنان ـ ذلك البلد الذي كان يوماً ما بلداً محايداً يعيش أغلبية مواطنيه حياة رغيدة نسبياً وفي جو من التسامح بين ديانات وطوائف مختلفة، وفي وجود بعض مظاهر الديمقراطية البرلمانية. فقد تسربت العناصر الثورية الايرانية بمساعدة سوريا إلى لبنان، بينما سعت الولايات المتحدة إلى معالجة أمراض لبنان المتفاقمة وإنهاء الحرب الأهلية فيها أولاً ببلسم التطمينات الأميركية ثم بعد ذلك بقوة المشاة الأمريكية الحديدية. إلا أن كلا الوسيلتين لم تكن ذات جدوى. فقد استمر اللبنانيون ـ بتواطؤ جيرانهم ومحتلي أراضيهم من القوات الأجنبية ـ في تذبيح بعضهم البعض بلا هوادة ودون الانتباه إلى قوافل الدبلوماسيين والجنود ورجال التعليم الأميركان التي أخذت ترحل عن بلادهم.

وفي عام ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ جاءت عملية عاصفة الصحراء وآثارها المفجعة لتكون

قمة الدراما للتورط الأميركي في الشرق الأوسط، والجزاء الأخير لسنوات طويلة من سوء التقدير والأخطاء. ولكن الفصل الأول من هذه الدراما كان قد قدر له أن يجري على أرض ايران الثورة.

الفصل الثاني

عيون على الأرض

وجواسيس في السماء

آثار الكارثة

انطلق السيد هارولد براون Harold Brown وزير الدفاع الأمريكي في إدارة الرئيس كارتر في يوم من أوائل أيام شهر فبراير/ شباط الثلجية لعام ١٩٧٩ من قاعدة أندروز للسلاح الجوي الأمريكي في مهمة أحسن ما توصف به في لغة واشنطن أنها مهمة «شبك الأيادي»، وقد كان في صحبته عدد من المراسلين الصحفيين كنت واحداً منهم. لقد كان هدف براون الملح هو التشاور مع السعوديين ـ حلفاء أميركا العرب الرئيسيين ـ والإسرائيليين حول آثار صدمة رحيل شاه ايران من طهران في السادس عشر من يناير/ كانون الثاني التي كانت لا تزال تدوي في أجواء الشرق الأوسط كله.

اتجهت الطائرة بداية نحو العاصمة السعودية الرياض، حيث كان براون سيلتقي الملك فهد وكبار المسؤولين في مجال الدفاع، لتطمينهم بأنه على الرغم من أن الولايات المتحدة متهمة بأنها قد «تخلت» عن الشاه، إلا أنه لا يمكن أن يتم ذلك بالنسبة للسعودية أو غيرها.

وبينما نحن في الجو ظلت الأخبار السيئة من ايران تتوالى عبر موجات الأثير. فقد سقطت في ١١ فبراير/ شباط، وبعد يومين من المعارك المتواصلة في طهران بين الموالين للشاه وأنصار الخميني، آخر حكومة ألفها الشاه برئاسة شاهبور باختيار. لقد تلقى أنصار الخميني الدعم من الفنيين في قوات الطيران، والمعروفين باسم الحموراس، الذين يمثلون عنصراً ثورياً جديداً، والذين حصلوا على كميات من الأسلحة من عدة قواعد جوية رئيسية وانضموا إلى الثوار.

إلا أن أسوأ خبر بالنسبة لي ولعدد من المراسلين الآخرين كذلك، كان مقتل أحد الأصدقاء القدامى وهو (جو أليكس موريس) Joe Alex Morris مراسل صحيفة لوس انجلوس تايمز الذي لقي مصرعه في القتال بين الحموراس والقوات الحكومية في قاعدة دوشان طبه الجوية الواقعة في ضواحي مدينة طهران. لقد بدأت المعركة في التاسع من فبراير/ شباط عندما قامت فرقة من فرق «الخالدين» التابعة للحرس الأمبراطوري

بمحاولة أخيرة يائسة من أجل انقاذ الملك والوطن، للهجوم على المتظاهرين الموالين للخميني الذين كانوا على وشك احكام سيطرتهم على القاعدة بعد عودة الخميني منتصراً في ١ فبراير/ شباط من فرنسا إلى طهران.

لقد كان (جو) وعدد آخر من رجال الصحافة يراقبون الأحداث من نافذة قريبة عندما انتصب (جو) واقفاً ليلقي ببصره على الساحة فاصابته رصاصة في صدره اردته قتيلاً في الحال تقريباً. كلفت صحيفة لوس انجلوس تايمز أحد زملاء (جو) وهو بيل توهي Bill Touhy بنقل جثمانه من طهران حيث كانت زوجته وأطفالها في مكان اقامتهم بأثينا. في نفس ذلك اليوم تمكن عدد من الطائرات العمودية الأمريكيةمن نوع (سي أ تش ـ ٤٧) من انقاذ سبعين مواطنا امريكياً ـ أغلبيتهم من المتعاقدين ورجال القوات الجويةالأمريكيةـ من قاعدة دوشان طبه ونقلهم إلى خارج ايران.

وصلنا الرياض حيث استقبلتنا الشمس المحرقة والحرس الملكي السعودي. إن حزني على صديقي (جو) كان قد طغى على احساسي بالوضع الأمريكي المتدهور في ايران والذي هرع السعوديون لاخبارنا بتفاصيله. فقد كانت القوات المعادية للنظام في طهران تعزز سيطرتها على المواقع العسكرية في ايران من حدود الإتحاد السوفييتي وحتى الخليج الفارسي... وكان السعوديون السنيون يخشون من سيطرة مشايخ الخميني الشيعة المتشددين، أكثر من خشيتهم من انقلاب شيوعي. لقد كانوا يدرسون أوضاعهم الدفاعية وأوضاع حلفائهم من دول الخليج الصغيرة كالبحرين التي تعتبر الميناء البحري الرئيسي للولايات المتحدة. لقد انتاب الجميع القلق حول ما وصفه السعوديون بفلول الخيمني.

في الحادي عشر من فبراير/ شباط انتقلت جميع مظاهر السلطة من حكومة باختيار المتهالكة إلى أنصار آية الله الخميني، وقد أخبرنا الأمير تركي رئيس الاستخبارات العسكرية السعودية أنهم التقطوا رسائل لاسلكية ايرانية تأمر الجنود بالرجوع إلى ثكناتهم. وعلمنا من تقرير لخدمة استعلامات الاذاعات الأجنبية (FBIS) التابعة لهيئة الاستخبارات الأمريكية(CIA) بمحطتها بالقرب من مدينة الظهران ـ مركز مجمع شركة النفط العربيةالأمريكية(ARAMCO) الضخم ـ أن قائد الجيش الايراني الجنرال قار اباغي قد أكد تأييده للسيد مهدي بازرجان الذي اختاره الخميني رئيساً للوزراء.

في مساء ذلك اليوم اختفى باختيار ليظهر بعد عدة أسابيع في باريس حيث يبدأ اقامته الدائمة في المنفى . . . وقد علمنا فيما بعد أنه قد اتخذ له مأوى في بيت بازرجان نفسه لعدة أيام قبل أن يغادر طهران سراً.

أثناء حفل الاستقبال الذي أقيم لوزير الخارجية براون ذلك المساء في الرياض وصلتنا أخبار عن اصطدامات بين مجموعات مسلحة غير نظامية في ايران مثل مجاهدي خلق وشرك فدائيي خلق اليسارية المتطرفة، وأن مجموعات مسلحة تقوم بمضايقة الأجانب. كما تم احتلال السفارة الأمريكية في طهران من قبل مجموعات غوغائية ترتدي بدل الجيش والقوات المسلحة الايرانية، من بينهم مائة وخمسون من أفراد العصابات المسلحة. كما أشارت مذكرة رسمية امريكية فيما بعد إلى أن تلك العصابات كانت تحمل بنادق صادرة عن الجيش الرسمي. وأفادت الأنباء أنه قد جرى قتل أحد موظفي السفارة الأمريكية الايرانيين غير المسلحين واختطاف أحد أفراد قوات المشاة الأمريكية واحتجاز جميع موظفي السفارة بمن فيهم السفير ويليام سوليفان William Sullivan كرهائن. ولم يكن بالامكان حل ذلك الاشكال دون إراقة دماء لولا حنكة السيد بازرجان والسيد ابراهيم يازدي الذي تلقى تعليمه في الولايات المتحدة والحاصل على جواز سفر امريكي.

إلا أن احتلال السفارةالأمريكية ذاك لمدة يوم واحد كان بمثابة تحضير للحدث الرئيسي فيما بعد وهو احتلالها واحتجاز ما يزيد عن خمسين دبلوماسياً امريكياً في الرابع من فبراير/ شباط ١٩٧٩ الذي كان بداية أزمة دولية استمرت لمدة ٤٤٤ يوماً وحتى تنصيب رونالد ريغان Ronald Reagan رئيساً للولايات المتحدة في ٢١ يناير/ كانون الثاني ١٩٨١ . لقد أفاض الكثيرون ـ بما في ذلك الرهائن أنفسهم ـ في وصف تفاصيل ما حدث ولا حاجة بنا إلى تكراره هنا. لقد حذر كبار المسؤولين في السفارة السلطات الأمريكية في واشنطن مراراً وتكراراً من مغبة السماح للشاه بتلقي العلاج في الولايات المتحدة حيث كان أنصار الخميني يعتبرون استقبال الشاه في أمريكا مجرد وسيلة لتوفير قاعدة له يحاول منها الرجوع إلى ايران. كما أن الحماية والاستعدادات التي كانت متوفرة بالسفارة كانت سيئة جداً، وعلى حد قول الكاتب الصحفي بيار سالنجر Pierre Sa-linger فان «تراخي إدارة كارتر وتخبطها كان كفيلاً بضمان بروز حكومة ثورية معادية عداء مستحكماً للولايات المتحدة» (١).

لقد أثار احتلال السفارة بطهران في فبراير/ شباط ١٩٧٩ قضية في غاية الخطورة لم تلق حتى الآن حقها من النقاش، ألا وهي مدى انكشاف الاتصالات السرية بما في ذلك الشفرات ومعدات التشفير.

ان كل من اطلع على الأجزاء الستين ونيف من سجلات ووثائق القسم السياسي للسفارة ومحطة الاستخبارات الأمريكية التي نشرها الايرانيون فيما بعد تحت عنوان «وثائق من وكر الجواسيس» والتي يرجع تاريخها إلى الستينات، لا يخفى عليه مدى الجهد المتناهي الذي بذل في تجميع أشلاء ونتف هذه المادة بعد أن مزقتها الآلات، وإعادة ترتيبها وتلصيقها وإعدادها للنسخ والتصوير. لم تكن آلة التمزيق البدائية تلك التي كانت تقص الورق على أشكال أشرطة مستقيمة لتعجز أنامل الفتيات والسيدات الايرانيات اللاتي تعودن على نسج البسط المعقدة، فتمكنوا من جمع الأوراق الممزقة ووصل بعضها ببعض.

لقد ضمت تلك الوثائق خليطاً دسماً من المعلومات بالنسبة للثوريين والناشرين المتلهفين. ففي دراسة حول أساليب الخداع ودورها في كسب الحروب والتغرير بالدول للتنازل على مصالحها، نشر الكاتب الأمريكي ادوارد جاي ابستاين Edward Jay Ipstein رسالة سرية من خمس صفحات مرسلة من المقر الرئيس لوكالة الاستخبارات الأمريكية CIA إلى محطاتها في جميع أنحاء العالم تسمح باستقبال الفارين من الكتلة السوفييتية دون التأكد من حقيقة خلفياتهم... وهذا بعكس سياسةامريكا في السابق (٢). رسالة كهذه تعتبر ذات قيمة عظيمة بالنسبة للايرانيين، ناهيك عن السوفييت وغيرهم.

إن حصول الثوريين الايرانيين على وثائق السفارة الأمريكية أعطاهم قدرة فائقة على ابتزاز المعتدلين في حكومة بازرجان ـ التي سقطت بعد بداية أزمة الرهائن بقليل ـ والقضاء عليهم. فقد كشفت المذكرات والتقارير عن وجود علاقات حميمة بين الأمريكان والمعتدلين وبعض العناصر الأخرى، كتلك التي سجلت محاولات الاستخبارات الأمريكية لتجنيد السيد أبو الحسن بني صدر الذي أصبح فيما بعد أول رئيس لايران الثورة ثم أحد المنفيين منها.

ففي صيف عام ١٩٧٩ أقام أحد عملاء الاستخبارات الأمريكية المحنكين فيرنون كاسين Vernon Cassin الذي سبق وأن عمل بعمان ودمشق، علاقة حميمة مع بني صدر

وذلك بالتنسيق مع مسؤول محطة الوكالة ثوماس أهيرن Thomas Eherne حيث انتحل الاسم غاي راذرفورد Guy Rutherford وادعى بأنه ممثل لشركة بولاية بنسلفانيا تسمى كارفر اسوشيتس. يقول بني صدر ـ الذي أعطي الاسم الرمزي SDLure/1 ـ أن كاسين عرض عليه «مبلغ خمسة آلاف دولار في الشهر» ولكنه رد عليه بقوله: «انصرف بلا رجعة» (٣). لقد كان لتلك الاتصالات التي كشفت عنها الوثائق دور أكيد في سقوط بني صدر فيما بعد حيث فر ونجى بحياته من ايران في عام ١٩٨٢. كما كشفت الوثائق أن وليام دوغرتي William Daughrty ومالكولم كيلب Malcolm Kelp ـ إضافة إلى ثوماس أهيرن ـ كانا كذلك عميلين من عملاء الاستخبارات المركزية مما أدى إلى معاملتهم بقسوة أكثر من غيرهم من الرهائن، حيث تم ضرب كيلب ووضعه في السجن الانفرادي لمدة ٣٧٤ يوماً (٤). لقد جرى اعتقال الكثير من الايرانيين الذين وردت اسماؤهم في الوثائق بأنهم اجتمعوا بأحد أفراد السفارة ولو بصورة اجتماعية، والتحقيق معهم وقتلهم في بعض الأحيان من قبل اللجان التي تكونت بعد عودة الخميني.

هناك اعتقاد بانكشاف مراسلات ومواد أكثر خطورة وضرراً، إذ يؤكد المسؤولون الأمريكان الذين أبدوا استعداداً لمناقشة هذا الأمر أنه قد تم حرق وإتلاف العديد من آلات الشيفرة والكمبيوتر والوثائق المتعلقة بها، إلا أن صوراً لغرفة الاتصالات تظهر فيها بعض الآلات الحساسة شوهدت معلقة على حوائط شوارع طهران بعد احتلال السفارة في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٩. وقد أخبرني عالم الرموز الشهير هيرمان كان Herman Kahn مؤلف كتاب Codebreakers في محادثة هاتفية في يناير/ كانون الثاني ١٩٨٠ أنه «إذا حصل الايرانيون على بعض المعدات فقد لا يكون ذلك خطيراً، ولكن إذا تمكنوا من الحصول على بطاقات مفاتيح رموز الكومبيوتر فان درجة الخطورةعالية جداً».

عندما كتبت في صحيفة كريستيان ساينس مونيتر في ٨ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٠ حول احتمالات وقوع هذه الكارثة الاستخباراتية استدعيت من قبل وزارة الدفاع الأمريكية ـ البنتاغون ـ حيث أفهمني أحد ضباط الجيش ـ بكل أدب وبشيء من الارتباك ـ أن وكالة الأمن القومي بفورت ميد بولاية ماريلاند والمسؤولة عن جميع الاشارات السرية والاتصالات قررت توبيخي على ذلك. لقد كان البنتاغون قلقاً بسبب خطورة طبيعة ما نشر في الصحيفة مما كنت أكتبه من طهران، وعن خلفيتي الشخصية. حيث أنني كنت مراسلاً في البنتاغون من قبل (٥). لقد كانت التعليمات

التي تلقاها ذلك الضابط على ما يبدو تحوي تحذيراً لي بعدم اثبات تلك الحقائق أو نفيها . . . ولا يزال الغموض يكتنف هذا الموضوع حتى اليوم .

في ابريل/ نيسان ١٩٨٠ حدثت كارثة أخرى على نفس القدرمن الخطورة أثناء المحاولة الفاشلة لانقاذ رهائن السفارة، حيث تخلت القوات الأمريكية عن بعض الوثائق الحساسة في احدى الطائرات العمودية التي اسقطت آنذاك وربما في طائرة سي ـ ١٣٠ كذلك التي تحطمت واحترقت لدى فشل العملية . ويؤكد قائد العملية العقيد تشارلز بيكويث Charles Bekwith أن قواته قد غادرت دون أن تحمل معداتها التي كانت داخل الطائرة، كما طالب بيكويث ورؤساؤه بما فيهم الجنرال جيمس فوغت James Vaught القائد العام للعملية بقصف جوي لتدمير جميع المعدات والأجهزة والوثائق الحساسة التي كانت تحملها الطائرات ولكن البيت الأبيض رفض ذلك لأن الرئيس كارتر كان يخشى أن يتسبب ذلك في ضرر ركاب حافلة مدنية ايرانية كانوا قد احتجزوا مؤقتاً بالقرب من مكان الحادث(٦) .

بعد ذلك الحادث وقعت السلطات الأمريكية في «حيص بيص» ـ على حد قول أحد المسؤولين ـ وبذلت جهود مستعجلة لاخراج عملاءامريكا من ايران، حيث كانت الوثائق التي أهملت تحمل بيانات حول طرق الهروب من ايران واسماء العناصرالايرانية التي ساعدت في الاعداد للعملية والوسائل والاجراءات والشيفرات التي كانت ستستخدم في الاتصال بهم، والتي تم تغييرها جميعاً فيما بعد (٧) .

كما خلف سقوط الشاه وما ترتب عليه من تطورات جرحاً آخر في العقلية الأمريكية ستليه جراح أكثر أثراً وأشد خطورة .

مصير الامكانيات الاستخباراتية الأمريكية

لقد جاءت نهاية الشاه بكارثة أكبر على المخططين للدفاع في واشنطن، ألا وهي فقدان الولايات المتحدة لامكانياتها لجمع المعلومات عن الإتحاد السوفييتي . فقد ظلت الأقمار الصناعية التجسسية الأمريكية تجمع معلومات فوتوغرافية مفصلة عن تجارب واطلاق الصواريخ السوفييتية منذ بداية العلاقة العسكرية بين الولايات المتحدة وايران في الخمسينات (٨) . وكانت السفارة الأمريكية في طهران تشكل حلقة هامة ـ مكملة لأقمار التجسس الفضائية ـ في شبكة النشاط الأمريكي في الخارج ومحطات وكالة

الاستخبارات المركزية التي تجمع المعلومات عن الإتحاد السوفييتي. كما أنه بعد حادثة اسقاط الطيار فرانسيس غاري باورز Francis Gary Powers قائد طائرة الاستكشاف يو - ٢ في الإتحاد السوفييتي عام ١٩٦٠ التي أقلعت من قاعدة بالقرب من مدينة بيشاور بشمال الباكستان، فقد تم تخفيض عدد رحلات الاستطلاع وازدادت أهمية الأقمار التجسسية خاصة بعد تطوير التقنية المستخدمة فيها.

لقد كانت تلك في أغلبها هي تقنية برنامج ديسكافيرار Discoverer الفضائي، حيث أصبح من الواضح لكي يكون برنامج الاستكشاف فعالاً، أنه لا بد من استخدام الأقمار الصناعية القادرة على التقاط وارسال صور بواسطة الراديو لمساحات واسعة في الإتحاد السوفييتي والصين بالذات. كما كان من الضروري توافر امكانيات على اليابسة وفوق سطح البحر لاستلام الصور من الأقمار الصناعية.

شرعت القوات الجوية الأمريكية ووكالة الاستخبارات المركزية في التعاون في هذا المجال منذ بداية الستينات وقبل رحلة أبولو الفضائية إلى القمر، وأعطيت الأقمار التجسسية الفوتوغرافية الاسم الرمزي كي - هوول Keyhole وخصصت لكل دفعة منها ارقام مميزة لا زالت تستخدم حتى عام ١٩٨٩ - ١٩٩٠. مع أواخر الثمانينات أصبحت تلك الأجهزة قادرة على البث الفوري للصور إلى الأرض مما اختصر العملية بشكل كبير. كما استخدمت صور الأقمار الصناعية في مجالات سلمية متعددة من مسح لموارد المياه والمعادن الأرضية إلى دراسة طبقات الجو العليا بينما أصبح الحصول على الأسرار يزداد صعوبة حيث أخذت وسائل خداع الأقمار الصناعية تتحول إلى فن قائم بذاته.

في عام ١٩٨٦ أطلقت فرنسا أول قمر صناعي تجاري المعروف باسم سبوت Spot من غويانا الفرنسية، وبعد فترة وجيزة أخذت فرنسا تعرض للبيع كل ما يمكن أن تحصل عليه من صور، مثل صور الحرب العراقية الايرانية أو مواقع على الخليج أثناء الحرب لكل من له قدرة على دفع الثمن الذي وصل في بعض الحالات إلى عشرة آلاف دولار للصورة الواحدة المكبرة بالكومبيوتر. لقد سبق وأن عرضت على ثلاث شبكات تلفزيونية أمريكية في عام ١٩٨٣ صورة تدّعي أنها تبين تحويل إسرائيل لمجرى نهر الليطاني في جنوب لبنان إلى أراضي إسرائيل الشمالية - وهو ما نادى به عدد من مؤسسي دولة إسرائيل منذ عام ١٩١٩ - إلا أن شيئاً من التدقيق بَين أن تلك الصورة كانت مزورة

ولا تحوي سوى لقطة لفيضانات نهر الليطاني بعد هبوط أمطار شتوية غزيرة (٩).

لقد كان الأمر مختلفاً في الستينات والسبعينات عندما كان الشاه والولايات المتحدة يتبادلان مجرد الاتفاقيات الشفوية حول تبادل المعلومات الاستخباراتية لتزويد الولايات المتحدة بما تحتاجه من دعم في مراقبتها لنشاطات الإتحاد السوفييتي. لقد كانت صور الأقمار الصناعية من أكبر الأسرار في العالم. إلا أنه منذ حادثة الطيار باورز عام ١٩٦٠ وحتى عام ١٩٧٣ كانت الولايات المتحدة تستخدم أقمار كلوس لوك Close Look للتصوير الجوي ونظام مراقبة الأقمار والصواريخ المعروف باسم ساموس Samos الذي أصبح فيما بعد يعرف باسم كي ـ هوول Keyhole المشار إليه سابقاً. كما أنه كان نظاماً مرناً وصالحاً للاستعمال المتعدد الأهداف. فعندما فشلت محاولة إطلاق قمر صناعي لرصد أول تجريب نووي للهند في صحراء راجيستان عام ١٩٧٤، حالف النجاح المحاولة التي بذلت في اليوم التالي وتمكنت امريكا من الحصول على صور فوتوغرافية لذلك الاختبار (١٠).

لقد حالف النجاح برنامج ساموس منذ البداية تقريباً. ففي ٣١ يناير/ كانون الثاني ١٩٦١ أُطلق قمر ساموس ـ ٢ حاملاً ١٥٠ كيلوجرام من الأجهزة التي كانت تبث صوراً لمواقع في الإتحاد السوفييتي إلى محطات استقبال في امريكا. . . وبذلك اكتشفت إدارة الرئيس جون كينيدي John Kennedy أن الولايات المتحدة قد بالغت في تقديراتها لامكانيات الإتحاد السوفييتي من الصواريخ العابرة للقارات وحجم تفوقه على الولايات المتحدة(١١).

عندئذ اتضحت لمن يخططون لسياسةامريكا التجسسية، الحاجة إلى جيل جديد من «العيون والآذان» العاملة فوق سطح الأرض ـ إضافة إلى تلك الموجودة في الفضاء ـ من أجل رصد ومراقبة تطورات صناعة الصواريخ السوفييتية والتي كان يتم معظمها بموقع يسميه السوفييت بايكونور كوزمودروم Baikunour Cosmodrome شمال شرق بحر الأورال بجمهورية كازاغيستان بمنطقة تسمى تيوراتام Tyuratam.

لقد ظلت تلك المنطقة مركزاً رئيسياً لاختبار وإطلاق السفن الفضائية السوفييتية على مدى جيل كامل من الصواريخ والمشاريع الفضائية، والموقع الرئيسي لتجارب إطلاق الصواريخ السوفييتية العابرة للقارات والصواريخ ذات المدى القصير والمتوسط.

وتقع نقطة مدى تلك الصواريخ في منطقة تسمى كامتشاتكا Kamchatka بشرق سيبيريا وفي المحيط الهادي على مسافة ستمائة ميل شمال شرق ميدواي وستمائة ميل جنوب شرق جزيرة وايك. ويقوم السوفييت في تيوراتام بتدريبات سرية لطواقم الصواريخ وبتجارب وأبحاث وعمليات تطوير خاصة بالصواريخ المزودة بالوقود السائل. وقد تم في عام ١٩٨٥ رصد ثماني عشرة منصة إطلاق على الأقل خاصة بصواريخ أس أس ـ ١٨ يعتقد أنها قادرة على إطلاق رؤوس حربية في حال نشوب حرب(١٢).

وفي عام ١٩٦٠ حددت الولايات المتحدة الموقع المثالي على سطح الأرض الذي يمكنها منه رصد مجمع تيوراتام وهو شمال ايران، وانطلقت بموافقة الشاه غير المكتوبة نحو إنشاء محطتين متقدمتين جداً للاستماع هناك، كانت احداهما في بيشهر على بحر القوقاز مقابل الساحل السوفييتي، والذي أطلقت عليه السلطات الأمريكية اسم «تراكسمان ـ ١ Tracksman - 1». لقد كانت تلك المحطة على ما يبدو ذات أهمية فائقة في رصد الاتصالات والتحركات الفضائية والجوية وغيرها من النشاطات السوفييتية كعمليات النفط في باكو بأذيربيجان. لقد شهدت هذه المنطقة صدامات عنيفة وانشقاقات سياسية متعددة في عهد البيروسترويكا والغلاسنوست التي أقامها الرئيس ميخائيل غورباتشوف في أواخر الثمانينات، كما ظلت منطقة باكو ـ مهد النشاطات الانفصالية ومنطلق الغزو السوفييتي لأذيربيجان الايرانية في عامي ١٩٢١ و ١٩٤٦ ـ منطقة ذات حساسية خاصة بالنسبة لحكام ايران سواء كانوا ملوكاً أو ثوريين أو غير ذلك.

إلا أن موقع «تراكسمان ـ ٢ Tracksman - 2» ـ الذي وصفه لي أحد المسؤولين في الدفاع الأمريكي بأنه لا يعوض ـ كان ذا أهمية أكبر حيث ضم محطة اعتراض في كابكان على بعد أربعين ميلاً شرقي مدينة مشهد الايرانية بامكانها رصد وتسجيل جميع تفاصيل إقلاع الصواريخ من بايكونور كوسمودروم بتيوراتام على بعد ٧٠٠ ميل نحو الشمال مما يعني وجود ممر مفتوح للاشارات الالكترونية بين الموقعين.

لقد تمكن الفنيون التابعون للقوات المسلحة الأمريكية ومنظمة ناسا NASA الفضائية العاملون بموقع تراكسمان ـ ٢ أن يسجلوا تفاصيل إقلاع الصواريخ في بداية مسارها وإيصال إشارات إلى الأقمار الصناعية لتشغيل آلات التسجيل والتصوير بها

ورصد الاشعاعات الالكترونية والتليمترية للصواريخ السوفييتية .

كما أصبح بامكان تراكسمان إنذار ملاحي طائرات الاستكشاف الالكتروني المنطلقة من قواعد أمريكية في أوكيناوا أو ألاسكا حول وجود صواريخ روسية في الفضاء (١٣). لم يكن يضاهي إمكانيات تراكسمان ـ ٢ الاستخباراتية سوى تلك الموجودة على متن القمر الصناعي رويلايت Rhoylite ـ الذي أقيم عام ١٩٧٣ ليحل محل قمر صناعي للتجسس عرف باسم بيج بيرد Big Bird ـ والتي بإمكانها رصد الارسال على الذبذبات العالية والعالية جداً (VHF)، وتحليل اتصالات الصواريخ السوفييتية التليمترية. لقد اعتقد السوفييت خطأ أنه لا يمكن التقاط الاتصالات التليمترية إلا بالقرب من مصدرها ولذلك لم يهتموا بتشفيرها، ولكن رويلايت كان بإمكانه مراقبة جميع الصواريخ السوفييتية وتحركاتها في تيوراتام ومواقع أخرى (١٤). إلا أن العيب الوحيد في القمر الصناعي رويلايت هو مداره الواقع على مسافة ٢٢٣٠٠ ميل عن تيوراتام ومايصله من الاشارات لا يزيد عن واحد من الألف من الاشارات التي يستوعبها تراكسمان ـ ٢ فوق سطح الأرض (١٥).

وفي العام ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ سلم الجاسوسان كريستوفر جون بويس Christopher John Boyce وأندرو دولتون لي Andrew Dalton Lee في المكسيك خرائط القمر الصناعي رويلايت وبطاقات شيفرة الكومبيوتر ووثائق أخرى خاصة به تابعة للشركة المصنعة له، تي آر دبليو كوربورايشن TRW Corporation، للسوفييت مما مكنهم من فتح جميع الشيفرات. كما سلما خطة سرية ممتازة تعرف باسم بيراميدر Pyramider تتعلق بشبكة اتصالات فورية عالمية مصغرة خاصة بوكالة الاستخبارات المركزية تستخدم فيها الأقمار الصناعية.

كما أنه بمجرد الشروع في استخدام أحدث قمر صناعي من طراز كيهوول ـ ١١ قام موظف الاستخبارات المركزية ويليام كامبايل William Kampile ببيع وثائقه للسوفييت في أثينا في عام ١٩٧٨ . كل ذلك مكن السوفييت من اخفاء العمليات الأرضية التي كانوا يحرصون على اخفائها، بل وارسال معلومات خاطئة ومضللة في بعض الأحيان للتشويش على الكاميرات وأجهزة الاستقبال المختلفة التي ترصد تحركاتهم من الفضاء.

لخص حاكم ولاية تكساس ويليام كليمينتس William Clements ونائب وزير

الدفاع الأمريكي في الفترة التي كان السوفييت يستلمون فيها أسرار الأقمار الصناعية الأمريكية، وأحد المتحمسين جداً لإقامة محطات استخبارية في ايران قضية تي آر دبليو بقوله: «أصبحت أجهزة استخباراتنا في حالة فوضى كاملة، حيث انكشفت أجهزة التجسس بالأقمار الصناعية التي كلفتنا مليارات الدولارات وذلك بسبب اجراءات وإدارة مُخترقة ومخرّمة كالجبن السويسري» (١٦).

بعد تلك الأحداث بقليل بدأ السوفييت في تشفير صواريخهم التليمترية مما زاد في إلحاح وكالة الاستخبارات المركزية ومكتب الاستكشاف القومي على استخدام أجهزة تراكسمان في شمال ايران للحصول على تلك الشيفرات. وعندما اندلعت الثورة الايرانية في خريف عام ١٩٧٨ أصابت أجهزة الاستخبارات الأمريكية نوبة من الفزع ـ كانت قد أخفيت عن وسائل الاعلام آنذاك ـ حول مصير مشروعي تراكسمان.

لقد تسببت المظاهرات والاضرابات ـ المعادية لأمريكا والغرب في أغلب الأحيان ـ التي شهدتها ايران في أواخر عام ١٩٧٨ في شل حركة الاقتصاد الايراني، وحاول رجال البحرية الايرانية ـ كما أخبرني صهر الشاه وسفير ايران في واشنطن آنذاك السيد آرديشير زاهدي ـ أن يديروا المنشآت النفطية ولكن دون جدوى. لقد أضرب ما يزيد عن مليون موظف حكومي، ونصب الشاه رئيس أركان جيشه الجنرال غولان رضا أزهري رئيساً لحكومة عسكرية. وعندما تقدم الشاه في ١٠ و ١١ ديسمبر/ كانون أول ـ في طفرة من طفرتاه المعتادة ـ ببعض التنازلات والاغراءات قام في طهران تجمعان كبيران ضد الشاه شارك في كل منهما ما يزيد عن مليون مواطن.

وأخيراً واجهت إدارة الرئيس كارتر الحقائق، فبدأت ـ على مضض ـ في تقليص نشاطات امريكا التجسسية في ايران. . . فأقفلت مشروع تراكسمان ـ ١، وبكل هدوء نقلت جميع العاملين فيه. وتتضارب التقارير حول مصير المعدات والأجهزة التي كانت فيه. وفي ٤ يناير/ كانون الثاني ١٩٧٩ أرسل الرئيس كارتر ومسؤولوه العسكريون الجنرال روبرت هويسار Robert Huyser إلى طهران لتعزيز سلطات وامكانيات السفير الأمريكي هناك وليام سوليفان. لقد كانت مهمة هويسار الرسمية الحفاظ على تماسك القوات العسكرية الايرانية وتشجيعها على دعم ما تبقى من نظام الشاه، ثم دراسة احتمال دعم انقلاب عسكري لحماية ايران من الشيوعية أو من الخميني أو منهما معاً.

استلم هويسار تعليمات إضافية من الجنرال دافيد جونز David Jones رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة الذي التقيته في حفلة عيد ميلاد ابن الشاه ولي العهد رضا بهلوي التي أقيمت في واشنطن في نوفمبر، والذي كان قد أنهى تدريبه مع القوات الجوية الأمريكية في كولورادو كطيار عسكري. لقد تحدث جونز عن انشغاله بمصير المعدات العسكرية الأمريكية الضخمة والحساسة التي ما تزال تتدفق على ايران.

كانت أوامر جونز لهويسار تؤكد على «اتخاذ اجراءات إضافية لحماية أحدث المعدات الحساسة التي شحنت لايران وخاصة طائرات أف ـ ١٤ وأسلحتها». في ذلك الوقت كان الشاه قد لعب ورقته الأخيرة بتسليم الحكومة في ٢٨ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٧٨ إلى شاهبور باختيار العضو المحنك بالجبهة الوطنية التي تمثل الفصيل الرئيسي في حركة المعارضة العلمانية في ايران. أعلنت الحكومة فوراً عن برنامج يهدف إلى تهدئة الاوضاع متضمناً إطلاق سراح المسجونين السياسيين ومعاقبة المرتكبين للمخالفات الانسانية والفساد وإيقاف تصدير النفط إلى إسرائيل وجنوب افريقيا ودعم الفلسطينيين. لقد كانت تلك ضمن مطالب آية الله الخميني من منفاه في فرنسا التي انتقل إليها من مدينة النجف بالعراق في شهر أكتوبر/ تشرين الأول.

في ٣ يناير/ كانون الثاني وقبل وصول الجنرال هويسار إلى طهران بيوم واحد وعد باختيار أن الشاه سيغادر ايران «لقضاء اجازة وفترة نقاهة» بعد ترسيم الحكومة الجديدة، وسيتولى الحكم في غيابه مجلس وصاية. وفي فرنسا حذر الخميني في ٦ يناير/ كانون الثاني أن الامتثال لسياسة الحكومة الجديدة هو «إطاعة للشيطان» وذلك رمز مزدوج لإبليس والولايات المتحدة التي يصفها الخميني بالشيطان الأكبر. تحدث هويسار مع كل من الجنرال أمير ربيعي قائد القوات الجوية الايرانية وقائد القوات البحرية الأميرال كمال حبيب الله اللذين وافقا على اتخاذ احتياطات خاصة لحماية المعدات الأمريكية العسكرية الحساسة وخاصة طائرات أف ـ ١٤ وأسلحتها بما في ذلك صاروخ فينيكس جو ـ جو الذي استلمته ايران قبل ذلك بقليل، بينما قام هويسار ـ مقابل ذلك ـ بالترتيب لتزويد القوات المسحلة الايرانية بمعدات خاصة بالجو البارد.

كانت محطة تراكسمان ـ ٢ طوال تلك الفترة تعمل في هدوء في شمال شرق ايران لجمع ما اعتبرته الولايات المتحدة محصول قيّم من المعلومات الاستخباراتية... مع

استمرار التعتيم على تفكيك محطة تراكسمان ـ ١ . (اتضح لبعض خبراء الاستخبارات فيما بعد أن الإتحاد السوفييتي كان «يطبخ» البث التيليمتري من تايوراتام بهدف تضليل الأمريكان).

ظل هناك خطر على الوجود الأمريكي في ايران الذي جرى تقليصه من ثمانية وخمسين ألف إلى عشرين ألف موظف بعد أن حذرت المخابرات الإسرائيلية الولايات المتحدة بأن الشاه قد لا يستمر في الحكم طويلاً (١٧). في ذلك الوقت أخذت مجموعات الهومافر تتحرك في اتجاه القواعد الرئيسية مثل خاتمي بالقرب من اصفهان وقاعدة شيراز الجوية، حيث مخازن طائرات ف ـ ١٤ وقطع غيارها والمعدات والأجهزة الحساسة بما فيها صواريخ فينيكس. . . بينما أمرت القوات الخاصة الموالية للشاه بالتحرك نحو القواعد ومحاولة حماية الطائرات والمعدات الثقيلة. إلا أنه عندما أخبر هويسار واشنطن بأنه يعتزم نقل المعدات إلى قواعد أكثر حصانة في الجنوب بالقرب من بندر عباس على الخليج الفارسي وشاهبيهار على المحيط الهندي اعترض الايرانيون المكالمة بالكومبيوتر واستخدموا التسجيل فيما بعد في محاكمات ٢ يونيو/ حزيران كدليل على «تدخل امريكا في ايران». لقد ظلت الطائرات ومعظم المعدات في ايران، واستخدم بعضها في مواجهة القوات السعودية ـ حليفةامريكا ـ أثناء الحرب العراقية الايرانية. . . كما كانت الأسلحة والمعدات الأمريكية الجوية والسفن الحربية والمعدات والأجهزة الأرضية هي العماد الرئيسي للقوات الايرانية طوال الحرب مع العراق.

لقد كان ما تنشره وسائل الاعلام السوفييتية طوال فترة يناير وفبراير ١٩٧٩ عن تحركات هويسار ونشاطاته أكثر دقة مما كان ينشر في وسائل الاعلام الغربية أو الايرانية. . . واكتشف هويسار وغيره فيما بعد وجود جاسوس سوفييتي يعمل بينهم وهو الجنرال حسين فاردوست التابع لمكتب القائد الأعلى. كانت مكافأة فاردوست تعيينه من قبل الخميني رئيساً لجهاز أمن الثورة القومي المعروف باسم «سازماني أمنيات واطلاعات ملة ايران»، إلا أنه اعتقل في ديسمبر ١٩٨٥ بتهمة التجسس للإتحاد السوفييتي واختفى إلى الأبد، كما هو مصير الكثير من الابناء الذين أكلتهم الثورة(١٨).

بقي من معدات تراكسمان ـ ٢ محطة كابكان Kapkan للاعتراض، بينما اندلعت في ٢٤ فبراير/ شباط أول أزمة رهائن اصطدم فيها الأمريكان بالثوار الايرانيين. ففي ٢١

فبراير/ شباط أعلن رئيس الأركان الايراني الجنرال ولي قارانه عبر اذاعة طهران أنه لن يسمح بوجود محطات تجسس أمريكية على الأراضي الايرانية. وصل ذلك الخبر بوضوح كامل إلى الموظفين الايرانيين العاملين بمحطة كابكان والذين لم يستلموا رواتبهم لعدة أشهر بسبب الاضطرابات في طهران، فقاموا بحركة تمرد احتجزوا فيها ٢٢ فنياً امريكياً كرهائن.

لقد كانت تلك هي البداية الحقيقية للحرب السرية بين امريكا والثورة الايرانية. فقد اتفق السفير الأمريكي سوليفان وبعض المسؤولين في حكومة بازرجان على بعثة سرية إلى مشروع كابكان انطلقت يوم ٢٨ فبراير/ شباط في طائرة سي ـ ١٣٠ يقودها طيار ايراني وتضم الملحق العسكري الأمريكي في طهران العقيد تي. اي. شايفر T.E.Shaefer وأحد مساعديه الرائد أتش. أف. جونسون H.F.Johnson واثنين من المدنيين الايرانيين ومبلغ ٣٠ مليون ريال ايراني نقداً، أي ما يعادل ٢٠٠ ألف دولار.

غادرت البعثة طهران في الصباح الباكر إلى كابكان حيث سددت للموظفين الايرانيين مرتباتهم المستحقة واستلمت الفنيين الامريكان الرهائن. وبذلك آلت مسؤولية تراكسمان ـ ١ وتراكسمان ـ ٢ إلى القوات العسكرية الايرانية، وفقدت الولايات المتحدة الامكانيات المتوفرة فيهما إلى الأبد.

ثمن التجسس على السوفييت

يعتبر الاستاذ جيمس بيل James A. Bill أحد المراقبين المخضرمين لايران الذين تنبأوا بالكارثة الأمريكية في ايران قبل زمن طويل من حدوثها. فقد أشار في كتابه بعنوان «الصقر والأسد» The Eagle and The Lion إلى أن سبب ضعف وكالة المخابرات الأمريكية في ايران يرجع إلى كونها قد وظفت معظم امكانياتها التجسسية هناك إلى التجسس على السوفييت، وليس لفهم ودراسة الأوضاع داخل ايران. هذا، برغم «سمعة الاستخبارات الأمريكية الضخمة بين الايرانيين الذين يعتبرونها قوة هائلة للمعلومات توجه جميع الشؤون الايرانية بكل ذكاء وسرية وتتحكم في كل خيوط الدمية البهلوية»(١٩).

ويشير بيل في كتابه إلى أن «مصدراً مطلعاً في الإستخبارات الأمريكية» كتب إليه يقول ان منشآت مشروع تراكسمان كانت «مهمة للغاية» على مدى عقدين من الزمن في

تمكين الولايات المتحدة من متابعة وتقييم تجارب الإتحاد السوفييتي الخاصة ببرامج الصواريخ القاذفة العابرة للقارات. وبينما تضررت امريكا من فقدان مواقع أخرى في تركيا والباكستان إلا أن فقدان المواقع الايرانية كان فاجعة. فقد أنشأت تلك المواقع بناء على اتفاقية غير مكتوبة بين الشاه ووكالة الاستخبارات المركزية، وظل المسؤولون في الوكالة يتوجسون من إقدام الشاه على قفلها إذا ما أستشارته السلطات الأمريكية يوماً ما بالحديث عن حقوق الانسان في ايران أو ما شابه ذلك (٢٠).

لقد اضطرت السياسة الأمريكية إلى الانحناء إلى الخلف لتفادي إزعاج الشاه. كما تفادت حتى مجرد الاتصال بعناصر المعارضة الايرانية الذين كان بامكانهم إعانةامريكا على فهم تيارات المعارضة الايرانية ونفسيتها وطريقة تفكيرها، الأمر الذي كان غائباً عن جميع المسؤولين الامريكان الذين حاولوا التعامل بصورة جادة مع ايران.

برزت آثار ذلك داخل تركيا الجارة الغربية لايران (والحليف السابق للشاه) وعضو منظمة حلف شمال الأطلسي. تفيد دراسة أعدها ويليام آركن William Arkin وعدد من مستشاري الدفاع الأمريكي في عام ١٩٨٥ أن امريكا كانت تملك أقل من خمسمائة سلاح نووي في تركيا. أما بالنسبة للسوفييت فانهم يشعرون بقلق بسبب القواعد الجوية النووية الأمريكية الخمسة الموجودة في تركيا... حيث تعتبر قاعدة انجيرلي بتركيا القاعدة الرئيسية لتزويد عمليات الشرق الأوسط كلها. لقد سمحت الحكومة التركية للولايات المتحدة باستخدام تلك القاعدة للتدخل جوياً في الحرب الأهلية التي قامت بين الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٧٠، ولكنها لم تسمح بذلك لدعم قوات المشاة البحرية الأمريكية وغيرها من القوات القائمة على حراسة المنشآت العسكرية في ايران الثورة. وفي أثناء استعدادات امريكا وحلفائها لعملية درع الصحراء عام ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ ثم عملية عاصفة الصحراء في العدوان على العراق، نقلت طائرات أف ـ ١١١ المقاتلة القاذفة الأمريكية إلى قاعدة أنجيرلي، وقام الرئيس التركي درغوت أوزال بقطع أنبوب النفط العراقي المار بتركيا واستدعى جنود الاحتياط الأتراك وتعهد للولايات المتحدة بأن بلده سوف تلعب دوراً دفاعياً على الأقل في عملية عاصفة الصحراء، وذلك على أمل أن تحصل تركيا على قبولها عضواً في منظمة السوق الأوروبية المشتركة وتضمن استمرار عضويتها في منظمة حلف شمال الأطلسي.

توجد في تركيا عدة مواقع تجسسية تابعة للولايات المتحدة ولمنظمة حلف شمال الأطلسي، ولعل أهمها الكائن بمدينة برينجيلك في شرقي تركيا والتي أقفلت مؤقتاً في عام ١٩٧٠ بقرار الكونجرس حظر بيع الأسلحة الأمريكية لتركيا. وعندما فقدت تراكسمان ـ ١ وتراكسمان ـ ٢، كان السؤال هو هل بالامكان تجهيز بيرينجيلك ـ برغم وجود جبال تحجب الرؤية بينها وبين تيوراتام ـ لدعم الرادارات الكبيرة التي كانت تشكل حلقة حيوية في شبكة المراقبة لتجارب الصواريخ السوفييتية؟ كما كانت بيرينجيلك محطة أرضية هامة لأقمار صناعية من أنواع ودول مختلفة.

لقد كانت إدارة كارتر المتهمة من قبل الجمهوريين بـ «فقد» ايران الشاه، مصممة على ألا تفقد تركيا كذلك التي كانت العلاقات معها في توتر شديد بسبب قرار الكونجرس بحظر بيع الأسلحة في عام ١٩٧٤ والذي رفع في عام ١٩٧٨. وفي مايو/ أيار ١٩٧٩ كان موضوع استمرار العمليات في بيرينجيلك وغيرها من المنشآت مرتبطاً بمطالب جديدة لتركيا من المساعدات الأمريكية.

في ٢٢ مايو/ أيار تنفس مساعدو كارتر الصعداء عندما وافق مجلس الشيوخ على منحة عسكرية لتركيا قيمتها ٥٠ مليون دولار، وقد سبق ذلك الحاح رئيس الوزراء التركي بولينت اجيفيت على وزير الخارجية الأمريكية بالوكالة السيد وارين كريستوفر Warren Christopher أثناء زيارة له لتركيا بالمزيد من المساعدات وبتعهد وثيق من الولايات المتحدة بتغطية حاجات تركيا من السلاح.

ومن القضايا الحساسة الأخرى التي ترتبت على فقدان الولايات المتحدة لمواقعها في ايران، تلك المتعلقة بطائرات يو ـ ٢ وطائرات أس آر. ٧١ بلاك بيرد BlackBird الحديثة والسريعة التي تحلق على ارتفاعات شاهقة والتي كانت تطير في اجواء الإتحاد السوفييتي مقلعة من قواعد تركية.

مع قرب موعد توقيع اتفاقيات سالت ـ ٢ للحد من الأسلحة، اتجهت الأنظار بسبب قضية التحقق من الأسلحة نحو المعلومات المتوفرة عن طريق الأقمار الصناعية والرحلات الاستطلاعية. وفي بداية عام ١٩٧٩ صرح الأتراك باستعدادهم للسماح بالطيران فوق أراضيهم في حال موافقة الإتحاد السوفييتي فقط، وأكد ذلك وزير الخارجية التركي في ١٤ مايو/ أيار.

وفي اليوم التالي صرح اجيفيت أنه «على استعداد للمساعدة في انجاح سالت ـ ٢» ولكنه لا يقبل برحلات جوية قد تهدد أمن تركيا دون موافقة الإتحاد السوفييتي. وسارع المعلقون الأتراك بالاشارة إلى أن طائرة غاري باورز المشؤومة في عام ١٩٦٠ التي أقلعت من الباكستان وتسببت في توتر العلاقات التركية السوفييتية كانت رابضة أصلاً في تركيا.

وصرح سليمان ديميريل المعارض السياسي اليميني لأجيفيت أن رحلات طائرات يو ـ ٢ الأمريكية ستضع «تركيا في فوهة المدفع»، بينما أوضح زائر سوفييتي مسؤول أن الإتحاد السوفييتي «سيقابل رفض الرحلات قبولاً إيجابياً»، ولكنه تفادى المطالبة بذلك بصورة مباشرة.

وأخيراً استطاعت الولايات المتحدة الحصول على محطتين للرصد في مقاطعة سنجيانغ المستقلة بغرب الصين نتيجة علاقاتها مع الصين الشعبية التي أخذت في التحسن مع مجيء الرئيس ريتشارد نيكسون، والرحلات السرية التي قام بها هنري كيسينجر في منتصف السبعينات. وهذه قصة طويلة لا يمكن سردها هنا، حيث لا يزال الكثير من تفاصيلها سرياً. إلا أنه بالامكان الإشارة إلى نقطة واحدة هي أن الرئيس بوش كان متردداً جداً في إثارة المسؤولين في حكومة الصين الشيوعية، الذين تعرف على الكثيرين منهم أثناء وجوده سفيراً في الصين في السبعينات وأثناء إدارته لوكالة الاستخبارات المركزية. لقد أثار ذلك الموقف احتجاج العديد من المناصرين لحقوق الانسان الذين أحزنهم موت الآلاف من الطلبة الصينيين في أحداث ميدان تيانانمان في بيكين في مايو/ أيار ويونيو/ حزيران ١٩٧٩. لقد كانت لدى بوش أسباب عديدة ولكن بالتأكيد الحرص على المحافظة على محطتي الرصد السريتين لمراقبة تيوراتام وغيرها من المراكز السوفييتية بصورة لا تقل جودة عما كان متوفراً في المحطات الايرانية.

سياسة الولايات المتحدة الضالة

شرح لي مرة الدكتور وليام بولك **William Polk** مستشار الشرق الأوسط، لكل من الرئيس كينيدي وجونسون، آثار أجهزة الاستخبارات الالكترونية على السياسة الخارجية الأمريكية عموماً، فقال أن المعضلة الرئيسية تكمن في أن عدداً قليلاً جداً من أعضاء أي إدارة، لديه القدرة على الوصول إلى نتائج تلك الأجهزة. وعليه فان كل مسؤول يختار الاتجاه الخاص به في غياب تلك المعلومات وتكون النتيجة سياسات متعددة ومختلفة.

واستطرد يقول: «خذ مثلاً سياستنا لمساعدة تركيا وايران والباكستان التي خصصنا لها مئات الملايين من الدولارات، والتي كُـلِّـفَ المسؤولون في وكالة التنمية العالمية بوضع البرامج الخاصة بها. . . «تدرس الوكالة مثلاً مشاريع النقل، وتحدد أن الباكستان تحتاج إلى خمسين مليون دولار من المساعدات الأمريكية ويلحق ذلك ببرامج أخرى لاستكمال البرنامج كله. إلا أن القدر الأكبر من تلك المساعدات ـ بكل صراحة ـ هو لتغطية تكاليف امكانيات تجسسية في الوقت الذي لم يكن أحد من موظفي وكالة التنمية في إدارة ايزانهاور وكينيدي مصرح له أمنياً بالاطلاع على معلومات من ذلك النوع أو على رحلات طائرات يو ـ ٢. ولذا فعندما يحدد مسؤول في الوكالة المبالغ المطلوبة لبرامج الاعانات يكافأ بالتربيت على كتفه ويقال له سوف يخصص للبرنامج أضعاف ذلك المبلغ، ولكنه لن يفهم السبب حتى يقرأ عنه في الصحف أو يشاهده على شاشة التلفزيون».

في أعقاب حادثة غاري باورز وطائرة يو ـ ٢ عندما كان السفراء الأمريكان يرغبون في تنفيذ سياسة جديدة تجاه حكام مثل شاه ايران، كان أولئك الحكام يتصلون بمعارفهم المستقلين في الاستخبارات الأمريكية مهددين بايقاف أو عرقلة الرحلات الجوية الأمريكية أو محطات التنصت. ويقول الدكتور بولك إن مدير الاستخبارات المركزية يتصل بعد ذلك بالرئيس مباشرة ليحذره:

«يا سيادة الرئيس: هذه كارثة قومية، ولا يمكنك تغيير سياستك تجاه هذه الدولة أو تلك، وإذا غيرتها فسوف نخسر معلومات في غاية الأهمية والحساسية لمستقبل هذا البلد. . . وعندها فلن نعرف عما إذا كان السوفييت يفجرون أسلحة نووية أو يطلقون صواريخ في الجو، ولذا فليس بامكاننا استثارة هذه الدول مهما كانت الأسباب. . .».

وأضاف بولك بأنه كان من السهل تفادي ورطة ايران إذ أنه بغض النظر عن مشروع محطتي تراكسمان الذي لم يعلم به سوى عدد قليل من المسؤولين في الحكومة، كانت نشاطات امريكا الاستخبارية في ايران أقل بكثير منها في تركيا أو الباكستان «إلا أن الجميع كان يشعر بأن الشاه قد وضعنا في موقف كنا فيه مكتوفي الأيادي».

وتلك هي الحقيقة. فالواضح أن الحرب الباردة ضد الإتحاد السوفييتي لم يكن ينبغي أن تكون المحور الوحيد لسياسةامريكا الخارجية منذ إدارة كنيدي (١٩٦٠ الى

١٩٦٣) وحتى إدارتي ريغان وبوش (١٩٨٠) لقد كان أولى بالولايات المتحدة أن تركز على قضايا الشرق الأوسط، بدلاً من الاقتصار على وجود ضخم في بلد مثل ايران لمجرد جمع المعلومات والتجسس فقط. ويعتقد الدكتور بولك أنه إذا كان لا بد من وجود امريكي ضخم في بلد كايران، فليكن الهدف ليس فقط رصد تحركات الإتحاد السوفييتي وانما التدليل للايرانيين أيضاً بأن الولايات المتحدة تهتم بأسلوب حياتهم والطريقة التي يحكمون بها، وأنها تحترم طموحاتهم من أجل حياة أفضل.

إلا أن الولايات المتحدة لم تقم بشيء من ذلك، وإنما تركت الصراع مع السوفييت يحدد أولوياتها، مما استطاع أن يستغله الأصدقاء والأعداء على حد سواء...

وموضوعنا التالي هو كيف تمكنت إسرائيل ـ حليف الولايات المتحدة الأول ـ من توظيف ذلك الموقف واستغلاله.

الفصل الثالث

من بابل إلى موشي ديان

سفارة تحت الحصار

لقد كان الرابع من نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٩ هو اليوم الذي اندلع فيه الصراع بين أميركا وايران فيما يتعلق بالاعتبارات الانسانية أو الاستراتيجية . . . وهو أيضاً اليوم الذي أخذ فيه ثقل تلك العلاقة القديمة الغامضة بين إسرائيل وايران يزداد بشكل كبير في سياسة أميركا الخارجية .

غادرت الصحفية كريستين باول Christine Powell شقتها الواقعة في أحد الشوارع الهادئة بوسط مدينة طهران في ساعة مبكرة من صباح ذلك الأحد. كان الجو ملبداً بغيوم خفيفة ومعتدلاً بالنسبة للمعتاد في شهر نوفمبر، وكانت الثلوج قد غطت سفح جبل البورز المطل على مدينة طهران. كانت أول محطة لكريستين في جولتها ذلك اليوم تجمعاً طلابياً صاخباً في جامعة طهران ارتفعت فيه أصوات الخطباء واحداً تلو الآخر تطالب بالقبض على الشاه المريض وارجاعه إلى ايران. فقد سمح الرئيس كارتر ـ استجابة لالحاح بعض أصدقاء الشاه المرموقين من أمثال نيلسون روكفيلير Nelson Rockefeller وهنري كيسينجر Henry Kissinger ـ للشاه بدخول الولايات المتحدة لتلقي العلاج ضد السرطان. وفي خضم صراخ المتظاهرين وشعاراتهم المكررة، دب الضجر إلى نفس كريستين فغادرت الحرم الجامعي .

التقت كريستين في الطريق بزميل هولندي اصطحبها عبر شوارع طهران المكتظة بالسيارات ـ والمطر يتساقط ـ إلى مطعم يديره مواطن كوري وزوجته حيث يقدم الأكل الشرقي الجيد والويسكي والفودكا ـ وهذا الأهم ـ المهربين. لقد اكتسب ذلك المطعم شهرة واسعة ـ خاصة بين الأجانب ـ منذ بداية تطبيق فتاوي الخميني الصارمة بمنع تداول الخمر علناً .

كانت الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً. وقبل تناول شيء من الطعام اتجهت كريستين إلى التلفون للاتصال بمكتب وكالة أنباء رويتر لتلقي آخر الأخبار، فرد عليها رئيس المكتب ـ وكان صوته يوحي بالارهاق والعناء ـ يقول: «هناك أحداث تجري في

السفارة الأمريكية. . . هل بامكانك التأكد منها؟». نظرت كريستين بتلهف إلى صحون الرز الساخن وغلاية الشاي المغرية ولكنها قررت تأجيل الأكل والانصراف نحو السفارة.

لقد كان كل شيء يبدو هادئاً حول السفارة الواقعة على بعد عمارتين شمال شارع تخت جامشيد، وقد اختفت المظاهرات الصاخبة وتوقف حرق الأعلام الأمريكية التي شوهدت قبل يومين، وكانت تحتج على وجود الشاه بإحدى مستشفيات مدينة نيويورك. لقد كانت البوابة مقفلة بالسلاسل بينما تظهر مجموعات من الايرانيين في موقف السيارات داخل السفارة. لقد كان هؤلاء ـ وأغلبيتهم من الشباب والفتيات - ممن تبقى من العناصر التي احتلت السفارة لمدة يوم واحد في فبراير/ شباط الماضي ثم ظلوا يحرسون المبنى بصورة غير رسمية. أما اليوم فلا يوجد حراس على المدخل ولم يظهر أحد من حراس السفارة من مشاة البحرية الأمريكان.

نادت كريستين لأحد الشباب وطلبت منه أن يسمح لها بالدخول لأنها على موعد مع باري روزن Barry Rosen الملحق الصحفي وأحد موظفي السفارة اليهود. رفض الطلب ونصحت كريستين بالرجوع فيما بعد. «وسيوضح لك كل شيء». عادت إلى ذاكرة كريستين حادثة الاعتداء على السفارة في فبراير/ شباط الماضي، فهرعت إلى أقرب تلفون لإيصال الخبر.

في السابعة مساء كان مجموعة من الصحفيين الأجانب وثلاثة أضعاف عددهم من المحليين قد تجمعت أمام مبنى السفارة في انتظار السماح لهم بالدخول، جاهلين ما كانت تتناقله الأنباء في جميع أرجاء العالم. لقد تم احتلال السفارة واحتجاز ما يزيد عن خمسين دبلوماسياً أمريكياً سجناء داخلها. بعد ذلك بقليل عرضت أولى اللقطات التلفزيونية للمشاهدين المذهولين في الغرب ويظهر فيها أحد الدبلوماسيين وقد ربطت عيناه وهو يتلمس طريقه بين معتقليه الذين ارتفعت هتافاتهم عالية.

بعد أن تأكد المسيطرون على السفارة من هوية كريستين وبقية زملائها من الصحفيين، سمحوا لهم بدخول السفارة ذلك المساء وقدموا لهم تقريراً مختصراً باللغة الانجليزية عن كيفية إتمام عملية احتلال مجمع السفارة دون مقاومة تذكر، فيما عدا قنابل الغاز المسيل للدموع القليلة التي ألقاها بعض عناصر قوات المشاة البحرية. كما

أخبروهم أن المحتجزين في حالة جيدة ويتناولون طعام العشاء وبامكانهم النوم على الأرض إن رغبوا. وقد أوضحت الهتافات خارج المبنى أنه إذا لم يتم رجوع الشاه إلى ايران فوراً فان الأمريكان سيظلون محتجزين داخل سفارتهم.

أعداء الله

وبينما كانت الايام تمتد إلى أسابيع وشهور كان المواطنون الأمريكان وأسرهم والأجانب الآخرون يتدفقون إلى خارج ايران خوفاً على أرواحهم. كما استبدلت تلك الوجوه الشابة المترددة التي عرف أصحابها باسم «الطلبة السائرين على خط الامام» (الخميني) بوجوه ايرانية أكثر خشونة ممن برز بعض أصحابها فيما بعد كعناصر متشددة خلال حكم الخميني ومن بعده. لقد كان هؤلاء أكثر فصاحة في ادانتهم للولايات المتحدة، وكانوا يعززون ادانتهم بالشعارات والجمل اللاذعة ضد «إسرائيل والشلة الصهيونية عملاء أمريكا»... فأحرقوا الأعلام الإسرائيلية والأمريكية وعلقوا على أعواد المشانق صوراً ساخرة للشاه الغائب والرئيس كارتر ورئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن [(١)].

كان أحد الايرانيين الذي أزعجتهم الأحداث هو سايمون فارزيا ـ عضو الجالية اليهودية العريقة البالغ عددها خمسة وثمانين ألف نسمة ـ الذي كان وحتى اندلاع الثورة من المرفهين في ايران. لقد عرفته رجلاً دمثاً أحمر البشرة قد غطى الشيب شعره الفضي، معروف بثيابه الأنيقة ومظهره الذي يذكرك بشخصية المعلم الفرنسي فيما قبل الحرب العالمية الثانية، وكان يعامل من قبل الدبلوماسيين والصحفيين الأجانب باحترام ومودة.

لقد كان لانزعاج فارزيا أسباب وجيهة. فهو رئيس تحرير صحيفة طهران الصادرة بالفرنسية وهي الأخت الصغرى لصحيفة طهران جورنال الأكثر انتشاراً والتي تصدر بالانجليزية عن دار نشر الصحف الفارسية الكبيرة: اطلاعات.

لقد كان فارزيا كنزاً لا ينفد من القصص والأفكار المفيدة والمعلومات، وكان يقوم بأعمال ترجمة للسفارات في طهران، ومهما كان العمل الذي يؤديه متواضعاً فان فارزيا كان يؤديه بكل اعتزاز وبروح لطيفة مرحة تذكرك باستمرار أنه ابن لأحد السفراء الايرانيين اللامعين.

وجاء حكم الخميني فأعدم فارزيا شنقاً في صيف عام ١٩٧٩ مع مجموعة أخرى من «أعداء الوطن» من اليهود والبهائيين.

كما استهدفت الحملات ضد «أعداء الله» رجل الأعمال اليهودي المشهور حبيب الغنيان المعروف بامبراطور البلاستيك في ايران لتخصصه في تجارته والذي أعدم رمياً بالرصاص في ٩ مايو/ أيار ١٩٧٩ ـ أي بعد أيام قليلة من اعدام فارزيا ـ بتهمة التجسس وجمع الأموال لصالح إسرائيل. في نفس تلك الفترة ألقي القبض على اليهودي الأمريكي دافيد ربحان الذي كان يعمل طياراً خاصاً لجيمي كارتر أثناء حكمه لولاية جورجيا، والذي كان مكباً بالتعاون مع شريك ايراني على انشاء مصنع لألعاب الأطفال في ايران. اتهم ربحان بالاحتيال وأودع السجن دون محاكمة وبالرغم من تمكن محاميه من اخراجه فقد جرى اعتقاله مرة أخرى في أواخر عام ١٩٧٩ أو أوائل عام ١٩٨٠، وفي نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨٩ وصف أحد مرافقيه في السجن حالته قائلاً إنه «لا يزال رهن السجن الانفرادي وقد أصابه الشحوب والمرض» (٢). وفي عام ١٩٩٠ بعد تحسن بسيط في معاملته أطلق سراحه وعاد إلى الولايات المتحدة، ويعتقد الكثير من الأجانب في طهران أن أصل ربحان اليهودي كان ـ إلى حد كبير ـ هو سبب اعتقاله لكل تلك المدة.

لم يتحرك رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن للمساعدة في قضية ربحان أو الغنيان أو أي من اليهود الآخرين في ايران الذين فر منهم خمسة عشر ألفاً خلال الشهور الأولى للثورة. لقد أعلن بيغن بعدإعدام الغنيان أنه «كان صهيونياً مخلصاً وقدم مساعدات لإسرائيل» وأدان الاعدامات «التي يقوم بها هذا النظام السفاح». وكانت ادانة الخارجية الأمريكية للخميني أخف من ذلك بكثير حيث أشار متحدث رسمي بأن أمريكا قلقة لكون الغنيان «كان ينتمي إلى أقلية».

لم تكن ادانة فارزيا بسبب عمالته لإسرائيل بقدر ما كانت بسبب خدمته لأمريكا وقد اعترف هو بذلك علناً. فقد عثر «الطلبة» الذين احتلوا السفارة في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٩ على مستندات تثبت أن السفارة دفعت لفارزيا مبالغ مالية مقابل ترجمته للقوانين والفتاوى الايرانية الجديدة من الفارسية إلى الانجليزية... وكان ذلك كافياً لاعتباره عميلاً للاستخبارات المركزية وإعدامه.

لم يعدم من اليهود سوى عدد قليل نسبياً مقارنة بمن اعدموا من ا والشيوعيين والمنتمين لحركة المجاهدين اليسارية وغيرهم من أتباع المجموعات ا والطائفية الأخرى الكثيرة المناوئة لطغيان الخميني.

آية الله يتوعد

لقد ظلت علاقة حكام ايران بيهود الشرق الأوسط علاقة غامضة أدت بشاه ايران إلى إقامة علاقة حميمة سرية مع إسرائيل... واليوم فإن تلك العلاقة تساعدنا على فهم السبب الذي جعل إسرائيل واليهود الايرانيين عاملاً أساسياً في لعبة الحرب السرية بين ايران والولايات المتحدة. لقد قام اليهود في البلدين بدور معلن ودور آخر خفي يختلف عن الأول تمام الاختلاف.

إن السبب الرئيسي لاختلاف «جدول أعمال» إسرائيل والولايات المتحدة في ايران ـ على حد تعبير وزير الدفاع الأمريكي السابق كاسبر واينبيرجر ـ كان واضحاً في ردة الفعل لمقتل شخصيات من أمثال سايمون فارزيا. بكل بساطة كانت إسرائيل مصممة على ترحيل أكبر عدد ممكن من الخمسة وستين ألف يهودي الباقين، من ايران إلى إسرائيل مهما كان الثمن. كان ذلك يعني في بعض الحالات فديتهم ولكن ليس بالأموال بل بصفقات الأسلحة السرية التي بدأت تبرم بين ايران وإسرائيل منذ شهر سبتمبر/ ايلول ١٩٨٠، بينما كان أعضاء السفارة الأمريكية لا يزالون رهن الحجز في طهران. كان ذلك من شأنه أن يجر بالولايات المتحدة إلى مستنقع صفقات السلاح مقابل الرهائن مع ايران طوال فترة إدارتي الرئيس ريغان بين عامي ١٩٨١ و ١٩٨٨.

أعلنت إسرائيل بعد اعدامات مايو ١٩٧٩ عن رغبتها في انقاذ اليهود الايرانيين الذين عاشوا في سلام نسبي مع الايرانيين منذ عهد الأباطرة الفارسيين القدامى، ولكن الذين سعى لترويج ذلك الخبر هو الحكومة الأمريكية وليس إسرائيل. هذا الترويج الأمريكي هو الذي غذى بدون أدنى شك الامتعاض الذي دفع بحكم الخميني الثيوقراطي إلى تحدي الولايات المتحدة.

أوردت وسائل الاعلام الأمريكية في ١٢ مايو/ أيار ١٩٧٩ ـ أي بعد ثلاثة أيام من اعدام الغنيان ـ تقارير تفيد أن أريح دلزين Aryeh Dulzin مدير الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية قد حذر ايران من الاضرار بالخمسة وستين ألف يهودي المتبقين في

ايران، وأن إسرائيل على استعداد «للتحرك» من أجل حمايتهم. كما أفاد أحد مساعدي دلزين أن إسرائيل قد تقدم على القيام بعمليات «تقليدية وغير تقليدية» لمساعدة اليهود الايرانيين على الهجرة.

بعد ذلك بثلاثة أيام استقبل آية الله الخميني ـ على مضض، ولعله استجابة لاقتراح بعض مستشاريه من خريجي أمريكا مثل ابراهيم يازدي ـ وفداً يمثل اليهود الايرانيين ليؤكد لهم أنهم سيعاملون بانصاف، وأذاع راديو طهران أن الوفد اليهودي عبرعن أسفه على «مؤامرات الصهيونية» (٣).

لاحظ الصحفي بيار سالينجر الذي كان يتابع قضية الرهائن في طهران أن شهرة صديقه غيرهارت ريتزيل Gerhardt Ritzel سفير ألمانيا الغربية ـ الذي طالما تبادل معه الرأي والمشورة ـ لدى النظام الجديد، ترجع إلى أكثر من مجرد العلاقة الحسنة. فقد أخبر ريتزيل سالينجر أنه يتمتع «بشهرة المانية غير منطقية» في ايران حيث أن حكام ايران الجدد معجبون بعملين من أعمال حكومة أدولف هتلر، هما حربه ضد بريطانيا التي خففت من تحكم الانجليز في ايران ثم سياسة «الحل الأخير» التي ذبح هتلر بها اليهود(٤).

لقد عبر آية الله الخميني عن معاداته للسامية منذ وقت مبكر. ففي عام ١٩٦٨ عندما أشعل أحد السواح الاستراليين النار في المسجد الأقصى في القدس المحتلة بعد أقل من سنة من احتلالها من قبل إسرائيل، دعا الخميني من منفاه في مدينة النجف بالعراق المسلمين إلى عدم ترميم المسجد كي يظل شاهداً على «تدنيس إسرائيل» للصخرة المقدسة. إلا أن شاه ايران انتهج سياسة أمثاله من الحكام المسلمين، فجمع الأموال من أجل ترميم المسجد. ولكن الخميني رفض ذلك في منشور طبع فيما بعد كفصل في كتابه «الحكومة الاسلامية» متهماً الشاه بأنه «سوف يملأ جيوبه بالأموال ويزيد من ثروته ويمحو كل آثار الجريمة الصهيونية بعد أن يتم ترميم المسجد». كما اتهمه برفع الضرائب «لشراء القاذفات الأمريكية المقاتلة فانتوم، كي يتدرب عليها الجنود الإسرائيليون. . . ولكن كل من يساند إسرائيل أو يساعدها فقد أعلن الحرب على المسلمين.

وعندما اشتكى تجار السوق الايرانيون ـ كعادتهم ـ آنذاك من المنافسة الخارجية،

أرجع الخميني ذلك إلى «النفوذ الإسرائيلي في بلادنا حيث يستخدم الإسرائيليون أراضينا كقواعد عسكرية وأسواق تجارية مما يؤدي بالتدريج إلى انهيار تجارة المسلمين» [٥].

واعترف الخميني ـ كغيره من القادة المسلمين ـ بأن الفرقة بين المسلمين هي المسؤول الأول عن انتصارات إسرائيل، وكتب يدعو المسلمين إلى الامتثال إلى نداء القرآن: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم». وأضاف أنه إذا فعل المسلمون ذلك واستعدوا للقتال في الوقت المناسب لما كان باستطاعة حفنة من اليهود أن يحتلوا أرضنا أ و يهدموا المسجد الأقصى أو يحرقوه دون أن يواجهوا ويقاوموا. . . وإذا ما سعى حكام المسلمين اليوم إلى تطبيق قوانين الاسلام متجاوزين خلافاتهم وانقساماتهم فان عصابات اليهود ودمى أمريكا وبريطانيا لن تفلح في الوصول إلى ما وصلت إليه. . . [٦].

وأشار الخميني إلى أن الاسلام في بداية عهده قد حارب المذاهب، وأن «النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد قضى على يهود بني قريضة على آخرهم لما رأى من ضرر لهم على المجتمع المسلم وحكومته والناس أجمعين» [٧].

كما وبخ الخميني اليهود في مقالة حديثة على. . .

> «تحريفهم للقرآن الكريم وتغييرهم لآياته في طبعات جديدة صدرت في الأرض المحتلة وغيرها، وهذه خيانة لا بد من فضحها بأعلى الأصوات، كي يعلم الناس أن اليهود وأسيادهم الأجانب يسعون إلى اقتسام الاسلام والتمهيد لسيطرة اليهود على العالم كله. وقد نستيقظ يوماً ما فنجد ـ لضعفنا ـ يهودياً يحكم بلادنا، لا سمح الله» [٨].

وبالنسبة للمسيحيين والبهائيين الذين يعتبرهم أغلبية علماء المسلمين من سنة وشيعة، فرقة خارجة عن الاسلام، فقد انتهك الثوريون الشيعة ممتلكاتهم وأماكن تجمعاتهم، بينما حذر الخميني علناً أن «مراكز التبشير المسيحية واليهودية والبهائية قد انتشرت في طهران لتضليل الناس وتحويلهم عن تعاليم الدين ومبادئه». وتساءل: «أليس من واجبنا تحطيم هذه المراكز؟» [٩]. وعندما طلب البابا جون بول الثاني من الخميني أن يحسن معاملة الرهائن الأمريكان، رد عليه الخميني في خطبة جمعة بمدينة قم قائلاً:

لا تشغل نفسك بما يجري في ايران بل عليك أن تهتم بكل ما يدور داخل أمريكا. . . فلما لم تنزعج عندما احتل اليهود القدس؟ فقد كانت تلك فرصة مناسبة لأن تفتح فمك. لم يفتح البابا فمه ولاذ بالصمت عندما استعدى اليهود جميع الديانات وذلك لأن الأمريكان أرادوا منه ذلك. لقد أفسدت أمريكا الجميع وحكام العالم خدم لها. . . وكذلك البابا»(١٠).

العلاقة القديمة

لقد كان ذلك هو موقف الخميني وأتباعه، من اليهود ودولة إسرائيل. إلا أن لعلاقة فارس باليهود وايران بإسرائيل جانباً آخر أكثر إثارة ويعود إلى عصور «العهد القديم». فلا بد عند دراسة أسلوب تفكير قادة إسرائيل من أخذ ما جاء في الكتاب المقدس في الحسبان، حيث أن أغلبيتهم ـ ابتداء من دايفيد بن غوريون إلى موشي دايان وكتاب إسرائيليين معاصرين مثل آيموس أوز ـ يأخذون ذلك بكل جد، ويميلون إلى تفسير الأحداث التاريخية في إطار ما جاء في الكتاب المقدس.

لقد غزى ملك بابل الفاتح نبوخذ نصر سوريا، ثم جهز حملات في ٥٩٨ ـ ٩٧ و ٥٨٩ ـ ٨٧ قبل الميلاد اتجه بها إلى غزو يهوذا ـ إسرائيل «العهد القديم» ـ حيث انتهت أعماله بتخريب القدس وأسر عدد كبير من الشعب اليهودي الذين أخذهم معه إلى مدينة بابل بالعراق.

بعد ذلك بفترة وجيزة قام الأباطرة الفرس سايرس وداريوس وأرتاكسيركسيس بإعادة اليهود من بابل إلى القدس من جديد حيث شجعوهم على إعادة بناء المعبد الذي دمرته جيوش نبوخذ نصر. كما أنه بهزيمة بابل في ٥٣٩ قبل الميلاد تم إرساء قواعد الامبراطورية الفارسية وأصبح اليهود الذين اختاروا البقاء وعدم الرجوع إلى القدس يعاملون معاملة الشركاء كالفرس على حد سواء. كما ظل احفادهم يعيشون في بابل حتى نزوحهم من العراق في العصر الحديث بتشجيع من إسرائيل بعد إعلانها كدولة في عام ١٩٤٨. وهكذا استمرت بابل دعامة ومركزاً للثقافة اليهودية على مدى ألف وخمسمائة سنة.

إلا أنه بالرغم من موافقة الامبراطور سايرس على رجوع اليهود إلى فلسطين عام

٥٣٨ قبل الميلاد إلا أن العملية باءت بالفشل حيث قاوم الكثير من اليهود الذين ظلوا في فلسطين وصول أولئك المهاجرين الأثرياء ومنعوهم من بناء أسوار القدس.

بذل يهود بابل بدعم من أنصارهم الفرس محاولة أخرى للاستيطان عام ٥٢٠ قبل الميلاد، وتمكنوا من إعادة بناء المعبد في القدس عام ٤٨٥ قبل الميلاد بعد أن وصلت دفعة ثالثة من اليهود المهاجرين. تلى ذلك دفعة رابعة بقيادة النبي العبراني الفارسي نهميا الذي منحه الامبراطور حكم يهوذا وأذن له أن يقيم فيها كياناً سياسياً مستقلاً تابعاً للامبراطورية، وبذلك تم توطين اليهود مرة أخرى في فلسطين. كما تم بناء القدس في إثنين وخمسين يوماً من العمل المتواصل، وهو إنجاز قد يبعث الحماس في نفوس رواد إسرائيل الحديثة (١١).

عاش اليهود والفرس ما بين ٤٠٠ و ٢٠٠ قبل الميلاد في وئام تام على ما يبدو دون صعوبات أو ثورات يهودية ضد الحكم الفارسي. . . بل أن المرتزقة من اليهود ساهموا في اخماد حركة تمرد ضد الفرس في مصر. كما كان اليهود يزاولون شعائرهم الدينية بحرية في جميع أنحاء الامبراطورية الفارسية، وقد جلب المهاجرون الكثير من القواعد الدينية المتشددة التي نشأت بينهم أثناء محاصرتهم في بابل، ونشروها في مختلف أرجاء الامبراطورية. وازدهرت القدس كمدينة يهودية بلغ عدد سكانها في القرن الثالث قبل الميلاد (١٢٠) ألف نسمة. ولعله ليس من المستغرب أن يردد أنبياء اليهود اعجابهم بسايرس العظيم الذي كان علماؤهم يضعونه في مرتبة المسيح المنقذ. إلا أنه منذ عام ٣٣٢ وحتى عام ٢٠٠ قبل الميلاد بدأت الخلافات والمعاداة لليهود تبرز حيث وقع اليهود تحت حكم اليونان ومن بعدهم السلاجقة.

لقد طبعت تلك الفترة من التاريخ في العقلية القومية اليهودية، وإلى حد كبير في العقلية القومية الايرانية كذلك. لقد خلف أنبياء اليهود عقيدة قوية فحواها أن أباطرة بابل ـ الذين يشبههم الإسرائيليون اليوم بأمثال دكتاتور العراق صدام حسين ـ قد حققوا حكمة الهية بهدمهم لمملكة يهوذا القديمة، إذ أن ذلك هو الذي مهد السبيل لقيام النظام الجديد. لقد جعل أباطرة الفرس بسماحهم لليهود بالرجوع إلى فلسطين قيام المملكة الجديدة ممكناً، في الوقت الذي وفرت فيه سياسة فارس المسالمة وعمرانها لليهود فرصة الانتشار في مساحة امتدت من جنوب أراضي وادي النيل في مصر وحتى حوض

نهري الأوكسوس والاكسارتيس.

لقد دب الضعف والتأزم الاقتصادي والاجتماعي بين يهود بابل إبان ظهور المسيح عيسى، بينما قام الفرس في حوالي عام ٦٠٠م - إبان ظهور نبي الاسلام محمد في مكة - بعدوان قوي على امبراطورية بيزنطة اليونانية وعاصمتها القسطنطينية. قام يهود أنطاكيا في سوريا بالتمرد على الحاكم البيزنطي وقتلوا البطريق اليوناني هناك وأعانوا الفرس على استعادة انطاكيا. ثم أعاد التاريخ نفسه عندما احتل الفرس فلسطين مرة أخرى وسمحوا لليهود الذين طردهم الامبراطور الروماني هادريان ما بين ١٢٨ و ١٣٢ بالعودة إلى القدس.

إلا أن حلم اليهود الأبدي بإعادة بناء المعبد لم يتحقق، إذ طرد الزومان الفرس من فلسطين وقضوا على محاولات التمرد اليهودية. (ولذا فليس من صدف التاريخ أن يتحدث آية الله الخميني في القرن العشرين عن استعادة إسرائيل).

وفي القرن السابع للميلاد وقف اليهود إلى صف المسلمين لدى فتحهم لبلاد الشرق الأوسط وشمال أفريقيا البيزنطية المسيحية (١٢)، إذ أن اضطهاد القساوسة المسيحيين لليهود والمرتدين من المسيحيين وغيرهم من الأقليات الأخرى أفقدهم الكثير من الحلفاء وسهل على المسلمين اكتساحهم.

الجذور الدينية المتشابكة

إنه بالنظر إلى تلك الحقبة الهامة من تاريخ اليهودية والمسيحية والاسلام، يتضح مدى تعقد علاقة طهران بتل أبيب المشوبة بالحب والكراهية في آن واحد، والتي تؤثر بدورها تأثيراً عميقاً في المواقف والسياسات الأمريكية. إن التمعن بأكثر مما هو في استعداد الرجل الأمريكي أو الأوروبي العادي يعود بفائدة كبيرة في فهم مدى التشابك بين هذه الأديان الثلاثة برغم اختلاف مذاهبها وفرقها وتصرفات المتعصبين من أتباعها. وقد أشار محمد نفسه إلى أن اليهود والنصارى في سوريا يؤمنون بالاله الواحد والخلاص والعذاب وحرية الارادة وغيرها مما جاء في القرآن من وحي الهي (١٣).

لقد كان محمد في بداية استلامه للوحي القرآني يتجه في صلاته نحو القدس وليس نحو مكة ولم يتحول عن ذلك إلا بعد أن امتنع اليهود (بخلاف المسيحيين الذين كانوا في طريق جيوشه الزاحفة) عن الدخول في الاسلام، فاتجه بصلاته إلى الكعبة في مكة.

مات محمد في عام ٦٣٢م وقرر الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥م) تحويل القدس إلى مركز رئيسي للمسلمين فاستشار عالماً يدعى الزهري في بناء مسجد هناك فأشار عليه بأن محمداً نفسه اعتبر مكة والمدينة والقدس أرضاً مقدسة، حيث يروى أن محمداً زار القدس وعرج منها إلى السماء. وهكذا أقيم حول تلك الصخرة التي عرج منها محمد إلى السماء بناء عرف باسم قبة الصخرة(١٤).

لقد كان العداء بين الشيعة والسنة الذي تسبب في انقسام المسلمين اليوم ـ والذي يضفي على محاولات طهران للسيطرة الدينية روحاً طائفية صارخة ـ قائماً آنذاك حيث اعتقد الشيعة أن قيادة المسلمين ينبغي أن تبقى في أسرة محمد ولا يتم تحديدها بالاختيار كما يعتقد أهل السنة. ويعتقد الشيعة أن أحد أبناء عبد الملك قد دس السم لامام الشيعة الرابع زين العابدين بن علي بن الحسين في حوالي عام ٧١٢م وذلك بأمر من الحاكم السني الأموي في دمشق (١٥).

أخذ عدد اليهود في العالم يتناقص تدريجاً عندما بدأ يهود ايران واخوانهم في سوريا وأراضي ما بين النهرين بالعراق وفلسطين ومصر وشمال افريقيا ينزحون إلى أوروبا، إلا أن أحد الرحالة المسيحيين وجد ما يقرب من خمسين ألف يهودياً في ايران ـ وهو عدد لا يستهان به ـ وذلك في عهد الحاكم الايراني شاه عباس (١٥٨٧ ـ ١٦٢١م).

إن اعتقاد اليهود في السحر دعا أحد المرتدين اليهود إلى الزعم بأنهم استخدموا بعض التعاويذ الموجودة في تعليمات الكابالا اليهودية لانزال الضرر بالشاه، وبناء على ذلك أصدر الشاه في عام ١٦٢٠ مرسوماً بجمع تلك التعليمات وغيرها من الكتب الدينية واحراقها. إلا أنه عندما اعترض يهود اصفهان على ذلك أجبروا على الدخول في الاسلام وظل ذلك الأمر معمولاً به حتى عام ١٦٢٨م.

تكرر اضطهاد اليهود في عهد الشاه عباس الثاني (١٦٤٢ ـ ٦٦م) حين طرد اليهود من اصفهان، ثم أمروا جميعاً في عام ١٦٥٦م بالدخول في الاسلام عنوة وذلك مقابل منح مالية وإعفاء من الضرائب الشخصية وارتداء الملابس المميزة. إلا أنهم احتفظوا بعقيدتهم الأصلية في صدورهم إذ سمح لهم بعد خمس سنوات بالرجوع إلى اليهودية بشرط إرجاع الأموال التي منحت لهم والالتزام بدفع الضرائب الشخصية كبقية اليهود(١٦).

وصل اضطهاد اليهود الايرانيين قمته في عام ١٨٣٩م عندما أجبر جميع يهود مدينة مشهد الشيعية المقدسة بدخول الاسلام، وجاء ذلك نتيجة اتهام امرأة يهودية بالتعدي على حرمة يوم عاشوراء الذي يقدسه الشيعة، وهو عيد الحزن على الامام الحسين حفيد النبي محمد، إذ طالب المسلمون بقتلها أو اسلام جميع يهود المدينة. أسفر ذلك عن مقتل حوالي خمسة وثلاثين يهودياً وعدم السماح لهم هذا المرة بالرجوع إلى العقيدة اليهودية. وهكذا ظل اليهود الايرانيون يتظاهرون بالاسلام على مدى ثلاثة أجيال بعد ذلك بينما يزاولون شعائر الدين اليهودي سراً. كما هرب الكثيرون منهم إلى افغانستان.

التاريخ الحديث

أدانت ايران ومشايخ الشيعة على وجه الخصوص الثورة البولشيفية لعام ١٩١٧ التي أطاحت بالقيصر بأنها ثورة فاسدة، واعتبرها زعماء الدين في مدينة قم المقدسة مؤامرة من قبل اليهود الروس لتدمير الاسلام. لقد كان ذلك التفكير شبيهاً بفلسفة المنظرين النازيين في ألمانيا خلال العشرينات والثلاثينات، الذين اعتقدوا بوجود مؤامرة يهودية ضخمة تستهدف القيم الأخلاقية لبلدهم ومجتمعهم. لقد انطبعت فكرة اعتبار الثورة البولشيفية مؤامرة يهودية في عقل آية الله الخميني خلال فترة دراسته ولعلها ساهمت في صبغ تصريحاته المعادية للسامية (١٧).

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بقليل تعاونت وكالات الاستخبارات الأمريكية والإسرائيلية في مجهود مشترك لمساعدة اليهود على الهروب من العراق والحصول في الوقت نفسه على اعتراف شاه ايران بدولة إسرائيل. وقد صُرفت مبالغ مالية ضخمة من أجل «تحلية» لعاب السياسيين الايرانيين، مما جعل من الممكن - على حد قول أحد كبار المسؤولين في مخابرات الموساد الإسرائيلية موشي تشيرفينسكي Moshe Tchervinski - «تحقيق أي شيء في ايران» (١٨).

وقد تتبع الصحفيان يوسي ميلمان Yossi Melman وذان رافيف Dan Raviv مراسل محطة (سي بي أس) CBS في كتابهما «الجواسيس القاصرين» Imperfect Spies التعاون السري بين إسرائيل وايران المعاصرة ابتداء من العميل صهيون كوهين Zion Cohen العامل بمنظمة أليا - ب Aliyeh - B سلف الموساد، والتي كانت تعني بالهجرة غير القانونية لليهود إلى إسرائيل. ففي عام ١٩٤٩ اعترفت حكومة الشاه بكوهين - كأمر واقع - ممثلاً

للحكومة الإسرائيلية التي كان يرأسها دافيد بن غوريون، واتفقت شركة الطيران الايرانية مع كوهين على نقل اللاجئين اليهود الذين عبروا الحدود من العراق إلى ايران سراً، مباشرة من طهران إلى تل أبيب.

كما كان من أوائل العملاء الإسرائيليين السريين في الشرق الأوسط يعقوب فرانك الذي كان أحد أبويه أمريكياً. كان فرانك من العاملين بمنظمة الهاجانا السرية العسكرية الارهابية التي كانت تعمل ضد سلطات الحماية البريطانية في فلسطين قبل قيام دولة إسرائيل، والتحق بعد هروبه من فخ بريطاني بمؤسسة ألياه ـ ب. لقد حارب فرانك كجندي أمريكي في اليابان وجرح في الفلبين عام ١٩٤٤ ثم تمكن من العودة إلى إسرائيل في عام ١٩٤٨ محالاً على المعاش من قبل العسكرية الأمريكية. هناك استطاع اثنان من عملاء الاستخبارات الإسرائيلية اقناعه ليصبح عميلاً سرياً للموساد في العراق ليساعد في الدفع بعملية تهجير يهود العراق إلى إسرائيل.

سافر فرانك من تل أبيب إلى طهران عام ١٩٥١ حاملاً جواز سفر إسرائيلي مزور يحمل اسم اسحاق ستاين، واستلم من صهيون كوهين مسؤول محطة الموساد في طهران جواز سفر بديل باسم اسماعيل طاشبكاش تاجر البسط البحريني (كان شعور فرانك أنه كان من الأنسب أن ينتحل شخصية بريطانية أو أميركية لكونه أمريكياً أصلاً). في ٢٠ أبريل/ نيسان ١٩٥١ استطاع فرانك رشوة بعض المهربين الذين أخذوه عبر الحدود من ايران إلى العراق حيث يوجد شلومو هيلليل ـ الذي شارك في عدد من الحكومات الإسرائيلية فيما بعد ـ الذي كان ينتحل شخصية رجل أعمال بريطاني يسمى ريتشارد آرمسترونغ. لقد وظف هيلليل خبرته التي تلقاها أثناء إدارته لعملية «البساط السحري» لنقل اليهود اليمنيين إلى إسرائيل خلال الفترة ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ في تنظيم عملية مشابهة في العراق باستخدام ما عرف باسم شركة النقل الأمريكية للشرق الأدنى American Near East Transport Corporation.

لقد كان يسمح لليهود العراقيين بمغادرة العراق بشرط تخليهم عن الجنسية العراقية وقد اختار العديد من أحفاد يهود بابل أن يغادروا.

لقد كان رئيس الوزراء العراقي توفيق السويدي رئيساً لشركة سفريات العراق ووكيلاً لشركة النقل الأمريكية للشرق الأدنى. منحت الشركة امتياز أعمال الصيانة

لشركة الخطوط الجوية العراقية التي كان يديرها العقيد صباح السعيد ابن رجل الدولة العراقي ورئيس وزرائها المقبل الموالي للغرب السيد نوري السعيد. . . وهكذا تمكن الإسرائيليون من خلال تلك العلاقة من «تحلية» حلقوم نوري السعيد بصورة مستمرة.

كانت هناك كذلك عملية أصغر يديرها الصحفي الإسرائيلي موردوخاي بن بورات الذي كان هو أيضاً يعمل للموساد، حيث كان يهرب اليهود عن طريق البر إلى ايران ومنها إلى إسرائيل، وقد اعتقلت السلطات العراقية بن بورات عدة مرات وحققت معه بقسوة. كما كان من العاملين معه المدعو يهودا تاجار الذي لم يتمكن من الحفاظ على سرية هويته كتاجر فارسي لأنه لم يكن يتكلم الفارسية. تاجار هذا من المحنكين في حركة بالماتش التابعة لمنظمة الهاجانا والتي كانت متخصصة في حرب العصابات والمذابح الجماعية للعرب، وقد أرسل إلى بغداد للالتحاق بعملاء من اليهود العراقيين لجمع المعلومات والأسرار لصالح إسرائيل، ولكن العراقيين اعتقلوه وحكم عليه بالسجن مدى الحياة وأطلق سراحه عام ١٩٥٩ في صفقة المعلومات التي زودت الموساد بها الدكتاتور العراقي عبد الكريم قاسم عن نشاطات المعارضين له من العراقيين(١٩).

وفي عام ١٩٥٣ نظم كيرميت روزفيلت ومايلز كوبلاند التابعان لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، عملية الانقلاب الذي أطاح برئيس الوزراء الايراني الوطني محمد مصدق وعودة شاه ايران من منفاه القصير. لقد كان الجميع على وفاق فيما يتعلق بالحاجة إلى التعاون بين أجهزة الاستخبارات بما في ذلك الإسرائيلية، وكان ذلك يتطلب شيئاً من الوقت، وتم بالفعل في سبتمبر/ أيلول وأكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٧ اجتماع لكبار مسؤولي الموساد وعلى رأسهم المدير اسار هاريل ونائبه يعقوب كاروز مع أول مسؤول للسافاك الجنرال تيمور باختيار في باريس وروما. لقد كان الهدف الرئيسي لإسرائيل هو تشجيع المواقف المناصرة لها والمضادة للعرب داخل دوائر الحكومة الايرانية، وكان ذلك منسجماً مع نصائح الأمريكان والبريطانيين بتنمية استراتيجية أحلاف «هامشية» مع كل من تركيا وايران (الشريط الشمالي) وعدد من دول أفريقيا السوداء (الشريط الجنوبي) بما يشكل حلقة تحيط بالعالم العربي كله.

منذ عام ١٩٥٧ كانت الموساد تساعد في تدريب السافاك خاصة في أساليب التحقيق والعمليات السرية، بينما ساعدت مؤسسات إسرائيلية أخرى في تدريب

الشرطة الايرانية، الذي كاد يكون محتكراً من قبل الأمريكان، خاصة الجنرال نورمان شوارتزكوف الشهير ووالد القائد العسكري الأمريكي المنتصر قائد عاصفة الصحراء الذي يحمل نفس الأسم. كما ساعدت الموساد السافاك في مراحل مختلفة من حركة تمرد الأكراد في العراق ـ بمشاركة الأمريكان لبعض الوقت ـ وشاركت المخابرات الإسرائيلية في بعض المشاريع المدنية في ايران، التي كانت تتم بمراقبة بعض أعضاء أسرة الشاه نفسه ومساعديه الرئيسيين الذين استفادوا منها أيما استفادة (٢٠).

إضافة إلى العمليات المشتركة، وصل دخل صفقات الأسلحة التي كثيراً ما يتولاها المتقاعدون من كبار المسؤولين الإسرائيليين في عام ١٩٧٨ مثلاً إلى ٢٢٥ مليون دولار، وهي نفس السنة التي بدأت فيها الموساد تحذر حكومة الولايات المتحدة بأن الشاه قد لا يستمر في الحكم لتصاعد تيار الثورة ضده. وكان من أواخر تلك الصفقات شحنة من بنادق أوزي الاتوماتيكية إسرائيلية الصنع خاصة بالحرس الامبراطوري لشاه ايران، كما ظلت الطائرات الايرانية المقاتلة تتلقى الصيانة في مصانع الطيران الإسرائيلي حتى بداية الثورة. وكانت ايران في ذلك الوقت أكبر دولة تزود إسرائيل بالنفط، وعقد أقارب الشاه الصفقات مع الشركات الإسرائيلية لانشاء مشاريع وعمليات، منها شركة عبر آسيا للشحن البحري التي كانت تشرف على ناقلات النفط من عبدان في ايران إلى ميناء إيلات في إسرائيل. كما كانت الشركة نفسها التي تملك ايران حصة فيها تدير خط أنابيب النفط الممتد بين إيلات وعسقلان الذي تملك ايران جزءاً منه (٢١).

كما ثبتت فاعلية دعم الاستخبارات الايرانية ـ على ندرته ـ لعمليات الموساد السرية. ففي ١٩ أغسطس/آب ١٩٦٦ ـ على سبيل المثال ـ وقبل شهور قليلة لاستلامي عملي كمراسل في الشرق الأوسط لصحيفة الكريستيان ساينس مونيتر اهتزت مكاتب بيروت الصحفية بصدى خبر هبوط الطيار العراقي المسيحي منير رودفه ـ بعد استعدادات طويلة ـ بطائرته ميج ـ ١٩ سوفياتية الصنع في إسرائيل. لقد كانت تلك الطائرة في ذلك الوقت محط اهتمام الولايات المتحدة ومنظمة حلف شمال الأطلسي إضافة إلى إسرائيل نفسها. لقد تلقى الطيار العراقي مكافأة مالية وهوية جديدة على يد خليلته الأمريكية التي كانت تعمل لصالح إسرائيل، ودفعت له الموساد مستحقاته عن طريق أحد البنوك السويسرية وهربت أسرته من العراق إلى ايران بمساعدة المتمردين الأكراد الذين كثيراً ما اشتغلوا كعملاء لإسرائيل. تولت محطة الموساد في طهران بعد

ذلك ترحيل الأسرة من طهران إلى أوروبا الآمنة ثم الحاقهم بالطيار رودفه في تل أبيب[٢٢].

هذه الأحداث ومثيلاتها المعروفة للمقربين من قادة الثورة الايرانية والغائبة عن العالم بل عن الغرب نفسه، هي التي هيأت الساحة لما لحق من تطورات. فقد دأبت المؤسسة الصناعية العسكرية الإسرائيلية خلال الحرب الايرانية العراقية ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ على مد يد العون والمساندة لدولة فارس في صراعها القديم ضد العرب. وكان للأسلوب الذي تطور به ذلك الصراع دور في تحديد مسار جديد للمواجهة الغربية والمتقلبة بين أمريكا وايران.

الفصل الرابع

جذور قضية ايران ـ جيت

بيت من الرمال

الرئيس نكسون هو الذي أرسى ايران الشاه في أوائل السبعينات كدعامة صلبة للسلام الأمريكي في الشرق الأوسط، وكانت إسرائيل دعامة أخرى من دعائم ذلك الصرح. إلا أن الذي لا يعيه إلا القلة من الأمريكيين هو أن الصفقات الضخمة التي أبرمت بين إيران والولايات المتحدة في عهد الرئيس نكسون والتي عقدها وزير الخارجية هنري كيسينجر مع شاه إيران، قد وضعت ختم النسر الأمريكي بارزاً على العلاقة بين إسرائيل وإيران كذلك.

التقى الشاه عام ١٩٦٦ رجل المخابرات المركزية البارز كيرميت روزفيلت الذي لعب دوراً رئيسياً في عودة الشاه بهلوي إلى عرش حكمه عقب انقلاب محمد مصدق في عام ١٩٥٣، وبحثا معاً الأسباب التي جعلت أمريكا لا تستطيع الاستغناء عن إيران. وكان أهم تلك الأسباب هو أن حكومة الامبراطور الإيرانية هي أحد الأنظمة القليلة في المنطقة التي لديها الاستعداد لدعم إسرائيل ومساعدتها.

لقد سبق وأن أكد شاه إيران ذلك من قبل عندما استلم الرئيس ليندن جونسون الرئاسة في أمريكا في نوفمبر ١٩٦٣، والذي كانت دولة إسرائيل بالنسبة إليه دعامة أساسية لسياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط بأكثر مما كانت عليه بالنسبة لسلفه الرئيس كينيدي.

وفي ٨ فبراير ١٩٧٥ قطع شاه ايران إجازته الشتوية للتزحلق على الجليد في سويسرا ليلتقي بكيسينجر في زيوريخ، حيث وافق الشاه على بيع المزيد من النفط الايراني لإسرائيل ـ إضافة لما كانت إسرائيل تحصل عليه آنذاك. ولكن الشاه ـ لعله بدافع تسديد الجميل لصديقه الرئيس المصري أنور السادات ـ وضع شرطاً واحداً وهو ضرورة موافقة إسرائيل على خطة كيسينجر بالانسحاب من حقول النفط المصرية في سيناء التي احتلتها إسرائيل وظلت تستغلها منذ عام ١٩٦٧.

لقد كانت إيران في عام ١٩٧٥ تمد إسرائيل بالنفط لمدة عقد كامل تقريباً، وكانت شركات النفط العالمية نفسها ـ وخصوصاً المجموعة التي تقودها الشركات البريطانية التي كانت تستخرج النفط الإيراني ـ هي التي تتولى تلك المعاملات مما أعطى الإيرانيين الحجة الكافية لنفي بيع إيران النفط لإسرائيل. وكان الشاه كلما سئل عن ذلك يخبر زواره بأن «الشركات هي التي تتولى تسويق النفط وليس لنا دخل فيما يفعلون به بعد أن يغادر إيران».

وعندما أشرت مرة في تقرير صحفي لي من داخل إسرائيل في أوائل السبعينات إلى امدادات النفط من إيران إلى ميناء إيلات الإسرائيلي طلب مني الرقيب العسكري الإسرائيلي بكل أدب ـ ولكن بحزم ـ أن أشطب تلك الفقرات. وعندما سألت بكل براءة: «كيف يمكن أن يكون ذلك ضاراً بمصالح إسرائيل الأمنية» أجابني الرقيب الدمث بشيء من الارتباك أن ذلك في الواقع لا يضر شيئاً «إلا أنه بيننا وبين إيران اتفاق بعدم التحدث عن هذا الأمر، وعليه فنحن لا نشير إليه ولا نريد أن يشار إليه». وفي أعقاب نهاية الحرب الإيرانية العراقية في عام ١٩٨٨ استؤنفت صفقات بيع النفط الإيراني للزبون القديم إسرائيل.

وكما هو الحال فإن صفقة واحدة جيدة بين الأصدقاء تؤدي إلى صفقات أخرى. فبعد اسبوعين من اجتماع الشاه بكيسينجر في زيوريخ وقع السيد هوشانج انصاري وزير الاقتصاد والمالية الإيراني مع كيسينجر أكبر اتفاقية من نوعها بين الولايات المتحدة وإيران وقيمتها ١٥ مليار دولار. ألزمت تلك الاتفاقية إيران بصرف ذلك المبلغ على بضائع وخدمات أمريكية خلال الخمس سنوات المقبلة تشمل إنشاء خمس محطات للطاقة النووية لتزويد إيران بثمانية آلاف ميغاوات من التيار الكهربائي [(١)].

لم يتم إنشاء تلك المحطات. وشرعت كلا من فرنسا والمانيا فيما بعد في إنشاء محطات للطاقة النووية بإمكانها خلال تسعينات ما بعد الخميني أن تشكل قاعدة لإمكانية نووية عسكرية. إلا أن اتفاقيات كيسينجر مكنت الشاه قبل سقوطه بقليل من الحصول من الولايات المتحدة على تقنية لايزر متقدمة جداً خاصة بمشروع سري للأسلحة النووية سنتعرض له بالتفصيل فيما بعد.

لقد كان للتعاون الثلاثي بين الولايات المتحدة وإيران وإسرائيل دور كذلك في

دعم الأكراد كوسيلة لاضعاف العراق. . . العدو المشترك لإسرائيل وإيران. كما كان ذلك التعاون أيضاً جزءاً من خطة استراتيجية ضخمة.

ففي الخمسينات أشارت الولايات المتحدة وبريطانيا على إسرائيل أن تسعى لايجاد وسيلة ـ ولو سرية ـ للمشاركة في التحالفات القائمة على الشريط الشمالي الذي يضم كلا من إيران وتركيا والباكستان والولايات المتحدة (كمراقب فيما سمي بمنظمة الحلف المركزي ـ سينتو) وبريطانيا. وقد كانت إسرائيل والولايات المتحدة قبل الاطاحة بحكم الامبراطور هيلاسيلاسي مرتبطتين بحلف مشابه مع أثيوبيا، وكان للولايات المتحدة في ذلك أهداف عسكرية حيث أنها تدير محطة رصد واستخبارات ألكترونية سرية للغاية في كاغنو بالقرب من مدينة أسمره في مقاطعة أرتيريا الشمالية التي لا زالت حتى عام ١٩٩٠ تقاتل من أجل استقلالها عن أثيوبيا. كانت تلك المحطة شبيهة بنظائرها الموجودة في إيران إلا أنها مخصصة للتنصت واعتراض وسائل الاتصال أكثر منها لرصد تجارب إطلاق الصواريخ. كما كان للمدربين والخبراء الإسرائيليين كذلك وجود في أثيوبيا حيث كانوا يديرون بعض المنشآت السرية في جزيرة دهلق الأثيوبية بالبحر الأحمر لرصد حركة السفن وشحنات الأسلحة العربية.

إن الذي كان يجمع بين هذا الخليط المتباين من الحلفاء كتركيا وأثيوبيا هو الخوف من العرب والاتحاد السوفياتي، حيث كان للأخير تمركز في دول الشريط الجنوبي وعلى حدود إيران بالاضافة إلى القواعد البحرية والجوية السوفياتية الموجودة في عدن وجزيرة سوكورتا جنوب الجزيرة العربية.

في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٥٧ التقى رئيس الوزراء التركي عدنان منداريس المبعوث الإسرائيلي الياهو ساسون. . . وتلى ذلك زيارات سرية لمسؤولين في المخابرات الإسرائيلية التي كان يرأسها روفين شيلوح المدير السابق للموساد. كما سافر بن غوريون نفسه إلى أنقرة للالتقاء بمنداريس وعقدت غولدا مائير كذلك اجتماعات سرية مع المسؤولين الأتراك في اسطنبول. لقد كان آنذاك الأكراد المقيمون في كل من العراق وإيران وتركيا وسوريا والاتحاد السوفياتي يثيرون موجة من التوتر الشديد المزعج في المنطقة كلها.

توصل روفين شيلوح إلى اتفاق بين الموساد وجهاز الأمن القومي التركي ـ نظير وكالة

الاستخبارات المركزية الأمريكية ـ من أجل التعاون في عدد من المجالات. فقد كانت الاستخبارات التركية في ذلك الوقت قلقة جداً بسبب تحرشات العناصر القومية الكردية في شرق تركيا وعلى طول الحدود مع إيران والعراق وسوريا. في نفس تلك الفترة أبرمت الموساد اتفاقية تعاون رسمي مع جهاز الاستخبارات الإيراني السافاك، وفي نهاية عام ١٩٥٨ شكلت الأجهزة الثلاثة ما سمي بمجموعة ترايدانت (الثلاثي) واتفقوا على عقد اجتماع دوري لمسؤوليهم كل ستة أشهر. وبذلك تهيأ للموساد أن تتقاسم المعلومات الاستخبارية التي كان يجمعها الأمريكان والأتراك عن عمليات الاتحاد السوفياتي السرية في المنطقة، مقابل تزويد إسرائيل للأتراك بمعلومات حول عمليات السوفييت والكتلة الشرقية المعادية لتركيا في أماكن أخرى في الشرق الأوسط. كما كانت تركيا بدورها توفر المعلومات لإسرائيل حول نوايا سوريا تجاه إسرائيل بينما كان الخبراء الإسرائيليون يدربون عناصر المخابرات التركية في علميات التجسس والتجسس المضاد واستخدام المعدات والأجهزة التقنية المتقدمة(٢).

لقد كان حجم العمل المشترك بين الموساد والسافاك يفوقه بين الاستخبارات التركية والموساد، حيث كان ـ خلال الستينات ـ تبادل مستمر للمعلومات بينهما حول حملة الرئيس المصري جمال عبد الناصر من أجل الوحدة العربية ونشاطاته السرية في مختلف أنحاء العالم. كما كان هناك تركيز خاص على العراق وأكراد العراق والنشاطات الشيوعية المختلفة في إيران.

أصبح دعم أكراد العراق في حربهم ضد القوات العربية العراقية، الذي يعتبر هدفاً رئيسياً من أهداف السياسية الإسرائيلية، أحد الغايات الهامة لأمريكا أيضاً وخاصة في عهد إدارة نكسون. فقد حولت الولايات المتحدة بناء على اتفاقيات بين كيسينجر وشاه إيران مبلغ ١٦ مليون دولار من خزينة وكالة الاستخبارات المركزية إلى الحزب الديمقراطي الكردي الذي يقوده الزعيم الكردي العراقي العجوز الصلب مللا مصطفى البرزاني. وقد قال لي أحد أبنائه وهو مصطفى خلال زيارتي لكردستان في مارس/ آذار ١٩٧٣ أن «هذه المساعدات التي يرسلها إلينا الأمريكان لا تكفي، ولكنها تعيننا على الاستمرار في القتال».

لقد كانت إسرائيل أيضاً تقدم الدعم للأكراد وخاصة من خلال القنوات

الاستخبارية المذكورة أعلاه مما جعل الأكراد المجموعة المفضلة في الكونجرس الأمريكي، وبناء عليه فقد تبنى أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي جايكوب جافيتز الديمقراطي (نيويورك) وريتشارد ستون وعضو الكونجرس وليام ليهمان الدعوة إلى دعم شاه إيران بسبب علاقته مع إسرائيل. وفي إحدى جلسات الكونجرس في فبراير/ شباط ١٩٧٩ خلط ليهمان بين إيران والبلاد العربية ووصف الثورة الإيرانية بأنها مثال لانعدام الاستقرار في العالم العربي، مؤكداً على أهمية إسرائيل الاستراتيجية بالنسبة للولايات المتحدة (٣).

أما السناتور جافيتز فكان يتبنى دعم المشاريع الثقافية والاقتصادية في العالم العربي كتلك الخاصة بالجامعة الأمريكية في بيروت، ولكنه لم يكن متحمساً لمعونات الأسلحة الأمريكية للدول العربية. وفي الوقت الذي وافق فيه على بيع كميات ضخمة من الأسلحة لإيران الشاه، فقد ناور من أجل تأخير بيع صواريخ سايدوايندار وغيرها من المعدات للملكة العربية السعودية. وفي عام ١٩٧٦ كشف عن قبول زوجته ماريان جافيتز مبلغ سبعة وستين ألف وخمسمائة دولار مقابل أعمال علاقات عامة نيابة عن شركة الخطوط الإيرانية، وكان ذلك جزءاً من نصف المليون دولار الذي تقاضته شركة رادروفين للعلاقات العامة مقابل دعاية شخصية للشاه. إلا أن جافيتز دعم قراراً للكونجرس في عام ١٩٧٩ معادياً للثورة الايراينة وذلك عندما كان القادة الإسرائيليون يتدارسون ـ سراً ـ كيفية الاستمرار في تعاونهم مع إيران ما بعد الثورة (٤).

الآثار الاقتصادية للثورة

أمام هذه الخلفية المشوشة ظهر لكل من إسرائيل والولايات المتحدة في عام ١٩٨٠ أخطار متعددة نتيجة الأحداث التي جرت في إيران والعراق والخليج. أولاً كان هناك استقبال زعيم منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات ـ عدو إسرائيل اللدود ـ في إيران في فبراير ١٩٧٩ من قبل قادة إيران الثوريين الجدد كأول رئيس دولة أجنبي يزور إيران بعد الثورة. لقد كانت سخرية الأقدار واضحة للعيان: فها هو عرفات يستقبل كبطل وتقدم له وعود الدعم والمساندة (ذلك الدعم الذي تحول فيما بعد إلى المتطرفين الفلسطينيين المناهضين لعرفات من أمثال أحمد جبريل زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة) في بلد ساعدت إسرائيل في تدريب قواته الأمنية السرية وتلقى

فيه طياروها تدريباً على طائرات الفانتوم الأمريكية التي كثيراً ما قصفت الأهداف الفلسطينية في لبنان وغيرها من المواقع في العالم العربي. ثم أن إيران كانت مصدراً لأكثر ما زودت به إسرائيل من النفط بالرغم من أن ذلك قد تغير منذ عام ١٩٧٧ حين أحست إسرائيل بقرب سقوط الشاه وشرعت في التفاوض مع نيجيريا والمكسيك وغيرهما من الدول المنتجة للنفط[٥]. في نفس ذلك الوقت ـ وعلى حد قول أحد أنصار إسرائيل السيد مايكل ليدين ـ أقنع مدير محطة الموساد في إيران إبان مجيء الخميني، الحكومة الإسرائيلية بانذار اليهود الإيرانيين للرحيل من إيران، بينما اعتبرت واشنطن تحذيرات إسرائيل «مبالغاً فيها»[٦].

حل عرفات بطهران في ١٧ فبراير/ شباط ١٩٧٩ واستقبل من قبل كبار مساعدي الخميني وإن لم يكن من قبل الخميني نفسه. إلا أن الزعيم الإيراني الأكبر وعد عرفات بتقديم الدعم للمنظمة بمجرد أن يتم تعزيز وضع الثورة داخل إيران، وفي اليوم التالي مباشرة أعلنت إيران رسمياً قطع علاقاتها مع إسرائيل وطردت جميع من تبقى من دبلوماسييها وممثلي بعثتها التجارية ومواطنيها واستدعت إيران ممثليها الدبلوماسيين من القدس.

صرح عرفات يوم ١٨ فبراير/ شباط يقول: «اليوم إيران وغداً فلسطين. . . وكل فدائي إيراني له من يمثله في الثورة الفلسطينية. لقد غيرت الثورة كل الاستراتيجيات والسياسات في المنطقة وقلبتها رأساً على عقب». بعد ذلك استلم عرفات مبنى البعثة الإسرائيلية السابقة ليفتتحه في اليوم التالي كمقر رسمي للمنظمة في طهران. أما في القدس فقد عبر وزير الخارجية الإسرائيلية ورجل الدولة العسكري موشى دايان عن أسفه لقرار إيران بقطع العلاقات الدبلوماسية محذراً أنه في حال تعاون نظام الخميني مع «منظمة التحرير تعاوناً فعلياً فسوف يكون الأمر مختلفاً وعلى قدر كبير من الخطورة بالنسبة لنا»[٧]. وهكذا كان الحال فعلاً.

في غضون أيام قليلة حولت المنظمة بعثتها في طهران إلى سفارة وأقامت لها إرساليات في الأحواز وخرمشهر في قلب مناطق النفط الرئيسية الإيرانية. كما اختارت المنظمة السيد هاني الحسن عضو جناح فتح الإسلامي المحافظ في المنظمة أول ممثل لها في طهران، وذلك بقصد استلطاف آية الله الخميني على الرغم من أنه كزعيم للشيعة لم

يكن يحفل كثيراً بالقيادات الإسلامية السنية.

لقد أصبحت منظمة التحرير من وجهة نظر تل أبيب وواشنطن تحتل موقعاً قوياً بالقرب من قلب مخازن نفط الغرب الصناعي في السعودية ودول الخليج الفارسي، بينما شعر الراديكاليون في منظمة التحرير باقترابهم من تحقيق ما وعد به ياسر عرفات بعد توقيع كامب دافيد للسلام في سبتمبر ١٩٧٨ من تفتيت لوضع الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. في ٢٦ مارس/آذار ١٩٧٩ وبعد شهور قليلة من توقيع اتفاقية كامب دافيد سعت المنظمة إلى توضيح ذلك التهديد بصورة أقوى.

لقد وضع قادة المنظمة على شاه إيران علامة واضحة بأنه الحليف الاستراتيجي لإسرائيل، برغم ما كان يقدمه لفتح ولفريقه المناصر للقضية العربية في الأمم المتحدة من مساعدات مالية رمزية. ولذا فقد اعتبروا سقوطه في أول الأمر نصراً كبيراً للقضية الفلسطينية. إلا أنه بعد غزو إسرائيل للبنان في عام ١٩٨٢ أصبح الإيرانيون عامل إرباك وحليفاً مثقلاً، لوقوفهم إلى صف المجموعات الفلسطينية المتطرفة المعادية لياسر عرفات من أمثال منظمة أحمد جبريل.

لقد ساعد بعض القادة الفلسطينيين كجورج حبش وأحمد جبريل في تدريب بعض الثوريين الإيرانيين وأنصارهم، كما كان عدد من المقربين للخميني كصادق قطب زاده ـ الذي كان وزيراً للخارجية أثناء فترة حصار السفارة الأمريكية في طهران ثم أعدم فيما بعد بتهمة التآمر ضد الخميني ـ على علاقة وثيقة بقيادات الفلسطينيين في لبنان. إلا أنه سرعان ما أقامت العناصر القيادية الثورية في طهران من أمثال رفيق محسن دوست القائد المهيب ووزير الحرس الجمهوري علاقات وثيقة مع سوريا والمتطرفين من الفلسطينيين لتشكيل قوى موالية لإيران ومعادية للولايات المتحدة مثل حزب الله. كما أبدى الخميني فيما بعد عدم اكتراث بمساعي منظمة التحرير الفلسطينية نيابة عن الولايات المتحدة من أجل إطلاق سراح بعض رهائن السفارة في إيران، ولم يتكرر نجاح ياسر عرفات في كسب حرية بعض النساء والمواطنين السود الذين كانوا من ضمن الرهائن.

إلا أن إسرائيل والولايات المتحدة قد شعرتا أكثر ما شعرتا بآثار ثورة إيران في المجالات الاقتصادية، حيث توقفت التجارة بين إيران وإسرائيل والتي وصلت قمتها

عام ١٩٧٧ إلى ما يقرب من ٢٣٠ مليون دولار وهذا جزء بسيط من مستوردات إسرائيل للنفط الإيراني التي توقفت هي الأخرى.

وعليه فقد حرصت إسرائيل على ضمان حاجتها من النفط لمدة ١٥ سنة كجزء من اتفاقيات كامب دايفيد في مارس/ آذار ١٩٧٩ بالإضافة إلى التعهدات الأمريكية الضخمة لضمان أمن إسرائيل. كما تعهدت شركة النفط الوطنية الإيرانية في عهد الخميني وقبل بداية الحرب ضد العراق بأنها سوف تقاطع جميع شركات النفط العالمية التي يعرف عنها أنها تزود إسرائيل أو جنوب أفريقيا بالنفط الخام ولو كان مصدره من خارج إيران(٨). إلا أنه لم يتم تنفيذ ذلك الانذار على ما يبدو حيث أن إيران بعد اندلاع الحرب عام ١٩٨٠ لم تعد لديها حرية اختيار شركات النفط التي تتعامل معها.

وفي أعقاب الثورة الإيرانية تقدمت شركات النفط الأمريكية والعالمية بطلب تعويضات ضخمة عما فقدته في إيران من أصول وأعمال وممتلكات، كما وجدت إسرائيل ـ وحليفتها الجديدة في السلام مصر ـ نفسها تحت ضغوط اقتصادية متزايدة كان لابد للإدارة الأمريكية والكونجرس والشعب الأمريكي أن يتحملها.

وفي منتصف عام ١٩٧٩ أعلن النظام الإيراني أنه سوف يلتزم بقرار مقاطعة دول وشركات القائمة السوداء التي يشرف عليها مكتب المقاطعة العربية بدمشق التابع لجامعة الدول العربية. . ووجد رجال الأعمال الغربيون عقودهم غير سارية المفعول في إيران إذا ما كانت لهم معاملات في إسرائيل، وسرى مفعول قرار المقاطعة هذا على جميع شركات التسويق والتصنيع والتجارة الأجنبية التي لها مشاريع في الدولة اليهودية. كما أثبت عمال الموانىء وموظفو الجمارك وغيرهم من العاملين في التجارة الخارجية استعدادهم للاحتذاء بزملائهم من عمال حقول النفط ـ الذي ينحدر معظمهم من أصول عربية ـ بالاضراب عن العمل. كما كانت لمنظمة التحرير الفلسطينية وحدة معلومات اقتصادية تتابع إجراءات المقاطعة في بلدان عربية كسوريا والعراق. أما بالنسبة للشركات الأمريكية فكان أثر ذلك عليها أشد من غيرها لوجود قوانين تمنعها من الامتثال لقرارات المقاطعة العربية خاصة وأن نشاطات معظم الشركات الأمريكية المدرجة في القائمة السوداء في الشرق الأوسط كانت مركزة في إيران(٩).

بعد توقيع اتفاقيات كامب دافيد أخذت دول الجامعة العربية في تنفيذ إجراءات

المقاطعة تجاه مصر كذلك، وأوقفت إيران مبلغ خمسماية مليون دولار من المساعدات التي كان الشاه قد تعهد بها لمصر والتي بلغت في مجموعها مليار دولار خصص معظمها لتنظيف قناة السويس وإزالة بقايا الحرب منها. كما أعلنت إيران عن تجميد كل استثماراتها في مصر مما اضطر مصر إلى التوجه نحو أمريكا وغيرها من الممولين الغربيين للتعويض عن ذلك.

جذور صفقات الأسلحة السرية

لقد كان الدافع الرئيسي وراء صفقات الأسلحة الإسرائيلية السرية لإيران، والتي قدر لها أن تؤثر تأثيراً عميقاً في وجهة الصراع الخفي بين إيران وأمريكا هو الآثار العسكرية ـ وليس الاقتصادية ـ للتحالف الإيراني الفلسطيني.

أخبرنا وزير الدفاع الإسرائيلي عزرا وايزمان أثناء رفقتي لوزير الدفاع الأمريكي هارولد براون في زيارته لإسرائيل في فبراير ١٩٧٩، أنه على الرغم من خروج مصر من مجموعة الدول المعادية لإسرائيل فإنه من المحتمل أن تضاف إيران إلى تلك المجموعة. كما قال الجنرال أهارون ياريف مسؤول الاستخبارات العسكرية المتقاعد والذي كان يرأس مؤسسة الدراسات الاستراتيجية بجامعة تل أبيب «إن إيران لن ترسل جيوشها أو طائرات أف ـ ١٤ لتقاتل ضدنا غداً، ولكنه على المدى الطويل علينا أن نعد إيران عضواً في التحالف العربي الاسلامي المعادي لنا». كما صرح ضباط القوات المسلحة الثورية الايرانية لرجال الصحافة العرب بكل فخر واعتزاز أن إيران اليوم تعتبر نفسها «دولة مواجهة ضد إسرائيل»(١٠).

لقد كانت القوات البرية والبحرية والجوية الإيرانية في حالة يرثى لها عندما قامت القوات العراقية في ٢ سبتمبر/ ١٩٨٠ بغزوها المكثف لإيران حيث تم في عام ١٩٧٩ تسريح القوات الإيرانية وتوزيعها ولم يكن بالإمكان إعادة جمعها بسرعة خلال الشهور التي سبقت الحرب. كما ألغت الحكومة الثورية صفقة للطائرات والمعدات العسكرية الأمريكية بما قيمته ١٢ مليار دولار تقريباً. وكان في إيران في ذلك الوقت مبعوث وزير الدفاع الأمريكي الكبير اريخ فون ماربود الذي كان مكلفاً ـ بالإضافة إلى مساعده الجنرال هويسار في مهمته في طهران (راجع الفصل الثاني) ـ بالتعرف على المسؤولين العسكريين في الثورة واقناعهم بالتوقيع على مذكرة للموافقة على إنهاء البرنامج الرئيسي

لبيع السلاح الأمريكي لإيران. أعطى نجاح المبعوث العسكري الأمريكي في مهمته للولايات المتحدة المبرر - من وجهة نظر القانون الأمريكي على الأقل - لإيقاف ما قيمته مليارات الدولارات من أجهزة الدفاع والأسلحة المتطورة التي كانت في طريقها إلى إيران(١١).

كانت إسرائيل أول مستفيد من ذلك ، فاستلمت خمس وخمسين طائرة مقاتلة من نوع أف - ١٦ كانت من ضمن طلبية قيمتها ثلاثة مليارات ونصف مليار دولار ألغتها إيران في فبراير ١٩٧٩ وذلك لأنها لم تعد قادرة على التسديد أو تدريب العدد الكافي من عمال الصيانة للمحافظة على الطائرات. وكما رأينا سابقاً فقد كانت هناك ثماني وسبعون طائرة من نوع أف - ١٤ تومكات - اشترتها حكومة الشاه - قابعة في القواعد الجوية في اصفهان وشيراز يحرسها رجال القوات الجوية الإيرانية المرفوضين من قبل الثورة. ولم يكن هناك - كما بينت بدايات تطور الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠ - ١٩٨٨) - العدد الكافي من الطيارين الإيرانيين الأكفاء القادرين على قيادة تلك الطائرات عوضاً عن قيادة الأسراب الخمسة من طائرات فانتوم أف - ٤ التي كانت مستخدمة قبل الثورة أو صيانتها. إضافة إلى ذلك كان هناك عجز رهيب في قطع الغيار وعلى الأخص إطارات طائرات أف - ٤ ، ثم أن قوات إيران البرية ظلت ولمدى ثمانية عشر شهراً مكبلة بعمليات قتال خفيفة ضد الانفصاليين من الأكراد والتركمان والأذيربيجانيين المطالبين بالحكم الذاتي.

كان قادة إسرائيل عاكفين على تقييم كل هذه الاعتبارات عندما أخذت غيوم الحرب الإيرانية العراقية تكتسح آفاق الشرق الأوسط في خريف عام ١٩٨٠. فقد أوضحت الوثائق التي تركها أعضاء البعثة الدبلوماسية الإسرائيلية خلفهم عندما اضطروا إلى إخلاء سفاراتهم في طهران على عجل في بداية عام ١٩٧٩ أن قوات الدفاع الإسرائيلية والقوات المسلحة للشاه كانت تتعاون سراً على تطوير صواريخ أرض - جو تكتيكية لحمل رؤوس عادية ونووية يصل مداها إلى ١٥٢ ميلا، وذلك تحت الاسم الرمزي فلاور (الزهرة). وكان أحد الأسلحة التي رفضت الولايات المتحدة توفيرها للشاه هو الصواريخ القذفية (بلاستيكية) متوسطة المدى المستخدمة في أوروبا الغربية كجزء من أسلحة منظمة حلف شمال الأطلسي النووية الرادعة. كما أن إيران والولايات المتحدة ملزمتان بأحكام اتفاقية عام ١٩٦٨ للحد من انتشار الأسلحة النووية بعدم

السماح لأسلحة نووية أو صالحة للاستعمال النووي من الوصول إلى إيران. ولهذا السبب اتجه الشاه إلى إسرائيل، وذهب وزير الدفاع الإيراني الجنرال حسن طوفنيان في عام ١٩٧٧ لمراقبة التجارب الإسرائيلية على أحدث طراز من صواريخ جيريكو متوسطة المدى والتي كانت النماذج الأولى لمشروع فلاور. وكان مشروع الصواريخ المشترك هذا جزءاً من صفقة سرية أبرمت عام ١٩٧٧ بين طوفنيان ووزير الدفاع الإسرائيلي شيمون بيريز لتبادل النفط الإيراني مقابل الأسلحة الإسرائيلية [١٢]. . . إلا أن الثورة الإيرانية أجهضت هذا المشروع ولم يقدر للزهرة أن تتفتح وتزدهر!

إلا أن إسرائيل كانت أول دولة تهب لانقاذ القوات المسلحة الإيرانية المكبلة خلال الأيام الأولى التي تلت الاجتياح العراقي في سبتمبر/ أيلول ١٩٨٠، ورحبت إيران بتلك المساعدات السرية في لهف وحرصت بشدة على إخفائها عن حليفها العربي الحقيقي الوحيد: سوريا.

حالت أزمة الرهائن الأمريكان التي وصلت أوجها انذاك دون أي مساعدات من الولايات المتحدة، إلا أن القائم بالأعمال الأمريكي في طهران بروس لانغين الذي تولى مسؤولية السفارة هناك قد بذل محاولة في ١٨ يونيو/ حزيران ١٩٧٩ لتحسين العلاقة مع حكومة مهدي بازرجان أو على الأقل توسيع دائرتها. نتج عن ذلك التقاء وزير الخارجية الإيراني ابراهيم يازدي ومبعوثين إيرانيين آخرين في بيت مسؤول البعثة الإيرانية في الأمم المتحدة بمدينة نيويورك مع كل من خبير الشؤون الإيرانية المحنك في الخارجية الأمريكية هنري بريخت وخبير المفاوضات للشرق الأوسط هارولد سوندارز. أثيرت قضية امدادات الأسلحة الأمريكية الماضية والمستقبلية دون التوصل حيالها إلى قرار [١٣].

لقد كان الرئيس كارتر قد أوقف جميع أنواع التجارة مع إيران تقريباً، بينما أثار الغزو العراقي التكهنات عما إذا كانت الإدارة الأمريكية مستعدة لتوفير احتياجات إيران العسكرية الملحة مقابل حرية الرهائن الأمريكان . وفي ١٩ سبتمبر/ أيلول ١٩٨٠ أي بعد ثلاثة أسابيع فقط من تكوين حكومة «إسلامية» برئاسة محمد علي رجائي التقى في طهران اثنان من أقارب آية الله الخميني وأحد مساعديه المقربين سفير المانيا الغربية السيد غير هارت ريتزيل بهدف وضع الشروط العامة لحل أزمة الرهائن.

عندما نقل ريتزيل الشروط الإيرانية للأمريكان اندهشوا لاعتدالها بينما استمرت

لهجة الإيرانيين المعلنة المعادية لأمريكا ـ كما هي العادة ـ أبعد ما تكون عن التوافق مع أحاديثهم الخاصة. فلم يطالب الإيرانيون باعتذار عن جرائم أمريكا السابقة ضد إيران أو بتكرار مطلبهم المعلن بتقديم الرهائن للمحاكمة(١٤)، وفي ١٢ سبتمبر/ أيلول ١٩٨٠ طرح الخميني في خطبة علنية مطالب مشابهة.

عندئذ فوض الرئيس كارتر مساعد وزير الخارجية وارن كريستوفر وهو من أكثر الدبلوماسيين حنكة في الشؤون الخارجية للالتقاء في المانيا الغربية بأحد المسؤولين الإيرانيين لم يفصح في ذلك الوقت عن اسمه. حرص كريستوفر على اختيار الفريق المرافق له بكل عناية، وكان من بينهم مسؤولون كبار ممن شاركوا في قضية الرهائن منذ بدايتها أو ممن لهم الخبرة القانونية والإدارية والقدرة على التعامل معها بكفاءة. كان من بينهم مستشار الرئيس القانوني لويد كاتلار ورائد البحرية غاري سيك عضو مجلس الأمن القومي ومساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وجنوب شرق آسيا هارولد سوندارز والمساعد الخاص لوزير الخارجية أرنولد رافائيل والمستشار القانوني بوزارة الخارجية روبرت أوين ومساعد وزير الخارجية روبرت كارسويل والمدعي العام المساعد جون هارمن والمساعد الخاص لكريستوفر نفسه دوغلاس دوركين(١٥).

طلب كرستوفر وفريقه من الحكومة الالمانية الحصول على ضمانات من إيران بأن من يوفد للحديث معهم سوف تكون لديه الصلاحية للتحدث باسم حكومته، وجاء الرد بأن الممثل سيتحدث باسم الخميني شخصياً وأنه سيتم طرح مطالب الخميني الأربعة وهي عدم تدخل الولايات المتحدة في شؤون إيران الداخلية وإعادة الأموال الإيرانية المجمدة وإلغاء مطالب أمريكا ضد إيران وإعادة ثروة الشاه إلى إيران.

كان الرد الأمريكي والذي حدد موقف واشنطن لمدى شهور قادمة هو قبول التعهد بعدم التدخل في الشؤون الداخلية. أما إعادة الأموال فتتطلب إجراءات قانونية معقدة لا يمكن تجاوزها بمجرد الغاء قرار الرئيس كارتر بالتجميد مع السعي لعمل شيء حيال ذلك. وأشار روبرت أوين إلى أنه بالإمكان الإفراج عن ٣ مليارات دولار من مجموع ٨,٤ مليارات (بفوائدها) من الأموال الموجودة في مناطق حرة والمودعة في بنوك أمريكية في أوروبا وذلك بمجرد اطلاق سراح الرهائن.. مع احتمال الافراج أيضاً عما قيمته ٢,٥ مليار دولار من الذهب والأمانات الأخرى المودعة من قبل الحكومة الإيرانية لدى

بنك أمريكا المركزي في نيويورك. وهكذا أخبر كريستوفر الإيرانيين أنه بإمكانهم الحصول على ٥,٥ مليار دولار بمجرد إطلاق سراح الرهائن. أما بقية الأموال المجمدة فلا يمكن الإفراج عنها قبل تصفية حساب القروض الإيرانية من البنوك الأمريكية التجارية وإيجاد حل للمستحقات على إيران والتي تطالب بها جهات أمريكية.

أما مطلب الخميني الثالث فقد شعر كريستوفر وفريقه أنه ليس بالإمكان قبوله، حيث أن إلغاء «مستحقات أمريكا التجارية العالية» يعتبر في رأي أوين «كنوع من الفدية وسيدر على إيران مكاسب قدرها عدة ملايين من الدولارات على حساب المواطنين الأمريكان»(١٦).

أما بالنسبة لطلب الخميني بإعادة ثروة الشاه فقد كان موقف الولايات المتحدة أن على إيران أن تلجأ إلى المحاكم الأمريكية، وأن إدارة كارتر لن توافق على تسهيل هذا الأمر إلا مع الاحتفاظ بحقها في ايقاف نقل أي من ممتلكات الشاه حتى يتم الفض في هذه القضية.

اتجه الفريق في الصباح الباكر من ١٤ سبتمبر ١٩٨٠ إلى قاعدة جوية في المانيا حيث أقلتهم أربع سيارات مرسيدس حكومية فاخرة إلى قصر شلوس جيمنيخ المحاط بحديقة عادية وعدد من الحراس المدججين بالسلاح. وصل المفاوض الإيراني متأخراً أربع وعشرين ساعة واتضح أنه صادق الطبطبائي أخو زوجة أحمد خميني ومنحه الفريق الأمريكي الاسم الرمزي ترافيلار (الجوال). وبما أن الطبطبائي كان وحده فقد طلب أن يحضر الاجتماع وزير الخارجية الالماني هانس ديتريش غينشر فوافق الأمريكيون.

في ١٥ سبتمبر التقى كل من كريستوفر ورافائيل وغينشر بالطبطبائي سراً في مكان آمن خارج مدينة بون. بعد أن شرح كريستوفر رد أمريكا على مطالب الخميني طرح (الجوال) طلباً بأن تتنازل أمريكا والرهائن عن أي دعاوى لهم ضد إيران قد تترتب عن احتلال السفارة بما في ذلك المتعلقة بأضرار شخصية أو مالية، ولكن كريستوفر رفض ذلك. كما رفض الطبطبائي قبول حجة أمريكا بأن الإدارة الأمريكية غير قادرة على التأثير في إجراءات المحاكم فيما يتعلق باستعادة أموال الشاه الخاصة إلى إيران.

وتساءل (الجوال) عما إذا كانت أمريكا ـ وهذا أمر حيوي جداً للمستقبل ـ سوف تزود إيران بقطع الغيار الخاصة بالأسلحة والمعدات الأمريكية الإيرانية. يقول أوين أن

كريستوفر حاول «التهرب» من الإجابة على ذلك السؤال الذي أحاله الإيرانيون جانباً بصورة مؤقتة عندما بدأ الجزائريون يلعبون دوراً هاماً للتوسط في قضية الرهائن[١٧].

تحولت قضية المعدات والخدمات التي اشتراها الشاه بمليارات الدولارات ولم تقم الولايات المتحدة بتسليمها لإيران إلى مسألة مثيرة جداً. فقد كانت تلك المعدات بما فيها من طائرات مقاتلة وغواصات وأجهزة كومبيوتر وبرامج تدريب لا تزال في مخازن عسكرية في طول الولايات المتحدة وعرضها، وعندما طلب الإيرانيون عن طريق مكتب غينشر وقبل محادثات بون قائمة مفصلة بما طلبه الشاه ولم يستلمه زودتهم الولايات المتحدة بمذكرة مبهمة جداً. لقد كان الهدف من ذلك ـ على حد قول أحد الذين شاركوا في صياغة المذكرة ـ هو «تسييل لعاب الإيرانيين دون تحريرهم من جهلهم»[١٨].

عقد المفاوضون الأمريكان والإيرانيون سلسلة ثانية من المحادثات ثم انصرفوا في ١٧ سبتمبر/ أيلول للتشاور، بينما خرج بعض المفاوضين الأمريكان بالانطباع أن هناك أرضية لاتفاق ما، ولكن ذلك الشعور لم يدم طويلاً حيث أعاق اندلاع الحرب في ٢٢ سبتمبر/ أيلول (الجوال) عن السفر إلى أوروبا. . وعلقت المفاوضات. كانت تلك نقطة توقف هامة بالنسبة لإيران حيث أنه لم يكن الأمريكان ليهبوا لمساعدة آية الله الخميني أمام زحف قوات صدام حسين الجوية وفرق جيشه التي انطلقت لما اعتقد العراق أنها حرب خاطفة لتركيع الخميني خلال أيام أو أسابيع. لقد كان على الخميني أن ينتظر من أجل الحصول على الدعم الأمريكي إلى أن تتحرك القوات الموالية لإيران لاختطاف المزيد من الرهائن ولكن هذه المرة في لبنان.

الشبكة السرية لتزويد الأسلحة

لم تهب إسرائيل ـ تلك الدولة التي طالما لعنها الخميني ـ لنصرة الخميني فحسب بل هبت بناء على برنامج للمساعدات العسكرية معد وينفذ بعناية لضمان أفضل النتائج.

بدأت الاستعدادات في تل أبيب والقدس والعواصم الأوروبية منذ الأيام الأولى للحرب، وتحركت إيران بينما كان كريستوفر وفريقه الأمريكي يقدمون للرئيس كارتر تقاريرهم حول المحادثات السرية في المانيا الغربية. ففي ٥ أكتوبر ١٩٨٠ أنشأت الحكومة الإيرانية شركة باسم انتربارتس Interparts الهدف منها ـ بكل بساطة ـ أن تكون

واجهة لشراء كل ما يمكن شراؤه للمجهود الحربي الإيراني في سوق السلاح العالمية. كما أنشئت في أثينا شركة وسيطة باسم أوول ترايد بروجيكتس كومباني All Trade Projects Company كان يمثلها في باريس تاجر سلاح لبناني يدعى أحمد حيدري الذي كان يحمل رسالة تخويل بشراء أسلحة ومعدات نيابة عن وزارة الدفاع الإيرانية. ووضعت تركيبة معقدة لكيفية تحويل الأموال الإيرانية من فرع البنك المركزي الإيراني (بنك ملتي ايران) في باريس إلى بنك البحر الأبيض المتوسط في باريس كذلك. كما اتفق على أن يتم فحص وتوثيق ما يشترى من الأسلحة الإسرائيلية وغيرها من قبل القائم بالأعمال الإيراني في مدريد السيد محمد باهنام الذي تولى أيضاً اعداد شهادات المستخدم النهائي المزورة.

تمت أول شحنة إسرائيلية معروفة إلى إيران الثورة في ٢٤ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٠ وذلك بعد أربعة أيام فقط من إشارة كارتر في خطاب له ضمن الحملة الانتخابية إلى إمكانية تزويد إيران بقطع الغيار وتسريح الأموال الإيرانية المجمدة في الولايات المتحدة إذا ما تم إطلاق سراح الرهائن.

في نفس الوقت كانت طائرات الميج والسوخوي السوفييتية والميراج المقاتلة الفرنسية التابعة للقوات العراقية تقصف المواقع العسكرية والمدن والقوات الإيرانية دون أي مواجهة. ولذا فقد كان من الضروري ـ من وجهة نظر القيادة العليا الإيرانية ـ تحريك أسراب طائرات الفانتوم أف ـ ٤ الأمريكية المتقادمة كي تتصدى للغزاة العراقيين.

تمكن وسطاء السلاح الإسرائيليون والإيرانيون من الحصول على ٢٥٠ إطاراً مرممة خاصة بطائرات أف ـ ٤ دفعت مقابلها إيران مبلغ نصف مليون دولار من حساب سري في بنك الغمينا الهولندي بزيوريخ. وتثبت الوثائق الرسمية التي في حوزتي أن ذلك المبلغ دفع لحساب بعثة المشتريات الإسرائيلية في بنك هابوليم الإسرائيلي في زيوريخ[١٩]. كما تم تأجير شركة لوكسمبورغ للشحن الجوي كارغولكس لنقل تلك الإطارات إلى إيران ضمن شحنة سرية شملت محركات من بريطانيا عبر ايطاليا خاصة بدبابات سكوربيون البريطانية الصنع وقطع غيار من ايطاليا خاصة بالدبابات الأمريكية أم ـ ٦٠ وأجهزة راديو ميدانية من اسبانيا كانت جميعها مصحوبة بوثائق شحن مزورة.

توسعت شركة انتربارتس ـ التي توصف بأنها «شركة إيرانية للتجارة مقرها شارع

فرحرام رقم ٢٥ بطهران» ـ في أعمالها مع إسرائيل وغيرها حتى أصبح بإمكانها في ديسمبر ١٩٨٠ أن تعقد صفقة مع إسرائيل بما لا يقل عن ٧٣,٥ مليون دولار تضمنت قاذفات صواريخ وكميات هائلة من الذخيرة. كل ذلك بينما ظل ما يزيد عن خمسين مواطن أمريكي رهينة في يد الإيرانيين الذين لم يثنهم قرار إدارة كارتر بتجميد شحنات الأسلحة الأمريكية.

تولى الإشراف العام على تجارة السلاح المزدهرة هذه من قبل الطرف الإسرائيلي العقيد المتقاعد يعقوب نمرودي الذي كان يديرها من مكتب شركة انترناشنال ديسالينانشن اكويبمينت ليميتد International Desalination Equipment Limited الواقع في ٤٩ شارع ابن جيفرول في تل أبيب. لقد تصاعد حجم المعاملات السرية مع إيران إلى درجة أن نمرودي وعقيد إسرائيلي آخر يدعى دينغان تمكنا في ٢٤ يوليو/ تموز ١٩٨١ ـ أي بعد أكثر من ستة أشهر من بداية عهد ريغان ـ من توقيع عقد بقيمة ١٣٥,٨ مليون دولار مقابل شحنة شملت صواريخ لانس وقذائف مدفعية عيار ١٥٥ مم وصواريخ كوبرهيد و٦٨ صاروخاً مضاداً للطائرات من نوع هوك. لقد كانت إيران في أمس الحاجة إلى جميع تلك المعدات حيث أنها كانت تقاتل من أجل إيقاف تقدم العراق والاستعداد لهجوم مضاد.

ولد نمرودي في القدس لأبوين من أصل عراقي وكان آخر ملحق عسكري لإسرائيل في طهران في عهد الشاه ومساعداً للجنرال أريال شارون أثناء الحرب العربية الإسرائيلية في عام ١٩٦٧. تقاعد نمرودي عام ١٩٧٥ وبعد أن أتقن اللغة الفارسية بطلاقة وتعامل عن قرب مع المؤسسة العسكرية لشاه إيران. وفي أواخر السبعينات رجع نمرودي إلى طهران بصفة «رجل أعمال» ثم كمسؤول رسمي في الحكومة[٢٠]. كما لعب فيما بعد دوراً رئيسياً خلال فترة ازدهار عمليات السلاح السرية مع إسرائيل وإيران والكونترا بأمريكا الوسطى التي كان قد قام بها العقيد أوليفر نورث ونائب أميرال جون بوانديكستر.

وينتمي نمرودي إلى ذلك النوع القوي من رجال العسكرية الإسرائيليين من أمثال العقيد السابق مايك حاراري رجل الموساد ـ الذي قام بأعمال هامة لصالح الجنرال مانويل نورييجا في بنما، ممن وجدوا أنفسهم بدون عمل لدى خروجهم من قوات

الدفاع الإسرائيلية. لقد كان العمل المربح متوفراً لرجال بمثل خبراتهم، وجاءت الحرب الإيرانية العراقية فوفرت المزيد من فرص ذلك العمل.

كما كان من ضمن الشخصيات الإسرائيلية التي شاركت في التعامل مع إيران المدعو زفي رويتر القائم بالأعمال العسكري السابق في كل من أمستردام وكوبينهاجن وأوزلو، والذي عين إبان الثورة الإيرانية مساعداً لمدير الوكالة الإسرائيلية المعروفة في اللغة العبرية باسم سيباط SIBAT (والتي يعرفها الأمريكيون الخبيرون بدواخل إسرائيل باسم منظمة الصادرات والمساعدات الدفاعية الخارجية FODADE) والتي تتولى إدارة قسط كبير من صادرات إسرائيل وأغلبها من الأسلحة والتي يقدر دخلها بالمليارات. يقول رويتر: «نحن نصدر بضائع أرخص وأحسن من بضائع منافسينا وبدون شروط سياسية... ولا نتوقع فضلاً من أحد وما على الزبون إلا أن يدفع ويدفع فوراً... وهذا يعين صناعتنا للأسلحة على أن تعيش». وذهب موشي ميندلبوم إلى أبعد من ذلك إذ قال أن دخل إسرائيل من مبيعات السلاح لبلاد مثل إيران قد ساعد دولة إسرائيل نفسها على البقاء(٢١).

لقد كانت الأعمال التي أشرف عليها نمرودي وسيباط خاضعة ـ قانوناً ـ فيما يتعلق بالمعدات الأمريكية للترخيص من قبل الولايات المتحدة. وفي أواخر عام ١٩٨٠ اتصل المدعو موريس أميتي المدير التنفيذي لهيئة الشؤون العامة الإسرائيلية الأمريكية (PAC AI) ذات النفوذ القوي بالسيد ريتشارد ألاين مسؤول حملة رونالد ريغان الانتخابية (الذي تولى فيما بعد منصب مستشار الأمن القومي للرئيس) يسأله عن وجهة نظر الإدارة المقبلة فيما يتعلق بالشحنات الإسرائيلية للإطارات ومركبات الفرامل إلى إيران التي تحتاج إليها لاستخدام طائراتها أف ـ ٤. إلا أنه لا يوجد توثيق لرد السيد ألاين ولا يوجد ما يدل على ذهاب شحنات من ذلك النوع في تلك الفترة(٢٢).

استمرت إسرائيل ونظام الخميني في المحافظة على شبكة الاتصال السرية بينهما في الوقت الذي ساعدت الإطارات وقطع الغيار الإسرائيلية في المحافظة على الأقل على قسم من القوات الجوية الإيرانية في الجو للقيام بمهمات قليلة ولكن مختارة بعناية ضد أهداف عراقية مثل ميناء النفط بالفاو في الخليج الفارسي. كما تم نقل مئات المستشارين والفنيين الإسرائيليين على متن طائرات مدنية إلى إيران وكانت إقامتهم في

معسكر محمي بموقع نائي في ضواحي طهران الشمالية حيث قضوا كل فترة الحرب وظلوا موجودين هناك ـ على ما يقال ـ حتى أغسطس ١٩٨٨ أي بعد وقف اطلاق النار (٢٣). لقد حدث ذلك بالرغم من تورط الولايات المتحدة في الحرب ضد إيران وتورط منظمة حزب الله الإرهابية التي خلقتها إيران في لبنان في نشاطات مضادة لإسرائيل ولأمريكا منذ عام ١٩٨٢.

بعد تولي الرئيس ريغان الرئاسة بزمن قصير، وبعد أن تم الإفراج عن الرهائن الأمريكان سمح وزير الخارجية الأمريكي الكساندر هيج، متأخراً، لإسرائيل بأن تشحن قطع غيار الطائرات الأمريكية لإيران، وهو ما ظلت إسرائيل تقوم به منذ عام ١٩٨٠. كان ذلك الأمر هو موضوع النقاش بين دافيد كيمحي أحد رجال الموساد المحنكين في الشؤون الإيرانية ومدير عام وزارة الخارجية الإسرائيلية في ذلك الوقت والسيد روبرت ماكفارلين مستشار هيج بوزارة الخارجية والذي تولى منصب مستشار الأمن القومي فيما بعد (٢٤). كما قدر لماكفارلين أن يلعب دوراً رئيسياً في الصفقات السرية للسلاح مقابل الرهائن مع إيران وفي مجهود الولايات المتحدة ضد إيران وسوريا وحلفائهما في لبنان.

لقد كانت إيران تسدد المبالغ فوراً. ففي أوائل عام ١٩٨١، وبعد تصديق هيج على التعامل مع إيران أرسل بنك ملتي إيران رسالة اعتماد بمبلغ ٧٣,٥ مليون دولار إلى باريس ذهبت ٥٣ مليون دولار منها إلى أحمد حيدري لحساب أسلحة اشتريت في السوق العام، بينما استلمت إسرائيل ـ غالباً عن طريق شركة أثينا ـ مبلغ ٢٠ مليون دولار مقابل مدافع عديمة الارتداد من عيار ١٠٦ مم وذخيرة. وفي ٢١ و٢٣ مايو/ أيار ١٩٨١ حملت طائرات شركة العال الإسرائيلية شحنات أسلحة إلى لشبونة بالبرتغال حيث تم تحويلها على طائرات الخطوط الإيرانية في ٢٤ و٢٥ مايو. كما يبدو أن مبالغ أخرى خصصت لشراء الأسلحة قد اختفت تماماً.

في ١٨ يوليو/ تموز ١٩٨١ حصلت حادثة سيئة كشفت الغطاء الذي كان حتى ذلك التاريخ قد غطى على شحنات السلاح الإسرائيلة إلى إيران. ذلك أن طائرة شحن أرجنتينية من نوع سي أل ـ ٤٤ ذات المحرك المروحي ـ النفاث كانت في طريقها من تل أبيب إلى طهران عندما ضلت الطريق في الأجواء التركية السوفياتية وأسقطت على ما

يبدو من قبل الطائرات السوفياتية. لقد تم التعاقد في لندن مع قائد تلك الطائرة الاسكوتلندي المدعو ستيوارت ألن ماكفيرتي ـ الذي يعتقد أنه قتل في ذلك الحادث ـ على نقل ٣٦٠ طناً من الذخيرة وقطع غيار الدبابات. وقد سرب شريكه السويسري أندرو جيني معلومات تفيد أن تلك كانت الرحلة الثالثة لطائرة سي أل ـ ٤٤ من مجموع اثني عشرة رحلة على خط تل أبيب ـ لارناكا ـ طهران.

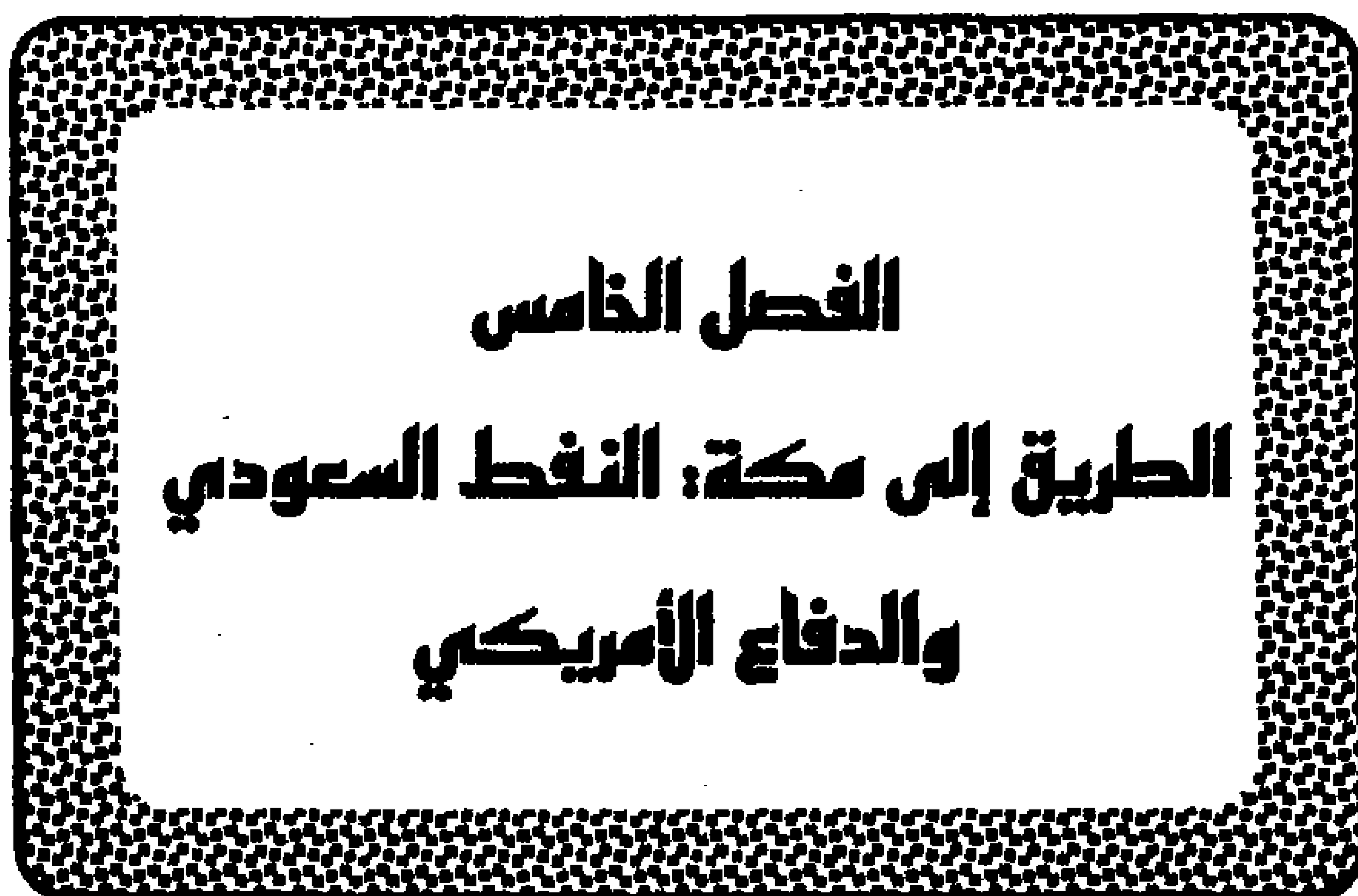
لقد جرى اعتراض ماكفيرتي في طريق العودة، ويعتقد بعض خبراء الطيران أن السوفيات قد استدرجوه إلى داخل الأجواء السوفياتية بإرسال إشارات مضللة حيث أن الطائرة قامت بانعطافة مفاجئة نحو اليمين ثم اختفت عن أجهزة المراقبة التركية. ويروي الصحفيون الذين عرفوا ماكفيرتي ـ مراقب حمالات الشحن بمطار شيبول في امستردام سابقاً ـ أنه جاء من حياة التقاعد المتواضعة في ميامي ليطير في المهات السرية بين إسرائيل وإيران(٢٥)... ولكن موت مرتزق آخر فجأة لم يكن ـ بالطبع ـ ليثني يعقوب نمرودي ومصدري السلاح الإسرائيليين المغامرين عن مهمتهم، فوقع هو والعقيد دينغان بعد أقل من أسبوع من موعد تلك الحادثة اتفاقيتهما البالغ قيمتها ١٣٥,٨ مليون دولار.

مع بداية عام ١٩٨٢ كانت إدارة ريغان على علم باستعدادات إسرائيل لغزو لبنان الذي جاء في يونيو/ حزيران من ذلك العام والذي كاد أن يسفر عن تحطيم القوات الجوية السورية، ونتج عنه هزيمة قواتها البرية في لبنان وقرار سوريا بالسماح للحرس الثوري الإيراني بالعمل في أراضيها. وتفيد دراسات الولايات المتحدة الاستخبارية التي أجريت فيما بعد أن إسرائيل كانت مع ذلك الوقت تقوم بشحن الأسلحة (غير الإسرائيلية) لإيران، وأن شخصيات من أمثال يعقوب نمرودي والوسيط منشوهر غربانيفار كانوا يعدون لصفقات خاصة تتعلق بأسلحة أمريكية. وفي شهادة لروبرت ماكفارلين قال إن وكالة الاستخبارات المركزية لم تخبره عن تلك الصفقات الإسرائيلية، كما أخبر وزير الخارجية جورج شولتز في برقية أرسلها إليه بعد الإدلاء بتلك الشهادة أنه من الواضح أن القنوات الإسرائيلية كانت موجودة منذ مدة طويلة. وذكر أحد موظفي مجلس الأمن القومي أن ماكفارلين كان يتجاهل تلك التقارير لعدم وجود أدلة قاطعة عليها وأن رئيس الوزراء الإسرائيلي شيمون بيريز قد أكد للولايات المتحدة عدم وجود أي تجارة من ذلك النوع(٢٦).

بعد وقت طويل من ذلك التاريخ كان لي حديث مع الجنرال أهارون ياريف الذي كان في عام ١٩٨٩ يدير هيئة للتخطيط ـ مسالمة إلى حد ما ـ تعرف باسم مؤسسة الدراسات الاستراتيجية بجامعة تل أبيب، فسألته عن الحكمة في تزويد إيران بالأسلحة الإسرائيلية سراً في الوقت الذي كان زعيمها يفصح عن نواياه لتحطيم إسرائيل علناً؟ كما ذكرته بأن حزب الله ينظم الهجومات الانتحارية ضد القوات الإسرائيلية في جنوب لبنان. هز ياريف كتفيه ثم قال:

أنت بالطبع على صواب فيما تقول على الأقل في الوقت الحاضر. ولكنك تعلم وأنا أعلم أن مصلحة إسرائيل الاستراتيجية تكمن في المحافظة على صداقة إيران ومساعدتها لمقاومة عدوان العدو المشترك وهو اليوم عرب العراق وقبل ثلاثة آلاف سنة كان نبوخذ نصر والبابليين. بالإضافة إلى ذلك فإن الكثيرين بمن فيهم إسرائيليين قد أثروا من جراء صفقات السلاح مع إيران(٢٧).

ومع دخول القوات الإيرانية لبنان لمواجهة قوات المشاة البحرية الأمريكية والجنود الفرنسيين التابعين لقوة السلام المتعددة الجنسيات وطردهم، كان خط محور طهران ـ تل أبيب يعمل في غاية الفاعلية.



الفصل الخامس

الطريق إلى مكة: النفط السعودي والدفاع الأمريكي

طلبات المساعدات السعودية

في يوم الجمعة ٢٦ سبتمبر/ أيلول ١٩٨٠ كان السيد زبيغنيو بريدجينسكي مستشار الرئيس كارتر لشؤون الأمن القومي يستعد للاسترخاء في بيته بعد يوم حافل بالمعاناة من اوضاع الشرق الأوسط المتدهورة ، حيث كان العراق قد قام بغزو إيران. وفجأة رن جرس التليفون في تمام الساعة العاشرة وخمس وخمسين دقيقة مساء، واذا بصوت الموظف المناوب بغرفة العمليات بالبيت الابيض يخبره عن أحداث خطيرة تجري على بعد بضع مئات من الأميال شمال مواقع حقول النفط السعودية التي تعتبرمصدراً أساسياً لاستمرار ازدهار اقتصاد الولايات المتحدة .

لقد كانت واشنطن خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية تعج بالتقارير حول هجوم عراقي مؤكد على الموانيء ومنشآت النفط والمنشآت العسكرية والبحرية الايرانية الواقعة على ضفاف الخليج [١]. لم يكن في ذلك ما يدعو للاستغراب، فالعراق وايران في حالة حرب. إلا أن الذي أقلق الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود عاهل المملكة العربية السعودية وحامي الحرمين في مكة والمدينة والحليف الرئيسي للولايات المتحدة في العالم العربي، هو أن دكتاتور العراق صدام حسين كان يخطط لاستخدام أراضي بعض دول الخليج لتنفيذ ذلك الهجوم .

كما أضاف المسؤولون في البنتاغون ومصدر موثوق به في احدى السفارات العربية بواشنطن، أن العراق يسعى إلى استخدام مواقع مثل دبي وشبه جزيرة مصندم في عمان الواقعة على مضيق هرمز مباشرة كقواعد للطائرات العمودية. لقد كان من ضمن الأهداف المباشرة للعراق حقول النفط الموجودة في عرض البحر والتي تملكها وتديرها شركات أمريكية، ثم جزر طنب الصغرى وطنب الكبرى وابو موسى الاستراتيجية الصغيرة الواقعة بالقرب من المضيق. لقد زرت أنا شخصيا تلك الجزر على ظهر سفينة من سفن الشاه الحربية في عام ١٩٧١ وذلك بُعَيْدَ أن سلمت بريطانيا مسؤولية تلك المنطقة لشاه ايران .

أخبر الموظف المناوب في البيت الأبيض بريدجينسكي تلك الليلة أن السعودية تقدمت بطلب مستعجل لاستخدام طائرات أجهزة التحكم والانذار الجوي الأيواكس AWACS وتقديم تعزيزات جوية دفاعية ودعم في مجال الاستخبارات (٢) بما في ذلك - على الأرجح - السماح لها بالاطلاع على صور من الأقمار الصناعية التجسسية الأمريكية وطائرات أس آر-٧١ بلاك بيرد للاستكشاف.

دعى بريد جينسكي - رجل الحرب الباردة الجسور - إلى اجتماع في اليوم التالي لمجلس التنسيق الأمني، وهوجهازتابع للحكومة الداخلية ومختص بالقضايا الحساسة. . ورفع مذكرة قصيرة للرئيس كارتر جاء فيها فيما يتعلق بالصراع الذي بلغ أنذاك قمته مع الاتحاد السوفياتي ما يلي:

٢٦ سبتمبر/ أيلول ١٩٨٠: العراق وإيران - من المهم التفريق بين الخطر القصير المدى على امدادات النفط والذي من الصواب التخفيف منه، والخطر البعيد المدى في المنطقة والذي لا ينبغي أن نقلل من شأنه. إن على أمريكا أن تعي أن الجهود طويلة الأجل في المنطقة تتطلب الشجاعة والتضحيات كي تحقق ما حققه ترومان في أوروبا (٣).

كان كل ذلك تنبيهاً مركزاً إلى أن للولايات المتحدة والسعودية مصلحة مشتركة في مجالين أمنيين أساسيين - على الأقل - لا تقل أهميتهما عن أهمية أمن النفط. أولهما الخطر المتوقع من الاتحاد السوفياتي الذي قام بغزو افغانستان، وثانيهما الخطر المتوقع من الثورة الشعبية الشيعية في إيران التي يسعى الخميني لتصديرها إلى خارج إيران.

وفي سلسلة من الاجتماعات خاصة بالأزمة عقدت ما بين ٢٧ سبتمبر/ أيلول و٧ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٠، دعا كل من وزير الدفاع هارولد براون وبريدجينسكي إلى ما أسماه الأخير «رد فوري وإيجابي على الطلب السعودي» بالمساعدة. بينما كان كل من وزير الخارجية أدموند ماسكي ونائبه واران كريستوفر - المتورط بعمق في قضية الرهائن الأمريكيين آنذاك - يدعو إلى سياسة التريث، كما كان يبدو أن نائب الرئيس ولتر مونديل كان يميل إلى تحفظ ماسكي وكريستوفر الراغبين في تفادي استفزاز السوفيات وإيران والعراق. كما كان هناك توجساً من أن دعوة السوفيات للتعاون من أجل الوصول إلى تسوية قد يضفي شرعية على وضعهم في الخليج وذلك ما كان يعارضه

رجال الحرب الباردة في الإدارة الأمريكية.

في ٢٨ سبتمبر/ أيلول اختار الرئيس كارتر الأخذ برأي بريدجينسكي باعطاء الأولوية لعلاقة أمريكا بالمملكة العربية السعودية، وصدرعلى الفور أمر بارسال طائرات الأيواكس إلى السعودية حيث ستقودها طواقم أمريكية تحمل العلامات السعودية. سبق صدور ذلك الأمر نقاش حاد بين بريدجينسكي وماسكي الذي كان في لحظة من اللحظات يخشى أن ذلك قد يتسبب في نشوب الحرب العالمية الثالثة. كما أرسل الرئيس كارتر رسالة إلى الرئيس الفرنسي فالاري جيسكار ديستانغ يقترح فيها توفير وجود بحري أمريكي فرنسي للمحافظة على حرية مضيق هرمز مما وافق عليه الفرنسيون وشرعوا في تنفيذه بهدوء مع مرور الوقت(٤). كما قامت أمريكا بالضغط ـ عن طريق السعودية ـ على دول الخليج الصغيرة بأن تظل على الحياد وألا تسمح لأي عمليات عسكرية عراقية أو إيرانية أن تقام على أراضيها. إلا أن صدام حسين وقادته العسكريين تراجعوا ـ أخيراً ـ عن القيام بهجومهم على المنشآت الإيرانية، وكانت تلك معركة من معارك الصراع الأمريكي الإيراني لم تضطر أمريكا إلى خوضها.

استمرت المناقشات الحادة طوال شهر اكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٠ حول كيفية ومدى حجم المساهمة الأمريكية في الدفاع عن أمن الخليج الفارسي ومن ثم ـ بصورة مباشرة أو غير مباشرة ـ عن أمن العرش السعودي نفسه. لقد وافق الرئيس كارتر على رأي براون وبريدجينسكي بزيادة حجم التعاون العسكري بين السعودية والولايات المتحدة، وأرسل فريقاً عسكرياً دبلوماسياً لتعزيز المئات من المستشارين العسكريين الأمريكيين الذي ظلوا يعملون في المملكة لزمن طويل. وعلى الرغم من صداماتهم السابقة مع أصدقاء إسرائيل في الكونجرس. ومع هيئة الشؤون العامة الإسرائيلية الأمريكية (AIPAC) ذات النفوذ القوي، فقد أخذ المسؤولون في إدارة كارتر في التخطيط خلال الأسابيع الأخيرة من عمر الإدارة للرفع من مستوى المساعدات العسكرية الأمريكية للملكة العربية السعودية.

أدى فقدان إيران ـ كما يعتبرونه في واشنطن ـ وتحركات الاتحاد السوفياتي في كل من اثيوبيا واليمن الجنوبي وافغانستان، إلى بروز ما عرف باسم قوس الأزمات والذي يشار به إلى الأعمال العدوانية أو السرية الناتجة عن النفوذ الإيراني أو السوفياتي والتي

تهدد أصدقاء الولايات المتحدة في جميع المناطق الممتدة من أقصى نقطة بجنوب افريقيا إلى جبال البامير في أفغانستان بالقرب من الحدود السوفياتية والصينية. وهكذا أصبحت هناك ثلاث مناطق حيوية في العالم من وجهة نظر السياسة الأمنية الأمريكية وهي أوروبا الغربية والشرق الأقصى والشرق الأوسط.

لقد أصبح من الواضح لواضعي استراتيجية واشنطن آنذاك أن هناك - سواء شاؤوا أم أبوا - في تلك المواجهة لاعباً عربياً رئيسياً هو المملكة العربية السعودية.

العلاقة السعودية

في عام١٩٨١حاول الاستاذ الشهير الدكتور وليام كوانت أحد رجال الإدارة الأمريكية في عهد كارتر والذي توعز إليه - بصورة أساسية - مسؤولية وضع اتفاقيات كامب دايفد للسلام، أن يتصور آثار مجموعة من الأحداث المتخيلة على المصالح الأمريكية خلال الثمانينات. أول تلك الأحداث المفترضة هو قيام انقلاب عسكري ضد الأسرة المالكة في السعودية الذي سيكون أول أثر للاضطرابات التي ستتبعه توقف انتاج النفط السعودي وفرار موظفي الشركة العربية الأمريكية أرامكو من البلاد. أما السناريو الآخر فهو تدمير جزء كبير من منشآت انتاج النفط السعودي من الجو بطائرات قوةمعادية قد تكون إيران أو إسرائيل أو العراق أو اليمن. لا تزال هذه الافتراضات قائمة خلال التسعينات مع اقتراب سنة ألفين واستمرار تزايد اعتماد الولايات المتحدة على النفط السعودي.

لم تشهد المنطقة أياً من الأحداث المفترضة هذه أثناء حرب الثماني سنوات بين العراق وإيران، إلاأن حدثاً آخرلايقل إزعاجاً بالنسبة للحكام السعوديين قد تم بالفعل ولم تستطع الولايات المتحدة أن تقوم حياله بشيء. في يوليو/ تموز ١٩٨٧ وأثناء وجود ملايين من المسلمين يؤدون فريضة الحج في مكة والمدينة قتل مئات من الناس في مصادمات بين الحجاج الإيرانيين الثائرين وقوات الأمن السعودية. عندها انطلقت آلة الدعاية الخمينية لتصرخ بأن الملك فهد بن عبد العزيز الذي خلف أخاه الراحل الملك خالد في عام ١٩٨٢ قد خان واعتنق إسلاماً أمريكيا ولم يعد أهلاً لحماية الأماكن المقدسة (إذأضيفت تلك المهمة إلى لقب الملك السعودي وظل يشار إليه بخادم الحرمين الشريفين).

أشار كوانت إلى أن أمريكا قد استفادت بشكل هائل من العلاقة الحميمة والطويلة مع السعودية والتي ظلت تغذيها حاجة أمريكا للنفط السعودي وحاجة السعودية للأمن الذي توفره أمريكا. كما أن شركات النفط الأمريكية استمرت في الحصول على أرباح باهظة من الظاهرة التي تعود إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية بكثير، وهي كون كلفة استخراج النفط في الجزيرة العربية تصل إلى عشر أو أقل من عشر التكلفة في الولايات المتحدة وأغلب بقية بلدان العالم. كما كان للشركات الأمريكية نصيب الأسد في أسواق الجزيرة العربية إذ لعب رجال العسكرية والدبلوماسية الأمريكان أدواراً رئيسية ـ وإن كانت في الأغلب غير ظاهرة ـ في دراما القوة السعودية المتعاظمة.

إذا أضيف إلى ذلك معارضة أسرة آل سعود الشديدة للشيوعية، فالنتيجة هي توافر ميزات ضخمة للسياسة الغربية. فقد استهدفت أكثر نشاطات السعودية الاتحاد السوفياتي ومغامراته في العالم الثالث، كما قام عدد من الهيئات الممولة تمويلاً جيداً من قبل السعودية بدعم الدعاية ونشر الدراسات العملية حول الإسلام والقوميات العرقية بين الشعوب المسلمة في مناطق آسيا الوسطى الواقعة في الاتحاد السوفياتي والصين. وكم ذهبت من أموال سرية لمجموعات اريترية كانت تحارب نظام أثيوبيا الماركسي وذلك لكون أغلب قيادات تلك المنظمات هم من المسلمين المعارضين للنفوذ الإسرائيلي الكبير في أثيوبيا وللشيوعية والاتحاد السوفياتي ثم ـ أخيراً وليس آخراً ـ لأن السعودية كانت تعتبر أن جهودها لدعم الاريتريين تخدم مصالح حليفتها أمريكا.

لقد ساهمت المساعدات والقروض المالية السعودية ـ والكويتية كذلك ـ المباشرة وغير المباشرة ـ عن طريق بنوك عربية ودولية مختلفة في تقوية دول فقيرة في آسيا وأفريقيا ومنع أنظمة الحكم فيها من « التحول الى الشيوعية». لقد ضخت مئات الملايين من الدولارات السعودية لمنظمات المجاهدين في أفغانستان، حتى بعد رحيل الغزاة السوفيات في عام ١٩٨٩ حين تركوا البلاد في حالة يرثى لها. لقد كانت السعودية بذلك تقوم بدعم سياسة الولايات المتحدة المعادية للاتحاد السوفياتي ومواجهة نفوذ الخميني في أفغانستان إذ كانت إيران تدعم بالدعاية والمال والسلاح مجموعات المجاهدين الشيعية كي تكسب موقع قدم قوي لها هناك.

كان دعم السعودية لأفغانستان خلال ادارتي ريغان وبوش مثار حنق المشايخ في طهران، وأصبح الإسلام الأمريكي - كما وصفه بعض القادة الإيرانيين من أمثال رئيس الوزراء مير حسين موسوي - في السعودية عدواً لابد من القضاء عليه. وفي نفس الوقت كان بعض المواطنين السعوديين مثل رجل الأعمال المليونير عدنان خاشقجي يتحركون في السوق العالمية بما يدعم القضايا الأمريكية في أمريكا الوسطى وبالذات الكونترا في نيكاراغوا. وكان هناك - على النقيض الآخر - مواطنون سعوديون ممن لا يمكن بأي حال من الأحوال اعتبار أنهم يتصرفون دون موافقة مليكهم يساعدون في الدفع بصفقات السلاح مقابل الرهائن السرية التي كانت توفر السلاح خلال الحرب العراقية الإيرانية لعدو السعودية وأمريكا المعلن: طهران.

لعبة «بوكر» القوى في الجزيرة العربية

إن فهم أمريكا والدول الصناعية الأخرى لطبيعة ومدى تعهد أمريكا للسعودية وما ترتب عليه من تحد ايراني لأمريكا في السعودية قاصر الى أبعد الحدود. ولكي يستوعب القارىء لعبة بوكر القوى الضخمة بين أمريكا وايران في شبه الجزيرة العربية فان من الضروري استعراض بعض الحقائق الأساسية حول أصل تورط أمريكا في جزيرة العرب.

لقد ظلت هناك شكوك طوال القرن التاسع عشر حول وجود بحيرة بترولية ضخمة تحت سطح الأرض في شبه الجزيرة العربية قد تغير معالم المؤسسة الصناعية في الغرب واقتصاد العالم كله. كان من ضمن الباحثين عن تلك البحيرة السمسار المغامر بارون جوليس فون رويتر، أول رجل أموال أوروبي يحصل على امتيازات للمعادن والنفط في ايران، وغالوست غالبينكيان الذي اشتهر باسم «السيد خمسة بالمائة» نسبة للعمولات الخيالية التي كان يتقاضاها، ووليام دارسي مؤسس شركة النفط الانجليزية الايرانية الذي تكبد خسائر فادحة في التنقيب عن النفط قبل أن يحالفه التوفيق في ايران. أما في القرن الحالي فلم ينتبه قادة الولايات المتحدة الى أهمية ذلك الكنز من النفط الذي اكتشفه اسلاف شركة أرامكو في السعودية في الثلاثينات الا بعد مرور أمريكا بأزمة الانخفاض الاقتصادي العظيم والحرب العالمية الأولى.

في عام ١٩٣٠ بينما كاد الانخفاض الاقتصادي العظيم يشل حركة الاقتصاد

الأمريكي والأوروبي قدم الملك عبد العزيز بن سعود مؤسس دولة المملكة العربية السعودية الدعوة الى تشارلز كراين لزيارته. كان كراين أحد أثرياء أمريكا الخيرين ورئيس اللجنة التي حققت في عام ١٩١٩في ذلك الموضوع الحساس وهو مستقبل الأراضي التي كانت تابعة للدولة العثمانية بما في ذلك فلسطين. وعد كراين الملك بأن يرسل إليه مهندساً متخصصاً في المعادن ليدرس موارد السعودية المائية والزراعية والمعادنية. كان ذلك المهندس هو كارل تويتشيل الذي يعرفه مؤرخو أرامكو باسم يانكي فيرمونت الذي جاب جميع أطراف صحراء الجزيرة العربية خلال الفترة ١٩٣١ - ١٩٣٢ بحثاً عن موارد المياه (الضرورية لأي عمل يمكن أن يقوم في الصحراء) وطبقات المعادن البارزة على سطح الأرض ثم عن النفط. وفي المحمية البريطانية البحرين عثر اثنان من مهندسي الجيولوجيا التابعين لشركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا (SOCAL) على النفط وأوصت الشركة ببذل جهود اضافية لاكتشاف النفط في السعودية.

توصل فريق شركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا (سوكال) الى اتفاق مع الحكومة السعودية بمساعدة تويتشل والكاتب المغامر البريطاني هارولد سنتجون فيلبي (والد الجاسوس البريطاني المزدوج هارولد كيم فيلبي الذي فر من بيروت الى الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٦٣). لقد كانت الولايات المتحدة قد تخلت عن نظام الذهب لتحديد قيمة النقود (وكان الذهب هو العملة الوحيدة التي يحترمها حكام العرب آنذاك) وقام الرئيس روزفيلت بقفل البنوك الأمريكية، بينما كان برميل النفط الخام في ذلك الوقت يباع بأقل من خمسة وخمسين سنتا. وبعد أسابيع من المساومة المتواصلة وقع محامي سوكال لويد هاملتون اتفاقية امتياز في جدة يوم ٢٩مايو/ أيار ١٩٣٣ وافقت سوكال بموجبها على إقراض السعودية ما قيمته مائتين وخمسين ألف دولار من الذهب ودفع حقوق قدرها أربع شلنات (أي ما يعادل دولار واحد تقريباً)عن كل طن ينتج من النفط، وأن تستلم الحكومة السعودية ربع مليون دولار اضافياً من الذهب اذا تم اكتشاف النفط بكميات تجارية. مقابل ذلك منحت شركة سوكال الحق الكامل للتنقيب عن النفط في شرقي السعودية وحق الأولوية - عند تساوي العروض - للتنقيب في مناطق أخرى في أغلب بقية أنحاء المملكة. كانت مدة هذه الاتفاقية ستين سنة ثم مددت فيما بعد الى سنة ٢٠٠٢ شرعت سوكال في التنقيب فوراً تقريباً مستخدمة خبراتها في تكساس باحضار طائرة فاير تشايلد - ٧١ المجهزة بمعدات التصوير. ولكن سرعان ما

اصطدم مهندسوها الجريئون بالروتين الاسلامي حيث أجبروا على الطيران العالي وبدون استخدام الراديو، إلا أنه سمح لهم فيما بعد بالتصوير والتنسيق مع خبراء الجيولوجيا العاملين على الأرض. بعد فترة من خيبة الأمل نجح الجيولوجي ماكس ستاينيك وخبير الصخريات ريتشارد برامكامب في حفر أول بئر تجاري وهو بئر الدمام ـ ٧ الذي ثبت فيما بعد أنه أكبر حقل للنفط في العالم.

في عام ١٩٣٥وحدت سوكال وشركة تيكساس(تيكساكو) امكانياتهما في مصر وهاواي لتكوين مجموعة باسم «كاسوك» توفر التمويل لعمليات النفط في السعودية. وفي ١مايو/ أيار ١٩٣٩ بينما كانت سحب الحرب العالمية الثانية تتجمع في أوروبا وكان خبراء أدولف هتلر للامدادات يراقبون حقول نفط الشرق الأوسط عن بعد، فتح الملك عبد العزيز ـ في حفل خاص ـ صماماً يصب النفط في أول حاملة بميناء رأس تنورة بالقرب من الظهران.

كان هتلر وحليفه في قوات المحور بينيتو موسيليني مصممين على تدمير عمليات النفط الغربية في الخليج. كما قاد المارشال أروين رومل حملة واسعة في شمال أفريقيا فشلت في الوصول الى ممر الحلفاء للمواصلات والنفط الحيوي في قناة السويس بمصر. في ليلة ١٩أكتوبر/ تشرين الأول١٩٤٠وبعد سقوط فرنسا قصفت قوات موسيليني منشآت النفط الأمريكية (وأمريكا لا زالت على الحياد في الحرب) في السعودية ظناً منها أنها تقصف منشآت بريطانية.

أقلعت أربع طائرات ايطالية بحرية من نوع مارشيتي أس ـ ٨٢ من جزيرة رودس بالبحر الأبيض المتوسط لعبور الجزيرة الى الخليج دون تزود بالوقود وقصف محطة تكرير النفط التابعة لشركة نفط البحرين (BAPCO) التي كانت آنذاك تحت الحماية البريطانية. أثناء تلك الرحلة فقد أحد الطيارين الايطاليين الاتصال بزملائه وظهرت له أضواء مدينة الظهران فألقى بقنابله ظناً أنه يقصف البحرين. لم تنتج عن ذلك أضرار تذكر إلا أن الجميع في مؤسسة كاسوك أصبح على علم بأن الحرب دائرة[٦].

بعد ذلك مباشرة وصلت سفن الولايات المتحدة الحربية الى الخليج، وأصبح منذ ذلك التاريخ وحتى مجيء عمليتي درع الصحراء وعاصفة الصحراء في ١٩٩٠ـ١٩٩١للولايات المتحدة التزام بالدفاع عن حقول النفط السعودية ضد أي

اعتداءات عسكرية أو سياسية. وأدرج في قائمة المعتدين المحتملين كل من الاتحاد السوفياتي وإيران ثم مؤخراً العراق، ونشأ بين أمريكا وبريطانيا قدر كبير من التنافس التجاري أدى الى علاقات سيئة فيما يتعلق بامتيازات النفط.

أصبح تزويد الاتحاد السوفياتي بالامدادات مهمة أساسية بالنسبة لقوات الحلفاء، بعد أن هاجم هتلر الاتحاد السوفياتي في يونيو/ حزيران ١٩٤١ واعتداء اليابان على ميناء بيرل هاربر في ٧ديسمبر/ كانون الأول من نفس السنة، مما أدى الى احتلال إيران المشترك من قبل بريطانيا وأمريكا والاتحاد السوفياتي والتخفيف من حدة التنافس الأنجلو أمريكي. إلا أن السوفيات لم يخفوا رغبتهم في الحصول على الامتيازات النفطية التي كانت تعاينها شركة النفط الأنجلو إيرانية بل وشركات النفط الأمريكية نفسها.

تزايد قلق الحكومة الأمريكية بسبب ارتفاع معدل الاستهلاك المحلي للنفط، وكميات الوقود الضخمة المطلوبة للمجهود الحربي، ومع اقتراب موعد النصر في الحرب كان جيمس فوريستال وزير الدفاع الأمريكي دقيقاً في نبوءته التي قال فيها:

ستواجه الولايات المتحدة خلال الخمس والعشرين سنة القادمة انخفاضاً حاداً جداً في مخزون النفط، ونظراً لأن النفط وجميع منتجاته سيشكل الأساس الذي يحدد القدرة على خوض أي حرب حديثة، فإني أعتبر هذه هي أهم مشكلة تواجهها الحكومة. . ولا يعنيني أي شركة أمريكية تتولى تنمية مخزون النفط العربي ولكنني أعتقد جازماً بضرورة أن تكون تلك الشركة أمريكية.

مع انتهاء الحرب العالمية الثانية كان هم محمد رضا شاه بهلوي الذي نصب حديثاً هو حماية موارد نفط مملكته وتطويرها، ولم يكن يشارك منافسه ملك السعودية في الحرص على مستقبل فلسطين. كانت فلسطين في ذلك الوقت لا تزال أرضاً تحت الادارة البريطانية بينما كان اليهود القوميون يقلقون راحة الادارة العسكرية البريطانية بجهودهم للتخطيط لاقامة دولة يهودية هناك.

يظل هنالك خلاف حول كون نشأة العلاقة الأمريكية السعودية - التي يصفها البعض بسخرية بأنها اللغز الأكبر !! - قد بدأت في مصر وليس في الخليج أو إيران أو السعودية. ففي فبراير/ شباط ١٩٤٥ اجتمع الملك عبد العزيز بالرئيس الأمريكي فرانكلين روزفيلت على ظهر الطراد البحري الأمريكي كوينسي الذي كان راسياً في قناة

السويس، حيث أكدا معاً أهمية دور الولايات المتحدة في تطوير الموارد النفطية السعودية والدفاع عنها وعن المملكة نفسها. أتبع الملك ذلك اللقاء باعلان دخوله الحرب في مارس/ آذار ١٩٤٥ الى صف الحلفاء، وكتب الى الرئيس الأمريكي يقول أن على كل بلدان العالم أن تساعد في استقبال اليهود ضحايا الاضطهاد النازي وأنه لا يتوقع من فلسطين وحدها أن تتحمل العبء كله. لقد عبر الملك السعودي بذلك ـ تلميحاً إن لم يكن تصريحاً ـ عن وجهة نظر الحكام العرب الآخرين بضرورة عدم اقامة دولة يهودية في فلسطين.

جاء في رد روزفيلت على الملك عبد العزيز تذكير بوعده الشخصي الذي قطعه في اجتماعهما في قناة السويس بأن الحكومة الأمريكية (التي لم تكن آنذاك مساندة لفكرة الدولة اليهودية) لن تغير من سياستها تجاه القضية الفلسطينية دون تشاور كامل مع كل من الطرفين العربي واليهودي. كما تعهد روزفيلت بعدم القيام بأي عمل عدائي تجاه الشعوب العربية. بعد أسبوعين من ذلك التاريخ ـ كما يثبت التاريخ الرسمي لشركة أرامكو ـ أخبر الرئيس الكونجرس أنه:

من خلال حديثي مع ابن سعود لمدة خمس دقائق عرفت عن قضايا الجزيرة العربية والقضية الاسلامية والقضية اليهودية أكثر مما عرفت من خلال عشرات الرسائل المتبادلة بيننا (٨).

اتجه العرب دوماً الى الاعتقاد ـ أو أرادوا الاعتقاد ـ بأن رؤساء أمريكا الذين جاؤوا بعد روزفيلت سوف يحفظون عهوده... وهنا يكمن أصل سوء الفهم الشنيع بين الولايات المتحدة والسعودية المتعلق بلب الخلاف العربي الاسرائيلي. ويشير الدكتور كوانت إلى أنه في الوقت الذي كان فيه العاهل السعودي متصلباً في معارضته للدولة اليهودية كانت آراء روزفيلت مرنة». كما كان من الضروري تذكير خلفه الرئيس ترومان باستمرار خلال السنوات الثلاث المضطربة التالية، وقد أعلن استقلال اسرائيل في ١٥ مايو/ أيار ١٩٤٨ بأن روزفيلت قد «قدم للملك عبد العزيز تأكيدات بألا يساند اليهود ضد العرب وألا يتخذ أي خطوات معادية للشعوب العربية». كما كان هناك الوعد بالتشاور حول القضية الفلسطينية قبل اتخاذ قرارات نهائية كقرار الرئيس ترومان بالاعتراف الفوري بدولة اسرائيل الجديدة (٩).

لقد أصبح ما اعتبره العالم العربي وحكام السعودية بالذات نكثا من ترومان لعهد روزفيلت هو موضوع الخلاف الرئيسي بين ثلاثة أجيال من الادارات الأمريكية وحكام المسلمين. أضيف الى هؤلاء منذ عام ١٩٧٩ زعماء جمهورية إيران الاسلامية الذين عملوا على تأديب حكام السعودية ومعاقبتهم لعدم ارغامهم «الشيطان الأكبر» ـ أمريكا ـ على الوفاء بوعود الرئيس روزفيلت.

٤ يوليو/ تموز في جدة

بينما كانت بوادر الحرب الثالثة بين العرب واسرائيل منذ عام ١٩٤٨ تبدو في الأفق ـ وكانت هذه المرة بسبب رغبة الرئيس المصري أنور السادات والرئيس السوري حافظ الأسد في استرداد الأراضي التي احتلتها اسرائيل عام ١٩٦٧ ـ كنت أشاهد عن كثب حقيقة الأزمة السعودية الأمريكية حول النفط وقضية فلسطين.

وجدت نفسي في الرابع من يوليو/ تموز١٩٧٣ ـ الذكرى السنوية للعيد الوطني لاستقلال أمريكا ـ في ميناء السعودية الغربي بمدينة جدة الحارة حيث أقلتني مع صحفي الواشنطن بوست جيم هو غلاند سيارة حكومية سعودية في طريق متعرج الى مدينة الطائف عاصمة السعودية الصيفية حيث النسيم البارد لاجراء مقابلة مع الملك فيصل.

توفي الملك عبد العزيز في ٩نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٥٣ ـ أي قبل عشرين سنة تقريباً من تاريخ وجودي في الطائف ـ بعد حياة حافلة من العمل لتوحيد بلده وتطويرها ـ وخلفه ابنه الملك سعود الذي استمر حكمه حتى عام ١٩٦٤. شهد حكم الملك سعود أكثر سنوات السعودية اضطراباً بما في ذلك قطع العلاقات ـ مؤقتاً ـ مع بريطانيا وفرنسا لاشتراكهما مع اسرائيل في العدوان على مصر في حرب قناة السويس لعام ١٩٥٦ وتصاعد معارضة المملكة لبرامج مصر «الاشتراكية» الثورية (التي كانت تطبق في الجارة اليمن بروح حماسية توسعية) والصعوبات الاجتماعية والاقتصادية والمالية التي ترتبت على ارتفاع الاستهلاك عن معدل دخل النفط.

وفي نوفمبر/ تشرين الثاني١٩٦٤ أقنع أعيان المملكة وحكماؤها ولي العهد الأمير فيصل الأخ الأصغر للملك سعود ـ الذي كانت حالته الصحية في تدهور وقدرته على التحكم في زمام الأمور في ضعف متزايد ـ أن يتولى أمور العرش. لقد كان فيصل على

درجة جيدة من التعليم ورجل دولة قد طاف في بلاد العالم ومحل احترام حتى بالنسبة لأعداء السعودية لشجاعته واستقامته وتدينه. كما كانت شخصيته تتسم بالاعتدال، وكان ـ بعكس ما هو معروف عن أفراد أسرة آل سعود الحاكمة ـ لا يمل من العمل والحركة. وفي عام ١٩٤٧ ألقى فيصل مندوب السعودية لدى الأمم المتحدة كلمة أثناء مناقشة القضية الفلسطينية عارض فيها تقسيم فلسطين الى دولتين يهودية وعربية، وقد أرجع الكثيرون آنذاك اليه الفضل(أو حملوه المسؤولية في رأي آخرين) في سقوط مشروع التقسيم. أما داخل السعودية فقد دفع فيصل باصلاحات مالية وادارية وتعليمية لم تكن تلقى شعبية واسعة. فهو أول حاكم سعودي يسمح بتأسيس مدارس للبنات وأمر الجيش بحماية أول مدرسة من تلك المدارس من غضب العناصر التقليدية المتشددة.

في الرابع من يوليو/ تموز ذاك، كنت وجيم هوغلاند على علم بأن فيصل قد أخبر عددمن الشخصيات الأمريكية بمن فيهم السيد فرنك يونغرز المدير التنفيذي لشركة أرامكو بأنه إذا لم تكن أمريكا مستعدة للضغط على اسرائيل للانسحاب من الأراضي المحتلة فانه لا يمكن اعتبار السعودية كمصدر رئيسي لنفط العالم الحر أمراً مسلماً به. أي ـ بمعنى آخر ـ أن السعودية وهي أكبر وأهم دولة عربية لانتاج النفط تحذر قادة الغرب ولأول مرة في الصراع العربي الاسرائيلي بأن النفط سوف يستخدم كسلاح في ذلك الصراع إذا لزم الأمر.

بعد انتظار قصير في الطائف أخبرنا أنه بإمكاننا القيام بزيارة مجاملة للملك فيصل ولكن دون إجراء مقابلة أو أخذ صور فوتوغرافية، كما لم يسمح لنا ـ إن لم تخني الذاكرة ـ أن نحضر جهاز تسجيل صوتي معنا. لقد كان اللقاء في مجلس الملك التقليدي الذي يعتبر في غياب البرلمان الوسيلة الرئيسية التي يلتقي بها الملك برعيته.

كان يقف في الزاوية بالقرب من مجلس الملك مترجمه وحاجبه. كما لاحظنا وجود صحفيّين اثنين من إحدى المجلات اللبنانية متأهبين بالورق والقلم وآلة تصوير فوتوغرافية لتدوين كل ما سيقال أثناء تلك الزيارة. لا شك أن الصحفيين سوف ينسجان حول ما سيقال لنا مقابلة صحفية (وهو ما تعودناه ـ مع الأسف ـ من زملائنا الصحفيين من بيروت في ذلك الوقت).

انتابنا احساس بأن فيصل على وشك أن يلقي محاضرة من محاضراته الشهيرة،

وفعلاً لقد كان. تحدث الملك بلغة عربية فصيحة لمدة خمس وأربعين دقيقة مؤكداً على مساواة الصهيونية بالشيوعية واعتبارهما جزءاً من مؤامرة عالمية للقضاء على الفلسطينيين خاصة ولسلب العرب عامة حقوقهم بالخديعة. أتبع ذلك بتحذير مشدد أن على الولايات المتحدة إذا كانت فعلاً تعتبر نفسها صديقاً للسعودية كما تدعي أن تتحرى الصواب فيما يتعلق بموضوع اسرائيل وإلا فإن السعودية لن تستطيع أن تستمر في توفير احتياجات أمريكا من النفط أو في التصرف كشريك حميم لها في مجالات أخرى.

دونا كل ما نستطيع تدوينه وبأسرع ما يمكن وشربنا القهوة المركزة المخلوطة بالتوابل، وفي نهاية المقابلة التقينا رجلاً مألوف الملامح يرتدي ثوباً أبيض فضفاضاً وهو الشيخ أحمد زكي يماني أشهر شخصيات المملكة من خارج أفراد الأسرة الحاكمة. يعتبر الشيخ يماني الذي تلقى تعليمه بكلية هارفارد للقانون ومعهد القانون بجامعة نيويورك وغيرها من المؤسسات العلمية السيد المطلق لسياسة النفط السعودي، والرجل الذي ينصت الى كلماته الملك فيصل وغيره من الرؤساء والملوك ووزراء الطاقة ومدراء شركات النفط العالمية بكل عناية.

استقبلنا الشيخ يماني بالتحية بأسلوبه ذاك المؤدب البشوش أبداً، وكان كلانا قد التقى به في السابق (حيث التقيته في أول زيارة لي للسعودية مع أستاذ جامعة هارفارد الراحل أي. جاي مايير الذي يعتبر صديقاً ومستشاراً وأستاذاً لجميع الاقتصاديين والمخططين السعوديين الذين تلقوا تعليمهم في أمريكا).

بادرنا يماني بقوله: «لم تكن ترجمة حديث الملك فيصل جيدة. . وأرجو أن تتفضلا على الغذاء في بيتي لأشرح ما قال وأفيدكما ببعض الأخبار والمعلومات الأخرى».

لقد كان الغذاء في فيلا اليماني بمدينة الطائف ذات الأثاث الأنيق البسيط ممتعاً ودسماً بالأخبار. لم يتعرض يماني الى الحرب التي كانت توشك أن تقوم بين اسرائيل والعرب إلا كمجرد فرضية، في الوقت الذي كان الملك فيصل ويماني نفسه ـ على الأغلب ـ على علم باقترابها. وبعد أن قامت الحرب في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٣ ثبت لدينا أن كلمات يماني كانت صائبة. لقد كانت الرسالة التي أوصلها إلينا خلال ذلك الحديث ـ والتي أسرعنا بتوصيلها لصحفنا في جدة عبر خط تلفوني قديم ـ لا تزال سارية المفعول في عصر الثورة الايرانية بنفس ما كانت عليه عشية قيام حرب

أكتوبر/ تشرين الأول١٩٧٣ . . . تلك الرسالة هي :

ـ إذا نشبت حرب مع اسرائيل فنعتقد أنكم كأمريكان سوف تساعدوا اسرائيل كالعادة بالسلاح وما الى ذلك .

نحن لا نرغب في استعمال النفط كسلاح، إلا أنه في حال نشوب الحرب فلن نستطيع الدفاع عن حقول النفط، ولو استخدمنا جيشنا النظامي كله والحرس الوطني في مواجهة مجموعات فدائية صغيرة متعصبة ومدربة تدريباً عالياً وخبراء في التفجيرات مصرين على تدمير تلك الحقول .

ولذا فسنضطر الى قطع تدفق النفط اذا ما نشبت حرب، وسوف يعني ذلك ـ على أقل تقدير ـ انخفاضاً في الإنتاج ومقاطعة . فأرجو أن تخبروا حكومتكم وقراءكم أن يفكروا ويفكروا جيداً فيما هو فعلاً في مصلحة أمريكا .

المجموعات المتعصبة التي عناها يماني في حديثه هي المجموعات الفلسطينية، إلا أن كلامه ينطبق أيضاً على المخربين الموالين لإيران الذين تسببوا في بعض الأضرار هنا وهناك للمنشآت النفطية خلال الحرب الإيرانية العراقية. كما كان قبل وأثناء عاصفة الصحراء هناك تخوف من مخربين موالين لصدام حسين أيضاً .

حاولنا خلال الحفل الذي دعا إليه السفير الأمريكي بمناسبة ذكرى عيد الاستقلال في مساء ذلك اليوم، أن نوصل ملاحظات الملك والسيد يماني إلى المعنيين مشيرين إلى أنهما حرصا على ايصال ما بدى لنا أنه رسالة مهمة وخطيرة جداً .

لم يبد السفير الأمريكي كبير اكتراث عندما رد يقول : «نعم، إن السعوديين يحاولون ترويج ذلك النوع من الكلام منذ عدة أشهر، وهذا هو أسلوبهم ولكنهم لا يعنون ما يقولون » . . وكانت تلك آخر كلمات سمعتها أنا وجيم من ذلك السفير.

بدأت الحرب بعبور المصريين لقناة السويس في ١٦أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٣ودخول أراضي سيناء التي كانت تحتلها اسرائيل، وبعد أسبوعين أعلنت السعودية التي كانت قد أرسلت بعض الجنود والامدادات إلى الجبهة السورية عن قطع شحنات النفط إلى الولايات المتحدة وهولندا بسبب مساندتهما لاسرائيل. لقد يئس المسؤولون في شركات النفط الكبيرة من كل محاولات التعبير عن وجهات نظرهم في

السياسة الأمريكية بشكل علني، فتجاهلوا الأمر واتجهوا نحو أندونيسيا وأمريكا الجنوبية وغيرها من مصادر النفط، أما بالنسبة لإيران فقد كانت الحرب التي انتهت عام ١٩٧٤ منّة لا حدود لها إذ استطاع الشاه أن يرفع من حجم المبيعات ويرفع الأسعار في آن واحد. وبعد سنوات من تلك الأحداث عندما لم يكن يماني على استعداد في أن يساير الملك فهد في رغبته غير الواقعية في اتباع سياسة رفع الانتاج والأسعار معاً من جديد في السوق الذي كان يطفح بالنفط، قرر الملك فهد تنحيته من منصبه وكان ذلك في ٢٩ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٦.

تقول الشائعات إن يماني سمع خبر إقالته في الراديو بينما كان يلعب الورق مع بعض الأصدقاء في بيته قبل أن يستلم القرار رسمياً من الملك. . ويقال أنه هز كتفيه وأخذ نفساً عميقاً ليعبر عن ارتياحه لرفع ذلك الحمل الثقيل عن كاهليه، ومنذ ذلك الوقت صار الحظ حليفاً للسيد يماني ـ وليس فقط في لعب الورق. اتجه يماني الى تأسيس سلسلة من الأعمال التجارية (١٠) الخاصة ومجموعة في لندن تختص بالتخطيط لقضايا الطاقة.

تعزيز الدفاع السعودي

هناك خلفية عريضة هامة لما أشار به بريدجينسكي ـ بعد اندلاع الحرب الايرانية العراقية ـ بأن تتولى الولايات المتحدة تعزيز الامكانيات الدفاعية السعودية. فلم يكن للسعودية أي تحالف رسمي على الاطلاق مع أمريكا إلا أن الملك عبد العزيز ـ لعلمه بالوجود العسكري الأمريكي في ايران المهددة بالتوسع السوفياتي عن طريق أذيربيجان وكردستان ـ قام بمنح الولايات المتحدة أمتيازاً هاماً.

فقد سمح بصورة مؤقتة للقوات الأمريكية التمتع «بحقوق جوية غير مقيدة» في قاعدة الظهران الجوية ثم في مطار الظهران الدولي. أصبحت تلك القاعدة ـ التي قامت قوات الهندسة التابعة للجيش الأمريكي بتوسعتها بشكل كبير فيما بعد ـ جزءاً من شبكة القواعد الأمريكية العالمية أثناء الحرب الكورية والتي كانت تحيط بالاتحاد السوفياتي. وفي عام ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ كانت تلك القاعدة مركز أكبر عملية إمداد جوية خارج أمريكا منذ الحرب العالمية الثانية والقاعدة الخلفية لعمليتي درع الصحراء وعاصفة الصحراء.

في أواخر الخمسينات تعكرت العلاقة السعودية الأمريكية بسبب الضغوط العربية على السعودية بأن توقف تعاونها مع دولة حليفة لاسرائيل. وعلى الرغم من أن عدم مشاركة أمريكا في العدوان الثلاثي على قناة السويس عام ١٩٥٦ ـ بل ومعارضتها له ـ قد ساهم في تلطيف الجو، إلا أن الجدال الواسع استمر حول تمديد مدة القاعدة الجوية الأمريكية في الظهران لفترة خمس سنوات أخيرة. وفي الوقت الذي لم تتمكن الادارات الأمريكية المتتالية من الوقوف الى جانب السعودية فيما يتعلق باسرائيل إلا أنها قدمت لها الكثير من الدعم المعنوي والدبلوماسي فيما يتعلق بنزاعها مع بريطانيا حول واحة بوريمي. ولطالما اصطدمت قوات السعودية التي يدربها الأمريكان مع قوات محمية عمان البريطانية التدريب عند تلك البقعة النائية من البلاد حيث التقاء الحدود السعودية الظبيانية العمانية.

ارتفع توتر العلاقات السعودية الأمريكية من جديد بسبب الحرب الأهلية في اليمن التي اشتعلت عدة مرات خلال الفترة ١٩٥٨و١٩٦٧. فقد كانت السعودية تدعم الملكيين اليمنيين، وكانت تنظم الرحلات الجوية لمراسلين من أمثالي للتحقيق في الانتهاكات التي يقوم بها الجمهوريون في اليمن وأعوانهم من العسكريين المصريين. لقد حشدت هناك في وقت من الأوقات قوات مصرية قوامها ١٠٠ ألف جندي ضمت أحدث ما حصلت عليه مصر من طائرات مقاتلة وقاذفات قنابل سوفياتية (١١).

لقد كان أحد أسباب فتور العلاقات السعودية الأمريكية في ذلك الوقت هو اعتقاد السعودية بأن أمريكا لم تكن ترضي عدوها اسرائيل وجارتها إيران فحسب ولكن أيضاً خصمها الايديولوجي وعدو الملكية الرئيس المصري جمال عبد الناصر. وفي عام ١٩٦٢ اعترفت أمريكا بالحكم الجمهوري في اليمن الشمالي ضمن جهود إدارة الرئيس كينيدي لمحاولة فهم الرئيس عبد الناصر وللدفع بمصر واسرائيل نحو محادثات السلام. كانت تلك صدمة للسعودية التي اعتبرت الوجود العسكري المصري المعادي لها (من وجهة نظرها) في اليمن خطراً حقيقياً يهددها (١٢).

لم تسمح السعودية لأمريكا باستخدام مباشر لقواعدها الجوية منذ سنة ١٩٦٢وحتى عمليتي درع وعاصفة الصحراء عام ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ إلا لمهمات استكشافية تعتقد أنها في صالح السعودية. كما سمحت السعودية في بعض الأحيان ـ

كما كان الحال أثناء الحرب الايرانية العراقية وإلى ما بعد إيقاف إطلاق النار في أغسطس/آب ١٩٨٨ ـ لأمريكا بربط الرحلات الجوية للمهمات الاستكشافية بالوحدات البحرية الأمريكية بالقرب من الخليج والمحيط الهندي.

كل ذلك التحفظ حول وجود عسكري أمريكي مباشر الذي ظل ـ كما رأيناه ـ قائماً لعدة سنوات قبل بروز الخطر الايراني ضد السعودية، لم يمنع السعودية من اللجوء الى الولايات المتحدة للرفع من قوة ومستوى قواتها المسلحة. لم يتم شيء من ذلك قبل عام ١٩٧٠، حيث لم تكن للسعودية قوات جوية أو بحرية تذكر إذ كانت الأسرة المالكة ـ أسوة بغيرها من الأنظمة الملكية وخاصة العربية ـ لا تثق في العسكريين، وتعلمت من تجارب مرة أن المؤسسة العسكرية كثيراً ما تسعى إلى القيام بالانقلابات. لقد كان تحييد ذلك الخطرمهمة الحرس الوطني السعودي الذي استخدم كثيراً في مواجهة الأعمال الارهابية المدعومة من قبل إيران بعد عام ١٩٧٨. يتم اختيار أفراد الحرس الوطني بناء على ولائهم الشخصي لولي العهد وتتركز وحداتهم بالقرب من الرياض وجدة والظهران بينما توجد قوات الجيش النظامية والقوات الجوية ـ بامداداتها المحدودة ـ في أماكن بعيدة عن المراكز الأساسية في البلاد، واستمر هذا الوضع حتى بعد بروز الخطر العسكري الايراني إبان نشوب الحرب الايرانية العراقية.

حصلت السعودية على معظم معدات قواتها البحرية من الولايات المتحدة وذلك حتى أوائل الثمانينات عندما منحت فرنسا مجموعة من العقود الهامة لتدريب وإمداد البحرية السعودية الناشئة. ومع قيام الثورة الايرانية عام ١٩٧٩ كانت السعودية قد وقعت اتفاقيات تقدر قيمتها بأكثر من ٦مليار دولار مع الولايات المتحدة في مجالات البناء والتدريب والتسليح. كما تصاعدت ميزانية السعودية العسكرية مع ارتفاع دخل النفط على نفس المنوال الذي ارتفعت به المصروفات العسكرية لايران أثناء حكم الشاه.

كان يتم تدريب آلاف السعوديين من قوات الجيش والحرس الوطني في الولايات المتحدة بينما ظلت بعثة التدريب العسكري الأمريكية تعمل في السعودية منذ عام ١٩٥١. كما وجد التوسع السعودي في القوات الدفاعية بعد بروز الخطر الايراني عام١٩٨٠ في فرقة المهندسين التابعة للجيش الأمريكي شريكاً مستعداً للتعاون حيث شرعت تلك الفرقة آنذاك في تخطيط وبناء قواعد ومراكز عسكرية ضخمة بما قيمته٢٠

مليار دولار. وتتسع قاعدة القوات البرية السعودية المتقدمة الواقعة بالقرب من الحدود العراقية والتي بلغت تكاليفها ما يقرب من ٨ مليارات دولار لحوالي سبعين ألف جنديّ وعائلاتهم وثلاثة ألوية مدرعة (١٣).

لقد كان لقرار الرئيس كارتر بمنح السعودية طائرات الأيواكس في عام١٩٨٠سابقة، حيث استخدمت واحدة على الأقل من تلك الطائرات بطلب من السعودية في ربيع عام ١٩٧٩ ليس في مواجهة إيران ولكن بسبب الخطر المتوقع من اليمن على الحدود الجنوبية. ساعد ذلك في فتح شهية السعودية لاقتناء تلك الطائرات واشتمل برنامج ما يسمى شحنة تعزيز الدفاع الجوي السعودي على بيع خمس من تلك الطائرات وثماني عشرة منشأة أرضية للرادار تابعة لها. إلا أن مجلس الشيوخ الأمريكي لم يوافق على البيع حتى ٢٨ أكتوبر/ تشرين الأول١٩٨١وبعد معركة حامية طويلة مع أنصار اسرائيل في الكونجرس وجهود بارعة لادارة ريغان من العمل وراء الكواليس(١٤) ولم يشرع في التسليم حتى عام ١٩٨٥. كما استمر استخدام معدات أخرى من تلك الصفقة كالرادار الأرضي والكومبيوتر من حين لآخر من قبل القوات الجوية الأمريكيةعند استعمالها طائرات الأيواكس في الأجواء السعودية.

تمرد في المسجد الكبير

كان يوم ٢٠ نوفمبر/ تشرين الثاني١٩٧٩أول أيام سنة ١٤٠٠هجرية اليوم الأول في أزمة حقيقية للأسرة المالكة السعودية. كانت أنوار الفجر تنشر أشعتها بهدوء في ربوع الحرم بمكة وما حولها، وكان زوار البيت الحرام المسلمون من أجانب ومواطنين يستعدون لأداء صلاة الفجر عندما انطلق صوت مؤذن الحرم ينادي: «الله أكبر. الله أكبر». وبمجرد انتهاء الصلاة انقضت مجموعة مسلحة داخل الحرم للقبض على الامام الشيخ محمد بن سبيع بينما قتل أحد المشايخ الآخرين إثر اطلاق رصاص عليه.

مسك ذلك الرجل ـ وهو أحد طلبة الشريعة سابقاً وخطيب مفوه من العناصر السنية المتشددة يدعى جهيمان بن محمد العتيبي وكان يحمل بندقية كلاشينكوف ـ بجهاز مكبر الصوت ليعلن للعالم أن «المهدي وأتباعه قد احتموا بحمى الحرم لأنهم مضطهدون في كل مكان ولا ملجأ لهم» وأعلن أن المهدي قد ظهر في شخص صهره.

والمهدي شخصية معروفة في المذهبين السني والشيعي يعتقد في ظهوره في آخر

الزمان، وقد شهد التاريخ الاسلامي شخصيات تدعي المهدية منها الزعيم السوداني محمد أحمد بن عبد الله الذي أعلن في عام ١٨٨١ أنه سينقذ السودان من الاستعمار البريطاني وفتح الخرطوم عام ١٨٨٥ بهزيمة الجيش المصري البريطاني، كما ظهرت في بغداد عام ١٨٧٢ تلك الشخصية القوية شبه الخرافية وهو محمد بن القاسم المدعو بالامام المهدي والذي يعتقد الشيعة باختفائه ثم بظهوره قبل قيام الساعة والبشرية تستعد للحساب الالهي. ومن الأساطير التي تنسب لظهور المهدي والتي جعلت من حركة جهيمان العتيبي وأتباعه خطراً مضاعفاً أن المهدي سيظهر في مكة حيث يقيم حتى موعد ظهوره بجبل رضوة بالقرب من مكة يحرسه أسد ونمر.

لقد واجهت أسرة آل سعود أثناء وصولها للحكم ثورات سلفية على يد ما عرف باسم الأخوان وهم أتباع السيد محمد بن عبد الوهاب الذين كان لهم دور في دعم أسرة آل سعود دينياً وعقيدياً، وقد أخمد الملك عبد العزيز عام ١٩٢٩ إحدى تلك الثورات التي قادها سلطان بن بجاد بن حميد الذي لا تزال هزيمته المخزية تعتور في نفوس أبناء منطقة القصيم التي ينتمي اليها جهيمان. وقد اعتبر جهيمان منذ صغره التلفزيون والتصوير الفوتوغرافي والغزو الثقافي الأمريكي عملاً من رجب الشيطان، وعكف منذ مدة طويلة على التخطيط للتمرد على ما رآه من مظاهر الفساد في حياة المملكة السعودية التي تزداد ثرواتها كل يوم. كما تعرف جهيمان منذ شبابه ـ أبان طرده من الحرس القومي السعودي ـ على أعمال العالم الديني الكفيف والمحبوب الشيخ عبد العزيز بن باز الذي تولى في عام ١٩٦٩ منصب مدير الجامعة الاسلامية في المدينة، وكان يعلم تلاميذه أن الأرض ليست مليئة بالفساد وحسب ولكنها مسطحة كذلك. وفي بداية الستينات تنبهت السلطات السعودية الى نشاط مجموعة من تلاميذه وأتباعه وأغلبيتهم من البلاد العربية الأخرى فأخذت في متابعتهم وطردت الأجانب منهم(١٥).

لقد تولى مسؤولية تلك الحملة التي لم يفهمها ولم يقدرها الأمريكان حق قدرها الملك فيصل بنفسه الذي قتل بعد سنتين من تاريخ مقابلتي له في عام١٩٧٣على يد ابن أحد أخوته وهو الأمير مساعد بن فيصل. لقد كان مساعد شخصية حالمة غير مستقرة عاش تسع سنوات للدراسة في الولايات المتحدة قضى معظمها في ملاحقة الخمر والقمار والنساء وقد اعتقل مرة في أمريكا بتهمة امتلاك مخدرات.

وقد كان للأمير مساعد هذا، أخ اسمه خالد قتل على يد الشرطة عندما حاول اقتحام محطة التلفزيون السعودية مدعياً أن وجودها يخالف لقوانين الاسلام، وعندما طلب مساعد من الملك فيصل اعدام الشرطي الذي قتل أخاه رفض الملك فتربص له ودخل عليه في أحد اللقاءات وعندما اقترب ليسلم على الملك سحب مسدساً وأطلق ثلاث طلقات على الملك وهو يقول: «اليوم أخذت بثأر أخي!». أعدم مساعد بعد تحقيق طويل مكثف يشاع أن السلطات الأمريكية قد شاركت فيه.

خلف الملك فيصل أخوه خالد بن عبد العزيز وهو رجل طيب يعوزه الحزم، وتكاثف جميع أفراد الأسرة معه للوقوف ضد المتشددين من المتدينين(١٦)

وهكذا فقد كان ما تلى اعلان جهيمان العتيبي في مكة يومذاك كارثة. فقد تحصن هو وأتباعه في مواقعهم وأخذوا يطلقون الرصاص وقد جمعوا كميات كبيرة من السلاح والمؤن داخل المسجد. وتفيد تقارير الحجاج الايرانيين أن الرصاص كان يستهدف عناصر الشرطة السعودية.

لقد سيق خلال ربع ساعة مئات من المصلين الى مبنى صغير داخل الحرم وأجبروا على الاستماع الى خطب جهيمان التي كانت تذاع على الميكروفون. أعلن جهيمان انتصار الاسلام النهائي في الأرض وطالب بطرد حكام السعودية الفسقة وأمرائها الذين تخلوا عن الاسلام منذ زمن بعيد ومنذ أن وقعت أبصارهم على الشعر الأشقر للنساء الغربيات، ودولارات أرامكو البراقة اللامعة (١٧).

بينما كانت خطب جهيمان تهز أرجاء المسجد الحرام ظهرت عمليات تفجير في كل من جدة والرياض ومكة والمدينة وغيرها من مدن السعودية، وهبت قبائل قحطان والعتيبة الى الثورة. كما شهدت مدن أخرى اضطرابات مختلفة وخاصة الواقعة في المناطق الشيعية على شواطيء الخليج والأماكن المحيطة بحقول شركة أرامكو للنفط، يقول أحد أصدقائي - وهو رجل مصرفي - أن «الحواجز كانت في كل مكان ولم يكن بالامكان التحرك بالسيارة لعدة أيام».

ركزت قوات الأمن السعودي كل جهودها على آلاف الحجاج الايرانيين مع أنه كان من الواضح أن التمرد كان قضية سعودية داخلية بحتة، وذلك في الوقت الذي التحق

محمد بن عبد الله القحطاني بصهره جهيمان العتيبي لدعوة أتباعهم الى قتال حراس المسجد المسلحين.

أوقظ الملك خالد من نومه في السابعة صباحاً ليستلم الخبر وقد حال سوء صحته دون أن يشارك في الصلاة بالحرم شخصياً مما أنقذه من القتل أو ما هو أسوأ. وفي الرياض قطعت جميع وسائل الاتصال بالعالم الخارجي من تلفونات وتليكس وذلك في محاولة يائسة لمنع الاتصال بين عناصر المتمردين، مما حال دون أن تتعرف وكالات الأنباء الخارجية عن حقيقة ما يجري داخل البلاد. حتى ولي العهد الأمير فهد نفسه الذي كان يحضر اجتماعاً لجامعة الدول العربية في تونس لم يكن ليستطيع أن يعرف ما يدور.

لقد أثارت الأخبار المتناثرة حول «أحداث الحرم المكي» اهتمام المسلمين من بروكلين في نيويورك الى بغداد وأفزعتهم. وفي القاهرة دعى شيخ الأزهر العالم الاسلامي الى الدفاع عن الأرض المقدسة ضد «المعتدين من المرتدين المسلحين. وفي طهران لم ينف آية الله الخميني كل مسؤولية عن الحادث فحسب، ولكنه اتهم فيها الاستعمار الأمريكي المجرم والصهيونية العالمية» ، وعلى الرغم من مرور أقل من اسبوعين فقط على احتلال السفارة الأمريكية في طهران فقد شهدت طهران أكبر مظاهرة شعبية معادية لأمريكا منذ سقوط الشاه. وفي الباكستان وبتأثير مما كانت تبثه اذاعة طهران من كراهية للأمريكان اقتحمت أعداد غفيرة من الجماهير السفارة الأمريكية في إسلام أباد وأحرقتها بينما وصلت التعزيزات العسكرية لانقاذ الموظفين.

تمترس أتباع جهيمان العتيبي في المسجد وأطلقوا النار على كل من تحرك حركة مشبوهة فقتل خمسون جندياً حاولوا اقتحام المسجد في ٢١نوفمبر/ تشرين الثاني. . كما حاولت السلطات السعودية تفادي الحاق أي أضرار بالمسجد وما حوله. ومع عصر ذلك اليوم كانت طائرات هيركيوليس سي - ١٣٠ - التي يرجح أن طواقمها من الأمريكان - قد نقلت الى مكة ستمائة جندي على الأقل من قوات الأمن الخاصة. وفي الحادية عشرة والنصف من صباح اليوم التالي حاولت تلك القوات اقتحام المسجد مرة أخرى ولكنها فشلت متكبدة خسائر كبيرة. . وتناثرت جثث الموتى في كل أنحاء المسجد. وفي اليوم الثالث أمر الملك خالد بهجوم استخدمت فيه اثنتا عشرة من حاملات الجنود المدرعة أم - ١١٣ وخمس طائرات عمودية مدفعية هجومية وثلاثة آلاف

من الجنود. كما أقام الأمير سلطان وزير الدفاع بتفويض من هيئة استشارية ملكية من علماء المسلمين غرفة عمليات بالقرب من المسجد للاشراف على حصار دام مدة اسبوعين اقتصرت فيه القوات الحكومية على رد اطلاق النار وعدم الهجوم تفادياً للاضرار بالمسجد.

شعر الملك خالد ـ على الأرجح ـ أن الأمريكان ليسوا هم أحسن من يهب لانقاذه هذه المرة ـ خاصة بعد أحداث طهران وباكستان ـ فاتجه الى فرنسا يطلب العون. عقب اتصال الملك مع الرئيس الفرنسي جيسكار ديستانغ اتجه الرائد الفرنسي باريل ويصحبته اثنان من ضباط الصف من قوات الهجوم الخاصة التابعة لقوات الدرك الوطني الفرنسية الى السعودية في ٢٣ نوفمبر/ تشرين الثاني حيث أعطي للرائد باري ـ ولم يكن مسلماً ـ اذن خاص بدخول مكة. كما زودت المخابرات الفرنسية الرائد باريل بخرائط مفصلة لدهاليز المسجد العتيق الموجودة تحت الأرض والتي لم يكن في حوزة السعودية نفسها منها شيء. بعد دراسة الوضع أشار باريل لتحطيم التمرد بعزل وتحييد الموجودين في القبو تحت الأرض في غرف تحميها حيطان سميكة.

استلم باريل من باريس امدادات شملت الغاز المسيل للدموع ومتفجرات وأجهزة بلاستيكية وأجهزة رش وصهائر كهربائية وأقنعة واقية ضد الغاز. وعلى الرغم من وجود الفين وخمسمائة جندي وستمائة من قوات الحرس الوطني و١٢٥من جنود المظلات محيطين بالمسجد، وبرغم قطع تيار الكهرباء فقد استمر المتمردون في اطلاق الرصاص. ثم تمكنت قوات الحكومة شيئاً فشيئاً من التسرب داخل ممرات المسجد فحاصروا المتمردين داخل المبنى الرئيسي، ولكن بالرغم من استعمالها للغاز المسيل للدموع فلم تتمكن القوات الملكية من التقدم في زحفها.

كانت في ذلك الوقت قرى الشيعة في المنطقة الشرقية من السعودية تحترق حيث تواصل اطلاق النار والتفجير من قبل قوات الأمن السعودية لمواجهة مظاهرات الشيعة هناك بمناسبة الاحتفال بذكرى عاشوراء في العاشر من محرم. بلغ عدد الضحايا ستين قتيلاً وثلاثمائة جريح بينما هدمت البنوك والمتاجر ومحطات الشرطة.. واستمرت برامج اذاعة طهران تحرض المسلمين في السعودية على القضاء على حكم الخونة والمرتدين والأمريكان.

أخيراً وصلت طائرة كارافيل فرنسية في الساعة الثامنة واحدى وأربعين دقيقة من مساء يوم ١ديسمبر/ كانون الأول محملة بأسلحة كيماوية وأقنعة مضادة للغاز السام. أعد للهجوم الذي بدأ في الساعة العاشرة من صباح يوم ٤ ديسمبر/ كانون الأول ستون جندياً وثلاثون ضابطاً سعودياً انطلقوا «باسم الله وعلى بركة الله » لمواجهة خصمهم الذي تصدى لهم «بأمر الله» . تقدمت القوات الحكومية شيئاً فشيئاً بعد أن أطلقت طنّين اثنين من الغاز في مواجهة البنادق الرشاشة وروح الاستشهاد التي كان يقاتل بها أولئك الشباب المتعصبون.

في ضحى يوم ٤ ديمسبر/ كانون الأول اقتحمت القوات الخاصة بمستشاريها الفرنسيين وباشراف الأمير سلطان، آخر معقل للمتمردين مما أسفر عن مقتل ٤٥ جندياً سعودياً، بينما أعلنت الحكومة السعودية فيما بعد عن مقتل١١٧من المتمردين بما فيهم المهدي الذي عرضت صور جثته كدليل على بشريته. وعرضت وسائل الاعلام السعودية صورا لجهيمان العتيبي ظهرت فيها عيناه المتوحشتان وشعره الكثيف ولأتباعه وهم مكبلون في السلاسل وكانت تصفهم بالعصابات الارهابية المتمردة.

بعد تحقيقات مكثفة جرى توزيع المتمردين في ٨ يناير/ كانون الثاني١٩٨٠على ثلاث وستين مدينة وقرية سعودية وأمر الملك خالد وزيره للداخلية الأمير نايف ـ الذي نفى اشتراك أي قوات أجنبية في اخماد التمرد ـ أن يقتل « كل من وردت أسماؤهم في هذا الاعلان ارضاء لله ودفاعاً عن الكعبة الشريفة وزوارها وشفاء لصدور قوم مؤمنين » (١٨).

أعدمت السلطات السعودية ٦٣ رجلاً كان من بينهم ٤١ سعودياً و١٠ مصريين و٦ من اليمن الجنوبي و٣من الكويت ورجل واحد من كل من اليمن الشمالي والسودان والعراق. . أو هكذا جاء في تقارير وكالة الأنباء السعودية. كما حكم بالسجن على عدد كبير ممن وجد في حوزتهم أسلحة داخل الحرم أو ساعدوا المتمردين مثل مجموعة من النساء حملن الطعام والماء الى داخل المسجد اللاتي حكم عليهن بالسجن لمدة سنتين مع تدريسهم العلوم الدينية في السجن. كما أرسل عدد من الشباب صغار السن الى المدارس الاصلاحية، وأطلق سراح ٣٨شخصاً.

بعد يومين من انتهاء الحصار عاد الملك خالد للصلاة في المسجد الحرام وأصدرت

وزارة الحج والشؤون الدينية تعليمات لجميع المساجد بادانة المتمردين في الخطب والصلوات، بينما سعت معظم المصالح التابعة للحكومة السعودية ووسائل الاعلام الرسمية لبذل كل ما في وسعها لاخفاء روح العداء لأمريكا وللعائلة المالكة التي كانت تنطوي عليها طبيعة الحركة التمردية في مكة.

لقد ظل رجال الاعلام والصحافة يراقبون أحداث التمرد في مكة وآثارها عن بعد بينما كانت تلك الأحداث بالنسبة للخمسين ألف مواطن أمريكي ونيف المقيمين في السعودية تجربة تبعث القلق والازعاج. فقد انتابهم - في ضوء جلاء الأمريكان من ايران - الشعور بأنهم اذا لم يكونوا في خطر مشابه فانهم على الأقل أصبحوا أقلية أجنبية تحتاج الى الحماية.

مع بداية عام١٩٨٠، وعندما قرر الرئيس كارتر التعهد للسعودية بالكثيرمن امكانيات أمريكا الدفاعية الجديدة كانت الأوضاع في السعودية قد عادت الى شيء من الاستقرار من جديد. إلا أن استمرار حجز الايرانيين للرهائن الدبلوماسيين الأمريكان قد ساهم في اشعال نيران الثورة في بعض القرى الشيعية في المنطقة الشرقية من السعودية حيث توجد حقول النفط. . تلك القرى التي تقع في قلب ما أسمته الادارات الأمريكية الحديثة « هلال الأزمات » وهو المنطقة التي أطلق فيها الخميني وأتباعه نداء الثورة الاسلامية.

في نفس تلك الفترة أخذت آثار الحرب الايرانية العراقية والثورة الايرانية تطفح غرباً نحو بقعة أخرى في المنطقة هي سوريا ولبنان التي غيرت تاريخها الحديث قيم الثقافة والتعليم الأمريكية.

الفصل السادس

الثورة الإسلامية في لبنان

اختطاف دافيد دودج

في ١٩ يوليو/ تموز ١٩٨٢ بينما كانت القوات الاسرائيلية الغازية تقصف لبنان في الحملة التي قادها الجنرال أريال شارون لتحطيم قوة الفلسطينيين هناك، تفجرت بين أمريكا وإيران أزمة رهائن جديدة قاتلة. هذه الأزمة - بخلاف تلك التي انتهت مع نهاية رئاسة جيمي كارتر - لم تكن لتحل في ظرف شهور أو سنوات بل ظلت مستمرة حتى بداية عقد التسعينات. كما لم يكن لأي حدث آخر مثل ما كان لهذه الأزمة من آثار بالغة على كل من إيران والولايات المتحدة وحلفائهما وعملائهما خلال الحرب السرية القائمة بين البلدين.

لقد كان جو ذلك اليوم - الذي سبق وصولي الى بيروت بأيام قليلة - حاراً مفعماً بالرطوبة، وقد ذهبت هناك لتغطية أحداث المعارك بين الفلسطينيين والقوات الاسرائيلية. كانت أصوات المدافع تزمجر في ضواحي بيروت وطائرات اسرائيل المقاتلة تقصف بعض المواقع التي تسيطر عليها منظمة التحرير الفلسطينية في الضواحي الجنوبية. لقد كانت قوات شارون البرية تحيط ببيروت منذ شهر من الاحتلال البري للبنان وبعد أن تقدمت القوات تدريجاً نحو الشمال.

تجمع رجال الصحافة الغربية في فندق كومودور الواقع تحت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية وذلك لتوفر المياه والكهرباء ووسائل الاتصال فيه والتي لا يمكن الحصول عليها في تلك المنطقة بغرب بيروت. انصب اهتمام الصحفيين على معرفة مدى التقدم الذي أحرزه السيد فيليب حبيب اللبناني المولد ومفاوض السلام الخاص للرئيس ريغان في وساطاته.. وكانوا يترددون صباح كل يوم على عزبة السيد صائب سلام بحي المصيطبة المكسو بأوراق الشجر والذي كان يوماً ما يتسم بالهدوء في غرب بيروت لتناول القهوة وتنصّت الأخبار. فقد كان صائب بيك - كما يلقبونه - هو حلقة الوصل بين حبيب ورئيس منظمة التحرير السيد ياسر عرفات.

كان صائب سلام في ذلك اليوم كالمعتاد يضع وردة القرنفل في صدر بدلته الثمينة

التي كانت تميزه عن جميع من حوله من حرّاسه المغبرين في بدلهم العسكرية، وكان ينتظر الرد الأمريكي على اقتراح المنظمة بانتقال قواتها المحاصرة في بيروت الى شمال لبنان لفترة مؤقتة. كان الاعتقاد أن ذلك سيأتي بنهاية سلمية للحصار ريثما تنتهي المحادثات الى تحديد مكان دائم لقوات المنظمة في لبنان. كما كان الملك فيصل والسيد عبد الحليم خدام وزير خارجية سوريا ـ التي كانت قواتها الرمزية لا تزال تقاتل في لبنان رغم الضربات الموجعة التي تلقتها من اسرائيل في البقاع في أوائل يونيو/ حزيران ـ يتأهبان لتقديم نفس الفكرة للرئيس ريغان في واشنطن في اليوم التالي[1].

كان دايفيد دودج ـ أحد أصدقاء صائب سلام الأمريكان ورئيس الجامعة الأمريكية في بيروت بالوكالة ـ مشغولاً في ذلك اليوم. . فهو المسؤول عن اتخاذ جميع القرارات الهامة المتعلقة بشؤون الجامعة. والجامعة الأمريكية في بيروت هي أقدم مؤسسة أمريكية تعليمية في الشرق الأوسط وكان مستقبلها مرهوناً بحلول السلام من جديد في لبنان. كان دودج في عصر ذلك اليوم مستغرقاً في التفكير في الأزمة وهو في الطريق الى بيته. فجأة توقفت أمامه سيارة «رينو» تمكن سائقها من الاحتيال على الحرس وعبور البوابة وقفز منها اثنان مسلحان ضربه أحدهما بمؤخرة مسدسه ثم دفعا به الى داخل السيارة. اختفت السيارة مسرعة خلال ثوان معدودة مقتحمة بوابة الحرس نحو الشوارع الملتوية المحيطة بالجامعة.

أطلقت السلطات اللبنانية صفارات الانذار واتجه جميع أفراد الشرطة والدرك للبحث عن دودج. كانت هناك شائعات بأن المختطفين كانوا من طلاب الجامعة وأن العملية تمت بالتعاون مع عناصر من داخلها.

احتجز دودج في البداية في جنوب بيروت بالقرب من مباني كانت تسيطر عليها السفارة الايرانية، ثم نقل بعد تخديره وتعصيب عينيه الى وادي البقاع حيث سلم لمفرزة من مفارز الحرس الثوري الايراني، كانت قوات الحرس الجمهوري موجودة هناك بناء على قرار الرئيس السوري حافظ الأسد بالوقوف الى صف ايران وآية الله الخميني خصم العدو الشخصي لحافظ الأسد وهو الرئيس العراقي صدام حسين. راق ذلك للخميني ومساعده الرئيس الايراني بني صدر كي يتم تصدير الثورة الى الأقلية الشيعية المحرومة في لبنان، وقدر حافظ الأسد أن ذلك في صالحه هو كذلك. وعليه دخلت منطقة البقاع

قوات قوامها ما بين ثمانمائة الى ألف ومائتين من أفراد الحرس الثوري جاؤا اليها من قواعد تدريبهم في الزبداني بسوريا بالقرب من الحدود اللبنانية. لقد أصبحت تلك المعسكرات خالية عندما زرتها آخر مرة عام ١٩٨٦ إلا من الأعلام الايرانية وصور آية الله الخميني.

اتخذت قوات الحرس الثوري مقراً لها بقاعدة الجيش والشرطة اللبنانية في جبل الشيخ عبد الله في ضواحي مدينة بعلبك الأثرية التي اشتهرت خلال عقود السلم والاستقرار بمهرجاناتها الموسيقية الصيفية السنوية التي كانت تقام بين الآثار والمعابد الرومانية والفينيقية الرائعة. لكم قضى دودج وغيره من الأمريكان المقيمين في بيروت من أيام وليال مليئة بالسعادة والبهجة في تلك الديار. أما الآن فهو مخدر وملفوف بالأغطية كأنه مومياء مصرية ومحمول في صندوق سيارة متجهة الى مطار دمشق. هناك استلمه وزير الحرس الجمهوري الايراني السيد محسن توفيق دوست ليعبر به نقاط تفتيش قوات الأمن السورية ويشحنه كجزء من شحنة عسكرية ايرانية ـ معفاة من التفتيش - الى طهران.

أودع دودج سجن ايفين بشمال طهران، وعلى الرغم من أنه لم يعذب إلا أنه لم يسمح له بالاتصال بأسرته القلقة أو بأي جهة أخرى حتى أطلق سراحه نتيجة ضغوط سورية في يوليو/ تموز ١٩٨٣. لقد أجريت مع دودج طوال فترة أسره تحقيقات لا معنى لها حول نشاطاته ونشاطات غيره من «المشكوك فيهم» من زملائه بنفس الصورة التي تمت مع الدبلوماسيين الأمريكيين في السفارة بطهران.

* لماذا وقع الاختيار على دودج كأول شخصية غربية وأمريكية يتم اختطافها على يد الايرانيين والعناصر الموالية لهم في لبنان ؟ وما هو السر في توقيت تلك العملية؟.

الاجابة على الشطر الثاني من السؤال أسهل من الاجابة على شطره الأول لأن اختطاف دودج ـ حسب ما أكد لي هو شخصياً بعد اطلاق سراحه ـ كان جزءاً من حملة انتقامية حيث كانت ايران ـ ولا تزال حتى عام ١٩٩٠ ـ تطالب بارجاع أربعة ايرانيين كانت قد اختطفتهم ميليشيات الزعيم المسيحي الماروني سمير جعجع عند إحدى بوابات بيروت في أوائل يونيو/ حزيران، وكان دودج ـ في البداية على الأقل ـ رهينة مقابل ذلك. كان أهم أولئك الأربعة أحمد متوصلي الذي كانت تصفه بيانات طهران الرسمية

بأنه المسؤول السياسي بالسفارة، والذي كان في الحقيقة قائد مفرزة الحرس الجمهوري في البقاع. كان مع متوصلي اثنان من موظفي السفارة وصحفي إيراني، وفي خلال أيام من اختطافهم أجمعت دوائر الشائعات في بيروت على أنهم قتلوا.

أثر نظام التعليم الأمريكي في الشرق الأوسط

لقد كان أرجح الأسباب لاختطاف دودج ـ كما تشير روبين رايت في كتابها الممتاز «بسم الله: العقود الخمينية» In the Name of God:The Khomeini Decades هو كونه أهم شخصية في لبنان، إلا أن هناك أسباب أخرى محددة أكثر(٢). تكمن تلك الأسباب في قرن كامل من الوجود الأمريكي في المنطقة كما جسدته الجامعة الأمريكية في بيروت. فقد كان للزخم الذي أعطته تلك الجامعة للحركة العلمية وما صاحبه من حرية الصحافة أثر كبير في ظهور الحركات القومية المناهضة للحكم التركي. وقد جذبت تلك الحركات جموعاً غفيرة من الأتباع خاصة بين المسيحيين العرب مما أثار حنق المتشددين من المسلمين وغضبهم.

قامت مجموعة صغيرة من خريجي الجامعة البروتستانت السوريين في عام١٨٧٥ بتكوين جمعية سرية تهدف الى طرد الحكام العثمانيين من سوريا كلها بما في ذلك لبنان، إلا أن تلك الجمعية لم تستمر ولو لعقد واحد بسبب حجب المسلمين الدعم عنها (٣). إلا أن الثورة التي غرست بذورها الثقافة الأمريكية أخذت تنتشر في جميع أنحاء الشرق الأوسط. ففي مصر ساهم الأمريكان في تأسيس الجامعة الأمريكية في القاهرة وكلية أسيوط، وكانت هناك مدرسة في حلب بسوريا وأخرى للبنات في أزمير بتركيا. وفي لبنان فاقت نسبة المسيحيين المنتسبين للتعليم الجامعي عموماً ـ أو على الأقل حتى الستينات ـ نسبتهم من المسلمين.

شهدت الفترة ما بين ١٩١٨و١٩٤٥ قمة الاستعمار الأوروبي للشرق الأوسط التي كانت خلالها الولايات المتحدة القوة الوحيدة التي ليست لها مستعمرات أو مصالح في المنطقة مما أكسب أمريكا والثقافة الأمريكية شعبية بين المواطنين. وفي دراسة قامت بها لجنة كينغ ـ كراين الأمريكية حول مشاعر السكان العرب واليهود وغيرهم الخاضعين لحكم الادارة الفرنسية في سوريا ولبنان وللادارة البريطانية في فلسطين في أعقاب الحرب العالمية الأولى، عبّر المواطنون عن تفضيلهم ـ بالاضافة الى الحصول على الاستقلال ـ

لنوع من الحماية الأمريكية.

أصبح اتجاه الحياة في عهد كمال أتاتورك مؤسس دولة تركيا الحديثةيميل نحو العلمانية والتقدمية، ومنعت بعض مظاهر الحياة الاسلامية كاستعمال الحروف العربية ولباس العمامة، وكان التعليم سلاحاً قوياً حاسماً في محاربة النظام القديم. كما شجع أتاتورك ومن خلفه التعليم الفني والمهني وفتحوا المجال لتعليم المرأة. أما في إيران فقد حاول رضا شاه والد الشاه الراحل محمد رضا بهلوي أن يتجه هو الآخر نحو العلمانية ولكن بقدر أقل من النجاح، فأسس في عام ١٩٣٤جامعة طهران حتى لا ينصرف الطلاب الايرانيون الى الجامعة الأمريكية في بيروت وغيرها من المعاهد الأجنبية. وفي مصر تولت الحكومة الاشراف الكامل عام ١٩٢٢ ـ عندما خف وطء سيطرة بريطانيا على البلاد ـ على جامعة القاهرة التي أسسها أتباع حزب تركيا الفتاة في عام ١٩٠٨ . كما تم افتتاح الجامعة العبرية في القدس لخدمة الجالية اليهودية هناك في عام ١٩٢٥ (٤).

ولكنه على الرغم من تلك الجهود فقد أخذت وفود الطلاب من الشرق الأوسط تتدفق على أمريكا وأوربا الغربية. وفي ايران استمر التعليم تقليدياً ولكنه أخذ ينحو نحو العلمنة والتدريب خلال الستينات والسبعينات، وذهب ملايين الطلاب لتلقي العلوم في مدارس الولايات المتحدة. ومع مجيء الثورة الايرانية عام ١٩٧٩ وصل عدد ما تقدم به العلماء الباحثون الايرانيون الى ٤٠٤ دراسات وبحث في أكثر من ٨٢ معهداً علمياً خارج ايران، بينما انخفض هذا العدد في عام ١٩٨٣ عندما بلغت الحملة الايرانية لطرد الأمريكان من الشرق الأوسط أشدها الى ١٠٣بحوث صدرت عن ٢٨ معهداً فقط. لقد كان للثورة الايرانية أثر بالغ على نظام التعليم، إذ فرضت على البنات قواعد للباس مشددة ومنع الاختلاط في المؤسسات التعليمية بينما أبرزت الحرب مع العراق ـ كما هو الحال في العراق نفسها ـ الحاجة الى البحث والتطوير في المجالات العسكرية وما يتعلق بها (٥).

أما في السعودية المجاورة فقد كان الوضع يختلف تماماً. لقد ترك دافيد دودج الذي عمل لعدة سنوات مسؤولاً لشركة أنابيب النفط عبر الجزيرة العربية وأمثاله بصمات الثقافة والتقنية الأمريكية في كل مكان. كما ربطت المملكة في عام ١٩٨٥ بشبكات للاتصال العالمية فاقت بكثير ما كانت تملكه ايران والذي أصبح في حالة يرثى لها عقب

مجيء الخميني. فقد أطلقت مؤسسة عربسات السعودية للأقمار الصناعية في تلك السنة قمرين صناعيين حمل أحدهما وهو عربسات - ١ب بتاريخ ١٨ يونيو/ حزيران١٩٨٥ على ظهر مكوك أمريكي الى محطة فضائية على ارتفاع تسعة وثلاثين ألف وخمسمائة ميل فوق القارة الأفريقية. كان أحد ركاب المكوك في تلك الرحلة الفضائية أول رائد عربي للفضاء هو الأمير سلطان آل سعود الذي أجرى مجموعة من الدراسات شملت أبحاثاً تتعلق بموارد بلاده المعدنية والمائية. لقد وضعت تلك البعثة الفضائية السعودية الأمريكية قواعد الأساس للتنسيق المقبل بين البلدين في مجال المعلومات والاستخبارات والذي تم أثناء عمليتي درع وعاصفة الصحراء عندما كانت تلك الأقمار الصناعية تغذي قوات التحالف على مدار الساعة بالمعلومات حول التحركات والمنشآت الصناعية العسكرية العراقية.

استخدمت شبكة عربسات في نقل الصلوات الجماعية والأحداث الرياضية والأخبار، وأصبحت الدول العربية مع عام ١٩٩٠ قادرة على استقبال برامج محطات التلفزيون الغربية الأخبارية على مدى أربع وعشرين ساعة يومياً. وقد يجد المفكرون العرب الكثير من السلوى في التأكيد على أن الأقمار الصناعية العربية قد قامت على أسس ومبادىء علمية وضعها علماء الفلك العرب خلال العصور الذهبية ما بين القرنين التاسع والخامس عشر، ولكنهم يعلمون جيداً أن التقدم التقني الغربي والأمريكي بالذات هو الذي وضع تلك المبادىء موضع التنفيذ العلمي(٦).

لقد كانت الجامعة الأمريكية في بيروت هي بؤرة الشبكة الثقافية والتقنية، وخاصة في مجال الدراسات الطبية التي كانت منتشرة من بيروت الى جميع أنحاء الشرق الأوسط، وفي عام ١٩٧٤حين كان لي شرف مراجعة بعض مناهج الجامعة والتعرف على دافيد دودج والكثيرين من العاملين في الكلية هناك، كانت الجامعة الأمريكية في بيروت تمثل شعاعاً من النور في ذلك الظلام السياسي الدامس الذي كان يلف لبنان بأكمله. لقد كانت جامعة علمانية تضم حوالي خمسين فصلاً دراسياً ومعامل وكان يؤمها أكثر من ألفيّ طالب. كما كان لكلية الطب بها ومستشفى الجامعة شهرة عالمية، مما أنقذ حياة الآلاف خلال سنوات الحرب التي جاءت فيما بعد حيث كانت الاسعافات والعمليات المستعجلة تجرى تحت سنابك الرشاشات وتهديد الأقارب أو رجال الميليشيات المسلحين.

لقد ظل للجامعة الأمريكية في بيروت ـ وقد لا يزال لها على الرغم من كل شيء ـ أكبر نفوذ علمي في المنطقة، إلا أنها دفعت الثمن باهظاً. فقد صمدت الجامعة التي يمولها صندوق وقف خيري ـ نضبت أغلب مصادره الأمريكية مع عام ١٩٩٠ ـ أمام قصف المدافع والرصاص واعتداءات مختلف الميليشيات والعصابات المسلحة.

لقد نص ميثاق الجامعة على أن يكون رئيسها أمريكياً، إلا أنه في منتصف الثمانينات وخاصة بعد مقتل رئيسها مالكوم كار في يناير/ كانون الثاني١٩٨٧ تم استبدال معظم ـ إن لم يكن كل ـ موظفيها الأمريكان بموظفين عرب وكان هناك رئيس لبناني بالوكالة. لقد أقدمت الجماعات اللبنانية الموالية لايران على اختطاف عدد منهم مثل توماس ساندرلاند ـ وكان عميداً ـ وجوزيف سيسيبيو أحد المراقبين الاداريين. كما قتل بعضهم عمداً أو «عن طريق الخطأ» كان من بينهم الآنسة سها طوقان الرسامة الشهيرة ورئيسة تحرير مجلة الجامعة التي أطلق على سيارتها الرصاص عند إحدى البوابات عندما كانت تحاول الهرب من عملية اختطاف استهدفت مواطناً فرنسياً كان يرافقها في السيارة.

جمهورية اسلامية في لبنان

لم يشهد العشرة آلاف مواطن أمريكي ونيف المقيمون في بيروت فترة عصيبة كتلك التي مرت بهم أثناء الغزو الاسلامي لبيروت في صيف عام ١٩٨٢. لقد استطاعت الادارات الأمريكية المتعاقبة حتى ذلك التاريخ أن تحافظ على القوات العسكرية الأمريكية خارج لبنان. فقد كان هناك عدد من الضباط الأمريكيين ملحقين بقوات السلام التابعة للأمم المتحدة في جنوب لبنان واسرائيل. الاستثناء الوحيد لذلك هو قوات المشاة البحرية الأمريكية الموجودة في لبنان منذ عام ١٩٥٨ وذلك لمهمة تعزيز حكومة الرئيس اللبناني كميل شمعون لمواجهة الانتفاضة الاسلامية التي كان يغذيها الرئيس المصري جمال عبد الناصر. كما كان المبرر الآخر للتحرك العسكري الأمريكي هو الحركة العسكرية في العراق عام ١٩٥٨ التي أطاحت بالملك فيصل ـ قريب صدام حسين ـ ورئيس وزرائه الموالي للغرب نوري السعيد.

لم يكن للتدخل البحري عبر شواطيء بيروت علاقة مباشرة بالاعتداءات العربية الاسرائيلية أو الصراع داخل الفلسطينيين... إلا أن أحداث عام ١٩٨٢ التي جرت

بقوات الولايات المتحدة الى ما يسميه الاستراتيجيون عمليات حربية خفيفة ضد قوات سوريا وإيران وعملائهما، كانت لها علاقة مباشرة بهما معاً.

انطلق نزاع ١٩٨٢ من حادثة محاولة اغتيال السفير الاسرائيلي في بريطانيا السيد شلومو آرغوف في لندن في ٣ يونيو/ حزيران١٩٨٢من قبل عناصر إرهابية فلسطينية تابعة لأبو نضال. لم تكن تلك العناصر تنفذ تعليمات ياسر عرفات وإنما كانت تتصرف على ما يبدو بناء على تعليمات مخابرات صدام حسين العراقية. بعد ثلاثة أيام من ذلك التاريخ أمر رئيس الوزراء الاسرائيلي بهجوم بري وبحري وجوي على لبنان أعلن أن الهدف منه تدمير تحصينات منظمة التحرير الفلسطينية داخل لبنان وعلى طول شعاع دائرة مقداره ٢٥ ميلاً من الحدود الاسرائيلية ولضمان أمن منطقة الجليل الواقعة في القطاع الشمالي لاسرائيل. لقد كانت الجليل قبل وقف اطلاق النار بين اسرائيل والمنظمة في يونيو/ حزيران١٩٨١ هدفاً للمدافع والصواريخ الفلسطينية. أخذت القوات الاسرائيلية تزحف شمالاً حتى وصلت في ١٠ يونيو/ حزيران الى شرقي بيروت حيث استقبلتها مرحبة الميليشيات المارونية المسيحية وقياداتها بناء على اتفاقية سرية مسبقة بين الطرفين.

بعد محاولات فاشلة لإيقاف اطلاق النار أعلن الرئيس ريغان في ٦ يوليو/ تموز ١٩٨٢عن إرسال الولايات المتحدة لقوة عسكرية صغيرة الى بيروت كجزء من قوات السلام متعددة الجنسيات، وأعلنت فرنسا كذلك في ١٠يوليو/ تموز أنها ستساهم بإرسال جنود لمساعدة مستعمرتها السابقة المفضلة: لبنان.

وفي ١٦ يوليو/ تموز عندما كانت تقارير الغربيين المتواصلة تؤكد أن إسرائيل لم تستخدم القنابل العنقودية المحرمة فحسب بل أنها تقوم بإلقاء مواد ملغمة بما في ذلك ألعاب أطفال في لبنان، أعلنت الخارجية الأمريكية عن إيقاف شحن القنابل العنقودية لاسرائيل، بينما أكدت إسرائيل أنها قد استخدمت تلك القنابل بما يتمشى مع الاتفاقيات الأمريكية الاسرائيلية.

في ١٢ أغسطس/ آب بعد هجوم اسرائيلي على غرب بيروت استمر لمدة احدى عشرة ساعة لا يمكن لنا نحن الذين كنا نشاهده أن ننساه أبداً، أعلن وقف اطلاق نار مضطرب. وفي ٢١ أغسطس/ آب وافقت منظمة التحرير على أن تبدأ في الانسحاب

في الوقت الذي أعلن فيه الرئيس ريغان عن موعد وصول أول دفعة من قوات المشاة البحرية في يوم ٢٥ أغسطس/ آب. في الوقت نفسه وصل الى بيروت قادماً من كورسيكا حوالي ثلاثمائة من قوات الفيلق الخارجي الفرنسية والتي لم تشترك في أي عمليات منذ حرب الجزائر ما بين ١٩٥٤و١٩٦٢. لقد كنت أشاهد سكان بيروت الشرقية يهتفون لوصول الفرنسيين ويلقون الورود والأزهار على سياراتهم الجيب. . وكانت امرأة مارونية تصيح: «هذه فرنسا جاءت لتنقذنا». لم تزل ذكريات لبنان بتدخل الفرنسيين العسكري القوي لصالح الموارنة في العقدالسادس من القرن الماضي قوية، إذ قاتل الفرنسيون أسلاف أعدائهم وجيرانهم الدروز. أما في موسكو فقد رددت وسائل الاعلام هناك انذارات سوفياتية حول وجود قوات أمريكية في الشرق الأوسط، ولكن لم يكن هناك تحرك سوفياتي. . ولم يكد العالم يحس بوصول القوة الايطالية الرمزية التي لحقت بالقوات الفرنسية في لبنان.

التحق الأمريكان والايطاليون بالفرنسيين في محطات للمراقبة في عرض البحر بينما ظلت قوات أخرى في مواقعها على ظهر السفن الحربية لمراقبة إخلاء قوات منظمة التحرير الفلسطينية التي رحلت الدفعة الأولى منها ـ وقوامها أربعمائة شخص ـ على ظهر سفينة يونانية رافعين الأعلام وعلامات النصر. رحلت آخر مجموعة في ١ سبتمبر/ أيلول، وكان من بين الذين رحلوا خمسة عشر ألف فلسطينياً وقوات تابعة للفرقة الفدائية السورية.

سافر ياسر عرفات نفسه الى اليونان يوم ٣٠ أغسطس/ آب بينما غادر أغلب مقاتلي المنظمة وموظفيها الى سوريا، وبعد الحاح من الولايات المتحدة قبلت تونس أن تكون المقر الجديد للمنظمة. . وفي ١٠ سبتمبر/ أيلول عادت قوات المشاة البحرية الأمريكية التي أشرفت على إجلاء الفلسطينيين الى سفنها.

بعد تسعة عشر يوماً فقط عادت القوات الأمريكية عقب سلسلة من الأحداث التي هزت لبنان. فقد كان هناك الغزو الاسرائيلي ثم حرب الصيف ثم وفوق كل ذلك ظهور تلك القوات المتطرفة التي أطلقت لنفسها العنان فيما بعد لتمزيق لبنان ومن ورائه الوجود الأمريكي نفسه.

بينما كان فدائيو منظمة التحرير يغادرون بيروت انتخب بشير الجميل رئيساً جديداً

للبنان ليحل محل الياس سركيس ذلك الماروني المسيحي المرن الموالي لسوريا والذي تقاعد في هدوء. بشير هو الابن العنيد المقدام لزعيم حزب الكتائب الشيخ بيار الجميّل، ومر انتخابه للرئاسة بسهولة أكبر بعد احتلال اسرائيل لشرق بيروت ومعظم الأراضي الجبلية المحيطة بها. لقد اتفقت اسرائيل مع الجميّل قبل الاحتلال على إقامة هيمنة مارونية موالية لاسرائيل وللغرب على لبنان كلها، وجاء الاحتلال فأمكن الاسرائيليين من تشجيع الأصوات الموالية للجميّل بين أعضاء البرلمان اللبناني المتقدمين في السن الذين كانت مهمتهم الدستورية الاجتماع لاختيار الرئيس الجديد.

في ١٤ سبتمبر/ أيلول قتل بشير الجميل في حادث انفجار بمبنى قيادة حزب الكتائب دبره رجل يعتقد أنه كان يعمل لصالح المخابرات السورية، ونتج عن اغتيال الجميّل غزو اسرائيل واحتلالها المؤقت لغرب بيروت في ١٥ سبتمبر/ أيلول مما بث الفزع في دوائر الحكومة الأمريكية. تقدمت القوات الاسرائيلية الى داخل المدينة دون مقاومة تذكر، وفي اليوم التالي انطلقت قوات الكتائب بقيادة إيلي حبيقة لتهاجم المعسكرات الفلسطينية في صبرا وشاتيلا على مرأى القوات الاسرائيلية القريبة وببعض الامدادات والعون منها. أسفر ذلك عن ذبح مئات الفلسطينيين كلهم تقريباً من النساء والأطفال والشيوخ ممن خلفتهم قوات منظمة التحرير الفلسطينية وراءها.

وصلت الى بيروت مع فريق صحفي تابع لشبكة أ. بي. سي الأمريكية للأنباء ABC News حيث أجرينا مقابلات صحفية للبرنامج التلفزيوني الوثائقي « آوتلوك » Outlook حول تلك المذابح مع شهود عيان فلسطينيين ولبنانيين واسرائيليين فرووا لنا قصصاً ومشاهد أفزعت العالم وأثارت مظاهرات عارمة ضد الحرب والحكومة في اسرائيل.

لقد أصيب ياسر عرفات وأعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير بالغثيان لدى مشاهدتهم في دمشق لصور عمليات القتل الانتقامية واستماعهم للتسجيلات الصوتية، وأكدوا ـ وهم على حق ـ أن مبعوث الولايات المتحدة المفاوض فيليب حبيب كان قد عاهد ياسر عرفات في أخر اتفاقية بينهما أن «الولايات المتحدة سوف تتولى تقديم الضمانات (بسلامة المواطنين الفلسطينيين) بناء على تأكيدات من حكومة اسرائيل وقيادات بعض الجماعات التي كانت على صلة بها»(٧).

وعلى الرغم من أن تعهدات أمريكا لم تكن من حديد، إلا أن حبيب وغيره من

المسؤولين في إدارة ريغان كانوا معتمدين على اسرائيل والجميّل (الراحل) لمنع عمليات القتل الانتقامية. ومما أبهج وزير الدفاع الاسرائيلي أريال شارون انسحاب مشاة البحرية الأمريكية والقوات المتعددة الجنسية بسرعة من لبنان بعد خروج منظمة التحرير، فأخذت اسرائيل تصول وتجول في الميدان لمدة ثلاثة أسابيع.

لا شك أن مذابح صبرا وشاتيلا كانت بداية سقوط قوة أمريكا وهيبتها ووجودها في لبنان. ولهذا السبب كانت أحداث شهر سبتمبر/ أيلول الأسود لعام ١٩٨٢ نذير شر للأمريكان الذين ظلوا منذ تأسيس الجامعة الأمريكية في بيروت يقدمون أعمالاً حسنة في الشرق الأوسط.

بعد أيام قليلة من أحداث صبرا وشاتيلاعادت قوات المشاة البحرية الأمريكية الى لبنان. كان فيليب حبيب ومساعده الرئيسي موريس درايبر قد اشتاطا غضباً عندما احتلت اسرائيل مطار بيروت الدولي الذي انطلقت منه فرق الكتائب الى المعسكرات الفلسطينية، وأشارا على واشنطن أن تظل القوات في البحر حتى ينسحب الاسرائيليون من المطار. سحب شارون ـ على مضض ـ رجاله الى مواقع على بعد مئات قليلة من الأمتار على طريق المطار مما تسبب في تأخير نزول قوات المشاة البحرية لمدة ثلاثة أيام.

وأخيراً ـ في ٢٩ سبتمبر/ أيلول١٩٨٢ تحرك ألف وثلاثمائة من رجال فرقتي أي وأف التابعتين لوحدة البحرية البرمائية الثانية والثلاثين نحو الشاطىء لتعبر طريق المطار، وكان ذلك نفس المكان الذي وصلت اليه قوات الولايات المتحدة في الأيام الخوالي من عام ١٩٥٨. كان استقبال اللبنانيين لهم آنذاك بالفرح والابتهاج يقدمون لهم الكوكا كولا والبوظة المثلجة، ولكن الجو في هذه المرة كان ملبداً بالمخاطر. لقد كان بعض الذين نجوا من مذابح صبرا وشاتيلا على قارعة الطريق في ملابسهم الرثة يشاهدون قوات المشاة البحرية تترجل على الشاطيء لتقيم معسكراتها المؤقتة بالقرب من أرض المطار حيث اختار الأمريكان بكل غباء أول موقع لهم في تلك البقعة المكشوفة من الأرض.

حدد الرئيس ريغان في رسالة للكونجرس مهمة قوات المشاة بأنها «التكون قوة اعتراضية في مواقع متفق عليها ومن ثم توفير القوة المتعددة الجنسيات التي طلبتها الحكومة اللبنانية لتساعدها وتساعد القوات المسلحة اللبنانية». كما تعهد ريغان في

رسالة لرئيس مجلس النواب ورئيس مجلس الشيوخ بأن «اتفاقنا مع الحكومة اللبنانية لا يترك - بكل وضوح - أي مجال لتحمل قوات الولايات المتحدة أي مسؤوليات قتالية»[٨].

اتضح فيما بعد أن تلك التعهدات قائمة على تناقض، إذ أن مساعدة الحكومة اللبنانية ستؤدي في النهاية الى اشتراك القوات الأمريكية مباشرة في القتال، بينما لن تستطيع تلك القوات أن تتصرف خارج إطار اتفاقية القوة المتعددة الجنسيات التي نصت على حماية بيروت فقط. وبقرب المطار توجد جبال عالية وهي من معاقل الميليشيات المارونية والجيش اللبناني الحصينة، وهناك جبال الشوف التي تسيطر عليها ميليشيات الدروز الموالية لسوريا. هاتان القوتان معاً تتحكمان في مطار بيروت الواقع تحت رحمة نيران مدافعهما. ولكن قوات المشاة الأمريكية خالفت مبدأً أساسياً من مبادئها وهو «احتل المواقع العالية في جميع الأحوال». ومع ذلك فقد كان قادة تلك القوات الذين تحدثت معهم في الأمر على قناعة بأن وضعهم كان أقوى من وضع القوات الفرنسية (١٥٠٠جندي) أو الايطالية (١٢٠٠جندي) الموجودة داخل المدينة أو حتى القوة البريطانية الصغيرة جداً (١٠٠ جندي) المعسكرة بصورة مؤقتة بالقرب من المطار.

في اليوم التالي لوصول القوات الأمريكية سقط أول ضحية وهو العريف دايفيد ريغان (٢١سنة) من مدينة تشيزابيك بولاية فيرجينيا الذي قتل أثناء إزاحة ظرف قنبلة عنقودية تركها الاسرائيليون وراءهم عند انسحابهم من المطار، تحتوي على ٣٨ قذيفة صغيرة من عيار ١٥٥ مم وكان يساعده ثلاثة آخرون أصيبوا بجروح.

بينما كانت القوات الأمريكية معلنة الحداد على أول ضحاياها وتعمل على تعزيز مواقعها في جو مفعم بالنشوة والأمل في أن حلاً أمريكياً للأزمة اللبنانية قد يأتي - أخيراً - بنهاية مفرحة، كان أمين الجميل - الأخ الأكبر لبشير - قد انتخب رئيساً للبنان بأصوات أولئك الأعضاء الطاعنين في السن الذين انتخبوا أخاه الراحل من قبل في ٢٣ أغسطس/آب. استقبل أمين الجميل بالتهليل وكأنه المسيح الذي جاء لتوحيد لبنان وتخليصها من المحتلين الأجانب، ثم - وهذا الأهم من وجهة نظر اسرائيل والولايات المتحدة - كان الجميّل يرغب في تحويل لبنان كلها الى جزء لا يتجزأ من الكتلة السياسية

الغربية. لم يكن رجال العسكرية الأمريكان قد سمعوا بعد عن منظمة حزب الله المتطرفة أو عن ميليشيا منظمة أمل الشيعية الأكثر اعتدالاً. وكان أغلبيتهم يعتقد أن مجيئهم هناك سيكون عملية عسكرية ممتعة لن يعكر صفوها سوى بعض الحوادث مثل الذي قتل فيه العريف ريغان.

لقد كان أمين الجميل ـ كما لاحظ المعلقان الاسرائيليان زيف شيف وايهود ياعري ـ «نقيض أخيه في أكثر من جانب.. فهو متصلب وأخوه مراوغ وهو انطوائي وأخوه ذو شخصية جذابة، كما أنه حرص على تبني شخصية سياسية مختلفة تماماً» (٩). كما أنني تحدثت شخصياً مع كل من أمين وبشير الجميّل ولاحظت تبايناً بينهما مثيراً للغاية. عندما ذكرت بشير الجميّل مرة عقب حديثه في اجتماع خاص في واشنطن بأن حزب الكتائب قام بسلب كل ما يمكن نقله من ميناء بيروت عام ١٩٧٦عندما بدأت الحرب الأهلية، وأنني وأسرتي فقدنا أغلب ممتلكاتنا الشخصية بما فيها مكتبة من ثلاثة آلاف كتاب أخطأ بشير الجميّل فهمي وقال: «نعم لقد أخذوا (أي أتباعه) كل شيء ولكن لا يمكن مناقشة هذا الموضوع هنا الآن، وفي زيارتك المقبلة لبيروت أرجو أن تتصل بي بهذا الخصوص». لقد ظن بشير ـ تمشياً مع قانون الغاب الذي برز في لبنان مع نشوب الحرب الأهلية ـ أنني أطلب تعويضاً عما فقدت.

أما أمين فكان نوعاً آخر من الرجال، وكان يتحلى بالاعتدال والحذر في جميع مقابلاته وتصريحاته. كما استطاع دائماً أن يبدي إخلاصاً ولو ظاهرياً للقومية العربية والمسلمين في لبنان و «الدور العربي» للبنان. وقد لاحظ المراقبون الاسرائيليون مثل زيف شيف أنه بينما كان بشير ينسق مع اسرائيل باستمرار وفي كل الأمور، كان أمين يفضل إعلام الرئيس حافظ الأسد في دمشق بما كان يجري من أحداث. لقد وقف الرجل «صاحب البدلة البيضاء» ـ كما كنا نسميه ـ على الخط الأخضر الفاصل بين بيروت الشرقية وبيروت الغربية ليعلن ليس فقط وحدة لبنان المنقسم بل «وحدة القلوب» كذلك(١٠)

ومن المؤكد بالنسبة للرئيس أمين الجميل أنه كان يخشى من الخطر الايراني ليس على لبنان فقط ولكن على الغرب وقيمه ومؤسساته بأكثر مما كان أخوه الذي قتل قبل أن يستوعب حقيقة الحرس الثوري ونشأة الميليشيات الشيعية الثورية... ولطالما تشاور مع

نبيه بري المحامي الذي تولى زعامة منظمة أمل الدينية. وقد أخبرني نبيه بري ـ المولود في غرب أفريقيا من أسرة لبنانية شيعية مهاجرة والذي تلقى تعليمه في فرنسا والولايات المتحدة ـ أنه قد أخبر أمين الجميل أنه غير موافق على خطط آية الله الخميني لإقامة ثورة اسلامية في لبنان.

تم تشكيل منظمة أمل عام١٩٧٤ على يد موسى الصدر أو الامام ـ كما يسمونه ـ ذلك الرجل الايراني ذو الشخصية الجذابة الرائعة والعينين الثاقبتين الذي أقنع باخلاصه كل من قابله، والذي كان بطل المحرومين من مزارعي التبغ الشيعة في جنوب لبنان. أسست أمل كمنظمة للاعتماد عل النفس وتوجيه أولئك المزارعين الكادحين للتخلص من علاقاتهم المجحفة مع كبار الاقطاعيين ورجال السياسة. وكان من أكبر خصوم الصدر أسرة كامل الأسعد الذي ظل مسيطراً على ساحة السياسة الشيعية في لبنان لسنوات طويلة كرئيس للبرلمان. كما كان الصدر خصماً لشاه ايران حيث قررت قوات السافاك السرية في ايران أن الصدر شخصية خطيرة.

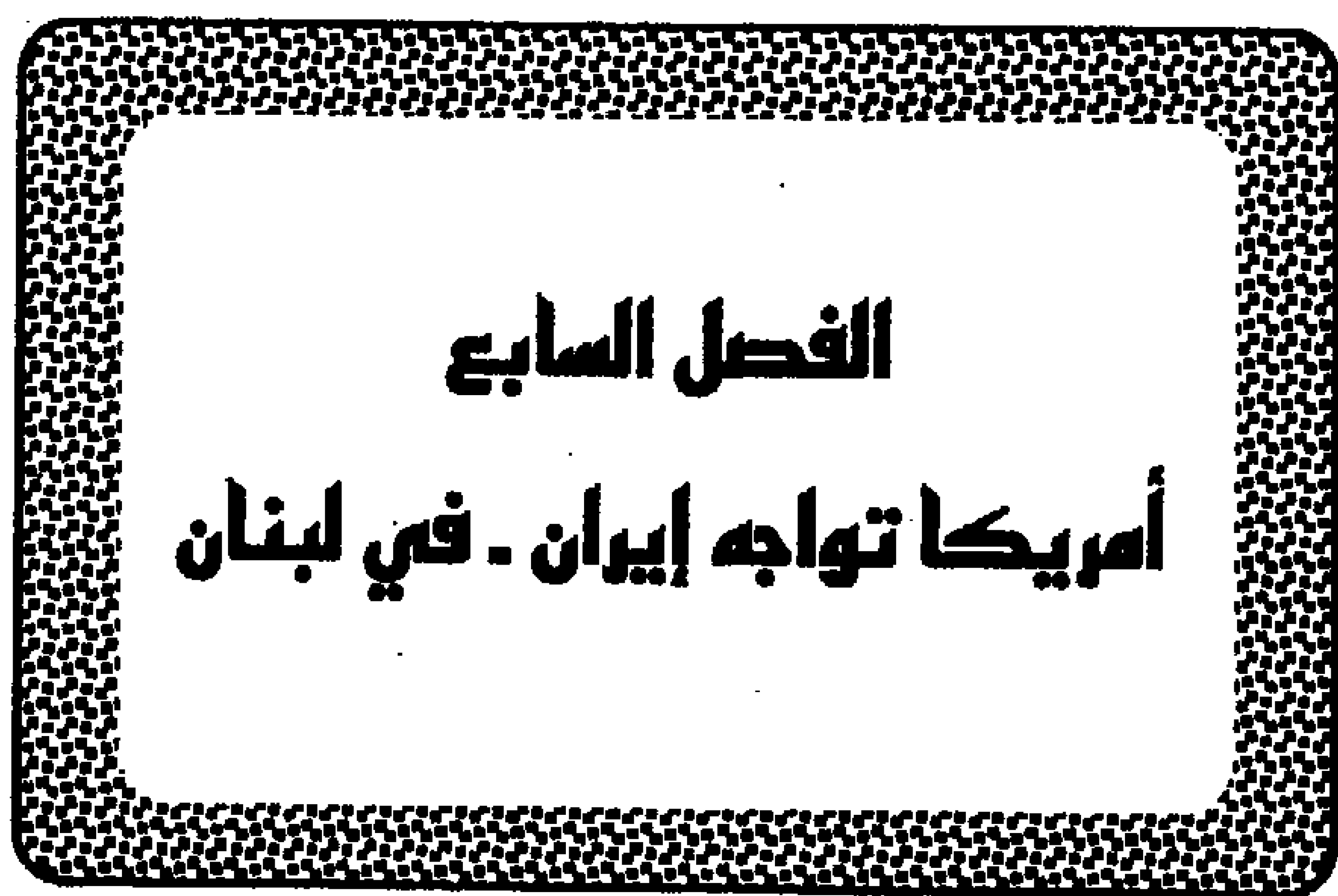
شعر الصدر بالحاجة الى تكوين مجموعة مسلحة بعد أن أخذت القوات الفلسطينية الفدائية تنتقل الى جنوب لبنان في عام ١٩٧٠ ـ ١٩٧١، وقد أخبرني في لقاء لي معه عام ١٩٧٦ أن أمل تحتاج الى الميليشيا المسلحة لسببين: الأول ـ لمقاومة الاعتداءات الانتقامية الاسرائيلية على القرى والمدن الشيعية الموجودة بين المعسكرات الفلسطينية أوبالقرب منها. . . والثاني ـ أن الصدر كان يعلم أنه على الرغم من تعاطفه وتعاطف القيادات الشيعية الأخرى مع القضية الفلسطينية فسوف يأتي اليوم الذي يتقاتل فيه الشيعة والفلسطينيون حول المراعي اللبنانية. وذلك ما حدث في الواقع في الفترة ما بين ١٩٧٧و١٩٧٩ في الجنوب، ثم بشكل أسوأ بكثير حول المعسكرات الفلسطينية خارج بيروت بعد عام ١٩٨٤.

بحلول عام ١٩٧٥ كانت أمل تدرب الميليشيات التابعة لها في وادي البقاع وغيره من الأماكن بدعم من سوريا، متحفظ في البداية ثم بقدر كبير فيها بعد. لقد أسس الامام الصدر عام ١٩٦٦ ما سمي بمجلس الجنوب لتنسيق مشاريع التنمية وتمكن بذلك من انتزاع السيطرة على الشيعة من أيدي المؤسسة الدينية السنية في بيروت وصيدا. ثم تبنى الصدر بعد ذلك نهجاً سياسياً متوسطاً بين السنة المسلمين الموالين

للفلسطينيين والموارنة المسيحيين المعادين لهم. وفي أكتوبر ١٩٧٨ اختفى موسى الصدر في ليبيا بعد جدال عاصف بينه وبين العقيد معمر القذافي (١١) مما أحاله الى شخصية أسطورية بين الشيعة. وقد ارتكبت كثير من الأعمال الخيرية والارهابية باسم الامام موسى الصدر منذ اختفائه.

أما نبيه بري الذي حاول بأسلوبه المتواضع أرتداء عباءة الامام الصدر الدينية والسياسية فهو شخصية مختلفة. جاء في برقية رسمية من السفير الأمريكي في بيروت الى واشنطن وصف لموسى الصدر يقول أنه «من أكثر الشخصيات التي قابلتها في لبنان تأثيراً إن لم يكن أكثرها على الاطلاق.. فله جاذبية شخصية ظاهرة وإخلاصه مثير للاعجاب والدهشة». أما الانطباع الرسمي حول نبيه بري فهو أنه شخصية معتدلة يتحرك في إطار السياسة اللبنانية ويسعى الى الحد من قوة الأقلية المسيحية وإعطاء الأغلبية الشيعية مكانها الحقيقي في لبنان(١٢).

وهكذا أصبحت المشكلة واضحة وضوح الشمس بالنسبة للولايات المتحدة ومؤسساتها من أمثال الجامعة الأمريكية في بيروت ولمواطنيها الموجودين في لبنان، وهي أن الذي استلم عباءة موسى الصدر هم مشايخ حزب الله ومن ورائهم إيران وليس نبيه بري الشخصية المعتدلة. لقد كان هدف هؤلاء هو القضاء الكامل على نفوذ الولايات المتحدة بتحطيم مؤسساتها العلمية واختطاف مواطنيها وقتلهم.. وهكذا يحيلون حطام ذلك المجتمع المتسامح الذي كان يتمتع بقسط من الديمقراطية الى نظام استبدادي ثيوقراطي يلف في مدار الأخت الكبرى، جمهورية إيران الاسلامية.


الفصل السابع
أمريكا تواجه إيران - في لبنان

نجيب حلبي

لقد كان الطوفان الطائفي الذي اجتاح لبنان بعد تدفق الايديولوجيات الايرانية اليه في عام ١٩٨٢ في غاية الوضوح بالنسبة لمواطن أمريكي بعينه هو نجيب حلبي، ذلك أن ابنته ليزا هي الملكة نور، الزوجة الرابعة لعاهل الأردن الملك حسين.

لقد كان الحلبي وابنته والملك حسين نفسه دائما على علم بالتحدي الذي يشكله الثوريون المتطرفون في ايران الاسلامية لذوي المشاعر الطيبة من الناس في الغرب. فقد أخبرني الملك حسين في حديث خاص عام ١٩٨٧ ـ عندما كانت الحرب الايرانية العراقية قد بلغت أوجها وكان الملك يرسل الدعم للعراق ـ أن على الأردن أن يتفادي بأي ثمن المصير الذي آل إليه لبنان . . وهو أن «يسحق بين مدحلتين متعارضتين» . فالخطر بالنسبة للأردن الذي يمثله احتلال اسرائيل الذي بات يأخذ صبغة دائمة في الضفة الغربية والقدس الشرقية ـ التي خسرها الأردن عام ١٩٦٧ ـ لا يساويه أو يفوقه الا التهديدات التي يمثلها آية الله الخميني.

جمعت بين نجيب حلبي والملك حسين صداقة قديمة منذ أن كان للحلبي دور في مصير الجامعة الأمريكية في بيروت، وبحكم أن كليهما مغرم بالطيران. فقد كافح نجيب حلبي من أجل أن تستمر الجامعة مؤسسة مفتوحة تمثل أفضل ما في نظام التعليم الأمريكي من قيم.

وللتعرف على علاقة حلبي بالجامعة الأمريكية وعلاقة الملك حسين بالملكة نور (التي كان يعرفها رجال الصحافة في بيروت مصوراتيه مستقله تسمى اليزابيث). لا بد من تتبع سيرة حلبي الشخصية الحافلة الرائعة. وصل والد نجيب حلبي من زحلة بلبنان الى الولايات المتحدة بطريق البحر عام ١٩٠٠ وأخذ يزاول التجارة في المجوهرات والاواني النحاسية والاقمشة والبسط الشرقية في مدن الساحل الشرقي للولايات المتحدة. وفي ١٩ نوفمبر ١٩١٥ ولد نجيب بمدينة دالاس، وأدى به تفوقه العلمي الى التخرج من جامعة ستانفورد وكلية القانون بجامعة ميشيغن والحصول على شهادات

شرفية من جامعة يايل وألليغيني. كما غرس في نفسه سفره الى الخارج مع والديه حب الطيران فالتحق بالقوات الجوية كطيار مدرب خلال الحرب العالمية الثانية حيث قام برحلة انفرادية سرية عبر القارات في مدة خيالية قياسية قدرها خمس ساعات واربع وخمسين دقيقة، في الوقت الذي كانت تلك المسافة تستغرق من طائرات دي. سي ـ ٣ مدة اثنين وعشرين ساعة.

اشتغل حلبي في مكتب وزير الدفاع الأمريكي جايمس فوريستال إبان تأسيس دولة اسرائيل، ونظرا لآرائه الصريحة بأن تأسيس إسرائيل سيؤدي في نهاية الأمر الى كارثة بالنسبة لوضع الولايات المتحدة في الشرق الاوسط، فقد ترك فوريستال وصمة بارزة على مستقبل حياة حلبي السياسية. كما اشتغل حلبي رئيساً لإدارة الطيران الاتحادية في عهد الرئيس جون كينيدي. وكان يعتقد كغيره ممن اشتغلوا مع كينيدي وجونسون أنه لو قدر لكينيدي أن يعيش لنجح في الوصول الى تسوية لقضية الفلسطينيين.

تولى حلبي في عام ١٩٦٥ رئاسة شركة بان آم للطيران. وفي سبتمبر ١٩٧٠ أخذ يقلق مضجعه النشاط الارهابي الفلسطيني الذي جاء مقدمة لجهود المتطرفين من الفلسطينيين للاطاحة بحكم الملك حسين في الاردن. وبينما كان يقضي عطلة الاسبوع على شواطيء جزيرة فيشرز آيلاند بويلاية كونيكتيكت استلم حلبي برقية مشفرة من مكتب شركة الطيران الأمريكية في لندن جاء فيها: «تعرضت رحلة رقم ٩٣ بعد اقلاعها من أميستردام في ٦ سبتمبر / ايلول لعمل رقم ٩٠٥٢» وهو رمز للخطف. فقد تمكن مسلحان من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين من اختطاف طائرة تابعة للشركة كانت متجهة الى نيويورك وأجبراها على التوجه الى بيروت. وفي بيروت رفض حلبي السماح للمختطفين الذهاب بالطائرة الى القاهرة في صحبة خبير تفجير وأمر شاحنة تابعة للخطوط أن تعترض طريق اقلاع الطائرة في مطار بيروت ولم يتراجع الا بعد تحذيرات مشددة من طاقم الطائرة والمسؤولين في السفارة الامريكية مما سيتعرض له الركاب والطاقم من أخطار ومضاعفات على السلم المهزوز القائم آنذاك في لبنان. اتجهت الطائرة الى القاهرة حيث تم تعطيلها عن العمل بتفجير داخلها.

ترك حلبي عمله في شركة الطيران ليصبح رئيساً فخريا للجامعة الأمريكية في بيروت وعضوا بمجلسها في نيويورك. ومن خلال تلك الوظيفة أخذ القلق يزداد لدى حلبي

حول مستقبل الجامعة بل ومستقبل الوجود الامريكي نفسه في لبنان. وقد أثبتت أحداث ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤ أثناء وجود القوات الامريكية هناك صحة مخاوفه، فقد قتل السيد مالكوم كير الذي تولى رئاسة الجامعة بعد دايفد دودج في ١٨ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٤ أثناء مصادمات مسلحة بين ميليشيات الشيعة والدروز وقوات المشاة البحرية الأمريكية التي اتخذت في مطار بيروت موقعا لها. في خلال ساعات أعلنت منظمة الجهاد ـ وهو الاسم الذي تستعمله منظمة حزب الله أحيانا ـ عن مسؤوليتها عن الحادث معلنة أن هدفها هو «طرد جميع الأمريكان من لبنان» .

وفي دمشق بهت السيد فاروق الشرع وزير الخارجية السوري للخبر، وقد كان لي معه موعد لقاء في نفس ذلك اليوم وقال بكل عفوية: هذا عمل إرهابي شنيع ضد الجامعة وضد كل القيم الانسانية ولا يمكن لسوريا الا أن تدينه».

عمق اغتيال السيد كير الأزمة داخل الجامعة الأمريكية في بيروت. وكما كان يعلم نجيب حلبي وغيره فقد كان أول عمل قام به دايفد دودج بعد اطلاق سراحه بفعل ضغوط سورية في يوليو/ تموز ١٩٨٣ هو الاتصال هاتفياً بمالكوم كير وتحذيره للاحتياط على سلامته الشخصية ناصحا إياه بإتخاذ حرس خاص في جميع الاوقات. وفي مقابلة لي مع السيد كير في أواخر عام ١٩٨٣ أكد لي بأن وجود الحرس الخاص أصبح أمراً مزعجاً بالنسبة له، وكان يتحرك أحيانا خارج الجامعة بدون حرس خاصة بعد مصالحته مع الرئيس أمين الجميل. لقد كان الخلاف بينهما على ما يبدو راجعاً الى عدم رغبة الجامعة في نقل عملها الى بيروت الشرقية وما يعرف عن السيد كير من اهتمامه الشديد ـ كأستاذ وبحاثه ـ بفكرة القومية العربية كما كان ينادي بها الرئيس جمال عبد الناصر وتعاونه وتعاطفه معه.

لقد كان اغتيال كير صدمة عنيفة لنجيب حلبي الذي اختاره لتلك الوظيفة بكل عناية، وعاد حلبي الى بيروت قبل ذلك بقليل ليستلم رئاسة مجلس الجامعة. الا انه منذ ذلك التاريخ صار أعضاء هيئة التدريس والموظفون ـ والأمريكيون منهم خاصة ـ في الجامعة يشعرون بأنهم مستهدفين.

الهجوم على السفارة الأمريكية

كان يوم ١٨ أبريل/ نيسان ١٩٨٣ البداية الحقيقية للحملة الخمينية ضد أمريكا في

لبنان. وإذا كان انقاذ حياة المرء بحسن ضيافة أحد اصدقائه له دليل على العناية الالهية فقد كان ذلك أيضا هو اليوم الذي رجعت فيه الى الايمان بالعقيدة الأسقفية البروتستانية التي علمتني اياها جدتي عندما كنت طفلا صغيرا.

لقد بدأ اليوم مشمساً وكانت مياه البحر الأبيض تبدو من الحي الذي كنت أسكنه بعين المريسة زرقاء صافية، وكانت تظهر في الأفق البعيد سحابة تنبيء بالرعد. خرجت من مكتب أي. بي. سي نيوز المقابل لمستشفى الجامعة الأمريكية في طريقي لمقابلة أحد موظفي القسم الصحفي في السفارة الأمريكية الواقعة على بعد عدة مئات من الأمتار عن العمارة التي كنت أسكنها خلال إقامة سابقة لي في بيروت.

كان موعد اللقاء الواحدة بعد الظهر وكان الوقت الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة مما أعطاني فسحة من الوقت لعبور سلم الجامعة العتيق والوصول الى الشارع الضيق الموصل لمبنى السفارة على شاطيء البحر. عرجت في طريقي على محل لبيع الآت التصوير فمررت بمدخل المستشفى الذي طالما استقبل في كل يوم العديد من ضحايا القتال الدائر في بيروت.

فجأة لمحت صديقاً لبنانياً هو كمال الخوري، دعاني الى فنجان من القهوة فقبلت بكل سرور لشوقي لرؤياه حيث كانت له أفضال كثيرةعلي، اذ أطلعني على سلسلة من التقارير الخاصة بوضع المياه في جنوب لبنان عندما كان مسؤول عن مصلحة نهر الليطاني.

لقد كان كمال أحد اللبنانيين الذين يرتدون قبعات كثيرة ويقومون باعمال مختلفة لكسب عيشهم وكان شريكا في مكتب لبيع القرطاسية خلف مستشفى الجامعة حيث قدمت لنا القهوة التركية في غرفة في الخلف وغمرني بذلك الحديث الشيق فنسيت موعدي في السفارة.

وفجأة سمعنا دوي الانفجار الذي هز جدران المحل وانتشر صداه في أجواء مستشفى الجامعة والشوارع الضيقة المحيطة به. كانت الساعة تشير الى الواحدة وثلاث دقائق، فهرعت مع كمال الى خارج المحل وبدرت الى ذهني في الحال فكرتان: الاولى أن الصوت نتيجة عاصفة رعدية وأن صاعقة حلت بالقرب منا ولكن لم يكن هناك أثر لمطر أو برد، والثانية هي أني تأخرت عن موعدي في السفارة لدقائق.

غطى الصراخ والعويل وصوت سيارات الاسعاف صوت كمال وهو يحثني على ألا اذهب في اتجاه السفارة، وفي خلال ثواني ارتفعت سحابة من الدخان الكثيف بالقرب من شاطيء البحر وحتى مبنى أي. بي. سي. نيوز بينما كنت أنزل سلم الجامعة.

لقد فجر مبنى السفارة الأمريكية في بيروت الغربية بعملية انتحارية. وبالرغم من أني لم أُعر الفكرة اهتماماً إلا بعد مرور الصدمة الأولية الا أن دعوة كمال لي لشرب القهوة أنقذت حياتي حيث أنه كان من المفروض أن أكون أمام مبنى السفارة أوداخله في لحظة الانفجار.

عندما وصلت الى السفارة كان حرس قوات المشاة البحرية الأمريكية ورجال الجيش اللبناني يحاولون شق طريق خلال الحشد البشري المذهول لفرق الانقاذ وسيارات الاسعاف. ظل السفير روبرت ديلون الذي نجى من الموت لوجوده في بيته بأعلى طابق في المبنى معلقا لفترة مؤقتة بجدار من جدران المبنى، ووصل عدد الضحايا إلى ثلاثة وستين قتيلا. لقد هوت الى الأرض طوابق المبنى المركزي السبعة وكانت قطع الأثاث وأسلاك الكهرباء وأشلاء الضحايا متناثرة تتأرجح من جميع أجنحة المبنى التي لم تزل قائمة. لقد دهست جثث الضحايا الموجودة في الطوابق السفلى وكأن عفريتاً مارداً هو الذي دمر المكان.

ما حدث كان هو التالي: قاد شاب يرتدي سترة من الجلد الاسود سيارة نقل صغيرة محملة بطن من متفجرات تي. أن. تي. الى مدخل السفارة من الشارع المقابل على الشاطيء، وفي تجاهل كامل للحراس اللبنانيين وأكياس الرمل الواقية اندفع بأقصى سرعة لمداهمة المدخل الرئيسي للمبنى مما أدى الى انفجار العبوة.

وصل عدد الضحايا من موظفي السفارة الى ثلاث وثلاثين وكان أكثر الاقسام تضرراً هو الجناح الخاص بالاستخبارات المركزية الأمريكية الذي قتل فيه أكبر محللي الشرق الاوسط التابعين للوكالة روبرت آميس وسبعة من معاونيه بمن فيهم مدير المحطة كينيث هاس. كما قتل أحد أفراد قوات دلتا التابعة للجيش الأمريكي والذي كان من ضمن حراس السفير ديلون. كما قتل أربعة عشر من زوار السفارة والمارة.

وقف الرئيس أمين الجميل عصر ذلك اليوم يشاهد سحب الدخان ترتفع من ذلك الحطام ليعبر عن أمله «أن المسؤولين عن هذه الجريمة قد وحدوا بين الابرياء من

اللبنانيين والأمريكان وزادوا من تصميم البلدين للاستمرار في العمل المشترك». كما صرح الرئيس ريغان في قاعدة أندروز الجوية أن «هذا العمل الاجرامي لن يثنينا وسوف نقوم بكل ما نعتقد أنه الحق، وليكن هذا انذاراً للجبناء الغادرين المتوحشين في العالم أنهم لن يملوا علينا شروطهم»(١).

وعندما زرت مكتب وكالة الأنباء الفرنسية في نفس اليوم وجدتهم استلموا مكالمة هاتفية من منظمة الجهاد الاسلامي تدعي مسؤوليتها عن «الضربة العظيمة ضد الامبريالية الأمريكية». كما اتصل أحدهم بصحيفة اللواء اليسارية يقول إن الهجوم على السفارة الأمريكية «هو جزء من حملة الثورة الايرانية ضد الأهداف الأمبريالية في جميع أنحاء العالم. . . وسوف نستمر باستهداف كل مظاهر الوجود الامبريالي في لبنان بما في ذلك ما يسمى بالقوة المتعددة الجنسيات»(٢) وعلى الرغم من وجود تقارير بأن الانفجار كان نتيجة قنبلة في مقصف السفارة كان لبعض الموظفين اللبنانيين يد فيه، الا أن الأدلة كلها كانت، تؤكد أن المتهم هو سيارة الشحن وسائقها، وقد سبق أن اتبع نفس ذلك الاسلوب ضد السفارة العراقية في بيروت في ديسمبر ١٩٨٢.

لم يكن الهجوم على السفارة الامريكية في بيروت الغربية سوى الاول في سلسلة طويلة من العمليات الانتحارية التي كانت من ورائها ايران والموجهة ضد أهداف أمريكية وفرنسية واسرائيلية واجنبية أخرى في لبنان. وعلى الرغم من قلة عدد ضحايا هذا الهجوم نسبة للهجوم على ثكنات قوات المشاة البحرية الامريكية الذي جاء بعد ذلك في أكتوبر/ تشرين الأول، فقد كان له وبكل الاعتبارات أخطر الآثار على سياسة الولايات المتحدة. فقد دمرت وحدة التحليلات التابعة لهيئة الاستخبارات المركزية في الشرق الاوسط وأهينت الولايات المتحدة أمام أعين اللبنانيين والسوريين والاسرائيليين وغيرهم من المراقبين في المنطقة. بعد أسابيع كنت في جنيف أتناول الغذاء مع أحد رجال البنوك الشيعة الذي عرفته فيما قبل استاذاً في الجامعة الامريكية في بيروت فهز رأسه في أسى وقال: «الآن فقط بدأت تلاحقكم أيها الأمريكان نتائج تخبطات سياستكم ووقوفكم الى جانب اسرائيل».

تفيد تقارير نشرت فيما بعد من قبل عدة أطراف أن وكالة الأمن القومي الامريكية قد اعترضت ـ وربما عن طريق محطة رصد بريطانية في قبرص ـ رسائل مشفرة من طهران

للسفارة الايرانية في دمشق تشير الى هجوم كبير على القوة المتعددة الجنسيات في لبنان. كما قام المسؤولون في طهران بتحويل مبلغ ٢٥ ألف دولار للسفير الايراني في بيروت محمد محتشمي، وطلبوا من سوريا المساعدة في ادخال اثني عشر ايراني من دمشق الى لبنان ـ أي في الاتجاه المعاكس للطريق الذي تم منه تهريب دافيد دودج.

شارك كيث هوول أحد ضباط الأمن التابع للمخابرات المركزية، استخبارات الجيش اللبناني في التحقيق مع أربعة من المتهمين في الهجوم على السفارة (يقال انهم ضربوا مما أدى الى طرد هوول من الاستخبارات المركزية بعد الاعلان عن ذلك)، كان أحدهم فلسطينياً يعمل في السفارة اعترف بأن مهمته كانت اخبار القيادة العليا للارهابيين بوجود السفير ديلون داخل مبنى السفارة كي يبدأ الهجوم. كما اعترف الثلاثة الآخرون بمشاركتهم في تعبئة السيارة بشحنات المتفجرات في ضاحية من ضواحي بيروت الجنوبية الشيعية. ثم ألقت القوات اللبنانية القبض على متهم خامس اعترف بأنه هو الذي قام بتجنيد الأربعة الآخرين وأنه اصطحب ضابط استخبارات سوري الى بيروت لضبط أسلاك المتفجرات.

وفي دمشق استدعى رفعت الأسد أخو الرئيس حافظ الأسد السفير الامريكي هناك السيد روبرت باغنيللي لينفي له بكل حدة مساهمة سوريا في العملية. بعد ذلك اتصل أحد ضباط المخابرات السورية بالسفارة الايرانية في دمشق يلوم ايران على قيامها بالعملية دون موافقة سوريا. إلا أن خبراء البنتاغون وعلى رأسهم السيد نوول كوخ المسؤول الأول عن محاربة الارهاب يعتقدون أن تلك المكالمة كانت متعمدة وموجهة لأجهزة التصنت الامريكية التابعة لوكالة الأمن القومي وصانعي السياسة الامريكية لتبرئة رفعت وأخيه حافظ الاسد. بينما يعتقد آخرون أن ادعاءات سوريا بالبراءة ركزت أغلب المسؤولية على السفير الايراني محمد محتشمي(٣).

بعد ذلك بأسابيع تصدر رفعت وحافظ الأسد الجهود الرامية لاطلاق سراح دافيد دودج، فاتصل حافظ الأسد في يوليو/ تموز بمكتب الخميني في وساطة سورية نيابة عن مواطن أمريكي لم يسبق لها مثيل ولم تتكرر الا في حالة الصحفي الامريكي تشارلز غلاس قبل أن يتمكن من الهرب من مختطفيه من عناصر حزب الله في أغسطس/ آب ١٩٨٨.

ذهب مبعوثون من سوريا الى طهران لإقناع مختطفي دودج بأنه لن يحصل الايرانيون الذين اختفوا في لبنان عام ١٩٨٢ على حريتهم. وفي عملية مثيرة تمكن شاب من ضباط المخابرات السورية أن يصطحب دودج الى خارج السجن مخترقا حشداً كبيراً من الحرس الثوري الذين كانوا يريدون منع «انقاذ» دودج. يؤكد دودج أن اياً منهم لم يكن على يقين بالنجاة حتى اجتازت الطائرة السورية الأجواء الايرانية في طريقها الى دمشق».

بعد وقفة قصيرة لتقديم الشكر الى الاخوين الأسد في دمشق انطلق دودج على متن طائرة عسكرية أمريكية الى مطار ويستوفر العسكري بولاية ماسيتشوتس حيث كان في استقباله بالبهجة والدموع زوجته وأبناؤه ونجيب حلبي وبقية أعضاء مجلس الجامعة الامريكية في بيروت ومئات من الاصدقاء الآخرين.

لقد برهن الرئيس حافظ الأسد بمساعدته في اطلاق سراح دافيد دودج وفي مناسبات أخرى تالية، أن سوريا قادرة على ممارسة أكبر قدر ممكن من الضغط على ايران ما دام ذلك يخدم مصلحتها، كما ارتفعت في الولايات المتحدة أسهم رفعت الأسد الذي كثيراً ما اتهمته وسائل الاعلام الغربية بالكثير من الجرائم وتولى فيما بعد منصب نائب الرئيس السوري.

التراخي الأمني في المناطق الخطرة

لقد أدى الهجوم على السفارة الامريكية في بيروت بالجنرال ويللي سميث القائد الاعلى للقيادة الأمريكية في اوروبا الى الاقتناع بوجود خلل أساسي في الترتيبات الامنية العسكرية الامريكية في بيروت الواقعة تحت مسؤولية القيادة في أوروبا. اختار للمهمة أحسن من يتولاها وهو مساعده الخاص للشؤون الامنية العقيد وليام كوربت ـ الضابط السابق بفرقة القبعات الخضراء وأحد المحاربين القدامى في فيتنام ـ ممن لهم فهم متزن وعميق لطبيعة مشاكل أمريكا السياسية والعسكرية في المنطقة واسبابها.

بعد ثلاثة أيام من الحادث اتجه مساعد وزير الخارجية لورانس إيغلبيرغير الى بيروت على رأس وفد من واشنطن يمثل الرئيس ريغان في الصلاة على الضحايا ونقل جثثهم للدفن في أمريكا، وفي فرانكفورت انضم كوربت الى ذلك الوفد.

لقد كانت مهمة كوربت شاقة ولكنها أوضح من مهمة قوات المشاة البحرية، اذ كان المطلوب منه مراجعة الترتيبات الأمنية المضادة للارهاب التي يشرف عليهامكتب

التعاون العسكري الامريكي في بيروت المتكون من مائة وثلاثين ضابطا يرأسهم العقيد ارثر فيتتل والتي كانت مهمته المحافظة على الجيش اللبناني كقوة وطنية وليس كقوة طائفية.

لقد أفزع كوربت ما رآه وما سمعه في اللقاءات والاجتماعات التي اعقبت الهجوم فكتب يقول: « انه ليبدو للمرء من خلال مايسمع أن ما جرى كان نوعاً من الانتصار وليس كارثة من الكوارث». كما خص السفير ديلون ضابط الأمن بالسفارة بالشكر والثناء على جهده الدؤوب بعد الحادث في حفظ أمن المنطقة وتنظيفها والبحث عن الوثائق السرية واستردادها.

كما لم يكن كوربت وغيره من رجال الأمن سعداء لما قاله مساعد وزير الخارجية إيغيلبيرغير للصحفيين بأن السفارات الامريكية «لا تتخفى وراء الابواب الحديدية أوتختلس النظر من خلال الثقوب». فقد سمع كوربت كلاماً مثل ذلك عقب أحداث ارهابية أخرى ضد أهداف أمريكية. فما هو المانع ياترى في توفير الاحتياطات العادية ضد اتباع الخميني من الارهابيين وغيرهم من العناصر المعادية؟ ولكن ايغيلبيرغير أكد للصحفيين أن «هذه السفارة (وهي حطام مكدس على بعد أمتار قليلة) قدأدت مهمتها على أحسن مايرام وأكثر». الا ان كوربت لم يكن ليفهم ذلك الاطناب الذي عبر عنه ذلك الدبلوماسي المحترف تجاه المسؤولين عن السفارة التي أصبحت ركاما نتيجة كارثة حقيقية(٤).

بمجرد أن سافر وفد ايغيلبيرغير انصرف كوربت والعقيد فيتتل الى دراسة الامن الخاص بمكتب التعاون العسكري، وراعهم أن وجدوا ما لا يقل عن ١٢٠ جنديا أمريكيا قد اتخذوا مقرا لهم في مكان واحد هو فندق قدموس على شاطيء البحر في بيروت الذي كان الصحفيون والدبلوماسيون يقيمون فيه الاحتفالات والسهرات. كان مدخل المرآب الارضي يفتح على الشارع مباشرة ولم يكن له باب ولا يحتاج لأكثر من عبوة كتلك التي فجرت في السفارة لكي يتحطم بكامله على من فيه. لقد كان ذلك الفندق هدفا أسهل من السفارة.

يؤكد فيتتل أنه حاول بكل جهده اقناع السفارة بالتصريح ببناء حواجز حول الفندق ولكنه اضطر في النهاية الى وضع اسلاك شائكة وأكياس وبراميل محملة بالرمال

حول الفندق « كأدنى قدر من الاحتياطات» دون الحصول على تصريح(٥).

مع حلول الليل كان كوربت قد أقام حواجز دفاعية مضادة للهجوم حول الفندق، وعمل في أسابيع على توزيع القوات على عدد من الفنادق في بيروت وبذلك فقد فندق قدموس أهميته السياسية كهدف لارهابيي طهران.

وفي تقرير رفعه الى القيادة في اوروبا بتاريخ ١٧ أبريل/ نيسان حذر كوربت أن الهجوم قد أزال «كل الشكوك حول ما اذا كان يوجد خطر حقيقي يهدد المصالح الامريكية في لبنان » مبيناً أنه من وجهة النظر الأمنية ليس هناك معنى لتفسيرذلك الهجوم بأنه « ضد السياسة الامريكية أو الوجود العسكري الامريكي» . قال كوربت: إن قيام هجوم واحد عشوائي ارهابي ضد الصالح الامريكية في لبنان يعتبر ضربا من الهراء بالنسبة لتنظميات تحركها ايديولوجية ذات أهداف بعيدة المدى. والاكثر منطقاً أن تقوم سلسلة من الاعمال الارهابية كل منها ـ إن أمكن ـ أكبر وأكثر خسائر من سابقه.

لقد عبر كوربت في الحقيقة عن نبوءة صادقة بما كان ينتظر قوات المشاة من مذبحة في قاعدتهم المكشوفة قرب المطار عندما قال: « تشكل القوات العسكرية الامريكية أوضح هدف منطقي لعمل ارهابي بعد الهجوم على السفارة، وعلى المصالح الامريكية في لبنان أن تستعد لهجوم أكبر من ذلك الذي شهدته السفارة» (٦).

لقد حاول كوربت أن يحذر العقيد تيموثي غيراختي قائد قاعدة قوات المشاة البحرية الامريكية بمطار بيروت من ذلك الخطر في يونير/ حزيران ١٩٨٣، ولم يكن آنذاك يعلم أن ٣٥٠ من الجنود يقيمون في مبنى واحد في القاعدة. كان ذلك مبنى مقر كتيبة فريق الهبوط الذي كان يستخدم مأوى للجنود. لقد أصبحت قوات المشاة خلال فترة قصيرة طرفا في الحرب المستعرة بين وحدات الجيش المارونية التابعة أساساً للرئيس الجميل والقوى الموالية لسوريا وايران في الجبال المجاورة.

كثيرا ما كان العقيد غيراختي يسمح للمصورين والصحفيين بمراقبة المصادمات المسلحة والتقاط الصور من على سطوح مبنى مقر الكتيبة، ولقد شاهدت بنفسي يوماً ضابطاً أمريكياً يراقب أهداف المدفعية وينقل المعلومات بالراديو الى قوات الخفر اللبنانية. كما كانت هناك أجهزة لايزر كذلك.

لقد كان بالامكان تسلل عناصر سورية أو ايرانية ضمن وفود الصحفيين اللبنانيين الى ذلك السقف بكل سهولة ، وكان هناك من النشاط ما يقنع السفير محمد محتشمي ووزير الحرس الجمهوري رفيق دوست وغيرهما من الموجهين للعمليات المعادية لأمريكا أن ذلك المبنى يعتبر هدفاً مشروعاً للعمل العسكري.

حاول العقيد كوربت ـ دون أن يكون على دراية بذلك الوضع ويحكم أنه بنفس رتبة غيراختي ـ أن يقنعه بالسماح لمائة من أعضاء مكتب التعاون العسكري أن ينتقلوا الى مواقع داخل القطر المحصن في مطار بيروت الدولي. ويؤكد كوربت أنه وجد غيراختي على علم كامل بالخطر القائم وفي حوزته جميع التقارير الاستخباراتية الخاصة بالخطر السوري الايراني على القاعدة. الا أن المشكلة في رأي كوربت لم تكن تكمن في فشل المخابرات الامريكية وانما في فشل «القيادات والمسؤولين الذين تراخوا في واجباتهم تجاه ضمان أمن جنودهم في مناطق مهددة بهجمات متكررة مؤكدة»(٧).

سوريا وايران: تحالف مضطرب

سرعان ما تحول الصراع القائم بين الولايات المتحدة من جهة وايران وسوريا وعملائهما من جهة أخرى الى حربين منفصلتين: الاولى حرب الاختطاف والارهاب والثانية حرب قصيرة المدى ـ ولكنها مكثفة ـ بالسلاح والرصاص بين القوات العسكرية الامريكية وخصومها . وكان دور ايران في لبنان يمتد بين الحربين، حرب السلاح وحرب الارهاب.

لم تبدأ حملة الخميني في الواقع بالاعتداء على أساتذة الجامعة الامريكية بالخطف والقتل، وانما بدأت بعد أسابيع قليلة من احتلال السفارة الامريكية في طهران . فقد تحركت في ديسمبر/ كانون الاول قوة من « المتطوعين» الايرانيين قوامها ثلاثمائة شخص بقيادة آية الله محمد منتظري الى دمشق بهدف الحصول على نقطة انطلاق للدخول الى جنوب لبنان. كانت ايران تسعى الى مساندة الشيعة في جنوب لبنان لمقاومة الاعتداءات الاسرائيلية والضغوط الناشئة عن ذلك والتي تمارسها ضدهم الميليشيات المسيحية.

لم يكن الرئيس السوري حافظ الأسد على علم بمجيء الايرانيين، ولكن الرئيس اللبناني الياس سركيس ـ اتصل هاتفيا بالرئيس الأسد يستجديه: « ارجوك ألا تسمح للايرانيين بالدخول الى لبنان، فعندنا من المشاكل ما يكفينا بوجود الفلسطينيين

والاسرائيليين والاجانب». وتخوفاً من أن تجر القوات السورية الى معارك غير مرغوب فيها وخاسرة مع اسرائيل أمر الأسد فوراً أن يخصص لهم أحد معسكرات التدريب التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية، خارج دمشق.

اعتبر الايرانيون ذلك معاملة مجحفة، فقد تلقى الكثير من القيادات الثورية الايرانية بمن فيهم ابن الخميني أحمد تدريباتهم على يد منظمة فتح في لبنان كما ذهب عشرات من أعضاء منظمة أمل الشيعية الى ايران للقيام بدورهم في الثورة(٨). وعليه فان عودة مجموعة منهم الى لبنان يعتبر أمرا طبيعيا.

ولكن كان على تلك المجموعة من الثوريين ان تنظر الى الامر - في الوقت الذي أخذت ايران وسوريا تحكمان العلاقات فيما بينهما - عبر وسائل أخرى. لقد عارض ألاسد قيام الحرب العراقية الايرانية ولكنه لم يجد مفراً من الوقوف الى جانب ايران عدو خصمه اللدود الرئيس العراقي صدام حسين، وقام في مارس/ اذار ١٩٨٢ بقفل حدوده مع العراق وقطع الانبوب الذي كان يحمل النفط العراقي عبر الاراضي السورية الى ساحل البحر المتوسط. كان ذلك مرتبطاً باتفاقية تجارية شاملة ضمنت بها سوريا الحصول على امدادات النفط الايراني باسعار تكاد تكون مجانية.

قامت الخطوط الجوية الايرانية بتنظيم رحلات للثوريين الايرانيين وخاصة النساء لزيارة الاماكن المقدسة الشيعية في سوريا، ولم يمر وقت قصير حتى نشأ حول المسجد الكبير في دمشق سوق تجارية رائجة ومركزاً للحرس الثوري الايراني.

ثم تعاقب الدعم السوري لايران حين حشدت سوريا قواتها العسكرية في مايو/ أيار ١٩٨٢ على طول الحدود مع العراق مما اضطر الاخير الى سحب جزء من قواته الى حدوده الغربية، مما أتاح للهجمات الايرانية أن تجبر القوات العراقية على التقهقر خلف الحدود الدولية والوصول الى مشارف البصرة وغيرها من المدن الآهلة بالسكان. كما شاركت سوريا في عمليتي درع وعاصفة الصحراء مع التحالف الذي أخرج العراق من الكويت في ١٩٩٠-١٩٩١.

لقد اتاح الغزو الاسرائيلي للبنان في يونيو/ حزيران ١٩٨٢ للخميني أن يثبت صدق ما كان ينادي به من فتح المسلمين للقدس. وهكذا أصبحت لبنان هي الجبهة الغربية لايران في مواجهة الولايات المتحدة واسرائيل وأصبح الشيعة المحرومون في لبنان تحت

قيادة الحرس الثوري وبأوامره رأس الحربة للثورة الاسلامية في لبنان. فبعد ساعات من الهجوم الاسرائيلي وصل وفد ايراني على مستوى عالٍ الى دمشق ليؤكد التضامن مع سوريا ويخطط للعمل ضد اسرائيل. كما أعلن الرئيس الايراني مير حسين موسوي أمام المجلس في طهران في ١٠ يونيو/ حزيران «الحرب حتى النصر في القدس» وطلب من الاعضاء تقديم الدعم المالي لتلك الحرب «حتى تحرير فلسطين» التي وصفها بأنها «جزء لا يتجزأ من الأمة الاسلامية»(٩).

وعند وصولي في ١ أغسطس/آب ١٩٨٢ لتعزيز فريق أي.بي.سي. نيوز الصحفي الذي كان يغطي أخبار الحرب هناك، تم توزيع ألف وخمسمائة من الحرس الثوري على بعلبك وعدد من قرى وادي البقاع. احتل هؤلاء معسكرات للجيش اللبناني سابقاً في ثكنة الشيخ عبدالله وبدأوا في التعاون مع فرقة منشقة عن منظمة أمل تعرف باسم أمل الاسلامية وهي فرقة انتحارية يقودها قائد الجناح العسكري لمنظمة أمل سابقا حسين موسوي (والذي لا تربطه علاقة بموسوي رئيس الوزراء في ايران).

كانت تلك الوحدة تعرف باسم اللواء ١١٠ وكان أعضاؤها من المتطوعين من مختلف الدول العربية مهمتهم القيام بعمليات الاختطاف والعمليات الفدائية تحت إشراف منظمة حزب الله ضد الأهداف الامريكية والفرنسية والاسرائيلية والاجنبية الاخرى في لبنان.

اسس منظمة حزب الله مجموعة من الشيعة اتخذت شعارها الآية القرآنية: «ألا ان حزب الله هم الغالبون»، وكانت تدير لواء ١١٠ التابع لموسوي ووحدات أخرى تحت أسماء مختلفة منها الجهاد الاسلامي وأمل الاسلامية ومنظمة العدل الثوري والمستضعفون في الارض ومنظمة الجهاد الاسلامي لتحرير فلسطين. كان من بين قادة حزب الله في البقاع الشيخ عباس موسوي أخو حسين موسوي والشيخ صبحي طفيلي. اما في بيروت فقد تولى قيادة حزب الله شخص يدعى سيد الأمين الذي أصبح فيما بعد العدو الرئيسي للولايات المتحدة في لبنان وكان المتحدث الرسمي باسم المنظمة ومنسق الوحدات الانتحارية التابعة لحسين موسوي.

اما القائد الروحي لحزب الله كان ولا يزال الشيخ محمد حسين فضل الله. غادر الشيخ فضل الله منطقة النبعة عندما اشتد سعار الحرب الاهلية في لبنان عام ١٩٧٦

ليستقر في الضواحي الجنوبية المضيافة، حيث كتب الكثير حول قضايا دينية وقانونية مما يشير الى أنه شخصية قيادية بارعة. كانت مهمته قيادة حزب الله حسب التوجهات الايرانية بما يضمن سيطرة الدين على السياسة بتسليم المراكز القيادية للمشايخ وعلماء الدين. وعلى الرغم من أن الشيخ فضل الله كان يعتبر لبنان «جزء من أمة الاسلام العالمية» الا انه لم يكن يعتقد في امكانية تحوله الى جمهورية اسلامية مهما كان ذلك من هدف نبيل، وظل ينادي - كما كان يفعل نبيه بري - بالمساواة الاجتماعية بين جميع الطوائف اللبنانية. لقد كان فضل الله على ما يبدو متفهما لحقيقة تصميم المسيحيين والدروز والمسلمين السنة على الحيلولة دون وصول الشيعة الى الحكم في لبنان وأن الرئيس السوري حافظ الأسد قد يسمح بأي شيء آخر الا هذا.

ولكن شيئا من ذلك لم يكن ليمنع ايران أو السفير الايراني في دمشق السيد محتشمي من التضامن مع سوريا لطرد «الشياطين» الثلاثة من لبنان وهم اسرائيل والولايات المتحدة وفرنسا. كانت أول خطوة هي التعاون مع حزب الله وغيرهم من الاصدقاء والعملاء والوكلاء لإرغام الرئيس الجميل على إلغاء اتفاقية السلام والتطبيع التي تم توقيعها مع اسرائيل في ١٧ مايو/ أيار ١٩٨٣. فقد نصت تلك الاتفاقية على انسحاب جزئي لاسرائيل من لبنان ولكن بما يكفل لاسرائيل قدراً من النفوذ أكثر مما كان يرضي سوريا، وبعد حملة من الضغوط الدبلوماسية التي عززتها الاعمال الارهابية أجبر الرئيس الجميل على إلغاء تلك الاتفاقية في ٥ مارس/ آذار ١٩٨٤.

توصيات وحدة الدعم الاستخباراتية

وجدت القوات العسكرية الامريكية في لبنان نفسها تجر شيئاً فشيئاً الى حرب مسلحة لا رغبة لها فيها ولا تملك تفويضاً بخوضها ولا يمكن لها الا أن تخوضها بقدر محدود من عمليات الرد «الخفيفة». أول قواعد الدفاع الناجح هي معرفة عدوك، ولكن ذلك يفترض أنك تعرف جيداً مهمتك في البر والبحر والجو. ولم تكن القوات الامريكية في لبنان تعرف شيئاً من ذلك كله. وهكذا كان للولايات المتحدة وقواتها العسكرية أن تدفع ثمناً باهظاً لذلك الجهل. أما بالنسبة للاستخبارات فقد كان لنبوءة العقيد كوربت عقب الهجوم على السفارة في بيروت الغربية بأن على «مصالح الولايات المتحدة في لبنان أن تتوقع هجوما أكبر»، دور هام في اطلاق أجراس الخطر في مقر وكالة

الاستخبارات المركزية الرئيسي في لانغلي بولاية فيرجينيا.

لقد كان فقدان روبرت آميس ـ أكفأ محلل لشؤون الشرق الاوسط انجبته الولايات المتحدة ـ مأساة حقيقية بالنسبة لأمريكا. تولى آميس في أواخر السبعينات مهمة الاتصالات السرية بين الاستخبارات المركزية ومنظمة التحرير الفلسطينية، وكان ياسر عرفات عن طريق علي حسن سلامة المعروف بأبو حسن يبلغ آميس بالتهديدات الارهابية ضد الامريكان. كان أبو حسن معروفاً لدى عدد محدود من رجال الصحافة الامريكيين بأناقته وذكائه وولعه بشرب الخمر ولطافته وحبه لتبادل الاخبار والقيل والقال، الا ان أحدا لم يكن يعلم (سوى عدد محدود جدا لم أكن منهم) عن العلاقة التي كانت قائمة بين منظمة التحرير ووكالة الاستخبارات المركزية والتي كانت تسري كسريان التيار الكهربائي من خلال آميس وأبو حسن(١٠).

كانت اسرائيل بالطبع على علم بتلك العلاقة ولعل اصرارها على قطعها كان أحد الدوافع وراء اغتيال أبو حسن في بيروت عام ١٩٧٩. (القت اسرائيل مسؤولية قتل أحد عشر من الرياضيين الاسرائيليين اثناء انعقاد الالعاب الأولمبية في ميونخ عام ١٩٧٢ على كل من أبو حسن ومنظمة ايلول الاسود المنشقة عن فتح). كان مقتل أبو حسن وعدد من المارة الابرياء في حادث انفجار سيارة في بيروت عام ١٩٧٩، ولم يكن ذلك مرضياً لوكالة الاستخبارات المركزية الامريكية على الاطلاق.

ويؤكد المطلعون على خفايا الامور أن العلاقات بين الوكالة والمخابرات الاسرائيلية ـ الموساد ـ قد تدهورت بعد ذلك الحادث. وبعد ثلاث سنوات ـ عندما قتل في احدى معارك الحرب في لبنان الجنرال ياكوتيال آدم أحد العسكريين المهرة الذي عمل مع الموساد والاستخبارات الامريكية ـ ازدادت تلك العلاقات سوءاً.

كان الجنرال آدم مرشحاً لخلافة يتسحاق هوفي كرئيس للموساد، ولكن تولى ذلك نائب هوفي وهو ناحوم أدموني أول رجل مخابرات محترف يتولى ذلك المنصب. تلقى أدموني تعليمه في الولايات المتحدة وبعد خدمة ثمانية وعشرين عاماً في الموساد في مواقع هامة كواشنطن، كان إدموني يقدر جيداً الحاجة الى علاقات طيبة مع الاستخبارات المركزية(١١)، وكان يحرص أكثر من أي شخص آخر على التعاون مع الامريكان ضد الخصوم المشتركين في لبنان.

الا ان احدى المشاكل التي كانت تواجه الولايات المتحدة هي أنه على الرغم من امكانيات وكالة الأمن القومي لاعتراض المراسلات اللاسلكية من اماكن كطهران وتفسيرها في اغلب الاحيان تفسيراً صحيحاً، فان تحطيم اسرائيل لشبكة منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان قضى على العديد من إمكانيات وكالة الاستخبارات المركزية داخل عوالم الارهاب السرية(١٢).

ولذلك فعندما شعر البنتاغون بحاجة قوات المشاة الامريكية المحاصرة التي اصبحت هدفاً لرصاص القناصين وقنابل المدفعية الى الدعم الاستخباراتي أرسل فريقاً من وحدة نشاط الدعم الاستخباراتي {ISA} التابعة للجيش الامريكي والتي لم يكن لها وجود رسمي وانما تم تكوينها بعد فشل محاولة انقاذ الرهائن الامريكان في عام ١٩٨٠. كان قائد الوحدة رجل البحرية السابق وخبير تكنولوجيا الكومبيوتر والاقمار الصناعية المقدم ويليام كاوان الذي كان نائب مدير تلك العملية لمحاولة انقاذ الرهائن. وصل كاوان الى بيروت في ٢٦ مايو/ أيار١٩٨٣ وتعرف على رئيس محطة وكالة الاستخبارات المركزية هناك السيد وليام باكلي الا انه لم يرق للكثيرين من موظفي السفارة خاصة وانه أطلق شعر لحيته لينسجم مع بيئته اللبنانية.

تعرف كاوان وزملاؤه في وحدة نشاط الدعم الاستخباراتي على مداخل مدينة بيروت وشوارعها بسرعة، ورفعوا توصية للجنرال سميث في مقر القيادة في اوروبا بأن أفضل طريقة لاجهاض عمليات الحرس الثوري الايراني الارهابية وغيره من الجماعات الاخرى هي تشكيل « مركز صهر» تتجمع فيه كل التقارير الاستخباراتية والمعلومات الواردة من المصادر المختلفة ثم تتم عملية غربلتها وتقييمها. وكان رد القيادة المبدئي هو تخصيص ضابط استخبارات واحد للعمل مع العقيد فينتل في مكتب التعاون العسكري.

يقول نوول كوخ وزير الدفاع المساعد لشؤون مواجهة الارهاب سابقاً أنه كان لعدم اكتراث القيادة في أوروبا بتوصيات وحدة نشاط الدعم الاستخباراتي « انعكاس سلبي على الضباط الاعلى رتبة، مما ادى الى نفي بعض الامور وتغطية امور أخرى وحنق شديد بأن تقرير وحدة نشاط الدعم الاستخباراتي قد أعد أصلا. . وكان القرار أنه لا توجد أي مشاكل وإن وجدت فبالإمكان حلها»(١٣).

الى اي مدى لم يفلح في حل تلك المشاكل ، كان سيتضح ذلك مع بزوغ فجر الثالث والعشرين من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٣ .



الفصل الثامن

«نيوجيرسي!... نيوجيرسي!»

حادثة على سفح الجبل

في ١٨ سبتمبر / ايلول ١٩٨٣ كنت في مهمة مع فريق تلفزيوني في جبال الشوف الشمالية بلبنان وكان سائق السيارة المرسيدس العتيقة قد اختار طريقا ملتويا نحو اعالي الجبل يتعرج بين اشجار الصنوبر ذات الرائحة الزكية.

كان ذلك عصر اول يوم بدأ فيه تورط الولايات المتحدة بصورة مباشرة في الحرب الاهلية في لبنان وكانت وحدات الجيش التابعة للرئيس امين الجميل التي تدعمها الولايات المتحدة تتصدى لتهديدات مباشرة تستهدف قصر الرئاسة ووزارة الدفاع اللبنانية في منطقة بعبدا . كما كانت قوات الدروز والمقاتلون الفلسطينيون الذين تدعمهم المدفعية السورية يهددون بشدة قوات الجميل في قرى جبل سوق الغرب على بعد عدة اميال اسفل الجبل، والى الغرب منا حيث اخذت القذائف تحط في التلال القريبة . لم نكن نعلم تلك اللحظة ان وحدات الاسطول السادس الامريكيةقد دخلت المعارك هي الاخرى حيث كانت مدمرة الصواريخ جون رودجيرز والطرادة يو. أس . أس فيرجينيا تلقي بوابل من القذائف في مرتفعات تلك التلال.

كان مستشار الرئيس ريغان للأمن القومي روبرت ماكفارلين ومساعده يستمعون الى القصص المرعبة التي كان يرويها لهم قادة الجيش اللبناني في بيت السفير الامريكي في حي بعبدا تفيد احدى تلك الروايات ـ وهي على الارجح غير صحيحة ـ ان الفدائيين الايرانيين الذين اقتحموا مرتفعات سوق الغرب استخدموا الفؤوس في قتل وتهشيم فرقة كاملة من اللواء الثامن اللبناني.

ألحّ العميد كارل ستاينر ممثل رئاسة الاركان الامريكية المرافق لماكفارلين على ان يسمح للقوات الامريكية بالدفاع عن مواقع قوات المشاة البحرية ومسكن السفير الامريكي في بعبدا ومساندة جيش الجميل اذا لزم الامر.

وافق ما كفارلين وارسل برقيته المشهورة الى الرئيس ريغان التي جاء فيها ان «السماء تنهار» وان الدعم الامريكي المسلح امر حاسم في الحفاظ على الوجود الامريكي، والح

في اتخاذ مجموعة اجراءات منها استخدام الطائرات التكتيكية التابعة للاسطول السادس مؤكداً ان الحرب هي بين الاجانب واللبنانيين وليست بين اللبنانيين انفسهم. كما اضاف ان الهجوم الذي تم الليلة الماضية «شارك فيه لواء تابع لجيش التحرير الفلسطيني وعناصر إيرانية. . وان المعركة كانت ضارية استخدمت فيها الفؤوس والقتال بالسلاح الابيض وكانت على قدر من الوحشية لا يقارن الا بأسوأ ما رأته فيتنام». واكد ماكفارلين ان الحكومة اللبنانية «مهددة بأن تستولي عليها قوات اجنبيه متوحشة»[١] مما فسره رجال ريغان للأمن القومي بأن سوريا التي تلف في مدار الامبراطورية السوفياتية وايران ـ العدو الأجنبي الآخر ـ تهددان دولة تحت الحماية الامريكية وهي لبنان.

هنا كان على العقيد تيموثي غير اختي القائد البري لقوات المشاة الامريكية ان يفصل في قرار استخدام القوة الذي ظل يؤجله على مدى اسبوع من الزمن خشية على قواته الموجودة في مواقعها المكشوفة في المطار. وفي ١٨ سبتمبر عندما زار الجنرال ستاينر قيادة اللواء الثامن اللبناني وقائده ميشيل عون تأثر ستاينر كثيرا بتقييم عون للوضع، واخذت الطرادة فيرجينيا منذ العاشرة صباحا تقصف التلال الكثيفة الاشجار المطلة على سوق الغرب بقذائف موجهة من عيار ٥ بوصات.

كانت رحلتنا خلال تلك التلال نفسها رحلة هادئة وخالية من الاحداث برغم المعارك التي كانت دائرة حولنا. وكما هي عادة اللبنانيين في تجاهل الاضطرابات في القرى والمساكن المجاورة كان سكان مدينة عاليه منصرفين الى اعمالهم دون اي اكتراث. كان هناك على قارعة الطريق طابور من فتيات احدى المدارس ببدلهن المدرسية واصواتهن المرتفعة تقوده احدى المدرسات، وكانت اشجار الصنوبر والتنوب تطل فوق مدينة حمانا من اعلى سفوح الجبال مغطية الوادي في منظر للوحة سياحية لبنانية جميلة. . . ولم تكن معارك سوق الغرب سوى صدى باهت لسلسلة من القعقعات الفاترة.

وفجأة بعد تعريجة حادة ظهر امامنا جندي سوري يؤشر لنا بالوقوف فداس سائقنا على فرامله في الحال، ورأينا خلف الأشجار القريبة شاحنة عسكرية وسيارة وحاملة سلاح وسيارة جيب سورية وكانت الشاحنة قد دهنت بلون الأشجار الأخضر الرمادي لاخفائها عن طائرات الاستكشاف الامريكية المحلقة في المنطقة. كان سائقنا يعتقد اننا

عثرنا على موقع للمدفعية السورية وذلك مدعى للقلق ولكنه كان على خطأ اذ يبدو ان تلك وحدة اشارة حيث كانت الشاحنة وحاملة الاسلحة محملتين بكميات ضخمة من اجهزة الاتصال.

كان قائد الوحدة ضابطا سوريا برتبة رائد طويل القامة نحيفا ذا شنب جاء يمشي متمهلا ليلقي نظرة ثاقبة على جوازات سفرنا ، فأخبرناه بأننا صحفيون فلم يعرنا كثير اهتمام . وبعد ان طلب منا كالعادة عدم تصوير الافراد سمح لنا بنصب آلات التصوير على قارعة الطريق بعيدا عن الوحدة وعلى مرأى منها .

مرت اربع دقائق كنا نستعد فيها لتصوير بعض المناظر الجبلية البديعة التي كانت امامنا قبل ان يعم الذعر تلك الوحدة الصغيرة ويسرع الجنود في تحميل الشاحنة وهم يقفزون داخلها . اسرع الضابط الينا يقول : امشوا! امشوا بسرعة ! اخلوا المكان . . خطر ، خطر ! ! ثم انطلق الى سيارة الجيب وانطلقت السيارات الثلاث بأقصى سرعة الى جانب الجبل الموجود خلفنا .

في خلال ثوان القينا بمعدات التصوير في سيارة المرسيدس وانطلقنا نحو اسفل الجبل ، وبمجرد ان تعدينا منعطفا اسفل الموقع الذي كنا فيه سمعنا صفيرا سرعان ما تحول الى هدير واذا بالمكان الذي اخليناه يتحول الى منبع لسحابة من الدخان الاسود والطين الاحمر واشلاء جذوع اشجار الصنوبر . تلى ذلك بلحظات انفجار آخر في مكان اعلى في الجبل غطى سفحه بالاحجار وقطع الشجر.

لقد انقذنا جهاز الانذار المبكر السوري ذاك من قذائف عيار ٥ بوصات اطلقت من السفن الامريكية، ونظل نحفظ الفضل لذلك الضابط السوري الذي قد يكون اعتبرنا متطفلين عليه ولكنه اعتبرنا بشراً كذلك.

وجاءت السفينة المقاتلة «نيوجيرسي»

في يونيو ١٩٨٥ اختطف اثنان من الشيعة المتعصبين طائرة ركاب تي . دبليو. أي رحلة رقم ٨٤٧ في طريقها من روما الى اثينا وعلى متنها ١٥٣ راكبا بما فيهم طاقم الطائرة . تنقلت الطائرة بين بيروت والجزائر حتى تمكن اخيرا قائدها الكابتن جون تريستريك من افتعال خلل في المحرك والهبوط في بيروت. بعد قتل الغواص الامريكي روبرت ستيتهام وضرب العسكريين الإمريكيين الموجودين في الطائرة ضربا مبرحا سمح

المختطفان للركاب بالنزول ما عدا الملاحين الثلاثة و ٣٦ راكبا امريكيا من الرجال الذين نقلوا في جنح الظلام في مجموعات صغيرة الى اماكن مختلفة من بيروت. تمكنت سوريا بمساعدة رئيس البرلمان الايراني علي اكبر هاشمي رفسنجاني من تحريرهم جميعا فيما بعد.

روى الركاب انه بعد مقتل ستيتهام مباشرة اخذ احد المختطفين يجري في ممر الطائرة ويصرخ: « نيوجيرسي !! نيوجيرسي !!» ولكنهم لم يفهموا السر في ذلك التصرف الا فيما بعد.

لقد اصبحت السفينة الحربية الامريكية نيوجيرسي رمزا وفي الوقت نفسه قطعة من احجار لعبة العقاب والانتقام التي استمرت حتى النهاية بين الولايات المتحدة واعدائها في الشرق الاوسط.

من تحت نسيج العثة

لم ينج سكن السفير الامريكي الواقع في حي بعبدا والذي كان يستخدم كسفارة مؤقتا بعد تدمير مقر السفارة في بيروت الغربية في ابريل/ نيسان في ذلك اليوم من انتقام الاسطول السادس كما نجونا نحن . . فقد ظلت القنابل تتساقط عليه مباشرة واضطروا الى اخلائه في اخر اليوم نفسه. لم يبق في المبنى الا حارس من قوات المشاة البحرية وعدد من رجال الاتصال مختفين وراء اكياس الرمل وكتل الاسمنت . وللمرة الاولى اخذت تقارير قوات المشاة تشير الى القوات المضادة للجميل بعبارة «العدو» ـ أي عدو الولايات المتحدة.

طار ماكفارلين الى دمشق لآخر اجتماع مع الرئيس الأسد في سلسلة من الاجتماعات بدأت عقب غزو اسرائيل للبنان فيما اعتبر نهاية لدور قوات المشاة في حفظ السلام وبداية لاشتراكها المباشر في الحرب. لقد كان الحديث ـ كسابقيه ـ غير ذي جدوى، وقال ماكفارلين قبل ان يغادر بقليل: «على فكرة، طلب مني الرئيس ريغان ان اخبرك أن السفينة المقاتلة نيوجيرسي ستصل خلال ايام قليلة»(٢) .

تعتبر نيوجيرسي اكثر من مجرد تحفة من تحف الاسطول الامريكي، ولكنها من اكبر قطعه الاسطورية. فقد اندلع لهيب مدافعها من عيار ١٦ بوصة لاول مرة خلال الحرب العالمية الثانية ثم شاركت في معارك كوريا ثم فيتنام قبل ان يغطيها نسيج العثة.

استؤنف استخدامها من جديد عام ١٩٨١ عندما كانت ادارة ريغان تتوقع خوض معارك في اطراف الامبراطورية السوفياتية، ارسلت نيوجيرسي الى لبنان.

في ١٥ سبتمبر / ايلول استلم عميد البحرية ريتشارد ميلليغان في حفل قصير بجزيرة بويرتو ريكو قيادة نيوجيرسي، وعندما وصلت السفينة السواحل اللبنانية صعدها قائد الاسطول السادس الامريكي اللواء البحري ادوارد مارتين لاعطاء التعليمات الخاصة بمهام بعض الضباط القياديين(٣). كان الامل معقودا على ان وجود السفينة في حد ذاته سيخيف ويردع السوريين والايرانيين وغيرهم من الخصوم الذين قد تكون لهم نوايا عدوانية تجاه الولايات المتحدة. واذا لزم الأمر فإن مدافعها الضخمة قادرة على تقديم الدعم للجيش اللبناني والحماية لقوة السلام متعددة الجنسيات .

لقد بدا للوهلة الاولى أن نيوجيرسي قد نجحت في اداء مهمتها ، فقد اتفق على وقف اطلاق النار. وكلما عاين اللواء ميلليغان شاطىء بيروت بمنظاره رآه هادئا يعج بالمصطافين وبقواربهم واحتفالاتهم الصاخبة التي لا تنقطع ليل نهار.

الا ان اصوات الرصاص ونيران الصوريخ لا زالت موجودة على بعد مئات من الامتار فقط ، وبين الحين والاخر كانت قذائف المدفعية او قنابل الهاون تسقط في مبنى قوات المشاة في مطار بيروت وكانت القوات تتكبد الضحايا باستمرار.

الهجوم على مبنى قوات المشاة البحرية

كانت هناك انذارات كثيرة من الاستخبارات حول وقوع هجوم كبير . واتهم تقرير ويليام كوربت لقيادة القوات الامريكية في اوروبا كلا من المقدم هاورد غيرلاتش قائد الكتيبة والعقيد تيموثي غيراختي قائد وحدة المشاة البرمائية «بالاهمال في الوظيفة» بعدم اعداد وسائل دفاعية احسن. كتب كوربت يقول: «ها نحن نجد قادة مسؤولين في منطقة قتال وعلى علم تام بالخطر الارهابي وباسلوب الهجوم المفضل، قد وصلتهم التحذيرات باحتمال قيام هجوم ولكنهم مع كل ذلك جمعوا ٣٥٠ رجلا في مبنى واحد تحت حراسة ضعيفة». والاكثر من ذلك فقد لاحظت وسائل الاستخبار الجوية وجود شاحنات وحاملات قنابل بالقرب من معسكر الحرس الجمهوري الايراني خارج بعلبك، كما كان يسمح للصحافيين من مختلف الجنسيات بدخول المبنى وملاحظة

وتصوير الاعتداءات وتسجيلها.

جاء في تقرير كوربت: «ان اقل الجنود خبرة يعلم ويتعلم الحاجة التكتيكية للانتشار والغطاء عند وجود القوات في منطقة سلاح معادية» . . ولو كان ذلك هو اداء اولئك القادة خلال تدريبات ميدانية لأعفوا من مهمة القيادة(٤).

في صباح يوم ٢٣ اكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٣ كان وكيل عريف أدي ديفرانكو متولي الحراسة وراء اكياس الرمل خارج مبنى كتيبة فريق الهبوط [BLT] عندما رأى شاحنة مرسيدس تقتحم لفة سلك الكونسرتينه القائمة على ارتفاع خمسة اقدام.

لم تكن بندقيته أ م ـ١٦ محشوة بالذخيرة بناء على تعليمات عليا، وفيما كان يعمل على حشوها والاستعداد لاستخدامها كانت الشاحنة تعدته في سرعة هائلة. نظر السائق الشاب صاحب الشارب والشعر الاسود الكثيف في عيني ديفرانكو ثم ابتسم.

زاد السائق في سرعته وانطلق عبر البوابة المفتوحة، وعندما رأى مناوب الحرس عند مدخل المعسكر الرقيب ستيف رسل الشاحنة تندفع نحوه بسرعة ثلاثين ميلا في الساعة انطلق مسرعا نحو الردهة ومنها الى الباب الخلفي يصيح: تحت الطاولة! تحت الطاولة! . شقت الشاحنة طريقها الى داخل الثكنة وتوقفت في وسط الردهة تماما. اخر ما كان يذكره رسل ذلك التوهج البرتقالي اللون عند مقدمة الشاحنة والانفجار المدوي الرهيب الذي رفعه في الهواء.

لقد وصف الكثيرون ممن نجوا من ذلك الحادث المذبحة المفزعة التي نتجت عنه، واكد خبراء مكتب التحقيق الاتحادي [F.B.I] انه كان اكبر انفجار غير نووي على الاطلاق ويعادل اثني عشر الف طن من متفجرات تي .ان .تي . خلف ذلك الانفجار حفرة قطرها ثمانية اقدام في ارضية سمكها سبع بوصات من الاسمنت المسلح، كما دمر المبنى بكامله وحطم جميع اعمدته، وتناثرت الجثث والاعضاء البشرية والملابس والاجهزة والمعدات في جميع النواحي. كان عدد الضحايا ٢٤٥ قتيلا.

كان العقيد ارثر فينتيل المستشار الامريكي للجيش اللبناني نائما في شقته على بعد خمسة أميال عندما سمع دوي الانفجار. تبادر الى ذهنه ان الهدف كان فندق قدموس الذي تولى كوربت ترتيباته الأمنية. الا انه عندما طل من شرفة شقته رأى «سحبا دخانية هائلة» ثم ظهر امام عينيه لمعان وسحابة من الدخان الاسود كانت نتيجة انفجار الموقع

الفرنسي»[٥] . نعم، لقد اقتحمت شاحنة انتحارية اخرى مبنى من عدة طوابق في وسط بيروت الغربية كان ثكنة لوحدة من المظليين الفرنسيين التي تشكل اساس قوة السلام الدولية الفرنسية. كان عدد ضحايا ذلك الانفجار ٥٩ قتيلا.

اوصى تقرير اللجنة التي ترأسها الأميرال المتقاعد روبرت لونغ والذي لخص زبدة ما توصلت اليه مجموعة من التحقيقات التي اجريت حول مأساة قوات المشاة، بمعاقبة كل من غيرلاش وغيراختي «لفشلهما في عدم اتخاذ الاجراءات الامنية الضرورية لتفادي تلك الكارثة وضحاياها البشرية» واستلم كل منهما «رسالة تعليمات» من امين عام القوات البحرية[٦]. كما اوضح الأميرال جون بطس مدير مكتب الاستخبارات البحرية (OND) ان المعلومات المتوفرة كانت كفيلة بان تجعل من الممكن التنبؤ بهجوم. الا انه برغم كل ما يقال في واشنطن عن مواجهة الإرهاب فان مكتب الاستخبارات البحرية لم يكلف محللا واحدا لدراسة الأخطار التي كانت تهدد قوات المشاة في لبنان. تلقى غيرلاش رسالة امين البحرية وهو في المستشفى لعلاج عموده الفقري، ولم يكن مهتما بمستقبله في الخدمة اكثر من اهتمامه بتماثله للشفاء وعودة الحركة في اعصاب ذراعية ورجليه.

تحمل الرئيس ريغان في نهاية الامر المسؤولية كلها بنفسه فقطع الطريق امام قيام محاكمات عسكرية او تحقيقات قانونية اخرى قد تكشف قصة تلك المأساة بتفاصيل اكثر[٧].

كما اوضح وليام كوربت ان الهجوم كان بالاضافة الى انه مأساة بشرية كبيرة «كارثة عسكرية لم يعرف لها مثيل منذ الحرب العالمية الثانية» وكتب الى رؤسائه يقول:

انه من غير المعقول الا تتخذ اية اجراءات تأديبية حيال المسؤولين عن هذا الفشل الشنيع لتأمين موقع قوات عسكرية في منطقة قتال معادية، خاصة وان الخطر واسلوب الهجوم المفضل (اذ استخدمت العربات المشحونة بالمتفجرات ثلاث مرات في بيروت منذ عام ١٩٨٠) كانت معروفة مسبقا لدى الجميع[٨].

انتشر الحزن والغضب على ظهر السفينة نيوجيرسي وغيرها من السفن الامريكية الحربية واصبح قادتها يخشون الهجوم عن طريق القوارب السريعة او الضفادع البشرية او حتى الطائرات الخفيفة المعروف ملكية الايرانيين والفدائيين الفلسطينيين لها. في ٤

نوفبر/ تشرين الثاني سرحت السفينة نيوجيرسي من مهمتها المثبطة للعزائم لمدة تكفي لزيارة ميناء الاسكندرية في مصر لمدة اربعة ايام حيث وصلت الاميرال ميلليغن تعليمات من قائد الاسطول السادس بالرجوع الى لبنان. لقد قام الفدائيون بهجوم انتحاري آخر حيث اقتحمت هذه المرة شاحنة مقر الحاكم العسكري الاسرائيلي في مدينة صور المحتلة وقتلت ٥٦ اسرائيليا واسراهم من اللبنانيين.

خطة للانتقام

اخذت القيادة العسكرية الامريكية والقيادة الفرنسية في التخطيط لعمليات انتقامية ضد حزب الله واسيادهم الايرانيين الحرس الثوري. كانت الاستخبارات الامريكية والفرنسية تملك قدرا لا بأس به من المعلومات عن العناصر التي قامت بالهجوم. فقد اعترفت منظمة الجهاد الاسلامي لصحف بيروتية بالمسؤولية على العمليتين حيث قالت «نحن جنود الله نطلب الموت وسيظل العنف طريقنا الوحيد اذا لم ترحل القوات (المتعددة الجنسيات) ونحن على استعداد ان نجعل من لبنان فيتنام اخرى . . . نحن لبنانيون مسلمون نأتمر بأوامر القرآن» (١٠). كما علم ان صاحب الشارب سائق السيارة الذي دفع بحياته مبتسماً لتدمير معسكر قوات المشاة كان ينتمي الى مجموعة تسمى فدائيو الحسين الانتحارية.

كما حلت وكالة الأمن القومي برقيات مشفرة ارسلت من طهران الى محمد محتشمي في السفارة الايرانية في دمشق تحثه على تنظيم ضربة قوية ضد الامريكان، وافادت معلومات الوكالة ان الحرس الثوري في بعلبك طلب الاذن من السفارة لتنفيذ العملية. قبل اسبوع من العملية توقف في دمشق حسين شيخ الاسلام احد الشخصيات الرئيسية في عملية السفارة الامريكية في طهران ووزير الخارجية المساعد في ايران وغادر فندق الشيراتون بدمشق في ٢٢ اكتوبر/ تشرين الأول اي قبل الهجوم بيوم واحد.

تضمنت خطة الرد عمليات حربية تقليدية واخرى ارهابية على ان تتولى العمليات الحربية قوات البحرية الامريكية الرابضة في سواحل لبنان والتي تضم بالاضافة لنيوجيرسي طرادات اخرى منها فرجينيا وتايكونديروغا ذات التقنية المتقدمة وحاملتي الطائرات ايزنهاور وكينيدي. كما تحركت بالقرب من الشواطىء سفن اخرى مساندة، واتجهت حاملة الطائرات انديبيندانس التي كان من المقرر أن تحل محل آيزنهاور في

منتصف نوفمبر/ تشرين الثاني مؤقتاً الى غرينادا في مجهود للرفع من هيبة الولايات المتحدة وشعبيتها هناك بغزو تلك الجزيرة يومين بعد تفجير مقر قوات المشاة في لبنان، وكانت الخطة أن توجد حاملتان للطائرات بالقرب من لبنان . لقد كانت كميات الاسلحة والذخيرة التي كدست في بيروت تفوق اي كميات مماثلة منذ الحرب العالمية الثانية وحتى عملية درع الصحراء عام ١٩٩٠ـ ١٩٩١، وكان يتولى قيادة تلك القوة التقليدية ذلك الرجل القصير الصارم الدؤوب الاميرال جيري تتل قائد مجموعة المعارك الثانية التابعة للأسطول السادس وقائد قوة الحاملات الخاصة ٦٠ المقاتلة. يقول جورج ويلسون محرر شؤون الدفاع بصحيفة الواشنطن بوست الذي زار القوات بالقرب من لبنان ان «تتل وجد نفسه عملاقاً كغاليفار قد كبلته حبال اقزام الليليبوتيين»(١١).

بعد الهجوم على ثكنة قوات المشاة وصلت مئات التقارير الاستخباراتية تؤكد التخطيط لعمليات اكبر وافظع في البر والبحر والجو، وظل الجناح الجوي فوق الحاملة كينيدي يقوم بطلعات واحدة تلو الاخرى لمطاردة اعتداءات لم يكن لها وجود . كان احد مصادر التهديدات قارب السباق السويدي الصنع التابع للقسم البحري للحرس الثوري والذي كانت طائرات أـ ٦ الهجومية تقلع كلما اعترض ذلك القارب طريقها لتلقي قنابلها فوق مساحات شاسعة ثم تعود . لقد كان المفروض استخدام تلك القنابل اثناء الليل فقط اما في النهار حيث الرؤية واضحة ويمكن القصف بدقة اكبر كان يفضل استخدام قنابل عالية التفجير وحيدة الرأس.

لقد تعرف العديد من الصحفيين على اسلحة وحدات الاسطول الامريكي اثناء مرافقتها لحاملات النفط الكويتية التي كانت ترفع الاعلام الامريكية. من تلك الاسلحة مدافع رشاشة عيار ٥٠ مم معدة للاستخدام على مدى ٢٤ ساعة في اليوم وصواريخ ستينغر الحرارية المضادة للطائرات الشراعية. وهناك طواقم الطائرات العمودية المدربة على العمليات الليلية ضد القوارب، وكان على الطائرات ان تحلق على ارتفاع اعلى من ثلاثة الاف قدم وإلا فستكون معرضة للضرب من قبل السفن الامريكية نفسها.

كل طلعة من طلعات الطائرات المقاتلة أف ـ ١٤ تومكات او القاذفة أـ٦ كانت تتطلب مساندة جوية تتكون من طائرة(ك أـ ٦ د) للتزويد بالوقود في الجو وطائرات

نجدة وانقاذ عمودية وطائرات (أي ـ ٢ سي) هوك آي ـ وهو نموذج اصغر لطائرات الايواكس ـ لتوفير معلومات توجيهية حول الاهداف. كانت نتيجة ذلك كله تحمل ميزانية الشعب الامريكي لمليارات من الدولارات صرفت على عمليات في مهام غير محددة ومن اجل قضية غير معروفة. كتب جورج ويلسون يقول : «لقد كانت اكبر قوة بحرية في التاريخ معرضة للانهاك على يد اشباح لا وجود لهم لأن الولايات المتحدة لم تكن على علم بما يدور في عالم الارهاب المبهم»(١٢).

اما بالنسبة للاميرال تتل فقد كان يبدو له ان اكبر خطر هو القوات الجوية السورية، او ماتبقى منها لأن اسرائيل اسقطت خلال عام ١٩٨٢ اكثر من ثمانين طائرة عسكرية سورية. كانت الهجمات السريعة من قبل طائرات ميغ ـ ٢٣و ٢٥ والسوخوي السورية المقاتلة واردة في كل الاحوال. وعليه قام تتل بتقسيم الاجواء الواقعة بين لبنان وقبرص الى خمس قطاعات تتولاها طائرات أ ف ـ١٤ المجهزة بصواريخ سبارو الرادارية آيم ـ٧أ ف وصواريخ سايدوايندر آيم ـ٩ أ ل ومدافع عيار ٢٠ مم. سجلت الاجنحة الجوية لحاملات الطائرات الآف الساعات من الطيران إلا أنه مع مرور الوقت ودون ظهور العدو المرتقب فقد اخذ الضجر يدب شيئا فشيئا في نفوس طياري أ ف ـ ١٤.

في الوقت الذي كانت تلك العمليات المسعورة مستمرة بدأ التخطيط في اوائل نوفمبر/ تشرين الثاني لضربة للأخذ بثأر قوات البحرية. استدعى الاميرال تتل عند وصول الحاملة كينيدي إلى لبنان آمر الجناح الجوي رقم ٣ جون مازاتش وطلب منه احضار مخطط هجوم، فاختار الآمر بوول بيرنارد الضابط التنفيذي لسرب أ ـ٦ المسمى باكآيز وراجع معهما تتل الخطة السرية لأول غارة جوية تقوم بها الولايات المتحدة فوق بلد عربي.

الا ان الهدف المباشر لم يكن عربياً وإنما ايرانياً وهو ثكنة الشيخ عبد الله الواقعة خارج بعلبك التي كانت تابعة للجيش وقوات الدرك اللبنانية والتي استولت عليها قوات الحرس الجمهوري الايراني وحلفاؤهم حزب الله . قصف الثكنة كان سوف يحقق ما طلبه الرئيس ريغان من انتقام لمعاقبة الارهابيين فقط ـ وليس المدنيين ـ أو بلغة البنتاغون تفادي «الاضرار المصاحبة».

يقول جورج ويلسون ان الخطة الأصلية كانت استخدام ثماني قاذفات أ ـ ٦ ـ زيدت فيما بعد الى اثنتي عشرة ـ كل منها محملة باثنتي عشرة قنبلة من وزن الف رطل وذلك بهدف سحق الثكنة بالكامل خلال ربع ساعة . . . وكان من المفترض أن آثار بعلبك الفينيقية والرومانية الشاهقة الرائعة التي كانت مسرحا للعديد من المهرجانات الموسيقية الصيفية ستعين الطيارين على القاء قنابلهم بدقة .

وبرغم الاعتقاد بأن وسائل الدفاع السورية المضادة للطيران قليلة جدا اثناء الليل في تلك المنطقة (لم يكن لقوات الحرس الثوري وسائل دفاع خاصة بها) فقد كانت طائرات أ ـ ٦ تعتمد على اجهزة الدفاع الالكترونية واجهزة الرؤية الليلية لالقاء قنابلها والرجوع سالمة. كما كانت طائرات أ ف ـ ١٦ من السفينة كينيدي تقوم بحراسة الأجواء ليلا لمواجهة اي مقاتلات سورية قد تتحدى طائرات أ ـ ٦ ، وكلفت الطائرات العمودية من سفينة غوام للانقاذ بالتقاط الطيارين من الماء اذا ما سقطوا بينما تولى الملاحون على متن طائرات أ يْ . سي . ـ ٢ هوك آي توجيه سير العمليات .

وقد حصل عدة مرات أن أوقظ افراد طواقم طائرات أ ـ ٦ اثناء الليل وامروا بارتداء بدلهم ومعداتهم واعطوا التعليمات وارسلوا الى طائراتهم ثم تأتي تعليمات القيادة العليا بإلغاء المهمات . واخيرا عادت الحاملة آيزنهاور الى الولايات المتحدة وفي ١٧ نوفمبر / تشرين الثاني اختار الأميرال تتل الحاملة انديبيندانس للقيادة لتنفيذ الهجوم الانتقامي المزمع .

كنت خلال تلك الفترة مع فريق تلفزيوني من أ . بي . سي . نيوز نقوم باعداد برنامج وثائقي عن سوريا، وخرجنا مبكرا يوم ١٨ نوفمبر الى منتجع بلودان الجبلي حيث بامكان المرء أن يرى آثار بعلبك اذا كان الجو صافيا . كان قطار الامدادات للحرس الثوري يشق طريقه عبر وادي بعلبك على خط زبداني في سوريا المؤدي الى لبنان والذي يسمى احيانا خط المخدرات لمرور شحنات الحشيش والهروين وغيرهمامن البضائع الممنوعة عبره. لم نكن في ذلك اليوم نتوقع حمولة من المخدرات أوالأسلحة المهربة ولكن هجوما من الأسطول السادس الأمريكي. فقد قصفت بالأمس القوات الجوية الاسرائيلية معسكرات حزب الله التدريبية في البقاع انتقاما للهجوم على مقرها العسكري في صور وكانت الصحف العربية الصادرة ذلك اليوم تتوقع تحركا امريكيا .

لقد اصبحنا منذ فجر ذلك اليوم نراقب أجواء لبنان الزرقاء الشاحبة ولكن الطائرات لم تأت فتناولنا الغداء في مطعم على الجبل وعدنا الى دمشق.

في نفس الوقت الذي وصلنا فيه مشارف المدينة تقريبا قامت القوات الجوية البحرية الفرنسية بهجوم مفاجىء على نفس المنطقة التي كنا نراقبها. فبينما كان حزب الله والحرس الثوري يدفنون ضحاياهم الذين سقطوا نتيجة القصف الاسرائيلي اقلعت من الحاملة الفرنسية بالبحر الابيض اربع عشرة طائرة فرنسية من نوع سوبر ـ ايتاندارد وحلقت فوق البقاع نحو نفس الهدف الذي كان الامريكان يخططون لقصفه وهو ثكنة الشيخ عبدالله بأحد مرتفعات البقاع. كما قصفوا هدفا آخر وهو مقر منظمة أمل الاسلامية بفندق الخيام.

كان ذلك انتقاما من الفرنسيين للجنود المظليين التسعة والخمسين الذين فقدوا في بيروت يوم ٢٣أكتوبر/ تشرين الأول ولكن الهجوم كان فاشلا تماما. كان من بين الضحايا المعدودين أحد الرعاة اللبنانيين ولم تصب الثكنة ولا الحرس الثوري بأي اضرار تذكر، وعلق احد الضباط الفرنسيين ساخرا بقوله «ايقظوا البستاني من نومه»(١٣) كما عثر مصوراتي سوري على ثقب صغير في سقف غرفة بالطابق الاعلى في فندق بالميرا ودخلت بعض الشظايا الى غرفة احد الموظفين في منظمة الصليب الاحمر الدولي.

كل ما حققته الهجمات الفرنسية الاسرائيلية وطلعات الاستكشاف الامريكية المتزايدة هو الرفع من حماس الايرانيين وحلفائهم من منظمة حزب الله. أخذت العناصر الانتحارية تعد ترتيبات دفنها وتستعد للموت ولقاء خالقها واعلن الشيخ صبحي طفيلي «أن امريكا وفرنسا واسرائيل قد بدأت الحرب وهاهم مقاتلونا قد لبسوا اكفانهم» (١٤). كما استدعت الهجمات الاسرائيلية والفرنسية اتخاذ امريكا لقرار جديد لأن ثكنة الشيخ عبدالله ستكون أكثر تحصنا بلا أدنى شك.

ولكن حتى تاريخ ٣ ديسمبر/ كانون الأول لم تكن البحرية الامريكية قد اعادت النظر في خطتها، وانما استمرت في القيام بطلعات استكشافية مضادة للطيران وموجهة ضد سوريا. لقد كان ذلك القرار سببا في القضاء على حياة واحد من أحسن الطيارين في البحرية الأمريكية واكثرهم شعبية وأسر طيار آخر. كما اسفر عن انقلاب سياسي رائع في العلاقات العامة لصالح كل من السياسي الامريكي جيسي جاكسون والرئيس

السوري حافظ الاسد، وعن انتقادات جديدة لكبار المسؤولين في العسكرية الامريكية.

قضية الملازم غودمان

ففي صباح ٣ ديسمبر ١٩٨٣، ارسلت طائرة أ ف ـ ١٤ مجهزة بآلة تصوير دقيقة فحلقت فوق مواقع قوات المشاة على شاطىء البحرثم المرتفعات التي وراءها لالتقاط صور تكتيكية عالية التحليل، سوف تحدد مواقع العدو وكيفية استهدافها. الا ان طائرة أ ف ـ ١٤ أخرى اضطرت للطيران قسرا على جناح الطائرة الأولى حيث انطلقت شرارات مدافع العدو المضادة للطائرات من سفوح الجبال تلاحق طائرات أ ف ـ ١٤ في مسار حلزوني مشهور. انها صواريخ سام ـ٧ الحرارية القادرة على اصابة الطائرتين المحلقتين على ارتفاع ثلاثة آلاف وخمسمائة قدم في أجواء لبنان الغربية. الا ان الطائرتين عادتا سالمتين ورفع الأميرال تتل على الفور تقريراً للبيت الابيض.

كانت توصية رئاسة الاركان المشتركة للرئيس أن تقصف مواقع الصواريخ المضادة للطائرات التابعة للجيش السوري والموجودة في لبنان، ولكن استبعد استخدام مدافع ١٦ بوصة التابعة للسفينة نيوجيرسي. وقد أوضح فيما بعد الأميرال جيمس واتكينز قائد العمليات البحرية انه تقرر استخدام القصف الجوي «كنوع من الرد بالمثل» ولشعور القيادة بأن استخدام مدافع السفينة نيوجيرسي سيؤدي الى قدر كبير من «الأضرار المصاحبة»(١٥).

اختير للمهمة ستة طيارين برتبة ملازم أول هم جيل بيفار وتوم كوري وبيل دايفز ومارك لانغ ومارك ماكنالي وروبرت غودمان وكان أحد خريجي الاكادمية البحرية في نيوهامبشار الذي ارتدى «جوارب تجلب الحظ» قد أهداها له والده المقدم بالقوات الجوية.

في تمام الساعة الثالثة وخمس واربعين دقيقة من صباح ٤ ديسمبر/ كانون الأول اوقظ أولئك الضباط من نومهم لتلقي التعليمات فيما كانوا يعتقدون أنه مجرد عملية تدريبية كالعادة. سلمت لطاقم كل طائرة أ ـ ٦ المتكون من الطيار وقاذف قنابل خرائط وبيانات تتعلق بالاهداف لدراستها في غرف الاستعداد وطلب منهم الاستعداد للخروج في الساعة السابعة والنصف. الا انه يظهر انه لم يتم اخبار كل فرق معدات المدفعية

الذين لم يكن بعضهم قد فرغ من احضار تشكيلة القنابل المطلوبة وبالذات قنابل روك - آي العنقودية التي كان من المفروض أن تدمر عدة مواقع سورية للسلاح المضادة للطائرات. كما فقدت معدات مدفعية أخرى كانت ستستخدم لتدمير المبنى الابيض الكبير الذي يحوي مركز المعلومات السوري الخاص بمواجهة الطائرات في لبنان. انطلقت طائرة المراقبة هوك - أي من الحاملة كينيدي قبل اقلاع القاذفات لتقوم بتنسيق الهجوم عن طريق الراديو وكانت علامة النداء «كلوز آ وت»، كما اقلعت طائرتان من نوع أي. أ - ٦ ب للقتال الالكتروني مهمتها التشويش على الرادار السوري للتحكم في اطلاق النار وافشال تصويب المدافع الارضية. التقت في الجو خمس قاذفات أ - ٦ وثلاث عشرة أ - ٧ من الحاملة انديبيندانس وعشر قاذفات من الحاملة كينيدي، ولكن بما انهم اقلعوا بعد شروق الشمس فقد وجد الطيارون انفسهم في اتجاه معاكس لضوء الشمس تماما مما حال بينهم وبين رؤية الاهداف الارضية الصغيرة وأثر على محاولاتهم لتفادي الصواريخ المضادة للطيران. في بداية الرحلة خالف طيار متأخر من الانديبيندانس تعليمات الصمت على الراديو واتصل يسأل عن الطريق للحاق بالمجموعة مما قد يكون نبه السوريين للهجوم. كما كان قارب الصيد الالكتروني السوفياتي المعهود قابعا على بعد ميل ونصف من ميسرة الحاملة كينيدي يراقب ويتنصت وربما يرسل المعلومات للسوريين حول المهمة.

لم تكد أول طائرة تعبر الساحل اللبناني حتى انفجر صوت المدفعية المضادة للطائرات (آ ك آك) وانطلقت اسراب الدخان الابيض الحلزونية من صواريخ سام ارض - جو لتستقبل الطائرات الامريكية في السماء. وجاء النداء عبر السمعات للطيارين «صواريخ سام! صواريخ سام! صواريخ سام! . . . لقد اصبت . . . لقد اصبت» وتلى ذلك بعد ثوان اشارة بأن الآمر أندروز قد غادر طائرته أ - ٧ التي تحترق وانطلق في مقعده القذفي لتلتقطه طائرات الانقاذ العمودية بعد أن هبط بمظلته في الخليج.

أخرج اندروز من الماء أحد الصيادين اللبنانيين الذي سلمه لقارب كان يحمل عددا من الصحفيين الفرنسيين المتلهفين على سبق صحفي ثم استلمه قارب فرنسي عسكري اوصله الى الشاطىء حيث اخذته طائرة عمودية لبنانية الى استاد الكرة ومن هناك بطائرة عمودية تابعة لقوات المشاة الامريكية لتعود به الى الحاملة انديبيندانس.

استمرت الطائرات الاخرى تطلق الصواريخ المضادة للرادار وتبحث عن اهدافها ومن حسن حظها ان اغلب القذائف المعادية كانت تنفجر قبل ان تصل الارتفاع الذي كانت عليه وهو اثناعشر الف قدما فيما عدا صاروخ واحد اصاب طائرة أ ـ ٦ يقودها مارك لانغ ومعه القاذف روبرت غودمان حيث نجا كلاهما بمقعده القذفي . انفتحت مظلة لانغ قبل وصوله الارض بقليل الاان قطعة من الحديد قطعت احدى رجليه واثبتت تقارير الاطباء فيما بعد انه مات بسبب النزيف . أما غودمان فقد وقع على الارض بشدة فكسرت ضلوعه وجرح كتفه وركبته ووقع أسيراً في يد السوريين الذين عاملوه بشيء من القسوة ولكن دون الاضرار به . عرض غودمان وطائرته المحطمة على الصحفيين والمصورين في بيروت ثم اخذه السوريون المنتصرون هو وجثة لانغ الى دمشق واصبح أبرز أسير أمريكي عند حافظ الاسد.

رجع بقية الطيارين عندما علموا بفشل الهجوم، ويقول جورج ويلسون الذي طاف الحاملة كينيدي بعد وصول آخر طائرة انه شاهد «الغيظ والشعور بالمرارة والأسى ومحاولات التبرير والاحتجاج» ولكنه لم يعد يسمع ما كان يقال من «قصف بيروت حتى تعود الى العصر الحجري». أعلن أحد الطيارين وكان جمهوريا ومن انصار ريغان الاشداء أنه سيصوت «للديمقراطيين وذلك بسبب الطريقة التي نفذت بها (الادارة الجمهورية) هذا الهجوم» . كما قال أحدهم لويلسون «لو يعلم الشعب الامريكي انا ارسلنا عشر طائرات لتنفيذ مهمة يمكن أن تقوم بها طائرة واحدة فلن يسامحنا ابداً. إني خجل جداً، لقد بينت لنا حرب فيتنام كيف تنفذ العمليات بدون خسائر بشرية ولكنني اشك اننا تعلمنا من تجربة فيتنام اي شيء . كما اشتكى آخرون من أنه بعد التدريب على ضرب الايرانيين في بعلبك تغيرت الأهداف في آخر لحظة ومن كون التعليمات لم تكن كافية ومن استعمال السلاح غير المناسب.

توصل جورج ويلسون من خلال الحديث مع اكبر عدد ممكن ممن لهم علاقة بهجوم٤ ديسمبر/ كانون الأول الى نتيجة واضحة وهي ان الذين شاركوا في العملية لم يعط لهم الوقت الكافي للاعداد كي تحقق « ادنى المخاطر والحد الاعلى من الفاعلية . »لقد اراد الرئيس ريغان ان يوصل رسالة سياسية ولكنه ارسلها قبل ان تكون الطائرات مجهزة بما فيه الكفاية. كتب ويلسون يقول: «ان ارسال هؤلاء الرجال للمخاطرة بحياتهم في عملية غير سليمة كهذه يوحي بان نظام القيادة العسكرية

الامريكية سقيم ولا بد من معالجة وضعه، والا فان الولايات المتحدة معرضة ان تخسر اي حرب تخوضها في المستقبل »(١٦).

اقيم تأبين للطيار لانغ على ظهر السفينة يوم ٩ ديسمبر/ كانون الأول، وبعد اقل من شهرين استلم السيد جيسي جاكسون بعد قضاء عدة ايام كدبلوماسي غير رسمي في دمشق الملازم طيار غودمان الذي تماثل الى الشفاء بعض الشيء نتيجة الرعاية الطبية السورية الجيدة (يقال ان عدد الاطباء في دمشق يفوق عدد سائقي الشاحنات). لقد سر انصار جاكسون في ولايته لنجاحه في انقاذ غودمان من احابيل سياسة الشرق الاوسط في الوقت الذي فشل البيت الابيض في ذلك. ان اطلاق سراح غودمان الذي لقي تغطية اعلامية واسعة بعث في نفس السفير الامريكي في سوريا روبرت باغانيللي شيئا من الارتياح والاشمئزاز لأنه طالما كان يحذر خلال زيارات ماكفارلين وخلفه المتكررة ان الاعتداءات الجوية والسلاح البحري والخسائر البشرية العسكرية الامريكية في لبنان لن تصل بالولايات المتحدة الى اي نتيجة ولن تؤدي الا إلى مشاكل اسوأ. الا ان تحذيراته تلك كانت تقرع آذاناً صماء.

ثم اطلق العنان لنيوجيرسي

كانت الاوضاع على الارض ايضا تسير من سيء الى اسوأ في بيروت. ففي نفس يوم الهجوم الفاشل في ٤ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٣ قتل ثمانية من جنود المشاة في مطار بيروت، وبعد عشرة ايام قرر البنتاغون اخيرا ان يطلق العنان للسفينة نيوجيرسي.

لقد سمح لها باطلاق قذائفها الضخمة من عيار ١٦ بوصة (التي كانت توصف في وسائل الاعلام في بيروت بانها « بحجم سيارة الفولكس واغن ») كاشارات وليس بغرض الانتقام العام. يقول الرائد ميلليغان «اعتقد ان ذلك كان اساسا محاولة لارسال اشارة قوية باننا عندما نرسل طائرات أ ف ـ ١٤ في مهمات استكشافية فوق لبنان لا نتوقع ان تسقط، والا فان هذا سيكون هو الثمن لاسقاطها »(١٧) . . ذلك ان رجال المدفعية السورية في نشوة انتصاراتهم اصبحوا يطلقون النيران في كل مرة تظهر لهم فيها طائرات استكشاف امريكية على الشاشة.

كان مدى القنابل يصل من ١٦ الى ١٨ ميلا في التلال الواقعة خلف بيروت وكانت تخلف حفرا بحجم ملعب كرة التنس وتسببت في الكثير من «الاضرار

المصاحبة» التي لحقت بالمزارع والقرى والمواطنين. لم اسمع اي تاكيدات بأنه قد تم اصابة أي أهداف عسكرية سورية او ايرانية أو غيرها. لم تكن هناك مراقبة جوية تحدد لنيوجيرسي اهدافها وأصبحت الصواريخ السورية المضادة للطيران تتمع بحرية التحرك في مجال واسع جدا.

في شتاء ذلك العام زار الصحفي المشهور روبرت فيسك مؤلف كتاب «ويلات وطن»، سيدة تعالج جروحا وحروقا اصابتها عندما قصفت نيوجيرسي قريتها وقتل زوج اختها. كما الحقت القنابل حروقا بآخرين أحالت لون بشرتهم قرنفليا وبنفسجيا. كما شاهد فيسك وغيره من الصحفيين حفرا خلفتها قذائف تلك السفينة المقاتلةعمقها خمسة اقدام وقطرها خمسة عشر قدما واخبرهم المواطنون أن القصف تسبب في مقتل ٢٤ مدنيا وجرح ١١٥ اخرين في منطقة مساحتها ٣٠ ميلا مربعا في متن وسفوح تلال الشوف، ولم يؤكد احد الشائعات حول وجود اي ضحايا سوريين. اما بالنسبة لصورة الولايات المتحدة فقد اصبحت كلمة نيوجيرسي ـ مع الاسف ـ رمزا لاستعمال القوة المتوحشة المجنونة.

اخذت معنويات الجنود المنهارة على ظهر السفينة نيوجيرسي نفسها ترتفع من جديد حيث زار السفينة مابين ١٥ ديسمبر/ كانون الأول واعياد الميلاد مجموعة من نجوم الفن المشهورين للترفيه عنهم. ففي الوقت الذي كان المطرب واين نيوتن يحيي سهرة في مؤخرة السفينة اطلقت اربعون قذيفة من عيار ٥ بوصات للدفاع عن قوات المشاة المحاصرة. وفي ٢٤ ديسمبر/ كانون الأول كان موعد النجم الكوميدي اللامع بوب هوب ومعه الممثلة الشهيرة بروك شيلدز، ثم جاء من بعدهما كاثي لي كروزبي وآن جيليان وجولي هاياك (ملكة جمال الولايات المتحدة التي اقنع اسمها بعض رجال الصحف في بيروت بأنها من اصل لبناني) وفيك دامون وجورج كيربي.

وفي جبال لبنان التي سئمت الحرب كان ضحايا نيوجيرسي يدفنون موتاهم ويضمدون جراحهم.

الولايات المتحدة تغمض عينيها في لبنان

لقد كانت معظم نشاطات الولايات المتحدة الحربية على الساحل اللبناني من وجهة النظر الدبلوماسية تهدف الى دعم الرئيس امين الجميل واتفاقية ١٧ مايو/ ايار

التعيسة بين اسرائيل ولبنان . . وكانت تهدف الى تحقيق انسحاب قوات اسرائيل مع الحفاظ على النفوذ الاسرائيلي في لبنان. كما استمر الرئيس السوري حافظ الأسد الذي كان يرغب في لعب دور رئيسي في شؤون تلك الدولة الضعيفة الصغيرة في الاصرار على إلغاء الاتفاقية. وقد كان مبعوث الرئيس الامريكي دونالد رمزفلد على علم بتقرير الاستخبارات حول تنامي النفوذ الايراني بين شيعة لبنان ، ولكن تعرقلت جهوده في محاولة اللعب بالأطراف المختلفة . فقد وعدت ادارة الرئيس ريغان اسرائيل بأن رمزفلد لن يسمح له باقتراح تعديلات من عنده في الاتفاقية وانه لن يثير مع الاسد الا الافكار التي ترغب اسرائيل في مناقشتها. ومن هنا نشأ خصام حاد داخل الادارة الامريكية حول ما يمكن ان تقوم به امريكا من جهود لتفصل بين وضعها ووضع اسرائيل المتدهور في لبنان ، حيث كان كل من الوضعين مهددا وفي حالة انهيار . وفي الولايات المتحدة نفسها أخذ الدعم الشعبي للحملة المرتبكة في لبنان يتناقص حتى قبل الهجوم على معسكر قوات المشاة. فقد وافق الكونجرس على مضض في ٢٩ سبتمبر/ آب على تمديد انتداب قوات المشاة لثمانية عشر شهرا أخرى، وقد اصر الديمقراطيون المعارضون مقابل ذلك على ألا تقوم الادارة بتوسيع دور القوات أو نقلهم من مطار بيروت او تغيير مهمتهم مرة أخرى دون موافقة الكونجرس.

لقد تلقت قوات المشاة وطيارو البحرية ضربات دامية بينما رفعت مدافع الاسطول السادس الضخمة من روح العداوة والكراهية تجاه الولايات المتحدة في كل مكان. وقد حذر وزير الدفاع كاسبر واينبيرغر الذي كان قلقا جدا حول تصاعد الحرب بين ايران والعراق - زملاءه المتشددين بأن هزيمة سوريا وطرد ايران من لبنان تتطلب منا «استخدام خمس عشرة فرقة»(١٩).

الا ان الادارة الامريكية في اوراق خططها وسياستها أخذت شيئا فشيئا تقترب من ربط الوضع الامريكي بالوضع الاسرائيلي في لبنان ، وكانت أول خطوة لافساح الطريق أمام اسرائيل للدخول في حرب مع سوريا وايران هي انسحاب أمريكا من البلاد وهو ما كان يسعى إليه آية الله الخميني في طهران والرئيس حافظ الأسد في دمشق.

وهكذا اغمضت الولايات المتحدة عينيها في لبنان في الوقت الذي كان آية الله وأتباعه من حزب الله وأمثالهم يستعدون للقيام بهجمات جديدة كانت تستهدف مباني ورجال وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية الامريكية.

الفصل التاسع
وداعاً بيروت

ذات صباح في بيروت

انطلقت صباح يوم ٦ فبراير / شباط ١٩٨٤ في سيارة أحد الاصدقاء لأعبر منطقة خطر الخط الأخضر الى بيروت الشرقية للبحث عن بعض أصدقائي الذين لم أتمكن من الاتصال بهم تلفونيا، واتجهت في طريق ملتوية وبنوع من توتر الأعصاب نحو بوابة العبور بالقرب من المتحف اللبناني. لقد كان معظم المدينة يتعرض لاطلاق النار من قبل قوات الدروز التابعة لوليد جنبلاط وقوات ميليشيات أمل الشيعية. كانت قوات الجيش اللبناني الموالية للرئيس أمين الجميل تقوم بالردعلى اطلاق النار ولكنها اصبحت الآن تتراجع في فوضى وارتباك. وبالقرب من شاطيء البحر كانت أشباح قطع البحرية الأمريكية الشهباء تبحر ببطء جيئة وذهابا لاحول لها ولا قوة تمنع بها سقوط الرجل السياسي الوحيد الذي كان الأمريكان يصفونه بعبارة «صاحبنا».

وجدت أصحابي سالمين ولكنهم خائفون، وبعد ساعتين تركت سيارة صديقي ـ حسب الاتفاق ـ في بيروت الشرقية وركبت سيارة لأعود الى بيروت الغربية. تركني سائق سيارة الأجرة بالقرب من فندق الكومودور ولم نستطع الاقتراب من الفندق خوفامن رصاص القناصين. في نفس تلك الفترة كان رئيس وكالة الأسوشيتيد برس للأنباء وصحفية ايرانية تدعى شهرزاد فارامارزي عائدين من زيارة لقوات المشاة البحرية الأمريكية المحاصرة في مطار بيروت عندما شاهدا مسلحين ملثمين ورجال احدى المليشيات في بدل عسكرية يهاجمون قوات جيش لبنانية في معركة بأحد الشوارع.

قابل الصحفي بجريدة التايمز اللندنية روبرت فيسك أمام بنك موسكو نارودني بالقرب من مكتب رئيس الوزراء اللبناني أحد رجال الميليشيات، له لحية خفيفة ويرتدي قميصا عليه آية قرآنية أسفلها صورة لسيف عربي. تأمل فيسك وقال في اشمئزاز يخاطب نفسه: «ها قد وصل حراسنا الجدد»(١).

كانت منظمة أمل وقد انضم الى صفوفها جنود حزب الله تتقدم رويدا نحو الشق الغربي من المدينة، وظهرت صور الامام موسى الصدر وآية الله الخميني في جميع نواحي

بيروت الغربية. كانت بيروت تكتظ بالسيارات الواحدة خلف الأخرى التي كانت تمر أمام فندق الكومودور رغم القصف العنيف المستمر. كان سائقو السيارات يتبادلون الشتائم ويدوسون على ابواق سياراتهم وكادت تلك الأصوات وذلك الضجيج يغطي أصوات الرصاص والمدافع المتناهية عن قريب.

في لحظة وصولي مدخل الفندق سمعت صوت انفجار قذيفة يصم الآذان في الشارع الذي خلفي، وتناثرت شرارات الاسلاك والشظايا الحارقة في الهواء وسقطت على ركبتي من قوة الانفجار. صعدت بقية أدراج مدخل الفندق زحفا على بطني وقد ذهلت من الصدمة وهرع أحد موظفي الفندق لمساعدتي للوصول الى قاعة الاستقبال وقد جرحت قطع الزجاج المتناثر على الأرض ذراعي ويدي. وقام المصورون الذين كانوا يسجلون تقدم الشيعة، بالرجوع الى الخلف عبر قاعة الاستقبال حتى وصلوا المطعم متوقعين المزيد من الانفجارات.

الحلفاء يودعون

في تلك الليلة عكفت على مداواة جروحي وحاولت بقدر استطاعتي كتابة بعض التقارير في الوقت الذي قام الجيش اللبناني بأكبر عملية قصف لبيروت الغربية التي سقطت في أيدي الميليشيا بالكامل منذ الحصار الاسرائيلي في صيف عام ١٩٨٢. قتل تلك الليلة ما يقرب من مائة مواطن من المدنيين ولم أستطع النوم لأكثر من نصف ساعة. عند الفجر قمنا بتصوير المدينة التي تحترق من أعلى سطح الفندق وحاولنا تسجيل وصف ما كان يجري من أحداث. كان رجال الميليشيا المسلمين ينهبون البضائع من المتاجر ويكسرون الحانات ويسكبون الخمرة في الشوارع. قبل ذلك بيومين فقط تحدث الرئيس ريغان عن ضرورة صمود القوات الأمريكية في بيروت «وألا ندر ظهرنا لأصدقائنا أو نتخلى عنهم -لن نتبع سياسة خذ واهرب- لأن ذلك سوف يعطي الارهابيين في كل مكان اشارة واحدة فقط وهي انهم سيكسبون من شن الحرب ضد الأبرياء».

كان واضحا الآن ونحن نقف على سطح الفندق أن المهمة الأصلية لقوات المشاة والقوات المتعددة الجنسيات وهي حفظ السلام قد انتهت. في نفس اليوم نقلت الاذاعة العالمية البريطانية اعلانا بأن التعليمات صدرت لقوات المشاةالأمريكيين بالرجوع الى

سفنهم في البحر المتوسط ولن يبقى سوى عدد قليل لحراسة المنشآت اللبنانية الموجودة على الشاطىء فقط. كما ظل راديو طهران يذيع بيانات النصر.

اما بالنسبة للقوات المتعددة الجنسيات فأول من غادر هو الوحدة البريطانية التي انطلقت بسرعة هائلة في اتجاه ميناء جونيه دون اخبار حلفائهم من القوات الأخرى، وتركوا معداتهم على الرصيف لتستولي عليها قوات حزب الكتائب. كما انسحبت معظم القوات الفرنسية ما عدا قلة التحقت بقوات الأمم المتحدة في جنوب لبنان، بينما استمرت القوات الايطالية لفترة أطول مع تقليص الحراس تدريجيا الذين كانوا يقومون بحماية الفلسطينيين من قتلة الكتائب في صبرا وشاتيلا. بعد ذلك بأيام مررت بضاحية الأوزاعي الجنوبية وقرأت جملة مكتوبة على الحائط بالخط العريض تقول «وداعا يا بيروت!!»

نقلت الولايات المتحدة وبريطانيا رعاياها من المدنيين الذين كانوا راغبين في المغادرة بالطائرات العمودية الى السفن الحربية التي نقلتهم الى قبرص وذلك تحت حماية قوات المشاة الأمريكية وليس منظمة التحرير الفلسطينية كما تم في عام ١٩٨٢. منعتنا السلطات من تصوير المدنيين الأمريكيين وهم يغادرون لبنان، وعندما سأل دون مل مراسل وكالة الأسوشيتيد برس المسؤول الصحفي في السفارة الأمريكية عن السبب كان الجواب: «قد تكون هناك ردود أفعال خطيرة لنشر تلك الصور، أو ـ لا يحضرني التعبير المناسب ـ ضارة بالسياسة الخارجية.. أو شيء من هذا النوع»(٢).

اثناء عملية الاخلاء دخلت طالبة أمريكية من نيويورك في نقاش مع عدد من ضباط المشاة الذين بقوا لحراسة السفارة الأمريكية في بيروت الغربية، فقالت لهم: لقد اضعتم وقتكم هنا... وفشلتم في كل ما قمتم به من أعمال».. وعندما أصر احد الضباط على قوله بأنهم جاؤوا لمحاربة الارهاب وأن المقصود من عملية الاخلاء هو الحفاظ على سلامتها صرخت الفتاة تقول: «هذا غير صحيح! لقد جئتم لتحولوا اصدقائي الى أعداء وبيتي الى مكان للرعب»(٣).

آخر صيحات نيوجيرسي

وضعت سفينة نيوجيرسي الرابضة بالقرب من الشاطىء في حالة تأهب من جديد.. فقد قامت بقصف مواقع العدو المدفعية مرتين بقذائفها عيار ٥ بوصات منذ بداية

العام الجديد. لقد أطلقت في ١٥ يناير/ كانون الثاني ١٥ طلقة و٧ طلقات بتاريخ ٧ فبراير/ شباط وهو اليوم الذي صدر فيه إعلان الرئيس ريغان المشار اليه أعلاه والذي عرف لدى المواطنين بأسم تصريح « خذ واهرب».

أبحرتُ عصر يوم ٨ فبراير/ شباط من بيروت الى قبرص على ظهر إحدى المراكب الكبيرة التي استمرت تعمل أثناء فترة قفل المطار، وكانت غيوم خفيفة قد ظهرت فوق البحر الى ناحية الجنوب. فجأة سمعنا دوي تلك المدافع الضخمة من جديد. لقد حجبت عنا الغيوم الرؤية ولكن المراقبين على ظهر نيوجيرسي سمعوا القائد ميلليغان عبر مكبر الصوت يقول: « جهزوا مدفعيتكم . . نيوجيرسي كلفت بمهمة اطلاق نار» مما بعث النشوة والحماس في ملاحي السفينة الذين سيطر على نفوسهم الملل فارتفعت أصواتهم بالهتاف.

في وابل من الانفجارات الصارخة صبت السفينة جام غضب ادارة ريغان وخيبة أملها على فشل أمريكا في لبنان وارسلت ٢٨٨ طلقة دمرت بها مساحات شاسعة من الجبال اللبنانية. كما أمرت محطات الصواريخ في السفينة بالاستعداد لمواجهة أي تهديدات من الارض او البحر بما في ذلك القوارب السريعة التابعة للحرس الثوري التي شوهدت في الخليج من قبل، ولكن لم يأت من تلك التهديدات شيء. كما اخذت طائرات أس .أتش ـ ٢ العمودية في القيام بدوريات مراقبة للتعرف على أي سفن معادية بين السفن التجارية الكثيرة التي كانت تستخدم ممرات البحر الأبيض المجاورة.

أصدر قائد القوة المكلفة ٦٠ جميع السفن الأمريكية في شرق البحر الأبيض المتوسط بالتجمع في الثكنة العامة، فألقى الجميع ما بأيديهم من شوك ومعالق وسكاكين ولبسوا خوذاتهم. . فقد كان الأمريكان يتوقعون انتقاما للقصف الذي استمر حتى الحادية عشر ليلا. لم يكن هناك من أضرار على ظهر السفينة سوى الارتجاج الذي أصاب رؤوس الكثيرين من جراء ذلك الوابل من إصلاء القنابل عيار ١٦ بوصة وانفجار أنبوب للمياه في غرفة القائد ميلليغان.

اذا تعرضت سوريا الى أي خسائر فإنها لم تقدم أي شكوى علنية ولكن الشائعات أكدت أن القصف قد دمر عدة مواقع للمدفعية السورية وبعض قواعد الصواريخ ومركز للقيادة بكل جنوده بما فيهم ضابط برتبة جنرال.

استمرت نيوجيرسي في دورياتها خلال الأيام الأخيرة لانتشار قوات المشاة في لبنان، بينما شرع في نقل الجنود والمعدات في ٢١ فبراير/ شباط من مجمع مطار بيروت الى سفن الاسطول السادس البرمائية التابعة لمشاة البحرية. لم يبق على الشاطيء سوى عدد قليل من الحرس بينما بدأت قوات الميليشيات في هجومها على ما تبقى من طائرات الاستكشاف الأمريكية. وقامت نيوجيرسي بالرد من جديد وللمرة الأخيرة مستخدمة ١٣ طلقة من قنابل ١٦ بوصة. كانت مكافأة الملاحين على مهمتهم تلك اجازة لمدة أسبوع كامل في ميناء حيفا باسرائيل حيث استقبلوا استقبال نجوم الرياضةبالهتافات والتحية.

في ٢ أبريل تحدث الرائد بحار ميلليغان عبر الدائرة التلفزيونية المغلقة للملاحين يخبرهم أن مهمتهم ستظل قائمة حتى وصول السفينة الحربية إيوا لتستلم المهمة، الا انه بعد تسعين دقيقة فقط وصلت اشارة بالراديو تحمل أمرا للسفينة بالاقلاع من بيروت والتوجه فوراً الى نابولي في ايطاليا(٤).

وهكذا رحل ذلك الشبح الرمادي المكفهر الذي كان يتقيأ النيران المحرقة على سطوح جبال لبنان بينما كان آية الله الخميني يبتسم في هدوء وارتياح.

حماية الأمريكان الذين بقوا في لبنان

بينما كان بحارة جنود الاسطول السادس الأمريكي يتمتعون بأجازتهم في موانيء أكثر دفئا من بيروت، كان الحرس الجمهوري الايراني وحلفاؤهم منكبّين على التخطيط للعمل، فقد أصبح الأمريكان في حالة فرار واضحة. توافق ذلك مع اعتداءات جديدة على السفن في الخليج وهجمات برية ضد العراق.

وفي بيروت كان العقيد ويليام كوربت على علم تام بالخطر الذي يهدد الأمريكان الذين بقوا في لبنان وقوامهم ما يقارب مائة من جنود المشاة لحماية السفارة والدبلوماسين وما تبقى من الفرق العسكرية والاستخبارات الذين أرسلوا في موجة من الامل العريض قبل أقل من سنتين. لقد تم توسيع دائرة ومسؤوليات كوربت في اعقاب هجوم أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٣ على مجمع قوات المشاة البحرية، لتشمل عمليات أمنية مضادة للارهاب تتعلق بالقوات الأمريكية في لبنان بما في ذلك السفارة الأمريكية وما تبقى من مواقع قوات المشاة في المطار.

لم يكن قائد المشاة الجديد على الشاطيء، العميد جيم جوي، خبيرا في أعمال مواجهة الارهاب، وقد وصفه العقيد كوريت بقوله: «انه ضابط محترف من الطراز ال الأول الذي يفهم جيدا مهمة المحافظة على أمن قواته العسكرية والاعداد للقتال اذا لزم الأمر» أي أنه كان يعي تماما مهمته المطلوب منه القيام بها. ولكن ذلك ظل صحيحا الى أن نشأت بينه وبين السفير الأمريكي ريجونالد بارثولوميو والعقيد كوريت وغيره من كبار القادة العسكريين مجموعة من الخلافات الأساسية.

في مايو/ أيار ١٩٨٤ استلمت القيادة العسكرية الأمريكية بأوروبا بمقرها بمدينة شتوتغارت الألمانية والمسؤولة عن القوات العسكرية الأمريكية في بيروت، رسالة تفيد أن السفير بارثولوميو ينوي تقسيم ما تبقى من السفارة الأمريكية هناك والتي كانت موجودة بمبنى السفارة البريطانية الواقعة على شاطيء البحر. كانت فكرة بارثولوميو نقل قسم من السفارة الى بيروت الشرقية والابقاء على القسم الأخر في بيروت الغربية. كان ذلك يعني بالنسبة لكوريت المسؤول عن أمن الأشخاص الانتقال من السفارة البريطانية المحصنة بحواجز قوية ودبابات وسياج وأسلحة الى موقعين منفصلين بدون أي تحصينات. كان ذلك بمثابة« الرجوع الى نقطة الصفر».

لقد ظل كوريت منذ البداية من أنصار نقل جميع قوات المشاة خارج لبنان لشعوره بأن وضعها لم يعد آمنا برغم أمان مجمع السفارة نفسه، ولأن قوات الحرس لا يمكنها أن تظل قابعة داخل السفارة كبقية الموظفين. فقد كانت مهمتهم الوجود خارج المبنى وتفتيش السيارات ومراقبة المرور المتحرك بالقرب من السفارة. وبما أن المبرر الوحيد للبقاء في سفن بالقرب من الشاطيء هو حماية الرعايا الأمريكان الموجودين في المدنية حيث أن حكومة الجميّل لم تكن قادرة على حماية مقر رئيس الجمهورية في بعبدا عوضا عن حماية بيروت، فقد كان رأي كوريت استبدال قوات المشاة بقوات أمنية تابعة لوزارة الخارجية الأمريكية. اما الخيار ال الثاني فهو أن تخصص الحكومة اللبنانية قوة حرس تمشيا مع التقليد الدولي لحماية السفارات الأجنبية والدبلوماسيين الأجانب.

تقدم كوريت والضباط التابعين له نتيجة عدم رضاهم عن فكرة تقسيم السفارة باقتراح فحواه أن تقوم الخارجية الأمريكية بتأجير عناصر أمنية تتولى السلطات العسكرية في بيروت تدريبها ودمجها في قوات المشاة الأمريكية.

لم يقبل السفير بالاقتراح وفضل فكرة تقسيم مجمع السفارة . لقد أخذت الأمراض النفسية تدب الى بعض الأفراد السبعة والعشرين المقيمين في مبنى السفارة المحاصر في بيروت الغربية . ولذلك اقترح بارثولوميو انه بفتح المبنى التابع للسفارة في بيروت الشرقية يمكن إسكان بعض الموظفين ـ الذين يعانون من عقدة الخوف من الأماكن المقفلة أو من عقدة الحصار ـ في مجمعات سكنية بالقرب من المبنى. بهذه الطريقة يمكنهم جلب أسرهم وأطفالهم الى بيروت من جديد والتمتع بقدر معقول من الاستقرار إن لم يكن استرجاع حياة السعادة السابقة .

وافق الجنرال لوسن على نظرية كوربت بأنه من الخطأ وليس من دواعي الأمن أن تقسم السفارة الى قسمين، الا أنه اذا أصر السفير صاحب الكلمة الأخيرة في ذلك، فان القوات العسكرية الأمريكية ستتولى الدفاع عن السفارة في بيروت الغربية حتى ينتهي السفير ـ راضيا ـ من اعداد الترتيبات الأمنية الخاصة بالموقعين .

رجع كوربت من شتوتغارت الى بيروت متسلحا بتلك التعليمات واجتمع في يوم ٢ يونيو/ حزيران بالسفير وقادة المنطقة العسكريين. ألقى بارثولوميو على كوربت محاضرة تتعلق بمعرفته لوظيفته ومهمته كسفير، مؤكدا أن قوات المشاة قائمة بعمل جيد، وانه سوف يستمر في استخدام موظفي الأمن التابعين للسفارة وتوزيعهم على الموقعين لأطول فترة تمليها الضرورة. كما أكد على أن لديه من العلاقات والنفوذ في واشنطن ما يمكنه من تمرير هذا القرار ضد أي اعتراضات من العسكريين. وأضاف أن مبنى بيروت الغربية سيظل يضم المكاتب الرئيسية للسفارة بينما لن يزيد عدد الموظفين في القسم الجديد ـ المحاط بالمطاعم والمتاجر المليئة بالبضائع ـ في بيروت الشرقية عن ستة أو سبعة يعملون بالتناوب .

وتحدث كوربت فقال إن رغبة القيادة في اوروبا هي أن تستبدل قوات المشاة في النهاية بقوات حرس تابعة لوزارة الخارجية ومدربة تدريبا كاملا، ولا ترغب القيادة في توزيع قوات حرس المشاة أو نقلها الى أي موقع آخر، وانه ليس من الحكمة ـ بكل بساطة ـ التخلي عن مجمع بيروت الغربية الحصين. وقال أنه يشعر أن الانتقال سيضعف الأمن ويغري بالهجوم .

كان يبدو أن بارثولوميو متفهم لوضع العسكريين، وأكد أن بامكانه استكمال

النقل في الحال تقريبا، وانه يرغب في أن يتنقل موظفو السفارة العاملين في بيروت الشرقية يومياً بين الموقعين بالطائرات العمودية ريثما يصبح المبنى الاضافي في بيروت الشرقية صالحا للاستعمال.

اما بالنسبة لكوربت والعسكريين الآخرين الحاضرين لذلك الاجتماع المشؤوم فقد كان ذلك يعني أن الهدف من العملية هو الرفع من قوة موظفي السفارة وتحسين مستوى معيشتهم من جديد، وذلك أبعد مايكون عما ادعته وزارة الخارجية فيما بعد من أن الاعتبارات الأمنية كانت هي السبب الوحيد وراء العملية.

ووافق قائد المشاة على أن يتعاون في تجنيد عناصر أمنية محلية وتدريبها. كما ساعد الملحقون العسكريون وقادة التدريب في الحصول على الأسلحة وأماكن التدريب ورمي الرصاص من الجيش اللبناني، ووافق كوربت ـ بناء على طلب السفير بارثولوميو ـ اجراء مسح أمني للموقعين بالتعاون مع المسؤول الأمني في السفارة وقائد قوات المشاة ومساعده.

أختير لسفارة بيروت الغربية موقع على الشاطيء على بعد مائة متر تقريبا من المبنى الأنجلو أمريكي القديم، وهو موقع بالنسبة لمن عاش على شواطيء بيروت من امثالي مكشوف للخطر بشكل كبير ويتطلب جهودا ضخمة كي يصبح آمنا. فقد كانت تحيط بالموقع أراضي مكشوفة على الجانبين وفندق وعمارات سكنية عالية يمكن استخدامها لتوجيه الرصاص نحو السفارة. كان رأي العسكريين أن الموقع سيكون مكشوفا بالكامل لهجوم آخر كهجوم أبريل/ نيسان على السفارة وأكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٣ على قوات المشاة.

لقد وافقت كلا من السفارة والقيادة العسكرية على المبنى المقترح في بيروت الشرقية والمتكون من ست طبقات والقائم وحده على سفح مرتفع يطل على الأماكن المحيطة مما قلل من احتمال الهجوم بالسيارات المشحونة بالذخيرة وأعطي المدافعين عن المبنى الفرصة لتثبيت أسلحة رشاشة فوق سطح المبنى.

غادر كوربت بيروت بعد ذلك نهائيا وظل يتابع التطورات من المانيا بصفته مستشاراً خاصاً بعد تقاعده من الجيش. ترك كوربت لمسؤول الأمن في المنطقة نصائح منها استخدام حواجز مؤقتة ضد العربات (كانت هناك معدات كثيرة من هذا النوع

موجودة في مخازن قوات المشاة بموقعها القديم في المطار لم يتم نقلها لسبب من الاسباب الى بيروت الشرقية) واستخدام العربات المعطلة كحواجز وحفر خنادق مضادة للعربات وغيرها من الوسائل(٥). في الوقت نفسه تلقى السفير بارثولوميو المساعدة التي طلبها من قوات المشاة ولم يعمل على تقسيم قوات الحرس أكثر من ذلك.

بدأ بارثولوميو وموظفوه في الانتقال الى الملحق الجديد في منتصف شهر سبتمبر/ أيلول ١٩٨٤، وكان كوربت قد ترك مجموعة توصيات خاصة بالاجراءات الأمنية الانتقالية لحماية ملحق بيروت الشرقية الذي لم يكتمل، ولكن لم يؤخذ الا بالقليل منها.

الشرطة العسكرية الملكية للانقاذ

في ٢٠ سبتمبر ١٩٨٤ تقدمت العناصر العاملة لايران في لبنان بكشف حساب لتكاليف الاهمال الأمريكي، والولايات المتحدة مدينة للسفير البريطاني في لبنان في ذلك الوقت سير دايفد مايرز وموظفيه، أن الثمن لم يكن أعلى مما كان.

ففي صباح ذلك اليوم وصل مايرز وبصحبته فريق حرس من خمسة عرفاء تابعين للشرطة العسكرية الملكية الى مبنى السفارة في بيروت الشرقية لزيارة السفير بارثولوميو. دخل أحدهم المصعد مع مايرز في الطريق الى لقاء السفير في الطابق الرابع بينما أخذ عريف آخر موقعه على الرصيف بجانب موقف السيارات وعلى علو ثمانية أقدام فوق مستوى الطريق المؤدي الى المبنى مما أعطاه مجالاً جيداً للرؤية.

لاحظ الضابط عربة شيفروليه تعبر نقطة التفتيش على بعد حوالي مائة متر الى يمينه . . . توقفت العربة وأطلقت رصاصة ثم اتجهت نحوه مباشرة.

كان ضبّاط الشرطة العسكرية ـ بعكس حرس قوات المشاة ـ يحملون السلاح المليء بالذخيرة الحية، فاستعد الضابط بمسدسه الأوتوماتيك وعند وصول العربة إلى جانبه اطلق خمسة عيارات على الباب اليسرى. ارتمى السائق الى الامام واتجهت العربة نحو اليمين لتصطدم بسيارة أخرى وتدفع بثالثة متدحرجة لمسافة عشرة أمتار تقريبا ثم انفجرت انفجارا قويا وصل صدى صوته الى جميع أنحاء المدينة. انهار جزء من مبنى السفارة بما يشبه مأساة ١٨ أبريل/ نيسان ١٩٨٣ في بيروت الغربية.

لولا حركة ذلك الشرطي السريعة لسحقت تلك العربة المبنى بكامله وقتلت المئات الذين كانوا بداخله ومن حوله. الا ان النتيجة كانت مقتل أربعة عشر وجرح العشرات بما فيهم الضابط الشرطي نفسه الذي رماه الانفجار إلى الجانب الآخر من الموقف وأفقده سمعه.

حدد الخبراء الأمريكيون الذين فحصوا الحطام فيما بعد أن السائق قد مات اثر اطلاق الرصاص عليه وأن موته كان سبب انفجار العبوة المحملة في العربة.

شق اثنان من الشرطة العسكرية الملكية طريقهما خلال الحطام والدخان الى داخل المبنى بينما اتصل الشرطي الذي أطلق الرصاص بالسفارة البريطانية عن طريق الراديو وبدأت ميليشيات الكتائب في الوصول الى السفارة والناس تصيح وتجري هنا وهناك. وصل الشرطيان الى ما تبقى من مكتب السفير في الطابق الرابع فوجدا أحد جدران المكتب قد سقط وبارثولوميو في ألم وقد وقع على رجليه أحد الأعمدة الحديدية ومايرز سليماً. رفض مايرز أن يغادر المكان ولم يسمح لأحد بالمغادرة حتى تم تخليص رجلي بورثولوميو على يد ضابطي الشرطة العسكرية الملكية ثم حمله أحدهما ونزل به سلم المبنى المغطى بالطوب والأحجار. في الخارج أمروا سيارة مدنية بالوقوف واستولوا عليها واتجهوا مصحوبين بسيارات ميليشيا الكتائب نحو المستشفى بسرعة مجنونة في مشهد من مشاهد بيروت الفريدة. بقي واحد من الفريق البريطاني للمساعدة في تقديم الاسعافات ال الأولية للجرحى الأمريكيين.

دروس غير مستفادة

أنتابت وليام كوربت الصدمة في المانيا. كيف تكررت المأساة؟ لقد اكتشف أنه لم يستخدم أي من أجهزة الأمن المضادة للسيارة المشحونة بالمتفجرات ولم تنصب الحواجز بصورة صحيحة مما سهل مرور سيارة من خلالها ولم تكن هناك أسلحة أوتوماتيكية تغطي الحواجز والطرق المؤدية اليها. لقد فزع كوربت للتفسيرات الرسمية بأنه لم يكن هناك متسع من الوقت لاقتناء كل الأجهزة وشحنها وتركيبها. ولم يتساءل أحد في الدوائر العليا عن سبب الموافقة على الانتقال الى بيروت الشرقية أو الانتقال قبل اتمام الاجراءات الأمنية بصورة كاملة. علق كوربت على ذلك بقوله:

يبدأ الاخفاق الرسمي من السفير (الذي تماثل للشفاء) لرغبته في زيادة عدد

الموظفين وتوسيع العمليات وخلق نمط من الحياة العادية في بيئة غير طبيعية. فقد انتقل من مكان آمن الى مكان محاط بالخطر وعدم الاطمئنان، وقد كانت الاسباب التي تقدم بها شبيهة بالاسباب التي قدمها من قبله قائد قوات المشاة الذي قام بنقل ٣٥٠ جنديا الى مبنى واحد (في مطار بيروت). . . . فمتى سنتعلم أن مناطق العدوان ليست كضواحي مدينة بالتيمور الريفية في امريكا؟

بعد هجوم ٢٠ سبتمبر/ أيلول تم ارجاع ستة وعشرين من موظفي السفارة الذين لا توجد حاجة ماسة لهم الى الولايات المتحدة، وتخفيض عدد الموظفين الى ثلاثين موظف، وهو نفس العدد الذي كان موجودا في أمان وحصانة في مبنى السفارة على شاطيء بيروت الغربية. كانت نتيجة النقل تهديم مبنى اخر وزيادة تكاليف على خزينة المواطن الأمريكي المسكين وموجة من الدعاية والابتهاج بين أعضاء منظمة الجهاد الاسلامي وأساتذتهم في طهران، ثم العودة من جديد الى حيث كانت السفارة من قبل. وكما أشار كوربت فان مسؤول أمن السفارة ـ الذي جرح في الهجم ـ الذي «كانت مهمته الوحيدة الدفاع عن السفارة وموظفيها قد أهمل سد الطريق المؤدي الى السفارة وهو ينتظر وصول البوابات الحديدية المصنوعة خصيصا وأجهزة المراقبة الالكترونية وغير ذلك من الأجهزة التي اشتهر بها جايمس بوند»(٧)

لقد ألح كوربت وغيره من المنتقدين في السؤال: لم نقلت السفارة أصلا. .

اللهم الا من أجل تحقيق تنسيق أفضل مع مجموعة الكتائب المسيحيين الذين كانوا يسيطرون على القطاع الشرقي؟ لماذا لم يتم تأجيل الانتقال اذا كان ضروريا حتى يتم توفير اجراءات أمنية كافية؟ لماذا ضوعف عدد الموظفين في بيروت في الوقت الذي كانت الأمور تسير على مايرام بعدد أقل ولأكثر من سنة ؟ لماذا لم تنصب الحواجز المانعة للعربات بصورة تمنع دخول أي سيارة؟ لماذا لم تكن الطرق المؤدية الى المبنى تحت مراقبة حراس مسلحين بأسلحة أوتوماتيكية؟ ولماذا لم تتخذ أية اجراءات تأديبية ضد أي أحد في أمر كانت فيه المسؤولية والفشل لا تحتاج لأي دليل ؟

وأخيرا. لماذا لم يرد في تقرير لجنة لونغ الخاص بالتحقيق في الهجوم على ثكنة قوات المشاة الأمريكية البحرية أي ذكر للهجوم على السفارة في بيروت الغربية وما ترتب عليه من مشاكل. ؟

جاء تسديد الحساب مرة أخرى مع رياح الكراهية المنبعثة من طهران. فقد افتتح الارهابيون الذين أفرزتهم طهران مرحلة أكثر فتكا في حربهم السرية الا وهي مرحلة حجز الرهائن الذين كان من بينهم مواطنون من امريكا التي تتحمل القسط الأكبر من مسؤولية الحفاظ على الوجود الغربي في لبنان.

الفصل العاشر

رهائن سوء الحظ

الهجمة الشيعية على الكويت

في ١٢ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٣ قامت عناصر انتحارية بعملية جيدة التخطيط ولكنها سيئة التنفيذ لتفجير السفارتين الأمريكية والفرنسية وغيرهما من الأهداف الاستراتيجية المختلفة في الكويت. كان المستهدف الأول في هذه العمليات هو الحكومة الكويتية بينما كانت أمريكا وفرنسا ـ بحكم ما قامتا به من أعمال في لبنان ودعمهما للعراق في حرب الخليج ـ هما المستهدف الثاني. أسفرت تلك العمليات عن أضرار كثيرة خاصة في السفارة الأمريكية حيث قتل تسعة أشخاص وجرح ستة وثمانون. كما كان من الممكن أن تقوم محرقة حقيقية في مصنع للغاز بأحد حقول النفط الكويتية لولا أن محرك العربة التي كانت محملة بالمتفجرات قد توقف عن العمل قبل اقتحام الهدف بمسافة قليلة.

جاءت هجمات الكويت نتيجة تآمر بين منظمة حزب الله في لبنان ومنظمة سرية قديمة نُفخت الروح فيها من جديد وهي منظمة حزب الدعوة. تأسست هذه المنظمة في العراق ولكنها تدار بواسطة التلفون من طهران لنشر الثورة في إمارات الخليج. وجاءت عمليات التفجير في الكويت كتمهيد وشرارة البدء والمحرك الأساسي لعمليات اختطاف الرهائن الأمريكيين في بيروت.

لقد كانت الحرب ضد أمريكا قائمة في الخليج منذ قيام الثورة الايرانية كما كانت في لبنان. فقد كان بين المليون نسمة من سكان الكويت الأثرياء أكثر من خمسة وعشرين ألف ايراني وعشرة أضعاف ذلك العدد من الشيعة العراقيين. كما كانت الأسرة الحاكمة في الكويت ـ كبقية الأسر الحاكمة في السعودية وإمارات الخليج الأخرى ـ أسرة سنية تحكم دولة أغلبية سكانها من السنة ولا تحسن الظن بالشيعة أو تثق بهم.

جاء في تقرير لحزب الدعوة قدم لأحد المشايخ في طهران بعد بداية الحرب الايرانية العراقية عام ١٩٨٠ بقليل، أن الكويت «جاهزة لقيام الثورة»[1] وأنه في حال نجاح ثورة اسلامية تدعمها إيران في الكويت فإن أكثر السكان السنة أما أن يفروا من البلد أو

يرضخوا للحكم الشيعي. كما أن الفلسطينيين في الكويت البالغ عددهم حوالي ثلاثمائة ألف نسمة ـ أغلبيتهم من الأغنياء ويحتلون مناصب عالية ـ لن يخاطروا بحياتهم في الدفاع عن الأسرة الحاكمة (وهو ما تأكد عند غزو العراق للكويت عام ١٩٩٠)، وسوف يتمكن المائتا ألف شيعي من اجتياح الأغلبية السنية بحماسهم الثوري.

كان الهدف من عمليات التفجير تلك إذاً هو انطلاق الثورة في الكويت، وكان التمهيد لها في يناير/ كانون الثاني ١٩٨٢ بالهجوم على دور السينما والمطاعم والمكتبات ومدارس البنات التي كان يعتبرها المتحمسون من الشيعة مراكز للإثم والفساد. لقد طعنت بعض النساء اللاتي كن يلبسن البنطلونات والملابس الغربية في الشوارع بالسكاكين وألقيت القنابل الحارقة على سيارات رجال الأعمال الموالين للعراق، إلا أن حاكم الكويت ـ بدلاً من اتخاذ موقف حازم تجاه ايران ـ اختار أن يدير الخد الآخر ويدعو الى الحوار معها، بينما استمر فرع حزب الله ينشر أفكاره في جميع المدارس ومراكز تعليم القرآن في الكويت التي أصبحت تربة خصبة لتعليم الثورة[٢].

هذا الاسلوب من أعمال الشيعة السرية جعل من السهل على السلطات في الكويت أن تتعرف على العناصر المتآمرة التي كانت وراء اعتداءات ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٣ فألقت القبض على سبعة عشر شاباً، منهم أربعة عشر من أعضاء حزب الدعوة وثلاثة من أتباع حزب الله في لبنان.

كان أحد قادة الفرقة الانتحارية المعتقلين هو المدعو مصطفى يوسف بدر الدين وهو صهر لابن عمه المعتقل أيضاً الشاب عماد مغنيه الذي يخافه الجميع والذي يعتبر من أعتى قتلة عناصر حزب الله الشيعية القيادية في لبنان. حكم على كل من بدر الدين وحسين يوسف موسوي ـ من أقارب حسين موسوي الذي ينتمي لفرع حزب الله في لبنان ـ بالاعدام ولم ينفذ الحكم وذلك بسبب التهديدات التي أصدرها حزب الدعوة لحاكم الكويت الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح بأنه إذا نفذت أحكام الاعدام فإن الموت سيكون مصير الرهائن الأمريكيين وغيرهم من الأجانب في لبنان.

بعد ذلك بسنتين تقريباً وفي مايو ١٩٨٥ ألقت عناصر شيعية قنابل على سيارة أمير الكويت لم تصبه بضرر ولكنها قتلت أربعة آخرين بما فيهم أحد حراس الأمير. وفي يوليو/ تموز١٩٨٥ قامت اعتداءات بالقنابل على أثنتين من مقاهي الكويت التي كانت

تسمح باختلاط الرجال بالنساء والتي وصفها الثوريون بأنها «جروح في قلب الاسلام» مما أسفر عن مقتل اثني عشر شخصاً على الأقل وجرح أكثر من مائة آخرين. كل ذلك والأمير يرفض أن يوقع على تنفيذ حكم الاعدام حتى بالنسبة للذين حاولوا اغتياله هو شخصياً.

أطلق سراح اثنين من المعتقلين بعد انتهاء مدة الحكم في فبراير/ شباط ١٩٨٩ بينما فر الخمسة عشر الباقون عندما تخلى الحرس عن السجن إبان الغزو العراقي للكويت في٢أغسطس ١٩٩٠ وتمكنوا من تفادي قوات صدام حسين، ثم تمكن البعض منهم بمساعدة إيران من العودة الى لبنان من جديد.

شركة الاختطاف المحدودة

بدأت حملة اختطاف المواطنين الأمريكان على أشدها بعد انسحاب قوات المشاة البحرية الأمريكية من لبنان مباشرة في عام ١٩٨٤. كان أول الضحايا فرانك ريغير أستاذ الهندسة الكهربائية بالجامعة الأمريكية في بيروت وهو أحد القلائل الذين تجرؤوا على البقاء في بيروت بعد اختطاف دافيد دودج ومقتل مالكوم كار. ألقى عناصر حزب الله المسلحون القبض على ريغير في أحد شوارع بيروت الغربية في١٠ فبراير/ شباط ١٩٨٤ وذلك قبل يوم واحد من بداية محاكمات أفراد حزب الدعوة في الكويت. بعد خمسة أيام ألقى المختطفون شراكهم من جديد وأسروا مهندساً فرنسياً يدعى كريستيان جوبير بالقرب من السفارة الفرنسية في بيروت الغربية. إلاأنه قد تم تحرير هذين الرجلين بأعجوبة عندما داهمت ميليشيات منظمة أمل التابعة لنبيه بري بيتاً كانا محتجزين فيه.

لقد أصبحت كل من أمل وحزب الله وجماعة الدروز التابعة لوليد جنبلاط هي المنظمات صاحبة السيطرة في بيروت الغربية. وفي الثامنة والربع من صباح يوم ٧ مارس/ آذار كان مراسل محطة سي. أن. أن. الأمريكية جيريمي ليفين ـ وهو يهودي أمريكي لم يمر على وصوله إلى بيروت أكثر من بضعة أسابيع ـ كان في طريقه الى مكتب المحطة المقابل لفندق كومودور. عند اقترابه من السفارة السعودية في آخر نهاية شارع بليس على مقربة من الجامعة الأمريكية في بيروت شعر ليفين بيد تربت على كتفه ثم بمسدس يضغط بعنف في بطنه. أخذ ليفين عنوة الى سيارة وهدد بالقتل إن هو فتح

عينيه، وقضى مدة أربع ساعات معصوب العينين في بيت بمكان ما في بيروت الغربية أو الجنوبية وصوت أجش يكيل اليه التهم بأنه عميل للمخابرات المركزية الأمريكية أو لاسرائيل. لم يعترف ليفين بشيء فأخذ وهو معصوب العينين وفمه مكمم بشريط لاصق كاد يوقف دورة جسمه الدموية في عربة نقل وصلت به بعد رحلة طويلة الى مكان أسره. كان ذلك في غرفة صغيرة في بيت بأحد الجبال.

لقد روت سيس زوجة ليفين تفاصيل محنته وجهودها هي لتحريره في كتابها بعنوان «يوميات بيروت»(٣). وينفي ليفين بشدة ما ادعته منظمة حزب الله فيما بعد أن أعضاءها هم الذين مكنوا ليفين من الهرب عمداً يوم ١٤ فبراير ١٩٨٥. بعد ذلك مباشرة قامت سوريا بتسليمه رسمياً للولايات المتحدة في دمشق وكانت تلك إحدى فترات النشوة القصيرة في علاقة سوريا المتقلبة مع الولايات المتحدة.

لقد هزت الحادثة التالية التي اختطف فيها مواطن أمريكي في لبنان إدارة ريغان من أساسها، حيث أنها جاءت نتيجة فشل الاستخبارات الأمريكية وخاصة وكالة الاستخبارات المركزية سي. آي. أي التي كان يديرها آنذاك ويليام كايسي. كما كشفت تلك الحادثة في الوقت نفسه عن مدى امتداد الحرب السرية القائمة بين أمريكا وخصومها في الشرق الأوسط.

رجل كايسي في بيروت

استيقظ ويليام بكلي من نومه في الساعة السابعة من صباح يوم ١٦ مارس/ آذار ١٩٨٤ وتناول طعام الافطار على أنغام الموسيقى الكلاسيكية. كان ذلك هو اليوم رقم ٣٤٣ لوصول بكلي الى بيروت، وكانت هناك أسباب كثيرة تجعله يأخذ احتياطات أمنية خاصة. فعلى الرغم من وجود بكلي في السفارة كمسؤول سياسي إلا أن المعروف أن ويليام كايسي ـ مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ـ قد أرسله الى بيروت كرئيس لمحطة الوكالة هناك بعد مقتل رئيسها السابق كينيث هاس وإحدى عشر من رجال الاستخبارات الأمريكية في الهجوم الانتحاري الذي تم على السفارة الأمريكية في بيروت الغربية عام ١٩٨٣. لسبب ما طلب بكلي من سائقه الذي كان يتولى حراسته الشخصية كذلك ألا يحضر للعمل في ذلك اليوم بالذات(٤).

كانت حدة التوتر في أجواء بيروت الغربية عادية، وكانت ميليشيات حزب الله

ومنظمة أمل تتحرك بكل حرية في شوارع بيروت، قبل يومين فقط انفجرت عربة مشحونة بالمتفجرات قبل أن يتمكن فريق «عمل» أو فرقة مخابرات (نفت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية أي علاقة بها) من قتل الشيخ محمد حسين فضل الله. بعد ذلك انفجرت سيارة ملغمة في نفس الشارع الذي يسكنه بكلي وبالقرب من إحدى نوافذ شقته بينما كان بكلي يقدم المشروبات المنوعة لضيف وزوجته وصلا حديثاً من الولايات المتحدة، وتناثرت قطع الزجاج في جميع أنحاء الشقة. أصر بكلي تلك الليلة على ضيفيه أن يناما في الشقة حتى الصباح عندما استدعى مرافقاً من قوات المشاة البحرية ليصحبهما الى محل إقامتهما.

في آخر يوم يقضيه حراً، دخل بكلي البالغ من العمر ثمانية وخمسين عاماً ـ وكان يتمتع بصحة جيدة ـ المصعد كالعادة في طريقه الى موقف السيارات في الطابق الأسفل من العمارة ولا يزال يلاحق مخيلته شبح الاعتداء على الجامعة الامريكية الذي تم بدعم من إيران. فقد أصدر الشيخ فضل الله بعد محاولة اغتياله تحذيرات جديدة (وعلق لافتة أمام بيته تقول إن المحاولة «مصنوعة في الولايات المتحدة الأمريكية»). كانت التحذيرات هذه المرة موجهة الى رئيس وزراء لبنان وتطالب بإقفال الجامعة الأمريكية في بيروت لأنها تشوه الإسلام. وكان من واجبات بكلي في ذلك اليوم بالذات السعي لحل تلك المشكلة عبر مكالمات تلفونية من مكتب وزارة الخارجية اللبنانية في بيروت الشرقية.

ألقى بكلي تحية الصباح على إحدى الجارات بالعمارة وهو في طريقه الى المصعد حاملاً «حقيبة الاحتراق» المربوطة بسلسلة حديدية في معصمه (والتي تشتعل داخلها غازات خاصة عندما يدار مفتاح قفلها في اتجاه معين في الحالات الاضطرارية فيحترق ما بداخلها من وثائق وأوراق سرية). بعد طابق واحد توقف المصعد وصعده رجل بلباس أنيق كان هو الآخر يحمل حقيبة. بمجرد ما ترك بكلي المصعد متجهاً نحو سيارته ضربه ذلك الرجل من الخلف بحقيبته التي كان يحملها والتي كشفت تحقيقات وكالة الاستخبارات المركزية فيما بعد أنها كانت تحتوي على قطع من الحجر. عند ذلك ظهرت سيارة رينو بيضاء اللون فيها السائق وراكب واحد فقط لتحمل بكلي بسرعة فائقة خلال شوارع بيروت الغربية الجانبية في اتجاه منطقة الفاكهاني الواقعة تحت سيطرة الميليشات بها

في ذلك ميليشيات حزب الله. لقد رأت تلك السيدة جارة بكلي التي كانت تنتظر الحافلة العمومية ما جرى فصرخت تطلب النجدة ولكن بعد فوات الآوان.

أوقظ كايسي في واشنطن عند الساعة الثالثةصباحاً يوم ١٧ مارس/ آذار ليبلغ الخبر فانطلق فوراً الى مقر وكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي ودعا الى اجتماع على مائدة الافطار حضره عدد من كبار مسؤولي شؤون الشرق الأوسط في الوكالة. صدرت التعليمات بالبحث فوراً عن بكلي وإحضاره حياً بأي ثمن واعتمدت أذونات الصرف مقابل أي معلومات يمكن الحصول عليها. كما طلب من محطة الوكالة في بيروت ـ التي قلص عدد العاملين بها وأمر جميع ضباطها الأمريكيين تقريباً بمغادرة لبنان مباشرة ـ أن تشتغل بكل ما يتوفر لديها من إمكانيات.

لقد كان رجال حزب الله وأسيادهم الايرانيون يعرفون جيداً أهمية الأسير الذي بين أيديهم بعد أن درسوا خلفيته دراسة جيدة. لقد كان لبكلي في فيتنام ولاوس خلال الستينات دور في تجنيد القبائل التي كانت تسكن الجبال هناك والمشهورة باسم مونتغنارد وتنظيمها في قوات مقاتلة خاصة تشبه القوات العاملة في لبنان اليوم مع فارق بسيط وهو أن تلك القوات كانت مجندة للعمل لصالح وكالة الاستخبارات المركزية. كانت مهمة بكلي الكبيرة التالية في زائير حيث كان الاعتقاد أن لديه معلومات حول مؤامرة نظمتها وكالة الاستخبارات المركزية لقتل رئيس الدولة اليساري الاتجاه باتريس لومومبا. يفيد أحد التقارير أن بكلي هو الذي حمل ملف لومومبا الى مونتريال في كندا حيث كان خبير «العمليات السوداء» التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية سيدني غوتليب يجري تجارب في كيفية السيطرة على المخ باستخدام أنواع مختلفة من السموم.

وفي ١٣ مايو/ أيار ١٩٨١ كان بكلي ـ وبمحض الصدفة ـ موجوداً في روما في اللحظة المناسبة أيضاً. كان ذلك هو اليوم الذي أطلق فيه محمد علي أكجا ـ العضو السابق في مجموعة تركية تسمى «الذئاب الشهباء» ـ الرصاص على البابا جون بوول في وسط ميدان سينت بيتر أمام حوالي ربع مليون متفرج. كان بكلي عندها يقضي أجازة من عمله لتدريب الحرس الخاص بالرئيس المصري أنور السادات، ويقال أن بكلي كان يعتقد أنه ظهرت على علي أكجا بعد القبض عليه علامات التخدير أو «البرمجة» العقلية. يعتقد الكثيرون أن الفاعل الحقيقي هو المخابرات البلغارية بناء على تعليمات

من المخابرات السوفياتية كي. جي. بي حيث أن البابا كان يساند بالدعاية كفاح بلاده بولندا من أجل الاستقلال عن موسكو.

وفي ٦ أكتوبر ١٩٨١ كان بكلي حاضراً في القاهرة عندما اندفعت مجموعة من الضباط المصريين أثناء العرض العسكري وأطلقوا الرصاص على الرئيس السادات، وعندما رأى تردد حرس السادات الخاص في الرد على إطلاق النار سحب مسدسه الخاص وكان مستعداً للتصويب. لقد فشل الحرس المصري في إقامة الحائط البشري الذي أسهب بكلي في شرحه لهم من خلال أفلام التدريب التي كان يعرضها عليهم. اتصل بكلي تلفونياً بمقر وكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي يصرخ بأعلى صوته «أنه ميت ميتة الدودو» (وهو طائر من فصيلة الحمام منقرض منذ نهاية القرن السابع عشر).

بعد حادثة القاهرة التي قد يكون البعض في الوكالة اعتبرها من أعمال بكلي المأساوية الفاشلة، أرسله كايسي الى كندا لتجميع معلومات شخصية حول مجموعة رفعت دعوى ضد وكالة الاستخبارات المركزية تتعلق بتجارب «التحكم في العقل». أعد بكلي تقريراً مطولاً حول التعذيب ـ وخاصة التعذيب الطبي ـ في مختلف أنحاء العالم تطرق فيه الى وسائل قطع الأعضاء والصعق الكهربائي و «غرف الضجيج» التي تستخدم فيها أصوات بذبذبات عالية جداً تسبب الصمم، والمخدرات النفسية. ولم يتهم بكلي في ذلك أعداء الولايات المتحدة فقط ولكن بعضاً من أصدقائها كذلك مثل تركيا والمملكة العربية السعودية ومصر واسرائيل والفليبين، وسربت أغلب المعلومات الى منظمة العفو الدولية في لندن التي قامت باستخدامها في عدد من تقاريرها السنوية التي صدرت فيما بعد.

كما شاهد بكلي خلال فترة عمل قصيرة في السالفادور سبقت مهمته في بيروت أحد السجناء يعذب بحامض الكبريت الذي كان يصب نقطة نقطة على جروح في جسده(٥).

لقد هيأت تلك الخبرة الطويلة بكلي لأن يفهم ـ منطقياً على الأقل ـ ما ينتظر رجال الاستخبارات إذا ما وقعوا في أيدي عناصر لا ترحم كأولئك الذين احتجزوه ذلك الصباح من شهر مارس/ آذار ١٩٨٤.

كان من بين تلك العناصر ـ حسب ما أفادت به تقارير أجهزة استخبارات متعددة

وأكده بعض الرهائن الذين تم الافراج عنهم ـ عماد مغنيه. لقد كان مغنيه من عناصرحزب الله القليلة الذين تلقوا تدريباتهم على يد المنظمة الفلسطينية فتح. التحق مغنيه ـ ذلك الشاب الملتحي الوسيم الذكي الصارم ـ لفترة بمنظمة أمل ولكنه فضل الانضمام الى حزب الله حيث أصبح أمين سر «مرشده الروحي» الشيخ محمد حسين فضل الله ثم مسؤولاً عن قسم العمليات الخاصة التي كانت تشمل اختطاف الأفراد والطائرات وغير ذلك من العمليات الارهابية(٦). لقد أصبح تحرير صهره عضو حزب الدعوة المسجون في الكويت آنذاك كما سبقت الاشارة إليه أحد أهداف مغنية الرئيسية.

اعترافات بكلي

كان المحرك الرئيسي في عملية البحث عن بكلي العقيد سيمون قسيس مدير الاستخبارات العسكرية اللبنانية. تفيد وثائق اعترافات بكلي ـ التي سربت فيما بعد والتي تم الحصول عليها بالتعذيب بدون شك ولكن يمكن اعتبارها حقيقية ـ أن بكلي وقسيس كانا يعملان جنباً الى جنب. فقد كان بينهما «اتصال مرة كل أسبوع على الأقل تناولنا فيه الوضع الأمني وبرامج التدريب وأمور أخرى كثيرة ذات أهمية في ذلك الوقت». ويقول بكلي حسب ما ورد في الوثائق: «كان بيني وبين العقيد قسيس علاقة تنسيق كان هو بموجبها ينقل لي المعلومات بعلم من حكومته وكنت أقوم أنا بدوري بتوصيلها للسفارة». من المواضيع التي كانت قد نوقشت هو تدريب عناصر لبنانية على كيفية تصنيف المعلومات وأرشفتها وتخزينها والرجوع إليها بحيث تصبح ذات قيمة استخباراتية.

يقول بكلي حسب ما ورد في الوثائق: «مهنتي الشخصية الأساسية طول حياتي تقريباً هي التدريب والتعليم وليس الاستخبارات. ولذا فإني وجدت التأخير (الذي تلقي الوثائق فيه اللوم على جهاز الادارة بوزارة الدفاع اللبنانية) في برامج التدريب عملية مثبطة جداً خاصة عندما كانت البرامج تستدعي الاتصال بالولايات المتحدة لطلب إعادة جدولة أعمال فرق التدريب أو إلغاءها». ويقول بكلي أنه رافق قسيس مرة في زيارة للولايات المتحدة «كي أشرح للمحللين في وكالة الاستخبارات المركزية حقيقة الوضع في لبنان عندما فقدت القوات الحكومية السيطرة على القيادة»(٧).

كما تفيد الوثائق أن بكلي تعاون مع المقدم لويس قسيس شقيق سيمون قسيس

والضابط المسؤول عن الحرس الخاص بالرئيس الجميل. اشتكى بكلي بصورة عامة من وجود كميات أكثر من اللازم من المعلومات» في الساحة في بيروت، وهو بالتأكيد ما يشاركه فيه رجال الصحافة والدبلوماسيين الذين طالما أذهلوا لتلك التخمة من الشائعات والمعلومات المضللة. إلا أن تدريب حرس الرئيس الخاص أو جمع المعلومات تعتبر نشاطات روتينية عادية بالنسبة لرجل استخبارات في الوكالة المركزية وفي محطة على هذا القدر من الحساسية والخطورة بالنسبة للولايات المتحدة مثل محطة بيروت. كما أن أولئك الذين احتجزوا بكلي لا يعتبرونه رجل استخبارات عادي، فقد كانوا على يقين أن في أيديهم الرجل الذي يتحمل أكبر قدر من المسؤولية في المحافظة على ما تبقى من لبنان وحكومتها تابعاً للكتلة الغربية. وكانوا يعتقدون أن بكلي هو العقبة المباشرة أمام تحقيق تعليمات الخميني بسحق النفوذ الأمريكي في لبنان وتحويله الى جمهورية إسلامية.

ويعتقد أنه قد تم تسليم بكلي لقيادات عليا في حزب الله والحرس الثوري الى أن تم التحقيق معه من قبل الاستخبارات الايرانية التابعة للقاضي والمدعي العسكري الايراني المرعب محمد رايشاري الذي أرسل بالكثيرين من معارضي الخميني الى ساحات الاعدام. وهكذا تقرر تحويل بكلي الى طهران حيث نزل هناك ضيفاً وإن كان يختلف عن رجل العلم المؤدب الضيف الآخر دايفد دودج. لقد اعتقد الايرانيون أن بكلي سيفضي لهم بأسرار كثيرة وأن ثمن استرداده من قبل الولايات المتحدة سيكون عالياً جداً.

ويبدو أن بكلي أخذ الى دمشق بالطائرة من قاعدة رياق الجوية التي كانت المقر الرئيسي للقوات الجوية اللبنانية في وادي البقاع والواقعة تحت سيطرة سوريا. كان محسن رفيق دوست الوزير الايراني والمسؤول عن الحرس الثوري، في زيارة رسمية لسوريا في ذلك الوقت ولا يستبعد أنه أشرف على عملية نقل بكلي المخدر المعصوب العينين من دمشق الى طهران، إما في إحدى طائرات الخطوط الجوية الايرانية ـ وعلى الأغلب في القسم الخاص بالشحن والعفش ـ أو في طائرة الشحن العسكرية سي ـ ١٣٠.

كان أول سجن وضع فيه بكلي عبارة عن غرفة سرية تحت الأرض بالقرب من مبنى الاذاعة والتلفزيزن الايراني بشارع فيريشتي بطهران(٨). ليس هناك من شك أن بكلي تعرض للتعذيب الشديد لارغامه على الادلاء بمعلومات حول الخطط الأمريكية لمواجهة الهجمات الارهابية والأساليب التي ستتبعها الولايات المتحدة باستخدام قوات خاصة

للتعامل مع عمليات اختطاف الأشخاص والطائرات.

عملية البحث عن بكلي

في واشنطن حشد ويليام كايسي جميع ما كان متوفراً لجهاز الاستخبارات الأمريكية من إمكانيات لحملة واسعة للبحث عن بكلي، فجمعت وكالة الاستخبارات المركزية ووكالة الأمن القومي ووكالة الاستخبارات الدفاعية جميع إمكانياتها «وطلبت المساعدة من جميع المنظمات الصديقة». بعد شهرين من تاريخ الحادث رفع مسؤول الاستخبارات القومية لشؤون الشرق الأوسط بوكالة الاستخبارات المركزية مذكرة من خمس صفحات لمجلس الأمن القومي ووزارة الخارجية يقترح فيها القيام بجهود ودية استرضائية نحو عناصر إيرانية معتدلة يمكن أن تساهم في تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة. لم يتأكد عما إذا كان توقيت تلك المذكرة عفوياً أم أنها جاءت بدافع الحاجة لانقاذ بكلي من قبضة الايرانيين. المهم أن المذكرة أصبحت إحدى الوثائق الأساسية في تبرير صفقات السلاح مقابل الرهائن التي برزت خلال الشهور الأخيرة من رئاسة ريغان الثانية.

كان العائق الأساسي أمام الجهود الأولى في لبنان للعثور على بكلي، ندرة العناصر البشرية الاستخباراتية في الساحة. لفهم هذه الظاهرة لا بد من تتبع تاريخ وحدة نشاط الدعم الاستخباراتي التابعة للجيش الأمريكي (ISA) ومركزها بمدينة فورت بيلفوار بولاية فيرجينيا. تكونت هذه الوحدة كخلف لمجموعة التحرك الخارجي (FOG) التي أنشئت خصيصاً عام ١٩٧٩ لانقاذ رهائن السفارة الأمريكان في طهران. هذه الوحدة هي التي بدأت العمليات الأمريكية المضادة للعدوان في الحرب السرية مع إيران، بإرسال أربعة جنود من القوات الخاصة كشخصيات مدنية الى طهران لجمع معلومات عن مبنى السفارة (نوع الاقفال المستعملة على البوابة مثلاً) حيث كان الرهائن محتجزين. وهي التي قامت بتأجير العربات في طهران لاستخدامها في تلك المحاولة منحوسة الطالع لانقاذ الرهائن عام ١٩٨٠. افتتحت وحدة نشاط الدعم الاستخباراتي (ISA) نشاطها في لبنان بتنفيذ عملية مشتركة مع وكالة الاستخبارات المركزية لتهريب رئيس لبنان المقبل بشير الجميل ـ الذي قتل في عملية تفجير إرهابية فيما بعد ـ الى داخل لبنان إثر عودته من زيارة للولايات المتحدة.

إلا أن الوحدة كانت أقل نجاحاً في تجارة السلاح. فقد حاولت الحصول أثناء معارك الدبابات الطاحنة بين العراق وإيران على آخر طراز للدبابة السوفياتية ت ـ ٧٢ من العراق مقابل المدفعية ذاتية الحركة التي كان العراق في حاجة ماسة إليها لمواجهة التقدم الايراني. . . ولكن دون جدوى.

ركزت الوحدة في عملها في لبنان عقب كوارث السفارات الأمريكية وثكنة قوات المشاة على وضع خرائط للطرق التي ينبغي أن تسلكها فرق النجدة الأمريكية عند انقاذ أي رهائن آخرين. إلا أنه في عام ١٩٨٢ أمر السيد فرانك كارلوتشي وزير الدفاع الأمريكي بالوكالة في مذكرة تحريرية بحل الوحدة لأنها «أصبحت جهازاً غير مسؤول ولم يعد من الممكن استمرار ترابطها أو التحكم فيها». ولكن يبدو أن كارلوتشي ترك المجال مفتوحاً لاستمرار الوحدة بالتوصية بإعداد خطة عمل لها. وفي عام ١٩٨٥ عندما فكرت إدارة ريغان في استخدام الوحدة لانقاذ بكلي كان يوجد بها ٢٨٧ موظفاً وأقسام منفصلة خاصة بالادارة والعمليات والتدريب والاشارة الاستخباراتية (٩).

إلا أن حكومة الولايات المتحدة كانت في أمس الحاجة للمعلوما ت الأساسية قبل أن تشرع في إرسال وحدة نشاط الدعم الاستخباراتي أو غيرها من الأجهزة السرية في مهمة البحث عن بكلي. فقد كان وجود وكالة الاستخبارات المركزية في ساحة بيروت ضعيفاً جداً حيث قتل كبار رجالها في الهجوم على السفارة في بيروت الغربية عام ١٩٨٣. وعليه فقد كانت أول خطوة هي عرض مبالغ مالية كبيرة على شخصيات محلية مقابل الحصول على معلومات. كما أصدر الشيخ فضل الله الذي كان هدفاً للهجوم الذي أشرف عليه رئيس الاستخبارات اللبنانية سيمون قسيس تحذيراً مشدداً لكل من يقبل بتلك العروض. ثم ألقت قوات حزب الله عند نقطة تفتيش متحف لبنان القبض على طفلين في الحادية والثانية عشرة من العمر بحوزتهما مبالغ من تلك الأموال فحققت معهما ثم أعدما على الفور رمياً بالرصاص. كما اختفى رجل في مطار لارناكا في قبرص إثر عودته من إجازة في اليونان وكانت منظمة حزب الله اتهمته بتوصيل معلومات حول بكلي.

وبرغم العروض التي تقدمت بها منظمة التحرير للمساعدة في البحث عن بكلي فقد أصر بعض الخبراء الفرنسيين والأمريكيين على الاعتقاد بأن للفلسطينيين دوراً في

اختطاف بكلي. ولكن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية كانت واثقة من تورط حزب الله في العملية الى درجة أنها في ٢٠ مارس ١٩٨٤ نقلت ذلك في تقرير مبرق تلغرافياً لمنظمة البوليس الدولي الانتربول في باريس. وفي الولايات المتحدة أحال مكتب التحقيقات الاتحادي ـ وهو الجهة التي تستلم مثل هذه المعلومات ـ التقرير على وكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي، فقام كايسي بإرسال فريق من الوكالة الى بيروت أجرى تحقيقاً مع تلك السيدة التي كانت آخر من رأى بكلي في موقف السيارات بالعمارة التي اختطف منها، وكانت نتائج تحرياتهم أن بكلي لا يزال في بيروت الغربية أو الجنوبية(١٠).

وردت في واشنطن اقتراحات متنوعة من أجهزة الاستخبارات المختلفة بما يمكن القيام به لانقاذ بكلي. دعا أحد الاقتراحات الى رش مساحات كبيرة من بيروت الغربية بنوع غير سام وقصير المفعول من الغاز المفقد للحركة ثم ارسال فريق خاص يقوم بعملية الانقاذ. رفض ذلك الاقتراح بسرعة لأن الولايات المتحدة كانت قبل ذلك بقليل قد اعترضت (ولكن بصوت خافت) على استخدام العراق للغاز السام ضد ايران. ثم، كيف يمكن تحديد مفعول الغاز على المنطقة التي بها الرهائن؟ وماذا سيكون رد فعل السوفيات ـ ناهيك عن حلفاء أمريكا ـ إذا تسبب الغاز في إغماء موظفيها؟ كما كانت أصداء ذكريات فيتنام قد عادت الى داخل إدارة ريغان عندما وصلت أخبار مزعجة عن مقتل أحد أعضاء منظمة حزب الله في بيروت نتيجة تعذيبه بآلة صعق كهربائي على يد أحد المتحمسين من رجال وكالة الاستخبارات المركزية الذي تم استدعاؤه فوراً الى الولايات المتحدة وفصله من وظيفته (١١). إلا أن ذلك الحادث أعطى إيران وحزب الله مبرراً آخر لتصعيد الضغط على بكلي وأي رهينة أمريكية أخرى يختاروا معاملتها بنفس تلك الأساليب.

طار جون ماكماهون وكيل كايسي الى تل أبيب يطلب المساعدة من الموساد وسمح له بالاطلاع على العديد من الملفات المحفوظة بالكومبيوتر. بينما وصل مارتن كرايمر خبير الشيعة في مركز دايان الى لانغلي للتشاور. في نفس تلك الفترة نقلت الموساد رأيها الى وكالة الاستخبارات المركزية بأنه من المستحيل القيام بعملية انقاذ ناجحة في لبنان. إلا أن الوكالة المركزية ووكالة نشاط الدعم الاستخباراتي ـ كما سنرى بعد قليل ـ لم تقبلا بذلك الرأي في البداية.

بكلي يستغيث

بعد مرور ثلاثة وخمسين يوماً فقط على اختفاء بكلي استلمت السفارة الأمريكية في أثينا يوم الاثنين ٧ مايو ١٩٨٤ شريطاً مصوراً أرسل من أثينا باسم السفير شخصياً. كان الشريط من صنع أوروبا الشرقية الرخيص المنتشر في الشرق الأوسط. اتصل مندوب وكالة الاستخبارات المركزية في السفارة بالسيد كايسي، وفي بحرساعات قليلة كان كايسي وبرفقته ماكماهون وأحد كبار المسؤولين عن العمليات الذي قضى فترة من الزمن في بيروت يشاهدون الشريط في مقر الوكالة في لانغلي. يقول أحد التقارير أن الشريط احتوى على لقطات لبكلي يعذب وهو عريان بالكامل وفي يده وثيقة من تلك الوثائق السرية التي كانت في حقيبته كدليل على أن «حقيبة الاحتراق» لم تؤد عملها في إعدام الوثائق التي بداخلها. كما بينت لقطات مكبرة أخرى أنه قد جرى تخديره لوجود علامات ثقب الابر في جسده(١٢).

بعد ذلك بأربع وعشرين ساعة استلمت السفارة الأمريكية في روما شريطاً آخر ملفوفاً في نسخة من إحدى الصحف الايطالية استنتجت وكالة الاستخبارات المركزية منه أن تعذيب بكلي لا يزال مستمراً. كما تبين من بطء كلام بكلي والذهول البادي على وجهه وعينيه أنه تعرض لاستخدام المخدرات النفسية. كما كانت يداه ورجلاه ترتعش بشدة وهو يستغيث متوسلاً للموافقة على صفقة لاطلاق سراحه مقابل إزاحة كل مظاهر النفوذ الأمريكي والاسرائيلي من لبنان (١٣).

ثم وصل بعد ذلك شريط ثالث أرسل من منطقة مصر الجديدة بالقاهرة الى السفارة الأمريكية هناك يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٨٤ أي بعد مرور ٢٢٤ يوماً على اختطاف بكلي. كانت أجواء العالم الغربي مشدودة بالتوتر من خطر الارهاب، فقد هاجمت عناصر مسلمة متعصبة السفارة الأمريكية في بيروت الشرقية وقامت منظمة الجيش الجمهوري الارلندي بمحاولة لاغتيال رئيسة وزراء بريطانيا مارغاريت تاتشر في مدينة برايتون بأنجلترا مما زاد من الخوف من قيام حملة إرهاب عالمية.

ظهر بكلي في الشريط الجديد هزيلاً شاحباً يعرض وثائق مختلفة ويتمتم بتلعثم عبارات يدافع بها عن مختطفيه وعن حق لبنان في تقرير مصيره وكان يقطع كلامه بصيحات عالية. وبعد تحليل الأطباء والمحللين النفسانيين بوكالة الاستخبارات المركزية

لصوته وحركة عينيه ومظهره العام بالكومبيوتر أصبح الأطباء يشكون في احتمال قيامه بالانتحار(١٤).

واشتدت الحرب النفسية بين أمريكا ومشاكسيها من اللبنانيين والايرانيين. ففي ٢٢ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٥ صرح الشيخ فضل الله أن لديه أدلة أن «الشيطان الأكبر» قد أسس مركزاً في كاليفورنيا قبل إحدى عشرة سنة لمزاولة التحكم في عقول المسلمين في أمريكا الشمالية بإدخال أسلاك كهربائية في الجمجمة. ويبدو أن أحداً ما قد أبلغ الشيخ بطريقة مشوهة جداً عن فكرة قديمة طرحها رونالد ريغان عندما كان حاكماً لولاية كاليفورنيا لتأسيس «مركز العنف» للسيطرة بالوسائل النفسية على جرائم العنف التي كانت منتشرة في مدن ولايته. ولم ينفذ ذلك المشروع إطلاقاً(١٥).

لقد أصبح كايسي وبعض المسؤولين الكبار في إدارة ريغان على أتم الاستعداد بعد ذلك للموافقة عل أي عمل من شأنه أن يعيد إليهم بكلي. في ذلك الوقت اتصل أحد المخبرين يبدو أنه كندي الجنسية باثنين من رجال أدارة المخدرات الأمريكية العاملين في لبنان ـ حيث أخذ خبراء تجارة المخدرات في وادي البقاع يدفعون بتدفق المخدرات الخطرة من أمريكا اللاتينية الى الولايات المتحدة ـ ليؤكد لهما أن مائتي ألف دولار يمكن أن تضمن إطلاق سراح اثنين من الرهائن الأمريكيين في لبنان أحدهما بكلي. التقى المقدم الأوليفر نورث ـ أحد موظفي الأمن القومي في البيت الأبيض ـ مع الرجلين التابعين لادارة المخدرات ـ وربما بحضور المخبر كذلك ـ لمناقشة الأمر، ثم أحيلت مهمة الحصول على المبلغ المطلوب وهو مائتا ألف دولار على مستشار الأمن القومي السيد روبرت ماكفارلين. طار ماكفارلين الى ولاية تكساس لزيارة المليونير روس بيروت بطل القضايا القومية، ليأخذ منه المبلغ كي يسلمه للمخبر الذي أخذه ثم اختفى فوراً ودون أن يعثر له على أثر. وفي مايو/ أيار ١٩٨٦ وبرغم خيبة الأمل السابقة استجاب بيروت مرة أخرى لطلب من نورث وأرسل اثنين من مساعديه الى قبرص بمبلغ قدره حوالي مليوني دولار أودعت في حساب بأحد المصارف وأنتظر المبعوثان في قبرص لمدة سبعة أيام ولكن أحداً لم يأت لاستلام المبلغ أو تقديم الرهائن(١٦). (بقي ذلك المبلغ في المصرف حتى استخدمه نورث ومساعدوه فيما بعد للدفع لعناصر لهم في بيروت كانت تطالب بالأموال مقابل الرهائن)

مساعدة أعداء الخميني

تولد عن قضية بكلي نشاط جديد في التحرك الاسرائيلي في تجارة السلاح مقابل الرهائن مما دفع ـ بدوره ـ بعدد من كبار المسؤولين في إدارة ريغان الى الالتجاء الى اسرائيل لمساعدتهم في البحث عن وسائل لكسب عقول «المعتدلين» في إيران على الأقل، إن لم يكن كسب قلوبهم. وهناك مقدمة مثيرة لهذا الفصل الجديد من القصة، يتعلق بعناصر ثورية من حزب توده وعملاء الاتحاد السوفياتي في إيران.

لقد ظلت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية منذ عام ١٩٨٢ تقوم بعمليات سرية تهدف لمنع نفوذ الاتحاد السوفياتي من الوصول الى إيران. كانت الفكرة هي الحفاظ للولايات المتحدة بدور في إيران في حالة سقوط الخميني على يد منظمة مجاهدي خلق التي يدعمها العراق أو بعض المنظمات اليمينية الأخرى. كان من بين هذه التنظيمات عناصر ملكية تنادي بعودة ابن الشاه ولي العهد رضا بهلوي الى الحكم.

كان من بين الذين استفادوا من كرم وكالة الاستخبارات المركزية الأميرال أحمد مدني قائد البحرية الايرانية سابقاً الذي حوكم عسكرياً في عهد الشاه لموقفه «المعادي للحكومة». هرب مدني الى تركيا بعد توليه لفترة قصيرة منصب أول وزير للدفاع في نظام الخميني، وكان يدعي أنه يتحكم في ما بين ستة الى ثمانية آلاف لاجيء إيراني في شرقي تركيا. دفعت وكالة الاستخبارات المركزية عدة ملايين من الدولارات لحساب قوات مدني(١٧). وكانت هناك وحدة أخرى قوامها أقل من ألفي رجلاً أغلبيتهم في العراق يقودها الجنرال بحرام أريانا رئيس أركان الجيش في عهد الشاه. لقد كان الحلم الكاذب للمخططين في واشنطن أنه بمساندة تلك المجموعات فإن الولايات المتحدة تأمل في ضمان التنغيص على أي قوات سوفياتية قد تفكر في غزو إيران، أو في حماية العناصر المعتدلة المساندة للغرب إذا ما تمكنت من استلام السلطة في طهران (١٨).

يرجع هاجس الخوف الأمريكي من التحرك السوفياتي نحو الجنوب الى غزو ستالين لأذيربيجان وكردستان عام ١٩٤٦، ثم جاء الغزو السوفياتي لأفغانستان ليزيد من تخوف واشنطن من تدخل السوفيات في إيران. لقد عارضت كل من الولايات المتحدة وحليفتها السعودية وإيران استيلاء السوفيات على أفغانستان وانطلق هؤلاء الرفاق الثلاثة يدعمون المجاهدين الأفغان (وكان الايرانيون يفضلون الشيعة من الأفغان بطبيعة

الحال). في عام ١٩٨٣ وبعد حملة الخميني مباشرة ضد حزب توده («الشيوعي») الذي يدعمه السوفيات زودت الولايات المتحدة إيران بمعلومات مفصلة عن عملاء الاتحاد السوفياتي والمتعاونين معه في ايران وكان الهدف من ذلك أن تخفف إيران من الضغوط على السعودية والكويت ودول الخليج الأخرى.

في ٤ مايو/ أيار ١٩٨٣ استخدم الخميني تلك المعلومات للقبض على ما لا يقل عن مائتين من حزب توده بتهمة العمالة للسوفيات وكذلك على حلقة الاتصال الرئيسية مع السوفيات في إيران السيد عباس زماني الذي كان يعمل تحت اسم أبو شريف.

كان زماني ـ السفير الأسبق في الباكستان ـ يشغل منصباً حساساً في إيران وهو وكيل مدير الاستخبارات. أسفرت تلك الحملة عن طرد ثمانية عشر من الدبلوماسيين السوفيات من إيران وإعدام مائتين من المتهمين وسجن قيادات حزب تودة.

وهكذا في الوقت الذي وجه فيه الخميني ضربة قاتلة للشيطان الأصغر، فقد استمر في عدوانه ضد الشيطان الأكبر الذي زوده بالمعلومات بكل أريحية وكرم. كان ذلك الحدث من أبرز أحداث الحرب الباردة التي شارفت على الانتهاء بينما اشتدت حرب أمريكا في الشرق الأوسط استعاراً كما أثبت ذلك اختطاف بكلي وغيره من الرهائن الأمريكيين(١٩).

وظهر غوربا على المسرح

لقد كان مانوشاهر غوربانيفار ـ التاجر الايراني وعميل الاستخبارات السابق وصاحب الأسماء الكثيرة والوسيط لدى اسرائيل ـ يقدر قيمة الرهينة وليام بكلي تقديراً جيداً. فقد أخبر غوربانيفار أحد رجال وكالة الاستخبارات المركزية في فرانكفورت بألمانيا بعد اختطاف بكلي بقليل أن نائب رئيس الوزراء الايراني ومسؤول العمليات السرية في الخارج محسن كانغارلو هو الذي كان وراء العملية. وبالرغم من أن عدة اختبارات بالبوليغراف قد أثبتت أن غوربانيفار كاذب إلا أنه استمر في العمل في قضية بكلي لما رأى أمامه من فرص الغنى وصفقات السلاح(٢٠).

ادعى غوربانيفار في اجتماع في اسرائيل بتاريخ ٢٦ يوليو/ تموز ١٩٨٥ حضره مستشار وزارة الخارجية الأمريكية مايكل ليدين وضابط الخارجية الاسرائيلية ومسؤول الموساد سابقاً دايفيد كيمحي وتاجر السلاح الاسرائيلي آل شويمر ويعقوب نمرودي،

أنه بامكان «المعتدلين ذوي الاتجاه الغربي» في إيران أن يضمنوا إطلاق سراح بكلي وغيره من الرهائن مقابل خمسمائة صاروخ من طراز تاو. اتصل غوربا ـ كما يسميه رفاقه التجار ـ من بيت نمرودي هاتفياً بمحسن كانغارلو في طهران وأخبر أصدقاءه أن كانغارلو غير مستعد أن يدفع أموالاً مقابل الصواريخ ولكنه يعتبر أن إطلاق سراح «الرجل الكبير» (بكلي) ثمن عادل لذلك(٢١). إلا أنه اتضح فيما بعد أن إيران ستضطر الى الدفع نقداً وأن تلك الصواريخ قد أصبحت أكثر المواد المرغوبة في صفقات السلاح مقابل الرهائن المقبلة.

لكن الذي لم يعرفه غوربانيفار ولم يخبره به كانغارلو هو أن ويليام بكلي قد مات منذ ٣ يونيو/ حزيران على الأغلب(٢٢)، وإن لم تعلن منظمة الجهاد الاسلامي عما أسمته إعدام بكلي حتى ٣ أكتوبر ١٩٨٥. جاء في بيان المنظمة أن الاعدام كان رداً على العدوان الاسرائيلي على مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس بتاريخ ١ أكتوبر.

لقد علمت وكالة الاستخبارات المركزية وغيرها من الأطراف المعنية في أواخر عام ١٩٨٤ أن عمادمغنيه الذي كان يسعى بكل جهده الى إخراج صهره من السجن في الكويت كان هو القوة المحركة وراء اغتيال بكلي وقد يكون ويليام كايسي قام برحلة سرية الى دمشق لمناقشة احتمال اختطاف مغنية. كما كان السفير الأمريكي في الكويت أنتوني كواينتن الذي تولى مسؤولية مكتب الارهاب بوزارة الخارجية يقوم بتشجيع الكويتيين للصمود أمام مطالب منظمة الجهاد الاسلامي لاطلاق سراح أعضاء حزب الدعوة المسجونين في الكويت.

أما في لبنان فقد هرب الرهينة جيريمي ليفن في أوائل ١٩٨٥. كما تم اختطاف كلاً من القس بنجامين وير في ٨ مايو/ أيار ١٩٨٤ وبيتر كيلبيرن الموظف بمكتبة الجامعة الأمريكية في بيروت في ٣ ديسمبر ١٩٨٤ (ثم قتل بعد ذلك في ١٧ أبريل/ نيسان إثر الغارة الأمريكية على ليبيا) والقس الكاثوليكي الأب لورينس جينكو في ٨ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٥، وكانوا جميعاً محتجزين بالقرب من ليفن ثم نقل وير وجينكو الى أماكن أخرى. وقد ذكر وير وجينكو أنهما سمعا صوتاً يقول «أنا بكلي.. ويليام بكلي.. من أنتم؟» (لقد سمعا ولم يريا شيئاً لأن أعينهم كانت معصوبة أغلب الوقت). كما يبدو أن جينكو شاهد بكلي مرة من قبل ولم ير عليه في ذلك الوقت آثار التعذيب. وذكر

جينكو وآخرون أن بكلي كان كثيراً ما يتحدث عن أحد الحراس واسمه سعيد الذي كان بكلي يذكره بأفضاله عليه إلا أن الحارس لم يعر بكلي أي اهتمام.

في٢٠ أغسطس ١٩٨٥ أرسلت اسرائيل إلى إيران ستة وتسعين صاروخاً من نوع تاو مصنوعة من قبل شركة هيوز ميسايل سيستيمز بولاية كاليفورنيا. رافق غوربانيفار الشحنة من مطار بن غوريون عبر الأجواء التركية الى إيران. إلا أنه رغم كل المفاوضات التي أجراها في طهران قبل شهر مايو/ أيار كلا من ماكفارلين ونورث وكل المعاملات التي تمت بعد تلك الزيارة فلم يطلق سراح أي من الرهائن كنتيجة لتسليم الصواريخ. تفيدالتقارير الرسمية على لسان غوربانيفار أن إيران كانت ترغب في وصول الخمسمائة صاروخ كلها دفعة واحدة وأنه سأل زملاءه الأمريكيين والاسرائيليين في أحد الاجتماعات يقول: «هل تريدون من إيران أن ترسل إليكم ذراع بكلي أو رجله كعربون مقدم؟».

وبرغم الخرافات المؤدبة التي شاعت داخل الادارة الأمريكية أن الأسلحة سوف تذهب الى القوات المسلحة الايرانية الأكثر اعتدالاً فقد قام الحرس الجمهوري باستلام تلك الشحنة من الصواريخ بمجرد وصولها في مطار طهران. لقد وصف وزير الخارجية جورج شولتز فكرة وصول الأسلحة الى «المعتدلين» (مهما كانت تعنيه تلك الصفة) فقط في إيران لكي يكون للولايات المتحدة نفوذ هناك بعد موت الخميني بأنها «شاذة»، وعلق عليها وزير الدفاع كاسبر واينبيرغر ـ الذي كان هو الآخر على علم بتلك الصفقات ـ بقوله «أنها أسخف من أن تستحق التعليق»(٢٣). ولكن غوربانيفار أصر أنه لن يتم إطلاق سراح الرهائن إلا بعد شحن الأربعمائة صاروخ الباقية من إسرائيل. عندها قال دايفيد كيمحي لماكفارلين: «ليس في إمكاننا تسليم الصواريخ.. وعليه فلا نتوقع استلام أكثر من رهينة واحدة، وعلينا أن نحدد من هو».

أجبر ماكفارلين على التحديد فاختار بكلي إلا أن غوربانيفار رد قائلاً أن بكلي مريض جداً ولا يستطيع أن يتحرك.. فتم عوضاً عنه إطلاق سراح بنجامين ويير عن طريق دمشق في ١٨ سبتمبر/ أيلول(٢٤).

بعد ثمانية أشهر وفي ٢٨ مايو/ أيار ١٩٨٥ اختطف دايفد جايكبسون مدير مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت وكانت هنالك مؤشرات تدل على أن قسم حزب

الله التابع لعماد مغنيه كان وراء تلك العملية. أطلق سراح جايكبسون في أوائل نوفمبر/ تشرين الثاني١٩٨٦ مع بداية انكشاف فضيحة السلاح مقابل الرهائن. وتفيد الشهادة التي أدلى بها جايكبسون أنه شهد الساعات الأخيرة من حياة بكلي يوم ٣يونيو/ حزيران ١٩٨٥ .

يقول جايكبسون أنه كان وهو معصوب العينين في غرفة واحدة مع رجل يبدو عليه المرض.

لقد كان الرجل يهذي. . وكان يتقيأ. . وكان مصاباً بحمى عالية. جاءني الحراس وسألوني بحكم كوني طبيباً: «ماذا يمكنك أن تقدم له؟» فقلت: «خذوه الى المستشفى أو أطلبوا له الطبيب» فقالوا: «ذلك غير ممكن». لم أكن أستطيع رؤية ذلك الرجل. . . ثم مرت فترة من الصمت طويلة جداً. عندما يكون المرء في غرفة صغيرة يمكنه سماع أصوات الموت. . . وإني أعتقد يقيناً أن بكلي مات مساء يوم ٣ يونيو. (٢٥).

لم يتلق بكلي على ما يبدو أي عناية طبية خاصة بوضع قلبه المتدهور أو لعلاج مرض الرئة. وذكر أوليفر نورث فيما بعد أن بكلي قد مات على الأغلب بسبب الاستسقاء الرئوي حيث أنه «ركل بشدة في موضع الكليتين الى أن امتلأت رئتاه بالسوائل وأصيب بالاختناق»(٢٦).

وبالرغم من نشر منظمة الجهاد الاسلامي لصورة باهتة لجثة بكلي بعد الاعلان عن «إعدامه» في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٥ إلا أنه لم يتمكن أي مفاوض أمريكي أو أي جهة أمريكية ـ حتى تاريخ كتابة هذه السطور ـ من استرداد جثته أو ـ حسب علم المؤلف ـ من الحصول على الشريط الأصلي لاعترافاته. وهكذا يظل ويليام بكلي ـ الذي يعتبره أصدقاؤه وزملاؤه بطلاً بينما يعتبره أعداؤه في إيران وغيرها رمزاً من رموز هزيمة أمريكا، أكبر ضحية جديرة بالذكر والتسجيل للحرب السرية بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية.

اختطاف تيري أندرسن

إذا كان اختطاف ويليام بكلي بالنسبة للمسؤولين في الولايات المتحدة يمثل رمزاً من رموز الحرب السرية بين أمريكا وخصومها في الشرق الأوسط، فإن اختطاف الصحفي تيري أندرسن يجسد قضية الرهائن بالنسبة للكثيرين في أمريكا والغرب عموماً.

جاء يوم ١٦ مارس/ أذار ١٩٨٥ ولا زالت ظلال محاولة اغتيال الشيخ فضل الله تحوم في سماء بيروت حيث جرت عدة مصادمات عنيفة بين فرق الميليشيات المختلفة. وكان تيري أندرسن الذي جرى اختطافه في ذلك اليوم مؤهلاً نفسياً وفكرياً لتغطية أحداث لبنان. فهو مراسل حرب وصحفي محنك قام بتغطية الحرب في فيتنام وقضى ست سنوات في قوات المشاة البحرية. وصل أندرسن بيروت عام ١٩٨٣ كواحد من أكثر الصحفيين في بيروت خبرة، وقد برز ذلك بوضوح في تغطيته لنشاطات الشيعة في لبنان كمراسل رئيسي لوكالة أنباء الأسوشييتد برس في الشرق الأوسط.

كان أندرسن صباح ذلك اليوم يقود سيارته في شوارع الحي الذي كنت أسكنه في عين المريسة راجعاً الى بيته بعد لعبة تنس. كان مختطفوه ينتظرونه عند التقاطع بالقرب من تمثال الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، فاعترضوه وسحبوا أسلحتهم وأخرجوا أندرسن ومرافقه المصوراتي دون ميل من السيارة قسراً. وبينما أوقف أحدهم دون ميل ملتصقاً بحائط جرَّ البقية أندرسن الى داخل سيارتهم. كان أندرسن مرتدياً ملابس التنس وقميصاً عليه شعار فندق كومودور. ويذكر ميل أنه كان يحاول تخليص نفسه ليلحق بأندرسن ولكنه هدد بالقتل إن هو فعل، وكان كل من ميل وأندرسن يعلم في تلك اللحظات أن الأخير في طريقه الى اللحاق ببكلي في الأسر.

شاهد ميل سيارة الخطف تسرع في اتجاه مواقع الشيعة المحصنة في جنوب بيروت وفيها صديقه وزميله أندرسن الذي أعلنت منظمة الجهاد الاسلامي مسؤوليتها في اليوم التالي عن اختطافه في مكالمة تلفونية لوكالة الأنباء الفرنسية. كما اعترفت باختطاف شخصين آخرين هما جيفري ناش وبراين ليفيك، ويوم ١٤ و١٥ مارس/ أذار أطلق سراح هذين الرجلين قبل نهاية الشهر لأنه على ما يبدو كان يعتقد أنهما أمريكيين.

كانت حالة الاستعداد أسبوعين قبل الهجوم على الشيخ فضل الله يوم ١٥ مارس/ أذار عالية الى درجة أنه تم إخلاء ستة وثلاثين أمريكياً منتدبين لقوات الأمم المتحدة المؤقتة في لبنان. وفي ١٢ مارس/ آذار استفزت الولايات المتحدة المسلمين باستخدام حق النقض ضد قرار لمجلس الأمن بالأمم المتحدة يدين سياسة اسرائيل وممارساتها في جنوب لبنان. وجاء في تصريح منظمة الجهاد الاسلامي لوكالة الأنباء الفرنسية يوم ١٧ مارس/ آذار، أن اختطاف أندرسن وناش وليفيك قد تم «في إطار

عملياتنا المستمرة ضد أمريكا وعملائها» وأن المختطفين الثلاثة قد نقلوا الى خارج بيروت.

لا يزال تيري أندرسن رهينة حتى كتابة هذه السطور وقد قضى أطول مدة في الحجز. لقد ظلت زوجته مادلين تعمل بمكتب أي. بي. سي. نيوز في بيروت لعدة أشهر ترصد برامج الاذاعات العربية، ثم رزقت بطفلة في ٧ يونيو/ حزيران أسمتها سلوم تريزا واستقرت مادلين مع طفلتها بأحد شوارع قبرص الهادئة تنتظر الافراج عن تيري.

في ١٥ فبراير/ شباط ١٩٨٦ توفي والد تيري بالسرطان وفي يونيو/ حزيران من نفس العام توفي أخوه غلين بالسرطان أيضاً وكان قد أعد وهو على فراش الموت التماساً لمنظمة الجهاد الاسلامي مسجلاً بالفيديو يتوسل إليهم فيه بإطلاق سراح أخيه. عرض ذلك الشريط كما عرضت قبل ذلك التماسات عديدة قدمتها أخته بيغي ساي على شاشة تلفزيون لبنان ولكن يبدو أنه لم يلق أي اهتمام من أحد.

أفاد بعض الرهائن الآخرين الذين تم الافراج عنهم أن أندرسن قد علم بمولد ابنته وكان لذلك أثر كبير في تخفيف الألم والوحشة عليه. إلا أنه لم يعلم بوفاة أبيه وأخيه.

بعد ستة أشهر من اختطاف تيري أفرج عن بنجامين وير وكان ذلك عقب أتمام أول صفقة من صفقات السلاح مقابل الرهائن بين إدارة ريغان وإيران، فقد استلمت إيران الخميني ـ بعد مفاوضات سرية ـ شحنات من الأسلحة أطلق على أثرها سراح وير ولم يفرج عن بكلي. وصل وير واشنطن في سبتمبر/ أيلول ١٩٨٥ يحمل رسالة فحواها أن أندرسن وخمسة رهائن أمريكيين آخرين سيقتلون إذا لم تضغط الولايات المتحدة على الكويت لاطلاق سراح المعتقلين الشيعة.

الخبر الطيب الذي جاء به وير هو أن من بين الرهائن الستة أربعة على الأقل لا زالوا على قيد الحياة وهم الأب جينكو وتوماس سذرلاند (اختطف في ٩ يونيو/ حزيران ١٩٨٥) ودايفيد جايكوبسن وتيري أندرسن. تجمّع أفراد أسر أولئك الأربعة في واشنطن للالتقاء بوير وطالبوا باجتماع مع الرئيس ريغان ـ الذي كان كثير القلق على الرهائن ـ إلا أنه تمكن من تجنب مواجهتهم حيث كانت تجري له فحوصات بمستشفى بيثيسدا البحري ووقعت مسؤولية ذلك على نائب الرئيس جورج بوش.

كان انطباع بوش عن بيغي ساي أنها امرأة صلبة حيث أنها «انفجرت فيه لعدم إظهاره لأي نوع من الاهتمام» بموضوع الرهائن على حد ما جاء في تقرير جاين ماير ودويل ماكماناس (٢٧).

رد بوش قائلاً: «كيف تتهمينني بالاهمال وأنا رجل مسيحي كذلك؟».

ردت ساي تقول: «أرجوك أن تعذرني ولا تقل أنك مسيحي ولكن أرني الدليل على ذلك»، وذكرته باليوم الذي أطلق فيه سراح الرهائن الذي أخذوا من طائرة تي. دبليو. أي. في يونيو ١٩٨٥ وكان ذلك قبل شهرين عندما «كنت في غرفة بالفندق أشاهد التلفزيون وأترقب أن أرى وجه أخي، استلمت مكالمة هاتفية من أحد الموظفين في مكتبك يخبرني أن أخي لم يفرج عنه.. وقد كان من الخلق المسيحي أن تتصل أنت بنفسك».

رد بوش: «لعلنا قد ارتكبنا بعض الأخطاء».

ردت ساي: «نعم، وإلا لما كنت اليوم تواجه هذا الحشد الغاضب من الناس»(٢٨).

حددت إدارة ريغان بعد ذلك يوم ٢٧ أكتوبر وهو ذكرى مولد أندرسن كيوم قومي لذكرى الرهائن في الولايات المتحدة وذلك ابتداء من عيد ميلاد أندرسن الثانية والأربعين في عام ١٩٨٩. في ذلك اليوم أزاحت أسرة أندرسن بمدينته باتافيا بشمال ولاية نيويورك الستار عن تمثال تذكاري ظهر فيه أندرسن مكبلاً بالسلاسل التي لم تنزع حتى يتم الافراج عنه.

ظهرت أول صورة لأندرسن في الحجز يوم ١٥ مايو/ أيار عندما كانت منظمة الجهاد الاسلامي تدعي احتجازه هو ويكلي وويير وجينكو واثنين دبلوماسيين فرنسيين هما مارسيل فونتاين ومارسيل غاستون. كانت الصورة مرفقة بالمطالب المعهودة وكان أهمها إطلاق سراح أعضاء حزب الدعوة السبعة عشر المسجونين في الكويت مع التحذير «بنتائج مفجعة» إذا لم يفرج عنهم. منذ ذلك التاريخ وحتى الذكرى الخامسة في عام ١٩٩٠ استلمت وسائل الاعلام في بيروت عشر صور أخرى لأندرسن ويظهر أن معظمها نسخ عن نفس الصورة السلبية وكلها تهدف الى إثبات أن منظمة الجهاد الاسلامي هي المسؤولة عن الخطف.

في ٣ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٥ استلمت شبكات التلفزيون الأول شريط مصور لتيري أندرسن طلب فيه أندرسن وجايكبسون معاً من الرئيس ريغان أن يبذل قصارى جهده للافراج عنهما كما فعل في حالة نيكلوس دانيلوف مراسل مجلة يو. أس. نيوز آند فورين ريبورت الأمريكي الذي اعتقل لمدة شهر واحد في موسكو، ثم أطلق سراحه بعد صفقة غير رسمية بين الولايات المتحدة والسوفيات.

وفي شريط آخر بتاريخ ٢٤ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٧ ظهر أندرسن هزيلاً متعباً يعنف إدارة ريغان لفشلها في إطلاق سراحه وسراح الرهائن الأمريكيين الآخرين ومحذراً «أن هناك حدوداً لقدرتنا على البقاء». أفاد أحد تقارير تحليل محتويات ذلك الشريط أن هناك مؤشرات أن أندرسن كان محتجزاً في السجن القديم بحي البسطة المسلم في بيروت الغربية وبصحبة المفاوض البريطاني تيري وايت الذي اختطف في ٢٠ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٧.

إذا قدر لأندرسن الافراج عنه يوماً ما فقد نعرف المزيد عن تفاصيل حياته في الأسر، ولكن يبدو أن أوضاعه قد تحسنت في الفترة الأخيرة، فقد أطلع على صورة لابنته سلوم عرضت على التلفزيون اللبناني بمناسبة عيد ميلاده في عام ١٩٩٠ . . . كما سمح له بإرسال رسالة من ثماني صفحات لأسرته وزوجته جاء في الجزء الذي نشر منها قوله:

حبيبتي وروح قلبي مادلين. لقد رأيت صورة ابنتنا على التلفزيون قبل عدة ليالي فبكيت من الفرح. لم أرها لأكثر من ثوانٍ معدودة ولكنني رأيت فيها شعرك الأسود وعينيك الجميلتين المشرقتين ولكنني لا أستطيع وصف شعوري بانقضاء تلك الشهور التي لم أكن أعرف فيها شيئاً عن ملامحها. (٢٩).

قصة لم تنته

كثيراً ما وصفت بيغي ساي ووصف دون ميل تدفق العاطفة الجياشة أثناء انتظار الافراج عن رهينة ما. فهناك المرتفعات الشاهقة من الروعة عندما ينقل أحد الدبلوماسين أو السياسيين في الشرق الأوسط بشرى الأمل في الحرية، وهناك العمق السحيق من اليأس عندما يتحطم ذلك الأمل مرة أخرى. يروي ويير بعد الافراج عنه أنه بعد مرور ستة أشهر على اختطاف أندرسن أخبر هو (أي ويير) وجينكو وجايكبسن أنه تقرر الافراج عن واحد من الرهائن ليقوم بشرح قضية الجهاد الاسلامي للأدارة

الأمريكية وعليهم هم تحديد من هو فاتفقوا على أن أحسن اختيار هو أندرسن لمكانته وخبرته، إلا أنه لسبب ما تم الافراج عن ويير بدلاً منه.

لم تصرح إدارة ريغان بشيء لمدة خمسة أيام بعد الافراج عن ويير حيث كان نورث وغيره من العاملين في قضية الرهائن في الادارة يعتقدون أنه سوف يفرج عن آخرين. اتصل الرئيس ريغان برئيس الوزراء الاسرائيلي ليشكره على مساهمة اسرائيل في صفقة السلاح التي حررت ويير. وفي مدينة فيزبادن بألمانيا الغربية التقى ويير مع أوليفر نورث وكان الأخير يحمل جواز سفر صادراً عن الخارجية الأمريكية باسم وليام غوود ورسالة شخصية من الرئيس ريغان(٣٠). وفي اللقاء روى ويير لنورث ظروف العديد من الأحداث الهامة وتوقيتها مثل مقتل بكلي في يونيو/ حزيران ١٩٨٥.

لم يطلق سراح أحد من الرهائن بعد ويير وعادت حالة اليأس وفقدان الأمل لبيغي ساي ودون ميل وأسر الرهائن الآخرين وأصدقائهم.

كان تيري أندرسون وأربع أمريكيون آخرون والرهائن البريطانيون تيري وايت وجون ماكارثي (أطلق سراحه في يوليو/ تموز ١٩٩١) وجاك مان (أطلق سراحه في سبتمبر/ أيلول ١٩٩١) لا يزالون رهن الحجز في لبنان وحتى ربيع عام ١٩٩١ بعد أن حققت عملية عاصفة الصحراء طرد الغزاة العراقيين من الكويت. وفي الوقت الذي استحوذت فيه أزمة الكويت والخليج على الشعور والوعي الأمريكي بالكامل فإن أقارب تيري أندرسن وزملائه من الرهائن لم ولن يقدروا على نسيانهم.

الفصل الحادي عشر
التدمير بالجملة

لقاء وشيك في الخليج

كان لفيف من الصحفيين يرقب السماء المغطاة بالسحب ليلة الثاني عشر من شهر فبراير/ شباط ١٩٨٨ في مكان ما بين جزيرة سري الايرانية وساحل أبوظبي. مرت في الجو طائرة ركاب بأضوائها المتوهجة ولم يعرها أحد كثير اهتمام. كنا نقف على منصة المدمرة الامريكية تشاندلار حاملة الصواريخ الموجهة ونحاول بكل ما في وسعنا تفادي عرقلة قائدها الرائد ستيفن سميث الذي كان في تلك اللحظات يواجه قرارا ستكون له آثار بعيدة على مستقبل الحرب الايرانية العراقية التي دخلت آنذاك عامها السابع.

التقط رادار المدمرة قبل دقائق حركة مقاتلة - قاذفة عراقية من نوع ميراج أف - ١ كانت في طريق عودتها من مهمة ليلية في القطاع الجنوبي أو الأوسط من الخليج، وكانت تحلق في اتجاه جنوبي - شمالي. كانت الطائرة قد اجتازت لتوها قافلة بحرية من ناقلات النفط الكويتية التي كانت ترفع العلم الامريكي وكانت المدمرة تشاندلار ومعها الطرادة يو. أس. أس. روبن جايمز مكلفتين بحراسة تلك القافلة. كانت تلك الرحلة هي الثالثة والعشرين من نوعها للبحرية الامريكية منذ صيف عام ١٩٨٧ عندما قررت ادارة ريغان والكونغرس الامريكي تقديم ذلك النوع من الحماية للكويت. لقد كان بعض الامريكيين يعتقد أن هذا العمل سيمسح ما لطخت به امريكا من هزائم في لبنان عام ١٩٨٢ والاحراج الشديد الذي نتج عن انكشاف صفقات السلاح مقابل الرهائن وتحويل أرباح صفقات السلاح الى الكونترا في أمريكا الوسطى.

أخذت الطائرة العراقية في الاقتراب وكان على الرائد سميث أن يقرر هل يبدأ في اعمال جهاز الاطلاق السريع المضاد للطائرات أم لا؟ فقد كان سميث يذكر جيدا أن المدمرة الامريكية ستارك أصيبت في مايو/ أيار ١٩٨٧ بصاروخين من طائرة عراقية كان قائد المدمرة وملاحوه يعتقدون أنها طائرة صديقة، وأن سبعة وثلاثون ملاحا قد قتلوا في الحادث وجرح عشرات آخرين. وكان سميث يعلم أيضا أنه اذا أطلق النار الان فسيؤدي ذلك الى صدام كبير مع قوات صدام حسين العراقية التي كانت الولايات

المتحدة آنذاك تقدم اليها الدعم في صور متعددة سرية وشبه سرية .

نادى سميث رجاله عبر مكبر الصوت الى القيادة العامة، ووجه أعضاء فريقنا التلفزيوني المحنك في عمليات الخليج عدسات الات التصوير نحو السماء المظلمة واتصل سميث بالطيار العراقي يحثه على الرجوع نحو الخلف .

أخبرنا سميث فيما بعد أن الطيار العراقي « قد قبل تحذيري ولكنه لم يكن يفهم الانجليزية جيدا» واستمرت الطائرة في خط سيرها فاتخذ سميث الاجراء الوحيد المتبقي قبل اطلاق الصواريخ وهو ارسال الاشارات الضوئية التحذيرية .

ألقت القاذفة العراقية صاروخين في اتجاه المدمرة الامريكية مرّا في خط مواز لمسارها، وكان الصاروخان ـ على حد قول أحد ضباط الاستخبارات بالسفينة ـ من نوع « دودة القز الصينية الصنع المحمولة على الطائرات» . تابع برج المراقبة بالمدمرة خط مسار الصاروخين وكان الاستغراب باديا على وجوهم ثم انتابتهم موجة من الارتياح اذ اكتشفوا أن الصاروخين لم يكونا موجهين ضد المدمرة أو في اتجاه قافلة الناقلات الكويتية. وفجأة مر صاروخ آخر بالقرب من ميمنة المدمرة وعلى مسافة ثمانية أميال تقريبا .

بعد ذلك سمعنا انفجارا مدويا ثم توهجا أضاء الافق ثم انطلقت بعد ذلك القنابل المضادة للطائرات من جزيرة سري حيث توجد منشآت النفط الايراني التي طالما تعرضت للهجوم. ادعت ايران فيما بعد أن مجموعة من الطائرات العمودية القاذفة الامريكية كانت تحاول القيام بهجوم على الجزيرة وهذا أمر مستبعد. الاقرب الى المعقول هو أن الطيار العراقي استهدف فرقاطة ايرانية كانت تراقبنا .

اتصل أحد العاملين بقسم الاتصال بناقلة النفط غازكنغ يتساءل: « هل هناك ما يدعو للقلق حول تلك الشرارة الضوئية التي مرت قبل قليل؟ » فردت المدمرة تشاندلار بالنفي(١) .

نتج عن ذلك الحادث الذي يعتبر عاديا جدا بالنسبة لما جرى من أحداث أخرى خلال تورط الولايات المتحدة في العمليات البحرية في الخليج أمر واحد فقط. فكما كان الحال عندما ضربت السفينة ستارك، عكفت فرق أمريكية وعراقية على التحقيق في اسباب الحادث وكيف تم ، واستمرت حالة الهدنة بين الطرفين في الحرب العراقية

الايرانية فيما يتعلق بالهجوم على السفن لمدة شهرين كاملين حتى جاءت تلك المواجهة البحرية « الحاسمة » بين الولايات المتحدة وايران في أبريل/ نيسان ١٩٨٨ .

لقد تسببت الضربات الجوية العراقية والهجمات البحرية التي قامت بها قوارب بوغامر الايرانية السريعة قبل حادثة السفينة تشاندلار بأسابيع في اصابة ما لا يقل عن ست سفن من مختلف الجنسيات وفي عدد من الضحايا . كنت في تلك الفترة عضوا من فريق تلفزيوني أمريكي مشترك مكلف بتغطية العمليات البحرية الامريكية، وكانت المانيا (الغربية) قد انضمت الى بقية حلفائها في منظمة حلف شمال الاطلسي لدعم المجهود الامريكي البحري في الخليج. طاف وزير الدفاع الامريكي فرنك كارلوتشي ولعدة أيام في أوائل يناير/ كانون الثاني امارات الخليج ليؤكد لهم أن الولايات المتحدة تبذل جهدها لمواجهة التهديدات الايرانية، وأن الولايات المتحدة مهتمة بأمن الكويت بالذات. وفي ١٦ فبراير/ شباط أي بعدخمسة أيام من لقاء السفينة تشاندلار الذي أوشك أن يتم، قنابل دودة القز، وافق كارلوتشي والاميرال وليام كرو رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة على اعادة انتشار أربع وحدات بحرية أمريكية .

لقد أكدت أحداث الحرب مجموعة هواجس كان الاميرال كرو قد عبر لي عنها في البنتاغون في يونيو/ حزيران ١٩٨٧ وذلك قبل رفع الاعلام الامريكية على السفن الكويتية وبداية مهمة الحراسة البحرية. وهي أن الخطر الايراني له ثلاثة جوانب هي هجومات الكر والفر السريعة، وصواريخ دودة القز الممكن اطلاقها من اليابسة من ناحيتي الشمال والجنوب في الخليج، وحرب الالغام والتي لم تكن البحرية الامريكية مستعدة لها في ذلك الوقت على الاطلاق .

هذه الجوانب الثلاثة كلها كان لها دور حاسم، في الوقت الذي أخذت الولايات المتحدة تتورط في الحرب أكثر فأكثر.

عيون الأقمار الصناعية فوق الخليج

لقد كان أحسن وأفتك سلاح لدى الولايات المتحدة خلال الحرب الايرانية العراقية هو سلاح الاستخبارات عن طريق الاقمار الصناعية {sat-int}. فقد استخدمت واشنطن جواسيسها من الجو لتتعرف على نوايا كل من الطرفين ونتائج المعارك التي

كانت تدور بينهما ، وقامت غالبا بتوصيل نتف من تلك المعلومات الى العراق عن طريق شبكة نظام الاواكس السعودية .

في سبتمبر/ أيلول ١٩٨١ وبعد سنة واحدة فقط من قيام الحرب، قامت ايران بهجوم مضاد ضخم استخدمت فيه « الامواج البشرية» واسلوب حرب العصابات من أجل الدفع بالعراق الى التراجع والقضاء على كل مكاسبه الاولية تقريبا التي أحرزها خلال الحملة الكاسحة في خريف عام١٩٨٠ . بينت صور الاقمار الصناعية التجسسية التي تم تكبيرها بالكومبيوتر كيف عززت أسلحة ايران الثقيلة الحامية العسكرية المحاصرة في ميناء عبدان النفطي، وسجلت تدمير الجسر العراقي العائم على نهر قارون وفتح الطريق البري من جنوب عباداان الى بندر خميني على شاطيء الخليج الذي يستخدم في توصيل التعزيزات والتموين. كما بينت الصور أن قوات العراق قد انسحبت الى مدينة خرمشهر المدمرة. وادعت ايران أنها دمرت اللواء (١٠٠) المدرع العراقي واستولت على أربعين دبابة وقتلت الآلاف من قوات العدو. الا ان بعض معلومات الاقمار الصناعية التجسسية {sat- int} المنتقاة التي سربّت للإعلام في واشنطن، الى أنه بعد شهر كامل من القتال لم تصل الضحايا الى أكثر من خمسة آلاف من القتلى والجرحى من الجانبين(٢). وأفادت تلك التقارير أن ضحايا ايران في عام ١٩٨١ وصلت المائة ألف.

جاءت أكثر ضحايا ايران في اوائل عام١٩٨٢ خلال الهجومين « فتح» و«القدس»، حيث أفادت الاقمار الصناعية أن ضحايا العراق قد وصلت خلال تلك الفترة الى ثلاثين ألف قتيلا وضحايا ايران الى حوالي تسعين ألف قتيلا. كما تكبدت ايران خسائر بشرية عالية خلال الحملات الانتحارية التي شارك فيها الحرس الثوري والباسيج وهم الشهداء من الاحداث الذين كانوا يقفزون على الالغام والتحصينات العراقية والنستهم تتمتم بالدعاء حاملين « مفاتيح الجنة» على صدورهم تيمنا بشهادة الحسين وعليّ وغيرهما من أئمة الشيعة وقيادتها.

في يوليو/ تموز ١٩٨٢ قام الحرس الجمهوري وقوات الباسيج بهجمات أخرى شمال شرق البصرة تمكنت فيها أربع فرق من اختراق التحصينات الدفاعية الخارجية للعدو. رد العراق باستخدام الطائرات العمودية والمدفعية والمشاة، الا أن الصور التي التقطت

بتاريخ ٢٦ يوليو/ تموز بينت أنه مع انحسار القتال كان الايرانيون محتلين حوالي ٢٠٠ ميلا مربعا من الأراضي العراقية في ذلك القطاع. كما بينت التقديرات الامريكية أن عدد الضحايا الايرانيين كان رهيبا اذ وصل الى ألف قتيل في اليوم لمدة ستة أيام من المعارك، بينما قدرت خسائر العراق البشرية بحوالي ثلث ذلك العدد. اعترفت ايران فيما بعد بخسارة عشرة الآف قتيل وادعت قتل سبعة الاف عراقي وأسر ألف واربعمائة. أدت تلك الضحايا والخسائر العالية بالخميني الى أن يأمر الحرس الثوري والمشايخ بالمزيد من التعاون مع الجيش الايراني النظامي وكان على الجيش أن يلعب دورا أكبر في الهجوم (٣).

مع سنة ١٩٨٣ كان العراق بطائرات ميراج الفرنسية أف ـ ١ والميغ والسوخوي السوفياتية متفوقا في الجو، ولم يكن الايرانيون قادرين على استخدام ما تبقى من طائراتهم الامريكية الصنع الا عن طريق خط الامدادات السرية الذي أنشأته اسرائيل وتجار السلاح العالميون. كما أصبح كلا الطرفين يستخدم الاحتياطي من طائراته. ففي ١٨ يناير/ كانون الثاني مثلا أعلن العراق عن «ستٍ وستين طلعة جوية» فوق أهداف عسكرية ومدنية ايرانية مما تسبب في تدمير الكثير من صواريخ هوك الامريكية ومدفعية ايران المضادة للطائرات، واعترف العراق بمقاومة عنيفة من الايرانيين. وأفادت معلومات الاقمار الصناعية التجسسية أن العراق فقد في تلك المعركة ثمانين طائرة (٤).
وبرغم محاولات الكر الايرانية المتقطعة التي استخدمت فيها طائرات الفانتوم أف ـ ٤ ضد القواعد الجوية العراقية، فقد بدأ العراق في هجومه المركز لتدمير أكبر ميناء نفطي ايراني على الخليج في جزيرة خرج. لم يكن اداء الطيارين العراقيين على درجة عالية من الابداع فتمكنوا من شل ميناء خرج دون تدميره بالكامل.

في بداية عام ١٩٨٤ كشفت اقمار التجسس الصناعية {sat- int} تفاصيل كثيرة حول انتشار القوات الايرانية الضخم الذي شاركت فيه حوالي ثلاثين فرقة عسكرية وثلاثمائة ألف مقاتل من الرجال والشباب من كردستان في الشمال الى شط العرب في الجنوب (٥)، وقامت امريكا بتحويل جزء على الاقل من تلك المعلومات الى العراق.

بعد سلسلة من التحركات المخادعة انطلق الهجوم الايراني الرئيس وبينت الصور التي التقطت من الجو أن الهدف الاساسي من الهجوم هو محاصرة البصرة وقطع الطرق الموصلة بينها وبين بغداد. تقدمت القوات الايرانية في اسطول مصغر عبر مستنقعات

الاحواز واستولت على عدد من القرى في المنطقة الجنوبية الغربية التي كان العراقيون تركوها بلا دفاع لتوقعها لهجوم مباشر من جهة أخرى. بعد معارك ضارية تفوق العراق في البر والجو وسمح لرجال الصحافة والتلفزيون بالذهاب الى الجبهة وتصوير الجثث وأخذ التلفزيون العراقي يبثها الى جميع أنحاء العالم وبدون مقابل لشبكات التلفزيون الغربية.

لجأ صدام حسين بعد ذلك لأجل صد الهجوم الايراني الى استخدام الأسلحة الكيماوية وهي غاز الخردل وغاز الأعصاب الذي اخترعه الألمان النازيون في الثلاثينات، ولكنه لم يستخدم في الحرب العالمية الالثانية. لقد حقق العراق عنصر المفاجئة التكتيكية من اول مرة استخدم فيها الغاز السام، ولكن كان لذلك ثمنه حيث رمت الرياح بذلك الغاز في اتجاه الجنود العراقيين. دفع ذلك بأيران الى اقتناء كميات كبيرة من الأقنعة الواقية وقناني الأتروبين وهو عقار مضاد للغازات السامة. كما وزعت على الايرانيين أجهزة تنفس من صنع نفس البلد الذي يصنع فيه الغاز السام وتقوم شركاته بتزويد العراق به ليتمكن من انتاجه بنفسه وهي ألمانيا (الغربية).

في مارس/ أذار ١٩٨٤ بدأت الهجومات الايرانية من جديد، وهذه المرة على الجزر المالحة جنوب غرب المستنقعات، فقام العراق بحفر قنوات وممرات مياه لاغراق ميدان المعركة وحاول المهندسون الايرانيون استخدام الجسور المتنقلة. دفع العراق بفرقتين في تلك المعركة وبعد استخدام الغاز السام أسفرت المعركة عن هزيمة كبيرة لايران. كانت تقديرات أقمار التجسس الصناعية لضحايا ايران أربعة عشر الف قتيل ولم تحدد ضحايا العراق التي كانت بالتأكيد أقل من ذلك[٦].

المعركة من أجل الجزر المجنونة

توجد في وسط المستنقعات وعلى مسافة ميلين تقريبا داخل الأراضي العراقية منطقة مساحتها أربعة في ستة أميال تعرف باسم مجنون. الا أن رغبة ايران في الاستيلاء على تلك المنطقة وتصميم العراق على الحفاظ عليها هي أبعد ما تكون عن الجنون. لقد تابع رجال شركات النفط العالمية وخاصة الأمريكان منهم الذين لا زالوا يعملون هناك تحت السيطرة العراقية المعركة من أجل مجنون بنفس القدر من الاهتمام والتركيز الذي تابعوا به حرب ناقلات النفط في الخليج. لقد قدر فريق شركة بيتروبراس البرازيلية للتنقيب عن

النفط خلال السبعينات ـ عندما كان العراق يقايض نفطه بالسلاح البرازيلي ـ احتياطي النفط في تلك المنطقة بسبعة مليار برميل أي ما يقارب ربع احتياطي العراق المعروف في ذلك الوقت. قامت شركة النفط الوطنية العراقية التي تستخدم المتعاقدين الأجانب بحفر اثنين وخمسين بئراً للنفط في تلك المنطقة، كلها أغلق مع بداية الحرب في سبتمبر/ أيلول ١٩٨٠.

في بداية ١٩٨٤ كما أشرنا سابقا تحركت القوات الايرانية نحو مجنون واحتلت بعض المساحات العمرانية الصغيرة التي خلفتها شركات التنقيب عن النفط. كانت القوات العراقية في بداية الأمر مشغولة بالدفاع عن مداخل مدينة البصرة ولم تتمكن من استمرار احكام السيطرة على مجنون ولم تقم بهجوم المضاد قوي حتى ٦ مارس/ أذار. احتفظ الايرانيون بثلاثة أرباع مواقعهم في مجنون بما في ذلك بعض المنشآت النفطية حتى عام ١٩٨٨ عندما استردها العراق خلال المراحل الأخيرة من هجومه المضاد على القوات الايرانية. كان ذلك ـ على حد قول صدام حسين وقادته العسكريين ـ هو الذي رجّح كفة« النصر» لصالح العراق.

مع ربيع عام ١٩٨٤ كانت طائرات الأواكس الأمريكية قد جمعت كميات كبيرة من المعلومات الاستخباراتية من ميادين القتال من مكان قريب آمن (غالبا في الأجواء السعودية أو الكويتية) لتعزيز ما التقطته أقمار التجسس الصناعية. بينت تلك المعلومات للبنتاغون أنه خلال المعارك الثلاث في المستنقعات التي دارت في فبراير/ شباط ومارس/ أذار ١٩٨٤ ـ والتي شارك فيها حوالي نصف مليون جندي ـ قد قتل سبعة وعشرون ألفا من الجنود على الاقل، منهم عشرون ألفا من الايرانيين وسبعة آلاف عراقي، وأن الأغلبية قد قتلوا بسبب الأسلحة الكيماوية.

حالة استعداد قصوى في أجواء السعودية

بلغت أجهزة المراقبة الأمريكية قمة آدائها خلال الحرب البحرية في الخليج. فقد ازدادت حدة التوتر مع بداية الحملة الجوية العراقية ضد موانىء النفط والسفن الايرانية أو التي كانت تقوم بتزويد ايران. فبعد هجوم واحد على جزيرة خرج في ٢٧ فبراير/ شباط ١٩٨٤ أصدرت القيادة العليا العراقية انذاراً رسميا بالاعلان عن منطقة محرمة وفرض الحصار في منطقة خرج. تكبدت سفن يونانية وتركية وهندية عدة خسائر

وأصيبت بأضرار خلال الايام التي تلت ذلك الانذار. ففي ٢٨ مارس / أذار أصابت طائرة فرنسية من نوع سوبر ـ أتاندرد المعارة للعراق باخرة يونانية بصاروخ اكسوسيت على بعد أربعين ميلا جنوب جزيرة خرج، وأعلنت بيانات العراق العسكرية للمرة الأولى عن استخدام صواريخ اكسوسيت في المعارك.

أعلنت حالة الطوارىء القصوى في السعودية ولدى حماتها من الأمريكان ابتداء من مايو/ أيار ١٩٨٤. كما حاولت ايران اختبار تصميم كل من السعودية وأمريكا ومدى التنسيق فيما بينهما بضرب البواخر التي كانت تستخدم الموانىء التجارية والنفطية في السعودية والكويت، فاستهدفت الطائرة وقوارب الصواريخ الايرانية ناقلة نفط سعودية ضخمة داخل المياه الأقليمية السعودية بالقرب من ميناء جبيل العسكري. رفضت السعودية المساندة الجوية والبحرية العسكرية الأمريكية المباشرة ولكنها قبلت بمضاعفة المراقبة وعمليات التجسس الجوي على التحركات الايرانية باستخدام طائرات الآواكس التي كانت موجودة في الظهران والتي أصبحت خلال عمليتي درع وعاصفة الصحراء لعام ١٩٩٠ـ ١٩٩١ مركزاً لعمل أكثر كثافة واتساع ضد العراق.

جاءت الخطة بنتائج جيدة وبدأت الطائرات السعودية تدعمها طائرات الأواكس في حراسة ومراقبة الخط الساحلي السعودي كله. وفي ٥ يونيو/ حزيران ـ ذلك اليوم المشهود في العالم العربي كله كبداية الحرب الاسرائيلية العربية عام ١٩٦٧ـ وبناء على معلومات مسبقة أستلمت عن طريق الأواكس، كانت طائراتان سعوديتان أف ـ١٥ قابعتين في انتظار طائراتي فانتوم ايرانيتين ـ طلعتا على الأغلب لقصف سفن أو منشآت نفطية ـ تقتربان من الشواطىء السعودية. أطلق السعوديون صواريخ سباور جو ـ جو واعترافوا رسميا باسقاط واحدة بينما أفادت معلومات الأواكس أن الطائرتين قد تحطمتا في تلك الضربة.

كان لهذا النصر السعودي الذي تحقق بمساعدة أمريكا ـ التي لم يرد لدورها ذكر ـ أثر كبير على الرأي العام العربي حيث دللت السعودية أخيرا على استعدادها لاهراق الدم الايراني اذا لزم الأمر. اما على الصعيد الداخلي فاستمر التمويه بأن تلك حادثة عابرة جاءت للدفاع عن النفس ولا علاقة لها بدعم المجهود الحربي العراقي ولم يعلن عن اسمي الطيارين السعوديين.

لقد ظلت السعودية على مدى عدة سنوات « تسعى من أجل التصالح وليس المواجهة مع آية الله الخميني» على حد تعبير دبلوماسي أمريكي كبير، كما حاولت ترضية صدام حسين قبل غزوه للكويت عام ١٩٩٠ . وظل المسؤولون في السعودية يتفادون الاشارة الى الدعم العسكري أو الاستخباراتي الامريكي ويصرون باستمرار على أن خلافهم الوحيد مع ايران هو خلاف سياسي يتعلق - على سبيل المثال - بموضوع الاطاحة بصدام حسين بالوسائل العسكرية.

وهكذا ظلت العلاقات السعودية الايرانية سليمة. الا أن السعودية كانت تتوقع المشاكل من الحجاج الايرانيين خلال موسم الحج لعام ١٩٨٤ واستعانت في الاستعداد لمواجهتها بالاستخبارات الأمريكية والغربية الأخرى. فقد شهدت المدينة مصادمات من ١٤ الى ١٦ سبتمبر بين الحجاج العراقيين والايرانيين أسفرت عن مقتل شخص واحد، بينما ادعت منظمة الجهاد الاسلامي مسؤوليتها عن قتل مواطن سعودي وجرح آخر في ماربيا بأسبانيا، ملهى ومقر العديد من الاثرياء العرب. لقد كان من الصعب على الاستخبارات الامريكية التنبؤ بمثل هذه الاعتداءات أو رصدها(٨).

أسفرت الاتصالات السرية بين أيران والسعودية في عام ١٩٨٥ عن أول زيارة لوزير الخارجية السعودية الأمير سعود الفيصل لطهران منذ قيام الثورة الايرانية. كانت تلك الزيارة تعبيرا عن قبول ضمني من السعودية بثورة ايران أو على الاقل بحاجة العرب الى التفاهم معها.

أفادت تقارير المراقبين الامريكيين في الرياض أن الخطر الايراني قد أثر في الواقع على علاقات السعودية مع جيرانها جميعا. فقد أصبحت السعودية هي الممول الرئيسي للمجهود الحربي العراقي، فصبت مليارات الدولارات في خزينة العراق الحربية التي لا نهاية لعمقها مما مكن صدام حسين من الاستمرار في الحرب وتوفير الحاجيات المادية للمواطنين في الداخل بما في ذلك - لفترة ما - منح سيارات جديدة لأسر ضحايا الحرب.

كان تفريغ الاسلحة - ومعظمها من الاتحاد السوفياتي - يتم في ميناء الكاظمة السعودية القليل الاستعمال. ومن هناك بالبر عبر الصحراء الى العراق. (كانت تتبع نفس الطريقة من ميناء العقبة الأردني في البحر الأحمر نظرا لموقف الملك حسين القوي

لدعم العراق) . كما كانت أموال النفط السعودية تحول على العراق خاصة بعد أن دمرت المدفعية الايرانية منشآت العراق المحدودة لتصدير النفط عن طريق الخليج. كما أقيم خط تقوية لأنبوب النفط المار عبر السعودية من الجبيل الى ينبع على البحر الأحمر، ثم ضوعفت قدرة الانبوب كي ينقل النفط العراقي الى اسواق آمنة من الهجمات الايرانية. استفزت تلك السياسة خصوم العراق السياسيين والتجاريين، ولكن السعودية قامت في أغسطس/ أب ١٩٩٠ وبدفع من الولايات المتحدة بقفل ذلك الانبوب كجزء من المقاطعة والحصار الإقتصادي الدولي ضد العراق نتيجة غزوه الكويت. وكانت تلك نهاية شهر العسل بين صدام حسين وبيت آل سعود.

في عام ١٩٨١ شكلت السعودية والكويت وعمان والبحرين وقطر ودولة الامارات العربية المتحدة نتيجة للحرب الايرانية العراقية مجلس التعاون لدول الخليج. جاءت فكرة هذا المجلس الاستشاري أساسا من الكويت وتولى الأمانة العامة فيه عبدالله بشاره - وهو شخصية قومية كويتية معروف بصراحته - ولم يعرض على العراق الانضمام للمجلس. ولكن بحكم انهماكه في الحرب ضد الخميني واعتماده الكامل تقريبا على أموال دول الخليج ودعمها، ما كان أمام العراق الا ان يرضى بتكوين تلك الكتلة التي كان سيسعى - في ظروف مختلفة - الى تدميرها. وبعد غزو الكويت ونهب امواله في عام ١٩٩٠ لم يعبر صدام حسين الا عن الاحتقار لمجلس التعاون الخليجي.

أعطى حكام دول الخليج - وبتحريض من السعودية - الاولوية في مجلس التعاون الذي اختيرت الرياض مقرا رئيسيا له - للشؤون الامنية، ثم تلى ذلك الاندماج الاقتصادي. فقامت دول المجلس باجراء تدريبات عسكرية مشتركة، وبعد مشاحنات كثيرة كونت قوة للتدخل السريع قوامها لواء يتكون من عناصر من كل دولة، مركزه القاعدة السعودية التي بناها الامريكان في حفر الباطن بالقرب من العراق والكويت. توفرت لتلك القوة بحكم العلاقة السعودية امكانية الاستفادة من المعلومات التي تجمعها أجهزة الأواكس وأقمار التجسس الصناعية(٩). ومع بداية عملية عاصفة الصحراء في عام ١٩٩٠ لم تعد لقوة مجلس التعاون الخليجي المشتركة قيمة تذكر واستمرت كتعبير رمزي عن حلم سياسي ليس الا، ثم اختفت بالكامل في حملة التحالف ضد العراق في عام ١٩٩١.

توتر في مضيق هرمز

برغم نمو التعاون في المنطقة الا أن تحرك أمريكا الانفرادي هو الذي غيّر اتجاه الاحداث في الحرب الايرانية العراقية، ولم يأت ذلك الا بعد أن بدأت ايران تشكل تحديا حقيقيا لحق العرب والدول الغربية في تحريك السفن والنفط والرجال من والى الخليج.

في اجتماع لمجلس الدفاع الاعلى في طهران بتاريخ ١٤ فبراير/ شباط ١٩٨٤ قرر القادة الايرانيون احتلال وتعزيز جزيرة الغنم الواقعة في مضيق هرمز. كانت عمان تعتبر تلك الجزيرة جزءا من مياهها الاقليمية، كما أكدت الولايات المتحدة من خلال ما عرف بمبدأ كارتر على استعدادها للتدخل العسكري اذا لزم الامر من أجل ضمان حرية الملاحة عبر المضيق. كما أعلن ممثل ايران في الأمم المتحدة في ١٥ مايو/ أيار «اننا لن نسمح لأحد باستخدام الخليج ضدنا فاما أن يستمر الخليج حرا ومفتوحا لنا جميعا والا فلن نسمح لأحد باستعماله»(١٠).

لقد كان خطر العدوان في المضيق سبب تخوف كبير لدى المقربين في واشنطن منذ قيام الحرب عام ١٩٨٠. وفي عام ١٩٨٢ وبعد مفاوضات سرية طويلة وشاقة وقعت الولايات المتحدة «اتفاقية عبور» مع عمان التي كانت تملك ستة قوارب حراسة حديثه وجيشا قوامه حوالي ستة آلاف جندي أغلبيتهم غير عرب. قال قائد ذلك الجيش وهو جنرال بريطاني للمؤلف ادغار أوبالانس أن عمان قد لا تستطيع أن تتصدى لهجوم ايراني حقيقي لاكثر من ثمانٍ واربعين ساعة(١١). وبالرغم من أن الاستخبارات الأمريكية قد أكدت أن التوجهات الايرانية قد تكون مدمرة بالنسبة لعمان الا ان الغزو المتوقع لم يتم.

لقد وصلت بعض عمليات القصف قريبا من عمان. ففي ٢٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨٦ أرسل قائد القوات الجوية العراقية الجنرال حامد شعبان طائراته سوبر ـ اتاندرد الفرنسية في عدد من المهمات في الخليج قصفت في احداها ميناء النفط الايراني بجزيرة لاراك الواقعة على الضفة الاخرى من جزيرة الغنم مقابل شبه جزيرة مصندم التابعة لعمان، والمحاطة باراضي الامارات العربية المتحدة. اثارت تلك المهمة الجوية التي استغرقت مسافة طولها ١٦٥٠ ميلا الحديث من جديد حول امكانيات العراق للتزود بالوقود في الجو، فقد اتهمت ايران السعودية بالسماح للطائرات العراقية بالتزود

بالوقود في اراضيها. ذكرت مجلة أفياشين وييك بناء على مصادر في البنتاغون أن محاولة عراقية للتزويد بالوقود في الجو باستخدام طائرات ركاب كحاملات للوقود قد فشلت وأن الطائرات قد اضطرت في طريق عودتها الى الهبوط في السعودية(١٢).

الحرب من أجل الممرات البحرية

كانت ايران تفتخر بأنها قد خاضت المعارك البرية حول البصرة وغيرها من مواقع الجبهة عام١٩٨٦ بقوة هائلة قوامها ستمائة وخمسين ألفا من الجنود النظاميين والاحتياطي والمجندين والحرس الثوري والباسيج، وانه كان لديها من الحرس الثوري والباسيج أربعمائة ألف آخرين احتياط. وبرغم ضخامة هذه الأرقام فقد كشفت تقارير الاستخبارات عن صحتها بصفة عام(١٣).

قبل نهاية عام١٩٨٦ بقليل نبهت الولايات المتحدة العراق، الى أدلة من أقمار التجسس الصناعية، أن ايران تعد لهجوم محقق على أم رصاص الواقعة على جزيرة رملية جنوب البصرة. أكدت ايران فيما بعد أن قوات خاصة قوامها ستمائة من الضفادع البشرية والفدائيين البحريين باغتت العراقيين الذين ـ برغم تحذيرات الولايات المتحدة ـ أجبروا على التراجع. الا أن العراقيين تمكنوا بعد ذلك من محاصرة المعتدين في منطقة نخلية محاطة بالاسلاك الشائكة والألغام. وصرح القائد العسكري العراقي الجنرال ماهر رشيد أن قوات العدو أبيدت بالكامل بعد تسع وثلاثين ساعة من القتال. بلغت خسائر العراق مائة وخمسين قتيلا وخسائر ايران ٣٢٣٤٤ قتيلا. كما عرض على الصحفيين أسرى من الايرانيين ومعدات مصنوعة في الغرب وأخرى من صنع سوفياتي وصيني وملابس للنجدة «مصنوعة في الولايات المتحدة الأمريكية» وملابس للضفادع البشرية «صنعت في بريطانيا»(١٤).

كما ساعدت تقارير أقمار التجسس الصناعية في تحديد مواقع وسائل الدفاع المائية التي استعملها الطرفان باستخدام المستنقعات والقنوات والخنادق والبحيرات على طول الجبهة الجنوبية. ظل شط العرب ـ وهو سبب الخلاف التاريخي بين ايران والعراق ـ هو العقبة الاساسية أمام الزحف الايراني، وقد حاولت قوات ايران في أوائل عام ١٩٨٧ التقدم نحو البصرة بمحاذاة الضفة الشرقية لشط العرب بدلا من عبور الضفة الغربية ولكنها لم تتمكن من الوصول الى أبعد من منطقة شلامشا على بعد أثني عشر ميلا شرقي البصرة.

رسم لي مهندس مصري تابع للقوات العراقية في حفلة للدبلوماسيين خلال زيارتي لبغداد في أبريل ١٩٨٧ صورة تخطيطية عامة لوضع المياه في تلك المنطقة، يبدو منها ان العراق قد أخذ منذ عام ١٩٨٢ في تحويل مجاري المياه في عدد من القنوات وتغطية بعض المناطق الشرقية من شط العرب بالمياه فنشأ بذلك ما عرف باسم بحيرة السمك التي تفصل بين فرقتين من الجيش العراقي. حفر على امتداد طول البحيرة قناة عرضها نصف ميل يستحيل عبورها من قبل قوات الهجوم الايرانية. أكدت معلومات أقمار التجسس الصناعية التي قدمت للاعلام فيما بعد (وبعد حصول العراقيين عليها بمدة طويلة) ما وصفه لي ذلك المهندس المصري. فقد كانت بحيرة السمك تتمتع بتحصينات جيدة على الساحل وتحت الماء بما في ذلك أسلاك شائكة وألغام وأقطاب كهرباء وأجهزة تدقيق، اضافة الى وجود ممر في وسط البحيرة متصل بممرات أخرى في منطقة الدفاع العراقية في المستنقعات.

معركة بحيرة السمك

في ٩ يناير/ كانون ثاني ١٩٨٧ حشدت ايران مائتي ألف من الحرس الجمهوري وخمسين ألفا من الجنود النظاميين للانتشار من شبه جزيرة الفاو في الشمال الى شلامشا. كان يواجههم من القوات العراقية أربع فرق ومجموعة من الوحدات الصغيرة تابعة لقوات الحرس الجمهوري الخاصة بصدام حسين. والحرس الجمهوري هي القوات التي يقال (وهذا على الاغلب غير صحيح) أنها حالت دون احتلال ايران للفاو.

قامت ايران بأوامر مباشرة من رفسنجاني بعملية كربلاء ـ٥ التي دفعت فيها بأغلب قواتها لتعبر بحيرة السمك وتتوغل في خمسة أقواس دفاعية عراقية متتالية. دخل آلاف الايرانيين مياه البحيرة منهم من يسبح ومنهم من يمشي - والقتلى يتساقطون - بينما كانت عربات العراق البرمائية المدرعة مستغرقة في القيام بهجمات مضادة. عندما زار صدام حسين بقبعته وبدلته العسكرية المعتادة منطقة المعارك في ١٢ يناير/ كانون الثاني، أكدت تقارير أقمار التجسس الصناعية أن القوات الايرانية قد تمكنت من اختراق القوسين العراقيين الأول و الثاني ثم توقفت قبل الوصول الى القوس الثالث، بينما تمكنت قوة الحرس الجمهوري من احتلال مجموعة جزر في النهر وأخذت المدافع الايرانية تقصف مشارف مدينة البصرة الشرقية.

هناك بدأت المعارك البرية الحاسمة، وفي ١٧ يناير/ كانون الثاني جمع صدام حسين كبار قادته العسكريين الى مقر القيادة في بغداد لمناقشة خطة النصر. وفي اليوم التالي وصل رفسنجاني من طهران الى الخطوط الأمامية للاطلاع على أوضاع المعركة بنفسه. وفي ٢٢ فبراير/ شباط بينما كان الصحفيون ينتظرون في بغداد للحصول على التصريح لهم بزيارة الجبهة قامت ايران بتنفيذ الهجوم النهائي باستخدام الأفواج البشرية لتقتحم القوس الدفاعي الرابع وتحتل بضعة أميال مربعة اضافية من المستنقعات.

صدرت البيانات العسكرية الايرانية في ٢٦ فبراير/ شباط تشيد بانتصارات عملية كربلاء ـ ٥ بينما قدرت تقارير أقمار التجسس الصناعية الامريكية خسائر ايران منذ ٩ يناير/ كانون الثاني بعشرة آلاف قتيل وعشرين ألف جريح (١٥).

ما تم في الواقع هو التالي: تقدمت القوات الايرانية مسافة ستة أميال خلال سبعة اسابيع في قطاع من الجبهة ووصلت الى مقربة ستة أميال من مشارف البصرة واحتلت ما يقرب من اربعين ميلا مربعا من الاراضي المغطاة بالمياه ومن حقول النخيل. لقد كانت جذوع النخل البارزة فوق سطح الماء تذكر المرء بما كان التلفزيون العراقي يعرضه من صور جثث الضحايا الايرانيين المحروقة كل ليلة ويوزعه على شبكات التلفزيون العالمية. زعمت ايران في مؤتمر صحفي عقد في الأحواز يوم ٢٥ يناير/ كانون الثاني أنها قد أخذت في تلك العملية ١٧٥٠ أسيراً ١٥٠ منهم من الضباط، وأكد طيار عراقي أسير وجود فنيين فرنسيين وهنود يعملون في قاعدة القوات الجوية العراقية في الناصرية (١٦).

أخيرا سمح للصحفيين في أبريل/ نيسان بالذهاب الى البصرة، وقضيت أول ليلة لي هناك في فندق قديم على ضفة شط العرب خلف أكياس الرمل وصوت نيران المدافع مستمر. لقد انتهت معركة البصرة الحقيقية وكان النصر فيها لصالح العراق. . واذا كان بالامكان إيعاز ذلك النصر لشيء واحد فقط، فهو الأسلحة الكمياوية التي تحصل عليها من شركات ومصانع الغرب.

خلفية الخطر الكيماوي

منذ أوائل فبراير/ شباط ١٩٨٤ بدأت «حرب المدن» بين العراق وايران التي استخدمت فيها الصواريخ ذات الرؤوس التقليدية ونشرت الرعب في جميع مدن

البلدين، وكان هناك تخوف نفسي شديد أن يلجأ أي من الطرفين الى استخدام الرؤوس المحملة بالاسلحة الكيماوية السامة.

بدأ تكدس الاسلحة الكيماوية سنوات عديدة قبل حرب المدن وذلك في بلاد مثل مصر وسوريا وليبيا وعلى الاغلب اسرائيل. فقد تجولت مع مجموعة من الصحفيين في يناير/ كانون الثاني ١٩٦٧ في اليمن الشمالي أثناء الحرب الاهلية هناك وزرنا قرية قطاف التي كانت تحت سيطرة الملكيين من اتباع الإمام احمد. كان عدوّهم في تلك الحرب نظام الحكم «الجمهوري» القائم في صنعاء والذي تدعمه مصر، ونظراً الى ان مجموعة من الطائرات المصرية قد ضايقت قافلة انقاذ تابعة للهيئة الدولية للصليب الأحمر فقد تجاهل بعض الأطباء التابعين لها قاعدة السرية وابدوا استعدادهم للتحدث الينا نكاية في المصريين. اخبرونا بكل ما كانوا يعرفونه عن الإعتداءات المصرية التي استخدمت فيها الغازات ودلونا على مقبرة بالقرب من قطاف. وقال الخبراء ان سبب موت بعض المدفونين هناك هو غاز الحرب العالمية الأولى الفوسوجين وغاز الخردل، والذي يحتمل ان مصر حصلت على كميات منهما عن طريق بريطانيا التي يمكن ان تكون تركتها عند اخلائها لمنطقة قناة السويس في أوائل الخمسينات.

لم تكن الكلمات والصور والافلام لتقنع الشاهد الامريكي بأن المصريين هم الذين قاموا بذلك العمل. . فلم يكن من المناسب أن تواجه حكومة الولايات المتحدة الحقائق في ذلك الوقت الذي كانت فيه على علاقة غرامية طويلة مع الرئيس المصري جمال عبد الناصر. وفي الوقت الذي لم يكن الرئيس عبد الناصر يعلم الكثير عن ممارسات جيشه، فان قائده الأعلى للقوات المسلحة المشير عبد الحكيم عامر- الذي مات منتحرا بعد حرب يونيو/ حزيران ١٩٦٧- كان على علم أكيد بما تم.

حاول حكام دول الشرق الاوسط بعد ذلك بكل اصرار اعادة العفريت الكيماوي الى قارورته، الا أن الاشكال هو ان العفريت قد خرج منذ فترة طويلة ومن أكثر من قارورة واحدة.

كل المرات التي ثبت فيها استخدام الغاز، كانت ضد احدى دول العالم الثالث التي لا تملك وسائل الحماية، كما كان الحال عندما استعمله العراق للمرة الأولى ضد ايران في الفترة ١٩٨١ -١٩٨٢، وعندما استخدمته اسبانيا ضد حركة عبد الكريم في

المغرب عام ١٩٢٥ ، ثم الاتحاد السوفياتي في الصين عام ١٩٣٤ وايطاليا في اثيوبيا في الفترة ١٩٣٥ـ١٩٣٦ واليابان في الصين مابين ١٩٣٧و١٩٤٥ . كما ثبت في كل مرة أن الغاز سلاح رعب فعّال يؤدي إلى القتل أو اجلاء السكان المدنيين. اما الحكومات الغربية فبرغم معرفتها بالآلام والمآسي التي سبّبها استعمال الغاز في الحرب العالمية الأولى فقد اختارت أن تتغاضى عن الموضوع بالكامل.

لقد استخدمت اسرائيل غازات غير سامة بشكل واسع للاضرار بالمتظاهرين وتحطيم معنوياتهم خلال حركة الانتفاضة الفلسطينية التي بدأت في الضفة الغربية وقطاع غزة عام ١٩٨٨ ولا تزال مستمرة ، كما استعملت ذلك أمريكا في فيتنام من قبل. لقد كان الغاز في العديد من تلك الحالات ـ وخاصة عندما استعمله العراق في الحرب ضد ايران ـ فعالا في قتل وهزيمة أعداد كبيرة جدا من قوات العدو.

وهكذا انطلق العفريت بلا قيود. فقد دفع استخدام مصر للأسلحة الكيماوية في اليمن باسرائيل الى أن تقتني الاقنعة الواقية ليلبسها أطفال المدارس اليهود خلال حرب عام ١٩٦٧ ، ودفع الحديث عن امكانيات اسرائيل النووية بسوريا الى انشاء مصانع للحرب الكيماوية في منتصف الثمانينات. ولعل ذلك يفسر اجتماع تلك الشلة من الاصدقاء وهم الميليشيات المارونية المسيحية ومجموعات الفلسطينيين التابعين لمنظمة التحرير الفلسطينية والرئيس العراقي صدام حسين على معاداة سوريا وحلفائها المسلمين في لبنان. فقد روى الصحفي تشارلز غلاس أنه سمع من حرّاسه اثناء حجزه كرهينة في بيروت في عام ١٩٨٧ شكوكا حول الحريق الذي دمر «مصنعا لمواد الطلاء» في بيروت الشرقية بينما ذكرت الصحف المحلية أن المسيحيين اللبنانيين تلقوا أموالا من العراق لانشاء مصنع صغير للأسلحة الكيماوية في بيروت الشرقية (١٧).

لقد أعطى الغزو الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ دفعة جديدة لخطط الحرب الطويلة المدى في جميع أنحاء الشرق الأوسط. فمع حلول عام ١٩٩٠ كانت المملكة العربية السعودية ومصر والعراق وليبيا قد تحصلت على صواريخ متوسطة أو طويلة المدى بشرائها من الصين أو قامت بتصنيعها بمساعدة تقنية من أوروبا الغربية. وفي عام ١٩٩١ أصبحت تلك الصواريخ قادرة على حمل الغاز السام الى مدن حيفا وتل أبيب وطهران ودمشق والى أهداف أخرى نائية في المنطقة (١٨).

محاولات لجذب انتباه العالم

أنشيء أول وأكبر مصنع للاسلحة الكيماوية في العالم الثالث جنوب مدينة سامراء في العراق وسعى في ذلك للحصول على تعاون الشركات الغربية. من أوائل الشركات التي تم الاتصال بها ـ التي لم تتجاوب وأسرعت الى اخبار الحكومة الأمريكية ـ شركة أمريكية بمدينة روشيستر بولاية نيويورك. ويؤكد اللاجئون الاكراد ان خبراء متخصصين من الاتحاد السوفياتي والمانيا (الغربية) ومن دول أوروبية أخرى ذهبوا لمساعدة العراق لتطوير امكانياته الكيماوية، واقيمت معامل المواد المبيدة للحشرات والاسلحة الكيماوية في عدة مواقع محصنة في انحاء مختلفة من البلاد.

قال أحد كبار ضباط الاستخبارات الامريكية للصحفيّين جون بولوك وهارفي موريس من صحيفة الانديبيندينت اللندنية أن..

المصنع القائم جنوب سامراء قد أحيط منذ البداية بتحصينات دفاعية جوية وامكانيات أمنية على الارض عالية جدا.. ولم يعرف أن أحداً قد رأى أي انتاج لمواد مبيدة للحشرات لانه لم يكن يوجد شيء منها. فقد صمم المصنع منذ اللحظة الأولى لانتاج غاز الخردل ونوعين آخرين من الغاز هما سارن وتابون وأن السبب الوحيد لتسميته بمصنع المبيدات هو التخفيف على ضمائر الذين شاركوا في بنائه. ولكن لم يخدع أحداً لأن الجميع كان على علم بحقيقة ما يجري[١٩].

استمرت الشركات العربية والالمانية في بناء مصانعها فيما أكدت أقمار التجسس الصناعية للعديد من أجهزة الاستخبارات تفاصيل ما كان يجري ولكن أحداً لم يحرك ساكنا ولم تكن لأحد الرغبة في التعرف على التفاصيل.

كانت التقارير عن استعمال العراق للغاز السام نادرة قبل عام ١٩٨٣ وحتى٣١ أكتوبر/ تشرين الأول عندما ادعت ايران أن العراق استخدم غاز نيتروجين الخردل في معارك كردستان (٢٠). وفي ٨ نوفمبر/ تشرين الثاني رفعت ايران شكوى رسمية لمجلس الامن وطالبت أن تقوم لجنة خبراء تابعة للامم المتحدة بالتحقيق في الامر. كما عرض الايرانيون في مؤتمر طبي دولي حضره خمسمائة عضو عقد خلال الاسبوع الاخير من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني أدلة على استعمال المواد الكيماوية وعدد من المتضررين. وبما أن

صدام حسين قد توعد باستخدام «سلاح سري» أذا ما تم غزو للعراق فقد استنتج أعضاء ذلك المؤتمر أن السلاح هو نيتروجين الخردل وهو مادة مكررة من الخام الذي استخدم في الحرب العالمية ال الأولى ثم في اليمن في عام ١٩٦٧ . أدين العراق لمخالفته لاتفاقية جنيف الدولية لعام ١٩٢٥ التي وقع عليها العراق وايران .

في ٢٢ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٣ أقرت منظمة المبيعات الدفاعية البريطانية انها زودت ايران في عام ١٩٨١ بعشرة آلاف قناع واقي للاستعمال ضد الاسلحة الكيماوية . وفي عام ١٩٨٤ اشتكت ايران مرة أخرى لمجلس الامن بأن العراق «قد استخدم القنابل الكيماوية ٤٩ مرة مابين مايو/ أيار ١٩٨١ ومارس/ أذار ١٩٨٤ . . . مما تسبب في مقتل ١٢٠٠ والحاق أضرار بخمسة آلاف». لم تعر الولايات المتحدة تلك الادعاءات أي اهتمام مما أثار حنق ايران وأضافت بندا آخر الى قائمة الشكاوي الطويلة التي سجلتها ايران ضد ادارة ريغان (ومن بعدها ادارة بوش)، بينما تمت معالجة المتضررين الايرانيين في موجة من التغطية الاعلامية الواسعة في مستشفيات كل من بريطانيا وفرنسا والنمسا والسويد. كما ذهب فريق تابع للأمم المتحدة الى ايران في ٢٨ مارس/ أذار ١٩٨٤ وأكد أن العراق قد استخدم فعلا غاز الخردل، وفي ٣٠ مارس/ أذار طالبت الجمعية العمومية للأمم المتحدة كلا من ايران والعراق بالكف عن استعمال الاسلحة الكيماوية دون أن توجه التهمة الى العراق بالتحديد.

صدر تقرير الحكومة الامريكية في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٣ يقول أن الشركات الالمانية زودت العراق بوسائل لتصنيع غاز التابون الذي استخدم ذلك العام. كما أكدت استخبارات الولايات المتحدة أن العراق يقوم بانتاج الغاز السام وتخزينه في خمسة مواقع بما في ذلك مجمع ضخم في أكشاط بغرب العراق، وأن غاز الخردل يخزن في سامراء (وتلك كلها مواقع قصفتها قوات التحالف عام ١٩٩١). وفي ٣١ مارس/ أذار ١٩٨٤ اعترضت الحكومة الامريكية شحنة من المواد الكيماوية في طريقها الى العراق بعد أن استخدم العراق الغاز ضد الافواج البشرية الايرانية في المستنقعات[٢١]، وفي ٧ أغسطس/ آب ١٩٨٤ أكدت الحكومة الألمانية بأنها ستشدد على صادرات معدات تصنيع الكيماويات واعترفت متأسفة أنها لم تتمكن من اقناع شركة كارل كولب وشركة بايلوت بلانت الالمانيتين من انهاء أعمالها في العراق.

استمر العراق يبحث في السوق عن مادة تسمى ثيوديغليكول (أو كبريت الغليكون الاثيليني) الاساسية في انتاج غاز الخردل، وكانت في قائمة للممنوعات أعدتها مجموعة من تسع عشرة دولة صناعية أطلقت على نفسها اسم مجموعة استراليا التي شكلت للسيطرة على انتاج الاسلحة الكيماوية. وفي عام ١٩٨٣ زودت شركة فيليب بترول العراق بشحنة من كبريت الغليكون عن طريق وسيط كان يعمل من خلال شركة هولندية اسمها كرل بنكر للخدمات، الا أنها أوقفت شحنة ثانية بعد نشر تقارير حول استعمال العراق للغاز السام. وفي عام ١٩٨٥ قامت شركة نسيج اسبانية بدور الوسيط في شحنة الى سامراء، وأشار تقرير المالي الى ان شركة أمريكية تسمى الكولاك هربت خمسمائة طن من كبريت الغليكون الى العراق عام ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨ وأنها (لكي تثبت حيادها) زودت ايران أيضا بتسعين طنا من نفس المادة عن طريق أحد رجال الاعمال في مدينة دوسولدورف الالمانية. ويقدر مجموع ما استلمه صدام حسين من تلك المادة بألفين من الاطنان وهذا يكفي لتصنيع كميات هائلة من غاز الخردل.

ولعل صدام حسين في تهديده المشهور في أبريل/ نيسان ١٩٩٠ بحرق « نصف اسرائيل» بذلك السلاح الكيماوي «الثنائي» كان يعني الاشارة الى انتاج المصنع السري الجديد للأسلحة الكيماوية الذي أقيم في الفالوجة شمال غرب بغداد، والذي كان في عام ١٩٩١ على وشك البدء في الانتاج عندما قصفته طائرات التحالف. كان من المواد الاساسية في تصنيع ذلك الغاز هي مادة كبريتيد الايدروجين المعروف عند طلاب الكيمياء بالثانويات باسم «غاز البيض الفاسد» لرائحته الكريهة وهو مادة غير مؤذية في حد ذاتها. أما المادة الاساسية الاخرى هي أوكسيد الاثيلين الاقل انتشارا والذي يتم انتاجه في مصنع لمنتجات النفط الكيماوية بالقرب من البصرة يعرف باسم بي. سي. ـ١ وفي مصنع آخر اسمه بي. سي. ـ٢ في المسيب. ويتم انتاج غاز كبريت الغليكون بخلط هاتين المادتين.

ويعتقد أن منشأة أخرى في الفالوجة تقوم بانتاج الغازين الاخرين الاساسيين تابون وسارن وربما مادة ثالثة تسمى في. أكس. وهي مواد سامة جدا من منتجات المواد المبيدة للحشرات الثانوية والتي تسبب عند تنفسها أو امتصاصها عن طريق الجلد، المغص والاسهال وفقدان التحكم في البول والتقيؤ وارتفاع ضغط الدم والكلام غير

المفهوم والتشنج وتعطل الاجهزة العضلية ثم الاختناق والموت. استخدم العراق هذه الغازات ضد الاكراد والجنود الايرانيين خلال المراحل الاخيرة للحرب(٢٢) مما أدى الى تخوف كبير وتكهنات بأن العراق سيستخدمها مرة أخرى في حرب عملية عاصفة الصحراء.

الا ان الحدث الاساسي الذي دفع بالولايات المتحدة واوروبا الغربية الى الاعتراف أخيرا بامكانيات العراق في مجال الاسلحة الكيماوية ـ وان لم يدفع بها الى التحرك ضده ـ هو المذبحة المرعبة التي شهدتها قرية حلابجة الكردية العراقية.

استولت ايران على تلك القرية عقب انسحاب الحامية العراقية منها في ١٦ مارس / أذار ١٩٨٨ بعد سلسلة من الهجومات بالغاز السام على القرى المجاورة في المناطق القريبة من الحدود التركية العراقية. فقد قامت الطائرات العراقية بهجمات خاطفة على القرية ألقت فيها بقنابل سيانيد الايدروجين وغاز الخردل والتابون وقدر عدد الموتى مابين بضع مئات وخمس ألاف وصورت عدسات التلفزيون العالمية التي سمحت لها بالذهاب الى حلابجة جثثهم. يقول أحد الاطباء الاكراد: «تحتوي كل قنبلة على مائة لتر من السيانيد وكان الجو باردا مما ساعد على انتشار الغاز بسرعة ولم يكن بامكان أولئك الناس أن ينجوا من الموت» (٢٣).

لقد أثارت تلك الصور فزع الكثير من الصحفيين بما فيهم أولئك الذين تعودوا على مناظر قتلى تلك الحرب، حيث ظهر فيها الاباء والامهات يحملون أطفالهم بين ذراعيهم أو ملقيين فوق جثثهم التي غطوها بالاكياس البلاستيكية في اللحظات الاخيرة قبل موتهم.

ويعتقد بعض الخبراء أن ايران هي الاخرى قد استعملت الغاز السام في حلابجة حيث أنه من المؤكد أن ايران كانت تملك تلك المواد في ذلك الوقت. الا أن بعض المتعاطفين مع ايران ادعوا أن آية الله الخميني أصدر أوامر مباشرة ضد استعمال الغاز رغم ضغوط من قيادات ايرانية أخرى للرد بالمثل على العراق والشيطان الاكبر الذي يلوذ خلفه باستمرار. لقد أعلن الخميني أن ايران تخوض « حربا جهادية» ولابد أن تعطي المثل لغيرها من بلاد المسلمين(٢٤).

غضّ الطرف في واشنطن

لم تعر الحكومات الغربية رغم تنبيهها سوى اهتماما ضئيلا لما توفر من أدلة ضد العراق. طلبت وزارة الخارجية الامريكية من السفارة في أنقرة بتركيا أن تقوم بتسجيل تقارير اللاجئين الاكراد وأخذ صور لهم، كما أعدت وكالة الاستخبارات المركزية وأقمار التجسس الصناعية تقارير من داخل العراق نفسه. وبعد الكثير من التردد والموازنة للادلة اعلن وزير الخارجية جورج شولتز أخيرا أن الولايات المتحدة لديها الدليل على أن العراق استخدم الغاز ضد الاكراد. كما سعت بعض القوى داخل الكونجرس الامريكي وامام معارضة من الادارة الأمريكية الى ادانة العراق وفرض عقوبات ضده. كما سافر الى تركيا في منتصف شهر سبتمبر/ أيلول ١٩٨٨ اثنان من أعضاء لجنة العلاقات الخارجية بالكونجرس هما بيتر غولبريث وكريس فان هوللن للتحقيق في الامر، ورفعا تقريراً بوجود «أدلة قاطعة» تعزز ما جاء في تقارير وكالة الاستخبارات المركزية وأقمار التجسس الصناعية من استعمال العراق للغاز ضد مواطنيه الأكراد. وأشار التقرير الى أن السكوت الدولي على هذا الأمر كان عنصرا أساسيا في اقناع العراق أن بامكانه القيام بذلك في حصانة كاملة.

وفي واشنطن تقدم عضو مجلس الشيوخ الديمقراطي كلايبورن بيل رئيس لجنة الشؤون الخارجية التابعة للمجلس في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٨ بقانون تحريم القتل الجماعي الذي وافق عليه مجلس الشيوخ بالاجماع. وأشار بيل الى أن العالم قد وقف متفرجا بسبب«ثروة العراق النفطية الضخمة وقوته العسكرية والرغبة في المحافظة على استمرار المفاوضات القائمة لانهاء الحرب الايرانية العراقية». . ولكن السكوت يعني المشاركة في الجريمة، وقد لزم العالم الصمت عندما كان هتلر يذبح اليهود ولا ينبغي للعالم أن يقف موقف الشاهد الاخرس أمام القتل الجماعي.

في الوقت نفسه ضمت عناصر الضغط الخاصة بالمصالح التجارية الامريكية في العراق صوتها الى صوت المعارضة للعضو بيل في الكونجرس والادارة الامريكية، وقال البيت الابيض أنه يعتقد أن مشروع قرار بيل «سابق لأوانه» وستكون له «نتائج عكسية». كما جرى تخفيف من حدة مشروع قانون بفرض العقوبات الاقتصادية على العراق في البرلمان الامريكي بعد أن صرح العضو الجمهوري (الحزب الحاكم) بيل

فرينزل وهو احد المعارضين للتدخل الحكومي في شؤون العمل التجاري الخاص، بأن العقوبات ضد العراق ستعود بالضرر على العمال وأصحاب العمل الامريكيين. (يبدو أنه لم يعر أي اعتبار لايران والرهائن ومصالح التجارة الامريكية في بقية بلدان الشرق الأوسط). كما ألغي اقتراح بحل وسط لفرض عقوبات محدودة في مجال التعامل الزراعي مع العراق وذلك في الايام الاخيرة لفترة الكونجرس، ولضيق الوقت بسبب قرب موعد انتخابات الرئاسة لعام ١٩٨٨ (٢٥).

لقد حصلت الاستخبارات الامريكية على معلومات ذات قيمة عالية حول الاسلحة الكيماوية التي كانت الدول العربية تعتبرها «السلاح النووي للرجل الفقير» والرد المناسب على أمكانيات اسرائيل النووية. الا أن المشكلة تكمن في أن تلك الاجهزة قد أحالت تلك المعلومات على مسؤولين في الحكومات الامريكية، اما انهم لم يدرسوها بعناية أو أختاروا بكل بساطة تجاهلها. كما كان لسوء استعمال المعلومات ـ أو ما يعرف عادة بالتضليل ـ آثار خطيرة وبعيدة المدى على السياسة الأمريكية. . فكثيرا ما تكون نتائج أساليب التضليل عكسية تماما.

الفصل الثاني عشر
أمريكا تدخل الحرب الايرانية العراقية

اجتماع مع نائب صدام حسين

بغداد: ١١ أبريل/ نيسان١٩٨٧. كانت السماء صافية، وكان طاقم المدافع المضادة للطائرات في برج المدفعية بالقرب من فندق ميليا المنصور على ضفاف نهر دجلة، يصوّب بحركات سريعة في شكل أقواس دائرية نحو الأفق. كانت أجهزة الانذار الرادارية العراقية في حالة جيدة كالعادة، ولكن المفاجآت واردة في أي وقت، حيث أن الصواريخ الايرانية ـ من نوع سكود السوفياتية المقو اة على الأغلب التي زود بها عقيد ليبيا معمر القذافي إيران حديثاً ـ كانت كثيراً ما تسقط من الجو دون سابق انذار. كنا بالأمس في زيارة لأحد شوارع بغداد وشاهدنا العمارات السكنية التي دمرتها صواريخ حرب المدن التي ازدادت اضطراماً. وكما هو الحال في طهران ـ هدف الصواريخ العراقية ـ فكثيراً ما يرى المشاهد في سماء العراق طائرة معادية تلاحقها نفاياتها الفضية وهي تغالب أجهزة الرادار الأرضية لترمي بضع قنابل ضخمة الحجم بدرجات متفاوتة من الدقة.

لم أتمكن أنا والدكتور ويليام بولك صباح ذلك اليوم أن نستمر في مشاهدة تلك المناظر من شباك الفندق، فقد كنا ـ بعد انتظار عدة أيام من أجل مقابلة الرئيس صدام حسين ـ في طريقنا الى مقابلة نائبه الرئيسي للشؤون العسكرية والأمنية السيد طه ياسين رمضان.

ركبنا سيارة يقودها سائق عابس الوجه يرتدي بدلة سوداء ولا يختلف كثيراً في مظهره عن ذلك السائق الذي أخذني الى آخر لقاء لي مع شاه إيران في طهران في سبتمبر/ أيلول ١٩٧٨. مررنا في طريقنا ببوابات تفتيش متعددة وطفنا حول قطع ضخمة من الاسمنت وحواجز مدببة وأعداد كبيرة من الحرس المسلح المستعد لاطلاق النار كاستعداده لأداء التحية. بعد لحظات كنا نصعد سلم القصر الجمهوري قدس الأقداس الواقع على ضفاف دجلة حيث يعمل صدام حسين ومساعدوه المقربون.

بعد لحظات كنا داخل مكتب فخم مفروش وكان طه ياسين رمضان ـ صاحب

العنق السميك وأحد قادة حزب البعث العقائديين المبرزين الذي كانت تبدو على وجهه سمات الذكاء والحزم - ينتظرنا خلف مقعد ضخم وصورة قائده الذي لا يغيب تطل علينا من الحائط الذي وراءه. إنها صورة من ملايين الصور لصدام حسين يراها المرء في كل مكان في العراق. بدأت المقابلة وأشار طه ياسين رمضان بحركة سريعة بالموافقة على تسجيلها على شريط فيديو.

كانت آثار صفقات السلاح مقابل الرهائن السرية الاسرائيلية الأمريكية في ذلك الوقت واضحة للعيان: عسكرياً في الشرق الأوسط وسياسياً في الولايات المتحدة. ففي الوقت الذي كانت الخارجية الأمريكية تقوم بتنفيذ العملية ستونش التي تهدف الى تشجيع الحكومات في جميع أنحاء العالم بعدم بيع السلاح لايران، كانت إدارة الرئيس ريغان الأمريكية تقوم ببيع كميات ضخمة من الأسلحة سراً لإيران أو تسمح لحكومات معينة القيام بذلك. كشفت النقاب عن تلك المعلومات المروعة صحيفة الشراع اللبنانية في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني الماضي.

سألنا طه ياسين رمضان ـ نائب الرئيس ـ عن رأي العراق في ذلك فأجاب قائلاً:

«إن الذي ظل يجري في الساحة منذ أكثر من سنة ونصف لم يقتصر على بيع السلاح لإيران ولكنه في الحقيقة جزء من مؤامرة، ومؤامرة خطيرة ضد العراق».

كيف كان ذلك؟

أجاب نائب الرئيس: «كان هناك تنسيق بين الأطراف الثلاثة: إسرائيل والولايات المتحدة وإيران يغطي الاستخبارات والاتصالات والسلاح ونوعية ذلك السلاح». يبدو أن طه ياسين رمضان نسي ما شكت منه إيران بمرارة من تزويد إسرائيل والولايات المتحدة لها بسلاح دون مستوى النوعية المطلوبة.

استطرد نائب الرئيس يقول: «لقد أخفت عنا استخبارات الولايات المتحدة نقاط ضعف القوات المسلحة الايرانية. كما أن الولايات المتحدة في نفس الوقت خدعت العراق عندما كانت تدعي أنها ـ أي أمريكا ـ تتبع سياسة معينة (تميل الى صف العراق) بينما هي في الحقيقة تتبع سياسة مخالفة. وهذا كله يمكن تفسيره من قبلنا بأنه مؤامرة لتمكين إيران من احتلال أراضٍ عراقية...».

اتكأ طه ياسين رمضان الى الخلف وصمت هنيهة مستغرقاً في التفكير ـ ولعل ذهنه لا يزال مشغولاً بكردستان، فقد رجع بالأمس من الموصل وكانت الدوائر الدبلوماسية تتناقل الهمسات حول خبر محاولة لاغتيال صدام حسين ـ ثم استمر يقول:

« بدأت المؤامرة في ٢٤ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٦ (وهي بداية آخر هجوم مكثف ضد منطقة البصرة). لقد ظلت إيران لمدة شهرين تبحث عن هدف أساسي واحد وهو عزل جزء من الأراضي العراقية واحتلاله...

«ولكن النتيجة كانت ضحايا بأعداد كبيرة وفشل في تحقيق أهداف تلك المؤامرة. لقد تسببوا بالطبع في بعض الأضرار لسلاحنا سواء في القوات الجوية أو القوات المدرعة ولكن ذلك لم يحد من إمكانياتنا، وقدرة القوات المسلحة العراقية على التصدي لتلك المؤامرة وللعدوان الإيراني قد ازدادت».

ثم سألناه عن صواريخ هوك التي أرسلتها الولايات المتحدة الى إيران.

أجاب طه رمضان: «لقد تصدينا لتلك البطاريات في الحقيقة بكل شجاعة وقابلنا التحدي، والقوات المسلحة العراقية هي الآن في وضع أحسن من أي وقت مضى...

«لقد جاء في تصريح الرئيس ريغان بعد انكشاف مؤامرة التسليح أن ما أرسلته الولايات المتحدة لإيران يمكن تحميله في طائرة واحدة ولا تزيد قيمته عن عشرة ملايين دولار، ولكن اتضح فيما بعد أنهم أرسلوا صواريخ وقطع غيار بل ودبابات ومعدات عسكرية بما قيمته ما بين ١,٢ الى ١,٣ مليار دولار...

«وفي كل الوقت الذي كانت الولايات المتحدة تقول لنا أنها ترغب في إيقاف تدفق الأسلحة الى إيران، كانت تتعاون مع اسرائيل على إرسال المزيد من الأسلحة. كان الهدف من الأسلحة المضادة للطائرات هو معادلة تفوق العراق الجوي وكانت المعدات المضادة للدبابات لتحقيق التعادل مع تفوقنا في السلاح المدرع».

وصَبّ طه ياسين رمضان جام احتقاره لما وصفه بتزوير الولايات المتحدة لتقارير أقمار التجسس الصناعية (Sat-int) والاستخبارات التي زود بها العراق. إلا أن الذي لم يكن طه ياسين رمضان يعلمه أثناء تلك المقابلة هو أن فريق البيت الأبيض قد قام ولمرة واحدة على الأقل في فبراير/ شباط ١٩٨٦ بتزويد إيران بصور ومعلومات استخباراتية تتعلق بالقوات العسكرية العراقية[١].

ثم اشتكى طه ياسين رمضان مما حدث فيها يتعلق باحتلال شبه جزيرة الفاو. فقد شنت القوات الايرانية هجوماً ذا شعبتين في ١٠ فبراير/ شباط ١٩٨٦ لاحتلال شبه جزيرة الفاو وهي النافذة الوحيدة للعراق التي يطل منها على الخليج والتي تمثل نقطة انطلاق نحو الكويت ودول النفط الأخرى الواقعة على الجانب الغربي لشط العرب. قامت قوات الضفادع البشرية والحرس الثوري أولاً باحتلال جزيرة أم رصاص الواقعة شمال الفاو ثم قامت قوة فدائية أخرى بالاستيلاء على سيبا على الطريق الرئيسي بين الفاو والبصرة. في فترة قصيرة ـ كانت الأمطار تهطل خلالها بغزارة ـ تمكن الايرانيون من نقل جنودهم عبر شط العرب بواسطة القوارب وتعزيز مواقعهم المتقدمة الى أن تجمعت لهم قوة من ثلاثين ألف جندي.

في نفس الوقت شن الايرانيون هجومات تمويهية في اتجاه مدينة العمارة شمال البصرة مما دفع بالعراقيين ـ تحسباً بأن تلك بداية هجوم جديد ـ الى الدفع بنيرانهم الثقيلة نحوها كما تحركوا لمواجهة قوات أصغر في الجنوب. أخيراً احتلت إيران الفاو وضواحيها في ١٤ فبراير/ شباط بعد معارك ضارية واستولت على صواريخ مضادة للطائرات مخزنة بالقرب من الميناء ومحطة رصد ومراقبة عراقية كانت تستخدم في توجيه الهجومات الجوية ضد السفن في الخليج. وهكذا أفقد الايرانيون قوات العراق الدفاعية توازنها بتحركهم السريع وباستخدامهم للجسور العائمة لتعزيز قواتهم في الفاو. إلا أن هجومات العراق المضادة الضخمة ومياه خور عبد الله المالحة الواقعة غربي الفاو قد منعت القوات الايرانية من التحرك نحو القاعدة العراقية البحرية في أم قصر أو الاستيلاء على السفن العراقية المحاصرة في خور عبد الله.

باستيلائها على الفاو سيطرت إيران على ما يقرب من ٤٠٠ ميل مربع من الأراضي والمياه العراقية. وأفادت أقمار التجسس الصناعية أن عدد الضحايا الايرانيين قد بلغ ثلاثين ألفاً بينما كانت ضحايا العراق حوالي سبعة آلاف. كما وقع في الأسر أربعمائة إيراني ولكن قوات الدفاع العراقية ـ برغم استخدامها للقنابل الكيميائية ـ لم تتمكن من إنهاك الاستعدادات الايرانية الأولية(٢)

لم يتمكن العراق من استعادة الفاو حتى أخذت كفة الحرب تميل ضد إيران، وجاء التدخل البحري المباشر من الولايات المتحدة في عام ١٩٨٨

جلس طه ياسين رمضان يومض بعينيه في آلة التصوير محاولاً اختيار الكلمات المناسبة لالقاء اللوم على الولايات المتحدة في كارثة العراق في الفاو ثم استأنف حديثه في هدوء:

«قبل معارك الفاو بشهرين كانت هناك معلومات تقول أن الحشد الايراني لا يستهدف الفاو وإنما يستهدف منطقة أخرى شرقي دجلة. وصلتنا تلك المعلومات من مصادر مختلفة ولكننا كنا نعلم أن المصدر الرئيسي والمباشر لها هو الأمريكان، وكان انطباعنا أن المعلومات صحيحة لأنها جاءت من مصدر أمريكي. ولكن عندما جاء ذلك الاعتداء الايراني كان في الحقيقة ضد الفاو». . .

«ظلت المعلومات تتدفق من الولايات المتحدة حتى أثناء الهجوم وكانت تؤكد أن الفاو ليس هو الهدف الرئيسي وإنما الهدف الرئيسي هو المنطقة الواقعة شرقي دجلة. . . فسألنا الأمريكان بعد ذلك: ما هو الهدف من تلك المعلومات»؟.

« كان جوابهم أن تلك هي المعلومات الوحيدة المتوفرة لديهم. والسؤال هنا هو: هل هناك عملية فنية مقصودة في الولايات المتحدة لاعطاء معلومات خاطئة؟ كل هذا. . . بالاضافة الى التناقض بين ما كان يقال علنا عن موقف أمريكا من الحرب وما كان يتم حقيقة ـ وهو توصيل السلاح لإيران ـ يجعلنا نشك في المعلومات وفي السياسة وفي الهدف من ورائها كذلك، ولكم أن تستنتجوا من هذا ما تشاؤون».

لم يستطع طه ياسين رمضان أن يقاوم وخزة أخيرة من الولايات المتحدة. لقد استعادت الولايات المتحدة والعراق العلاقات الدبلوماسية عام ١٩٨٤ وحتى بعد سقوط الفاو. وقامت الولايات المتحدة بشطب العراق من قائمة الدول التي تدعم الارهاب. كما قام العراق ـ حسب ما ذكرنا به طه ياسين رمضان ـ بطرد المجلس الثوري لفتح، تلك المنظمة الارهابية المتطرفة التابعة لأبو نضال من بغداد وأعلن رسمياً أنه ضد الارهاب سواء كان فلسطينياً أو إيرانياً أو غير ذلك. ثم استطرد يقول: « إن إيران معروفة في العالم كله كدولة الارهاب الأولى، وها هو ريغان يدعي أنه ضد الارهاب، ولكن أليس تزويد إيران بالأسلحة يعني في الحقيقة إعطاءها الوسيلة التي تدعم بها المزيد من الارهاب؟»(٣).

ضعف الكويت في مواجهة العدوان

بعد شهرين من موعد تلك المقابلة مع طه ياسين رمضان عبر لي ضابط البحرية الأمريكي المتقاعد وأحد خبراء الشؤون الايرانية في مجلس الأمن القومي لإدارة كارتر الكابتن غاري سك، عن وجهة نظر أمريكية في المشاكل القائمة في المنطقة. قال لي غاري سك أن إيران ـ غيت كانت «كارثة محققة. . . وأثرت في شعور الناس في الخليج بصورة لم يسبق لها مثيل. . وكان السؤال: هل بإمكانهم الثقة في الولايات المتحدة؟ وتوصلوا الى نتيجة أن عليهم أن يكونوا في غاية الحذر».

كما عبر لي السيد طارق المؤيد وزير الاعلام البحريني البارع المحنك، عن وجهة نظر مماثلة أثناء حديث لي معه في يونيو/ حزيران ١٩٨٧ إذ قال: «لقد أصاب أهل الخليج القلق حول احتمال سقوط العراق نتيجة موجة جديدة من الانتصارات لصالح الثورة الايرانية»(٤).

كان السؤال الملح هو كيف تستعيد الولايات المتحدة ثقة الأصدقاء والحلفاء. فقد كانت الحرب الايرانية العراقية تهدد إمدادات النفط لكل من اليابان وأوروبا. وفي المملكة العربية السعودية وإمارات الخليج كانت الحرب تهدد بالاضطرابات العسكرية والسياسية والدينية. إلا أنه على عكس ما هو متوقع فقد هيأ الخطر الايراني على الكويت ـ وهي دولة تكن من الود للولايات المتحدة أقل مما تكنه لها بقية إمارات الخليج ـ الفرصة لأمريكا أن تحقق التوازن في دورها في تلك الحرب ولكن ـ هذه المرة ـ بالتدخل ضد إيران.

لقد تقلص تأثير دعوة آية الله الخميني على التجمعات الشيعية في دول الخليج، إلا أن خطر التخريب السري والإرهاب على يد الخلايا الصغيرة المصممة في البحرين وغيرها ظل في ازدياد. فكما أشرنا سابقاً فإن الشيعة في الكويت يشكلون ثلاثين بالمئة من عدد السكان أغلبيتهم من الايرانيين المهاجرين وأنهم ـ أسوة بغيرهم من المهاجرين الفلسطينيين ـ يحتلون مناصب ووظائف هامة وحساسة في صناعات النفط والغاز والطيران وفي المجالات التقنية مثل تحلية مياه البحر.

لم يلب أغلبية أعضاء الجالية الشيعية دعوةطهران للثورة ضد أسرة آل الصباح الحاكمة في الكويت، إلا أن الكويت شهدت الهجوم الارهابي الكبير ضد السفارة الأمريكية والسفارة الفرنسية في ديسمبر/ كانون الأول١٩٨٣ على يد عناصر من حزب

الدعوة إضافة الى أعمال أخرى إرهابية وتخريبية أصغر. أدى ذلك في عام ١٩٨٦ الى ضغوط من الأغلبية السنية في الكويت لتصفية الوظائف الحساسة من الموظفين الشيعة(٥).

لقد كانت السفارة الأمريكية في الكويت تقدر مدى ضعف الأمن الداخلي لتلك الدولة لكونها إمارة تملك ثروة نفطية ضخمة ولكن بدون قوة عسكرية. وكانت إيران حتى صيف عام ١٩٨٦ قد أخذت تركز في هجوماتها ضد الملاحة في الخليج على السفن الكويتية أملاً في ثني الكويت عن تقديم المزيد من الدعم للعراق. وفي ديسمبر ١٩٨٦ اتصلت الكويت عبر قنوات خاصة بالولايات المتحدة تطلب منها السماح برفع العلم الأمريكي على عدد من حاملات النفط الكويتية ثم أعلن عن ذلك الطلب رسمياً في يناير/ كانون الثاني ١٩٨٧ .

كان رد الولايات المتحدة في البداية أن قراراً مثل ذلك سيحتاج الى ستة أشهر على الأقل كي يوافق عليه الكونغرس - بأجهزته البطيئة - ومختلف أقسام الأجهزة التنفيذية. وفي ٢ مارس/ آذار ١٩٨٧ بدا في الأفق أن الاتحاد السوفياتي على وشك أن ينجح في تقديم بعض الحماية للسفن الكويتية عن طريق رفع الأعلام السوفياتية.

يقول غاري سك أن المحاولة السوفياتية التي سبقت العرض الأمريكي كان من بين أسبابها «إدراك السوفيات للقوة الاسلامية الأصولية في المنطقة وأنهم سيضطرون للتعامل مع إيران كقوة عسكرية محلية عظمى. . . والغريب أنه من الممكن دائماً تقريباً، ملاحظة تزايد الثقة في السوفيات - وليس حضورهم أو خطرهم - في المنطقة مع تناقض الثقة في الولايات المتحدة»(٦).

بعث العرض السوفياتي الحيوية في التحرك الأمريكي فأخبرت إدارة ريغان في ٧ مارس/ آذار الكويت أنه في حالة رفع ناقلات النفط الكويتية الاحدى عشر العلم الأمريكي فسيكون لها حق الحماية من قبل الأسطول الحربي الأمريكي. وبعد أسابيع من المناقشات في الكونغرس وفي وسائل الاعلام وبعد يومين من الهجوم العراقي على السفينة الأمريكية ستارك في الخليج، أعلنت إدارة ريغان يوم ١٩ مايو/ أيار أنها وافقت على رفع الأعلام الأمريكية على ناقلات النفط الكويتية وحمايتها من قبل السفن الحربية الأمريكية في الخليج الفارسي.

واينبيرغر يدافع عن الكويت

كان وزير الدفاع الأمريكي كاسبر واينبيرغر من أكثر المتحمسين لعملية رفع الأعلام الأمريكية على ناقلات النفط الكويتية، وكانت حجته الأساسية في ذلك أنه « إذا لم نقم نحن بذلك فسوف يقوم به الاتحاد السوفياتي». كما رد واينبيرغر على معارضيه بالقول بأن للولايات المتحدة امتيازاً خاصاً تتفوق به على الاتحاد السوفياتي وعليها المحافظة عليه، ألا وهو وجود قوة عسكرية أمريكية في الخليج وشمال البحر العربي. يرجع ذلك الى أن دولاً عربية في الخليج ـ وخاصة البحرين حيث ظل الأسطول الأمريكي يتمتع باستخدام الامكانيات المتوفرة في ميناء سلمان والجفير منذ الحرب العالمية الثانية ـ ضمنت لأمريكا العبور والدعم السوقي. كما كشف واينبيرغر عن أن الكويت قد أصبحت المصدر الرئيسي للوقود بالنسبة للطائرات البحرية والسفن التابعة للأسطول الأمريكي في المنطقة. كما تحملت حكومة آل صباح الكويتية جزءاً من تكاليف وقود الطائرات والسفن الأمريكية أثناء عملية رفع الأعلام، تماماً كما وافقت على تحمل الجزء الأكبر من تكاليف عملية عاصفة الصحراء الهائلة التي تلت الغزو العراقي للكويت في عام ١٩٩٠.

لم يكن السوفيات يتمتعون بشيء من ذلك على الاطلاق وكانت أقرب قاعدة لهم في المنطقة ـ باستثناء الامكانيات المسموح لهم استخدامها في عدن ـ هي قاعدة خليج كام رانه في فيتنام. كما أكد واينبيرغر حرص السوفيات على تأسيس إمكانيات لهم في الخليج، وأن أي رفض أو تردد من الولايات المتحدة سيؤكد لحكام دول الخليج كل مخاوفهم حول الثقة في أمريكا والاعتماد عليها.

وردّ واينبيرغر على الذين قالوا أن الولايات المتحدة تملك اكتفاء في النفط ولا ينبغي لها أن تحمي حصص أوروبا واليابان، بأن النفط بضاعة متنقلة يتم تداولها على مستوى عالمي ويمكن لشركات النفط توصيلها الى أي مكان في العالم، وعليه فلا يمكن التمييز بين نفط كويتي ونفط أمريكي لأن أي نقص في النفط في الأسواق الأوروبية أو اليابانية يؤثر على حصة الولايات المتحدة، حيث أن الجميع يتنافس على نفس الكمية المحدودة من النفط، إضافة الى ذلك فإن نسبة كبيرة من النفط المنتج في الخليج تتولى نقلها وتكريرها شركات أمريكية، وعليه فإن إقفال مضيق هرمز سيضر «بشركات النفط

الأمريكية التي تؤول ضرائبها الى خزينة الحكومة الأمريكية والتي توفر العمالة للمواطنين الأمريكان»(٧).

كان من القضايا الرئيسية التي أثيرت حول رفع الأعلام الأمريكية ـ أثناء عملية عاصفة الصحراء ـ هو عما إذا كانت هناك ضرورة لتطبيق قانون السلطات الحربية على العمليات الأمريكية في الخليج. ينص هذا القانون الذي أجيز عام ١٩٧٣ بعد سنوات طويلة من التورط في فيتنام على أن الرئيس الأمريكي ملزم بالتشاور مع الكونغرس قبل إرسال أي قوات عسكرية أمريكية للمشاركة في إعتداءات حقيقية أو متوقعة خارج الولايات المتحدة، وأن عليه أن يرفع تقريراً للكونغرس خلال ثمان وأربعين ساعة من إرسال مثل هذه القوات، إلا أن الرئيس ريغان رفض تطبيق القانون إثر ضرب العراق للسفينة الأمريكية ستارك في ١٧ مايو/ أيار ١٩٨٧ على اعتبار أن ذلك كان حادثاً غير مقصود. كما أكدت إدارة ريغان أن حماية السفن هو عمل دفاعي وليس هجومياً.

كان الرد على ذلك من بعض أعضاء الكونغرس هو أن وجود القوات الأمريكية في وسط ميدان حرب متصاعدة يترتب عليه خطر تلقي الضرب سواء العرضي أو المتعمّد. كما اتهمت الادارة بأنها تجاوزت التشاور مع الكونغرس خوفاً من تعرض عمليات رفع الأعلام وخطط أمريكا الأخرى للنقاش العام المفتوح. إلا أن كلاً من إدارة ريغان وإدارة بوش قد نجحت في الانتصار على منتقديها ومنعهم من الموافقة على أي قوانين تلزم الادارة بتطبيق قانون السلطات الحربية(٨).

ومن العوامل الأخرى التي أثرت على التفكير الأمريكي هو أن إيران التي ادعت أنها تضرب السفن التي تساعد آلة الحرب العراقية تقوم في الواقع بالهجوم أساسا على ناقلات نفط تابعة لدول غير معتدية تتحرك بين موانيء النفط الكويتية، وأغلبها لم يكن يحمل أي أسلحة حيث أن العراق كان يسلح من خلال قنوات سعودية وأردنية.

نادراً ما كانت إيران تعترض السفن وتفتشها للتحقق من كونها تحمل أسلحة أم لا، ولم توقف سوى شاحنة واحدة سوفياتية كانت تحمل شحنة أسلحة الى ميناء بندر عباس. عندما وصل الخبر الى موسكو أرسل السوفيات سفينة حاملة للدبابات من اليمن الى إيران ومعها الجنود، تحرسها مجموعة سفن حربية وعندما طلب دبلوماسي سوفياتي في طهران من إيران إطلاق سراح تلك الشاحنة امتثلت إيران للطلب على الفور

برغم احتواء مخازن السفينة على شحنات أسلحة في طريقها الى العراق. لقد كان بإمكان الايرانيين الحجز على تلك السفينة كغنيمة من غنائم الحرب. ولكنهم اختاروا استهداف سفن أقل حماية(٩).

اضطرابات في مكة

لقد حاول الحجاج الايرانيون كل سنة منذ عودة الخميني الى طهران عام ١٩٧٩ نشر الثورة في مكة وغيرها من الأماكن الاسلامية المقدسة، بينما زادت أحداث حج عام ١٩٧٩ ومحاولة التمرد في مكة من تصميم السعودية على المحافظة على الحج كموسم للشعائر الدينية وليس للعمل السياسي.

كانت السعودية في حالة استعداد قصوى في يوليو ١٩٨٧، فقد زادت حشود البحرية الأمريكية وحلفائها وتصاعد حرب الملاحة من حدة التوتر في المنطقة. إضافة الى ذلك كانت السلطات في السعودية على علم بأن مهدي هاشمي وغيره من القيادات الثورية الايرانية المقربة من محمد منتظري، كانت تخطط لتهريب متفجرات داخل السعودية لاستخدامها في اغتيال عدد من الشخصيات الايرانية في مكة أثناء موسم الحج. كانت الفكرة ـ حسب تقديرات الايرانيين ـ هي إلقاء اللوم في ذلك على السعودية نفسها.

سمحت السلطات السعودية للحجاج الايرانيين وعددهم ١٥٥ ألف بقيادة مهدي كروبي رجل الدين القوي وعضو البرلمان الذي كان يتولى مسؤولية صندوق أموال الشهداء الخاص بالمحاربين وأسرهم، أن ينظموا مسيرة يوم ٣١ يوليو/ تموز ١٩٨٧ كان في طليعتها النساء والمحاربون. سرعان ما تحولت تلك المسيرة الى صدام عنيف مع قوات الأمن السعودية، وتفيد الأرقام الرسمية السعودية أن عدد القتلى كان ٤٠٢ بما فيهم ٢٧٥ من إيران أغلبيتهم ماتوا بالرصاص أو بسبب الازدحام. وصل هياج المتظاهرين أوجه عندما أعلن أحد قادة المسيرة أن طائرة عمودية أمريكية قد أسقطت في الخليج. كما شهدت طهران نفسها معارك مسلحة اتهمت فيها إيران عملاء الأردن والعراق الذين يدعمهم الشيطان الأكبر. وفي ذلك اليوم الذي أعلن أنه «يوم كراهية أمريكا» قامت مجموعة بقيادة حزب الله باقتحام السفارة الكويتية في طهران(١٠).

لم تبرأ العلاقات السعودية الأمريكية أو العلاقات الأمريكية الايرانية حتى اليوم من

تلك الكراهية وذلك البغض وانعدام الثقة الذي تفجر في موسم حج عام ١٩٨٧ .

زيادة التعاون الأمريكي

احتجزت القوات البحرية الايرانية في أواخر مايو/ أيار ١٩٨٧ سبعة قوارب سريعة تابعة للبحرية الكويتية بتهمة التجسس لصالح العراق وذلك بالقرب من جزيرة بوبيان الواقعة على الحدود الايرانية العراقية .

أخبرني أحد المسؤولين في البحرين أن القوارب «كانت في الحقيقة تقوم بحراسة بوبيان» التي استطاعت الكويت أن تحافظ عليها كمنطقة منزوعة من السلاح برغم المناوشات المستمرة حولها. أما الآن فقد صارت الكويت تشعر بأنها أصبحت على الخطوط الأمامية للمعركة .

ولذلك، ومن أجل مواجهة الخطر الايراني من جهة، والتفاهم - في الوقت نفسه - مع المعارضة في الكونغرس الأمريكي لدعم الكويت من جهة أخرى، فقد شعر وزير الدفاع الأمريكي كاسبر واينبيرغر أن دول الخليج - والسعودية على وجه الخصوص - تحتاج الى بذل جهود أكبر للدفاع عن نفسها. فكان من الضروري إذاً أن تقوم السعودية بطلعات إضافية خاصة بها لطائرات الأيواكس مكملة للجهود الأمريكية في برنامج مرافقة السفن في الخليج. إلا أن حكام الكويت والسعودية وإمارات الخليج الأخرى كانوا لا يزالون مترددين في موضوع التعاون المكشوف مع الولايات المتحدة في مجال العمليات العسكرية. . . ولم يكونوا يتصورون أن العراق سيجرهم الى ذلك جراً في عام ١٩٩٠.

ولكن اجتماع واينبيرغر بوزير الدفاع السعودي الأمير سلطان بن عبد العزيز في بيت فاخر على شواطيء الريفيرا الفرنسية يوم ٤ يونيو/ حزيران ١٩٨٧ كان كفيلاً بتحقيق ذلك التعاون بين الطرفين. ففي ذلك الاجتماع حصل واينبيرغر على الموافقة السعودية للمشاركة في خفريات الأيواكس الأمريكية وغيرها من العمليات، ولاستعمال البوارج الأمريكية كقواعد بحرية عائمة في الخليج برغم معارضة بعض كبار القادة البحريين الأمريكان.

تولت الكويت التمويل والمساعدة في تجهيز ثلاث من البوارج على الأقل، التي

أصبحت قواعد للطائرات العمودية وقوات البحرية وفرقة الهندسة الأمريكية. كانت الطائرات العمودية تدعم الأيواكس في التعرف على النشاطات الايرانية المعادية وتوفير الدعم المدفعي عند الحاجة. وبالاضافة الى استعمالها كمخازن للقوات البحرية أصبحت تلك البوارج قواعد لفرق البحرية الأمريكية الخاصة بعمليات البحر والجو والبر، والفرق الخاصة للعمليات البحرية السرية التي لعبت دوراً حاسماً في عدة مناسبات في عمليات بحرية ضد إيران والتي تمت تعبئتها بصورة كاملة ضد العراق خلال فترة ١٩٩٠ ـ ١٩٩١.

الحرب البحرية بين إيران وأمريكا في الخليج

في ٢٤ يوليو/ تموز ١٩٨٧ أصيبت الناقلة الضخمة بريدجتن التابعة لسفن الحراسة الأمريكية للبواخر الكويتية بأضرار خطيرة نتيجة اصطدامها بلغم بحري. يبدو أن واينبيرغر كان يلقي باللوم في ذلك الهجوم الايراني على تسرب معلومات من واشنطن تضمنها تقرير قدمه هو يوم ١٤ يوليو/ تموز لكل من مستشار الأمن القومي فرانك كارلوتشي ورئيس هيئة الأركان المشتركة الأميرال ويليام كرو. يقول واينبيرغر أن عضو البرلمان الأمريكي لز آسبين رئيس لجنة البرلمان للخدمات العسكرية قد كشف للصحفيين في اليوم نفسه بعض التفاصيل الخاصة بتلك القافلة بما في ذلك موعد ومكان انطلاقها وعدد السفن المشاركة فيها وغير ذلك من التفاصيل التي نشر معظمها في صحيفة واشنطن بوست في اليوم التالي(١١).

جاء ذلك الهجوم بعد أربعة أيام فقط من صدور قرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨ الذي يدعو الى إيقاف جميع عمليات العدوان المتعلقة بالحرب الايرانية العراقية. إلا أنه لم يتم تنفيذ ذلك القرار حتى ٢٠ أغسطس/ آب ١٩٨٨، أي بعد أكثر من ثلاثة عشر شهراً من القتال والتورط الأمريكي. في ٢٢ يوليو/ تموز نشرت منظمة لويدز للتأمين في لندن أن عدد ضحايا حرب السفن ما بين ١ أغسطس/ آب ١٩٨٦ و١ أغسطس/ آب ١٩٨٧ قد بلغ ٤٧ قتيلاً من بحارة السفن التجارية في ١١٨ اعتداء(١٢).

في منتصف سبتمبر/ أيلول ١٩٨٧ اكتشفت أقمار التجسس الصناعيةSat-int وطائرات أس. آر. ٧١٠ بلاك ـ بيرد الاستكشافية الأمريكية تساندها طائرات الأيواكس السعودية، السفينة الايرانية الاضافية (هجر إيران) وهي تزرع الألغام بالقرب

من مضيق هرمز. في ليلة ٢١ سبتمبر/ أيلول قامت طائرات سي ـ هوك العمودية من الفرقاطة الأمريكية (جاريت) بتوجيه رحلة جوية لطائرات كيوسس التابعة للجيش الأمريكي في هجوم مباغت على السفينة الايرانية وهي تزرع الألغام. كان ذلك أول اعتداء أمريكي مباشر على السفن الايرانية منذ بداية عملية جراسة القوافل الكويتية.

بينما كانت طائرات كيوسس المحملة بأجهزة التشويش الالكتروني تحلق في الجو، كانت الطائرات الأمريكية ترش السفينة الايرانية بنيران مدافعها الرشاشة من عيار ٧,٦٢ مم وصواريخها من عيار ٢,٧٥. إلا أن تقارير البحرية الأمريكية أفادت أنه برغم القصف فقد استمرت السفينة الايرانية في زرع ألغامها مما استدعى عودة الطائرات العمودية لشن هجوم آخر عليها وإنزال قوات اقتحامية للاستيلاء على السفينة. أسفرت العملية عن مقتل أربعة من الملاحين الايرانيين وجرح ثلاثة وأسر الستة والعشرين الباقين. وبعد أخذ صور للأسرى والألغام ـ نشرها البنتاغون فيما بعد ـ أُغرقت السفينة بكاملها. استخدمت الولايات المتحدة وساطة عمانية لاعادة ترحيل الأسرى الى إيران، واعتبر ذلك الحادث دليلاً مادياً ثابتاً على زرع إيران للألغام في المياه الدولية(١٣).

اصطدمت الطائرات العمودية الأمريكية مرة أخرى مع قوات الحرس الجمهوري بعد ذلك بأسبوعين بالقرب من قرية فارسي، ولم يكن في مقدور البحرية الايرانية التحكم في كثير أو قليل بالهجومات التي يقوم بها الحرس الجمهوري. كانت قوات الحرس تستخدم زوارق بوغامر وغيرها من الزوارق السريعة في هجمات كر وفر خاطفة على منصات النفط البحرية العراقية أو الغربية أحياناً، إضافة الى اعتداءات للتخويف ضد ناقلات النفط وشاحنات البضائع. وقد تم في هذا الصدام إغراق ثلاثة أو أربعة من قوارب بوغامر أوشل حركتها دون خسائر للطرف الأمريكي.

استمرت القوات البحرية الأمريكية في الاشتباك مع الايرانيين باستمرار منذ ٨ أكتوبر/ تشرين الأول حيث ادعت القوات الأمريكية أن أحد زوارق بوغامر المسلحة قد أطلق النيران على طائرة عمودية أمريكية في المياه الدولية، ثم أغرقت المدافع الأمريكية ثلاثة زوارق أخرى وأخرجت ستة إيرانيين من المياه مات اثنان منهم نتيجة إصابتهما بجروح وأعيد الأربعة الباقون الى إيران عن طريق عمان. لم تكن القيادة الأمريكية العليا ترغب في الاحتفاظ بأسرى إيرانيين أو في استبدالهم برهائن في الشرق الأوسط.

صواريخ ستنغر التي لا تقهر

أعلن البنتاغون في ٩ أكتوبر/ تشرين الأول عن اكتشاف قطع غيار لصواريخ ستنغر الأمريكية المضادة للطائرات ـ والتي استخدمت بنجاح من قبل المجاهدين الأفغان ضد القوات الجوية السوفياتية ـ على ظهر قارب إيراني. أحدث ذلك ضجة كبيرة في واشنطن خاصة في الكونغرس حيث يعتبر موضوع تلك الصواريخ حساساً للغاية. لقد منع الكونغرس منذ فبراير/ شباط ١٩٨٦ تنفيذ عدة عقود تسليحية ضخمة بين إدارة ريغان والمملكة العربية السعودية، وكان ذلك بسبب ضغوط من الكتلة المناصرة لاسرائيل وعلى رأسها هيئة الشؤون العامة الأمريكية الاسرائيلية صاحبة التأثير الكبير. فقد تقدمت السعودية بطلب للحصول على ٤٨ مقاتلة أف ـ ١٤ و٦٠٠ صاروخ مافرك وذخيرة مصنوعة من اليورانيوم لاختراق المدرعات ومعدات أرضية هامة لاستكمال نظام الأيواكس بالاضافة الى ٨٠٠ صاروخ ستنغر لحماية سفنها ضد الاعتداءات الايرانية. إلا أنه بدون موافقة الكونغرس الأمريكي على ذلك، ومع انخفاض مبيعات السلاح الأمريكي للسعودية من ٥٤ مليار دولار في عام ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ الى ٦٣٦ ألف دولار في عام ١٩٨٧[١٤]، اتجهت السعودية الى بريطانيا لاقتناء ما يزيد عن مائة طائرة من نوع طورنادو وما يصاحبها من أجهزة ومعدات دفاع جوية وبرامج تدريب وصلت تكلفتها الاجمالية الى أكثر من ٢٠ مليار دولار إلا أنه كان على أمريكا أن تجيب على ذلك السؤال حول وقوع صواريخ ستنغر في أيدي قوات الحرس الثوري الايرانية.

اكتشف المحققون الأمريكان أن اثنين من قادة منظمة الحزب الاسلامي الافغانية قد قاما ببيع ١٦ صاروخاً للحرس الثوري في مايو/ أيار ١٩٨٧ مقابل مليون دولار. إلا أن يونس خالص ـ أحد قادة الحزب الاسلامي ـ ادعى أن مجموعة من جنوده وقعوا تحت نيران حرس الحدود الايراني عندما ضلوا طريقهم صدفة فعبروا الحدود الأفغانية الى داخل إيران واستولى الايرانييون على شاحنتين تابعتين لتلك المجموعة محملتين بصواريخ ستنغر. كما ذكر مفوض سياسي سوفياتي أيضاً أن الاستخبارات السوفياتية لديها أدلة على بيع المجاهدين الأفغان لثلاثة وثلاثين صاروخاً ستنغر لأطراف إيرانية وعشرة صواريخ أخرى لمهربي المخدرات الايرانيين، وذلك بسعر ٣٠٠ ألف دولار للصاروخ الواحد أو بما يعادل ثلاثة أضعاف سعره في السوق. إلا أنه بينما قبلت الحكومة

الأمريكية علناً ـ كما يشير جايمز آدمز في كتاب حديث له ـ بما قاله يونس خالص، إلا أنها اعترفت في دوائر خاصة أن الأفغان قاموا فعلاً ببيع صواريخ ستنغر دون أن يجبروا على ذلك(١٥).

البحرية الأمريكية ترد الضربة

قد يكون اكتشاف قطع غيار صواريخ ستنغر أدى الى سرعة تورط الولايات المتحدة في الحرب ضد إيران سراً وفي العلن. ففي ١٥ و١٦ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٧ أطلق الايرانيون مجموعة من صواريخ دودة القز الصينية من قاعدتهم في الفاو أخطأت أن تصيب ميناء الأحمدي للنفط في الكويت، ولكنها ألحقت أضراراً بهدفين أخرين هما ناقلة تابعة لليبيريا تديرها شركة أمريكية وناقلة أخرى كويتية اسمها سي ـ آيل سيتي كانت ترفع العلم الأمريكي. وقد ذهبت مع مجموعة من الصحفيين في الكويت لمعاينة ما ألحقته صواريخ دودة القز ـ خلال الفترة نفسها ـ من أضرار بإحدى منصات النفط الكويتية داخل البحر بالقرب من الشاطيء.

أصبحت الساحة بعد ذلك مفتوحة للبحرية الأمريكية بالكامل. فبعد انذارات سريعة، ألقت المدمرات الأمريكية بوابل من مئات القذائف على منصة النفط الايرانية «بشارات» في أسفل الخليج. تلى ذلك ما يمكن اعتباره عملية تدمير كامل للمنصة على يد أحد فرق SEAL البحرية الأمريكية واتهام إيران في ٢١ أكتوبر/ تشرين الأول للولايات المتحدة بأنها أصبحت طرفاً مباشراً في الحرب الى صف العراق(١٦).

لا شك أن انتصارات البحرية الأمريكية تسببت في إهانة إيران وزادت من رغبتها في الانتقام، إلا أن قواتها كانت تفضل الرد بضرب العراق وحلفائها من الدول العربية عن الدخول في صدام قاتل مع البحرية الأمريكية. أصدرت طهران تهديدات بعمليات جديدة ضد العراق بما في ذلك قصف بغداد بالصواريخ إذا ما استمر العراق في استهداف المناطق السكانية والصناعية في إيران، وقامت بتكثيف قصفها لمدينة البصرة. جاء الرد الايراني بعد قصف جوي عراقي طويل المدى لخمس ناقلات نفط في مضيق هرمز، بإطلاق صواريخ على بغداد وإصابة إحدى المدارس حيث قتل ٢٢ شخصاً.

أثارت الدعاية العراقية إيران، بوصفها للخميني بالجبن لعدم جرأته على تحدي البحرية الأمريكية، وأفادت بعض التقارير أن الجنود الايرانيين في الجبهة قد اشتاطوا

غيظاً لفشل بلدهم في الرد على حادثة السفينة «هجر إيران» فأرسلوا وفداً منهم في أواخر سبتمبر/ أيلول ١٩٨٧ الى الخميني في بيته بطهران مطالبين بالتحرك المباشر. كما سعى وزير الحرس الثوري محسن رفيق دوست الى تهدأة أتباعه بالتأكيدأن «وسائل مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية والردعلى أعمالها المدمرة» تحت الدراسة، وأن الولايات المتحدة ستتلقى ضربة قوية «مع مرور الزمن»(١٧). لم يكن من محللي كارثة تفجير الطائرة الأمريكية بأن آم ١٠٣ التي تمت في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٨، إلا أن يتذكروا الانذار بالانتقام.

ظلت رغبة البيت الأبيض يسانده كل من وزير الدفاع واينبيرغر والأميرال كرو هي تفادي تصعيد حرب السفن، رافضاً مقترحات القيادة العسكرية الأمريكية في الخليج بتمديد الحماية بالسفن الكويتية التي ترفع العلم الأمريكي لتشمل سفناً غير أمريكية تهددها إيران، كما هرعت في الوقت نفسه قوات بحرية لدول أوروبية أخرى بالذهاب الى الخليج لحماية سفن بلدانها، فتجمعت خلال الأسابيع الأولى لعام ١٩٨٨ قوة تزيد عن أربعين سفينة أغلبها من كاسحات الألغام تتحرك بمحاذاة السفن الأمريكية في الخليج ولكن دون تنسيق يومي معها.

الذي دفع بالدول الأوروبية الحليفة التي كانت رافضة من قبل الى تغيير موقفها هو مجموعة أحداث الألغام التي شهدها الخليج. ففي مايو/ أيار ويونيو/ حزيران ١٩٨٧ وبينما كانت الأنظار موجهة الى حادثة السفينة ستارك وإجراءات رفع الأعلام الأمريكية على السفن الكويتية، أصيبت كل من السفينة التجارية اليونانية أيثنك وسفينة مارشال شيكوف التي كانت ترفع العلم السوفياتي وسفينة أخرى ليبيرية مملوكة في أمريكا بألغام بالقرب من الكويت. وفي أغسطس/ آب أصيبت السفينة تيكسيكو كاريبيان غير المرافقة التي كانت ترفع علم بنما وتحمل نفطاً إيرانياً (وليس عربياً) بلغم بمرسى للسفن بالقرب من خورفكان التابع لدولة الامارات العربية المتحدة في خليج عمان وهو ملتقى السفن لدى انتظارها مرافقة سفن البحرية الأمريكية لها الى الكويت. تلى ذلك الاعتداء على السفينة التجارية الايطالية جولي روبينو والشاحنة البريطانية جينتل بريز في سبتمبر/ أيلول. دفعت كل تلك الأحداث بالدول الأوروبية الى إرسال سفنها الحربية الى الخليج أو تعزيز ما كان موجوداً منها هناك.

في ٢٣ نوفمبر/ تشرين الثاني أشعلت زوارق إيرانية مسلحة النيران في الشاحنة الرومانية فوندولي بالقرب من قاعدة الحرس الجمهوري في جزيرة أبو موسى. وفي ٢٥ ديسمبر (ذكرى ميلاد المسيح) شاهد الجمهور الأمريكي على شاشات التلفزيون تلك المناظر المثيرة للطائرات العمودية الأمريكية التابعة للفرقاطة الأمريكية أل ـ رود والطائرة العمودية لينكس التابعة للبحرية البريطانية وهي تنتشل ٢٠ بحاراً من طاقم ناقلة النفط الكورية هونداي التي أضرمت فيها النيران إثر إصابات من قذائف الزوارق الايرانية المسلحة.

ترك واينبيرغر وظيفته كوزير للدفاع الأمريكي في ٢٣ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨٧، وعبّر لدى عودته للحياة العادية عن امتنانه لنجاح قوات أمريكا وحلفائها في مهمتها في الخليج وعن قناعته بأن الولايات المتحدة «لن تسكت عن الاستفزازات الايرانية في المستقبل أبداً»(١٨).

لقيت عملية إيقاف وصول السلاح سراً الى إيران من مختلف مناطق العالم والتي أشير إليها باسم عملية ستونش، نجاحاً طيباً على أقل تقدير (حيث أنه لم تتسرب بعد أخبار صفقات السلاح مقابل الرهائن). كما قام خليفة واينبيرغر في وزارة الدفاع الأمريكي فرانك كارلوتشي بجولة في أوائل يناير/ كانون الثاني في كل من الكويت والبحرين والمملكة العربية السعودية، مجدِّداً تعهد الولايات المتحدة بالحفاظ على أمن الكويت. كانت نقطة التحول الكبرى في الحرب تقترب، كما كان يبدو أن وجود ذلك الأسطول من سفن أمريكا الحربية وحلفائها قد استعاد الهدوء في المنطقة بانخفاض حوادث الاعتداء على السفن خلال الأسابيع الأولى من العام الجديد، بل أن بعض الوحدات البحرية الحليفة قد أخذت في العودة الى قواعدها في أوروبا.

خلال شهر فبراير/ شباط اندلع القتال ضارياً في كردستان بالعراق، بينما استمرت الزوارق الايرانية في شن هجوماتها في الخليج. كما شن العراق بين ٢٩ فبراير/ شباط و٢٧ مارس/ أذار سلسلة جديدة من الهجمات بالصواريخ ضد عدد من المدن الايرانية. وصل عدد الصواريخ التي ألقيت على بغداد وطهران مع نهاية مارس/ أذار ١٤٢ صاروخاً مما بعث الرعب في طهران ودفع بالكثير من السكان الى الهجرة خارجها. كانت الأضرار التي أصيبت بها بغداد أقل حدة حيث أن ربع الصواريخ الايرانية فقط أصابت

أهدافها مقارنة بالعراقية. أما في كردستان فقد تمكنت إيران ما بين ١٣ و٣١ مارس/ أذار من الاستيلاء على مدينة حلابجة التي أبيد سكانها بالأسلحة الكيماوية(١٩).

ثم جاءت اللحظة الحاسمة التي دفعت بالبحرية الايرانية الى الانسحاب من حرب السفن، والتي أكدت قوة الولايات المتحدة في الخليج بأقوى مما كانت عليه في أي وقت سابق. ففي يوم ١٤ أبريل/ نيسان اصطدمت حاملة الصواريخ الفرقاطة يو. أس. أس. روبرتس بلغم بحري أثناء عبورها الخليج في اتجاه الجنوب مما أسفر عن جرح عشرة من بحارتها وأضرار بالغة للسفينة نفسها. أثبتت معلومات الاستخبارات المتوفرة أن اللغم قد زرع حديثاً. وقامت القوات الأمريكية مرة أخرى في ١٨ أبريل بقصف منصات النفط الايرانية بالقرب من حقول سري وساسان كنوع من الرد على ذلك الحادث ومن أجل شل جزء كبير من القدرة الايرانية البحرية.

كان قادة البحرية الأمريكيون يستهدفون على وجه الخصوص الفرقاطة الايرانية سبلان، التي عرف عن قائدها أنه يهاجم السفن التجارية غير المسلحة بعد إجراء مخابرات ودية معها بالراديو. كانت الفرقاطة سبلان عندما بدأت عملية ١٨ أبريل/ نيسان راسية في ميناء بندر عباس وفي مأمن من كل خطر، ما عدا قصف الطائرات الموجودة على السفن الحربية، وهو ما كان الأمريكان يحاولون تفاديه.

لقد كان من المستحيل على القوات الايرانية أن تتحدى العمليات الأمريكية تحدياً مباشراً، ولذا فقد اختارت زوارق بوغامر التابعة للحرس الثوري أن تهاجم حقلاً للنفط في الامارات العربية مملوكاً لأمريكا وزورقاً سحاباً يرفع العلم الأمريكي وناقلة نفط بريطانية. ردت القاذفات الأمريكية أ ـ ٦ مباشرة فأغرقت زورقاً إيرانياً وطردت البقية بينما أغرقت وحدات من الأسطول الأمريكي بالقرب من حقل سري للنفط الزورق جوشان الايراني الذي كان يطلق صواريخاً أمريكية الصنع من نوع هاربون.

تلى ذلك إطلاق نار من الفرقاطة الايرانية ساهاند في اتجاه القاذفات أ ـ ٦ الأمريكية ومشاركة الفرقاطة سبلان بالقرب من بندر عباس في المعركة، فأصيبت من قبل إحدى الطائرات الأمريكية ورجعت الوحدات الايرانية تعرج الى الميناء، بينما صدرت تعليمات من البنتاغون بإيقاف اطلاق النار. أسفرت أحداث ذلك اليوم عن شل أكثر من ثلث القوات البحرية الايرانية حيث أغرقت أو شلت ست وحدات إيرانية بما فيها رامية

صواريخ وفرقاطتان مقابل طائرة عمودية أمريكية واحدة من نوع كوبرا. اتهم بيان عسكري إيراني رسمي القوات الأمريكية بأنها «قد دخلت الحرب الى صف العراق بصورة مباشرة وفاضحة».

نهاية اللعبة في الخليج

بينما ازداد الخنق الايراني على الولايات المتحدة، أصبحت الحرب الايرانية العراقية أشبه ما تكون بفيلم سينمائي تتوالى أحداثه بسرعة مع كل فصل من فصول القصة. أعلنت الولايات المتحدة في ٣٠ أبريل/ نيسان أنها ستسمح لسفنها الثلاثة والثلاثين الموجودة في الخليج بتوفير الحماية للسفن غير المعتدية والمتجهة الى موانيء ليست طرفاً في الحرب إذا ما طلب منها ذلك. رد راديو طهران في ١ مايو/ أيار على ذلك بعبارات مكررة محذراً الولايات المتحدة من التورط في «فيتنام جديدة»[٢٠]. كما أكدت استعادة العراق للفاو في ١٦ و١٧ أبريل/ نيسان قناعة إيران بأن الشيطان الأكبر قد ألقى بكل ثقله في الحرب الى صف العدو. فبغير الفاو لن تستطيع إيران الاستمرار في تهديد الكويت أو الملاحة في أعالي الخليج، بينما شن العراق مجموعة من الحملات العسكرية الناجحة من الفاو كان لها أثر في تقريب نهاية الحرب.

في ٢٣ مايو/ أيار حذا العراق حذو إيران، وأعلن عن هجوم جديد باسم «عملية توكل على الله» من جبهة البصرة، فقامت فرقة الجيش الثالث العراقية بالتعاون مع قوات الحرس الجمهوري بتحرير حوالي ستين ميلاً مربعاً جنوب بحيرة السمك. وفي منتصف يونيو/ حزيران تم طرد الايرانيين من أربعين مرتفعاً استراتيجياً في كردستان وفي ٣٠ يونيو/ حزيران أعلنت بغداد عن استرداد السيطرة من قبل الجيش العراقي على المنطقة بأكملها. وفي هجوم آخر استرد الجيش العراقي أراضي أخرى على الجبهة الوسطى. وأخيراً تحركت فرقة الجيش الثالث وقوات الحرس الجمهوري في الأسبوع الأخير من يونيو/ حزيران لاسترداد منطقة مجنون التي احتلتها إيران منذ فبراير/ شباط ١٩٨٤[٢١].

ايران تصفي حسابها مع واينبيرغر

بينما كانت الهزيمة تلوح في الأفق، سعت إيران الى تسوية حساباتها المتعلقة بتورط الولايات المتحدة في نزاع الخليج. ففي ١٧ فبراير ١٩٨٨ ألقى أرهابيون موالون لايران

القبض بالقرب من الحدود اللبنانية الاسرائيلية على أحد أهم المساعدين العسكريين لواينبيرغر وهو المقدم وليام ريتشارد هيغينز، وهو من أبرز أبطال حرب فيتنام وكان من المسموح لهم بالاطلاع المباشر على أكثر المواد حساسية وسرية مما يصل الى مقعد واينبيرغر، وذلك ما بين يونيو/ حزيران١٩٨٥ يونيو/ حزيران١٩٨٧ .

هيغينز معروف لدى أصدقائه بحماسه الشديد وسرعة انفعاله، ولعل ذلك ما أكسبه تلك المكانة في فيتنام وساعده ـ بالاضافة الى شجاعته ـ على الحصول على تلك الأوسمة القتالية بما فيها وسام الخدمة الممتازة للدفاع والنجمة الماسية ووسام الخدمة الاستحقاقية. إلا أن شدة انفعالاته العاطفية قد تسببت في مصيره النحس أثناء وجوده كقائد لقوات منظمة مراقبة وقف اطلاق النار التابعة للأمم المتحدة في جنوب لبنان. مهما كان الأمر فيظل اختطاف ريتشارد هيغينز وقتله من أكبر الضربات الموجعة التي وجهتها إيران الخميني الى الولايات المتحدة. وكما كان الحال مع وليام بكلي، فاذا تمكن الايرانيون بالتعذيب من استخلاص اعترافات ومعلومات البنتاغون السرية التي اطلع عليها هيغينز أثناء عمله مع واينبيرغر فان جمهورية إيران الاسلامية وأتباعها بإمكانهم إذا ما أحسنوا توظيف تلك المعلومات أن يستفيدوا منها استفادة هائلة.

التحق هيغينز بقواة المشاة البحرية في عام ١٩٦٧ وذهب مع المشاة الى فيتنام وبعد عمله كمساعد عسكري لواينبيرغر في البنتاغون قضى هيغينز فترة الصيف والخريف وأوائل الشتاء المضطربة لعام ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨ في جنوب لبنان. وفي الوقت الذي قد لا يكون هيغينز على إطلاع كبير بأسرار الاستراتيجية العليا لسياسة البنتاغون في الخليج، إلا أنه على الأغلب على معرفة جيدة من خلال قنوات أمريكية وليس من خلال قنوات الأمم المتحدة بالخطط الاحتياطية التي وضعها أوليفر نورث وآخرون لانقاذ الرهائن الأمريكيين أو فديتهم. ولا يستبعد أن تكون علاقة هيغينز الحقيقية أو المفترضة بالمبادرات الأمريكية الخاصة بالرهائن هي السبب في نهايته.

كان هيغينز يوم ١٧ نوفمبر/ تشرين الثاني في طريقه بالسيارة عائداً الى مركز قيادة الأمم المتحدة في الناقورة على الحدود اللبنانية الاسرائيلية بعد اجتماع له مع مسؤول كبير في منظمة أمل الموالية لسوريا، والتي كانت له علاقات ممتازة معها. لقد سبقه في الطريق عدد من ضباط قوات الأمم المتحدة بعلاماتهم وأعلامهم المميزة الواضحة.

انعطفت السيارات الأمامية عند قرية رأس العين على مسافة أربعة أميال جنوب صور ولاحظ الضباط بعدها اختفاء سيارة الجيب التي كان يقودها هيغينز. قفلوا راجعين فوجدا السيارة على قارعة الطريق ولم يكن هيغينز داخلها. لقد خالف الضباط قاعدة سير هامة جداً وهي ضرورة عدم فقدان رؤية السيارة أو الشخصية التي تحت الحماية.

شرح السيد داود داود القائد العسكري لمنظمة أمل في جنوب لبنان لوكالة الأسيوشياتيد بريس ما تم بعد اختطاف هيغينز مباشرة. (قتل داود في كمين بأحد شوارع بيروت الجنوبية يوم ٢٢ سبتمبر/ أيلول من نفس العام). يقول داود أنه في يوم ٢٠ نوفمبر/ تشرين الثاني صادفت المختطفين مشاكل لا نهاية لها. فقد توغلت أول سيارة استخدموها - وكانت فولفو بنية - في أوحال أمطار لبنان الشتوية فأجبروا سائق أحد التراكتورات أن يسحبها ولكن تسبب ذلك في أضرار للسيارة مما اضطرهم الى استخدام سيارة أخرى كانت من نوع بيجو بيضاء اللون. اصطدمت البيجو بعربة مشحونة بالبرتقال في جنوب شرقي صور فاستخدموا - أخيراً - سيارة أخرى نوع مرسيدس حمراء اللون. خلال تلك الساعة والنصف أغلقت منظمة أمل - غالباً بأوامر من الاستخبارات السورية - جميع منافذ منطقة صور جنوبي نهر الليطاني على الحدود الشمالية لمنطقة منظمة مراقبة الهدنة التابعة للأمم المتحدة. ويقول داود أن قائد المختطفين أرسل أربع سيارات فولفو أخرى بنية اللون تجول في القرى المجاورة وذلك بغرض التمويه.

كانت حملة البحث عن هيغينز التي كانت أحياناً تتم بالتنسيق بين كل من منظمة أمل وسوريا والأمم المتحدة والاستخبارات الاسرائيلية والأمريكية هي أكبر عملية للبحث عن ضحية من ضحايا الاختطاف، وذلك لأن هيغينز كان من أهم المسؤولين في الأمم المتحدة علاوة عن كونه أمريكياً له تاريخ مشهود.

أما اهتمام سوريا وأمل فهو راجع الى كون هيغينز كان في اجتماع ودي مع مسؤول كبير في منظمة أمل، والى أن سوريا كانت تحرص على خطب ود الولايات المتحدة التي كانت تحارب وجودها في لبنان قبل أربع سنوات. لقد فرضت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا ودول السوق الأوروبية المشتركة مقاطعة سوريا بعد القبض في مطار هيثرو بلندن على شخص فلسطيني قيل أنه يعمل لصالح الاستخبارات السورية، الذي حمل عشيقته وهي حامل تستعد للسفر على إحدى طائرات العال الاسرائيلية قنبلة ضمن

متاعها. كانت سوريا آنذاك تبحث عن إنجاز كبير يحقق رفع المقاطعة الاقتصادية عنها ولذا فقد خصصت مئات من قواتها الخاصة وكانوا يرتدون ملابس منظمة أمل وبالتعاون معها من أجل البحث عن هيغينز (٢٢).

كانت استراتيجية البحث هي الحرص على بقاء هيغينز في منطقة جنوب لبنان المفتوحة نسبياً حيث أنه بمجرد وصول أي رهينة الى دهاليز بيروت الجنوبية فقد يختفي الى الأبد. كذلك الحال بالنسبة لبعلبك وبقية مناطق وادي البقاع التي يسيطر عليها الشيعة والايرانيون.

قام مئات من الجنود التابعين للأمم المتحدة وميليشيات أمل وسوريا بمحاصرة مساحة في جنوب لبنان قدرها ثلاثمائة ميل مربع بالمتاريس ونقاط التفتيش من جميع الأنواع. كما جاءت الأمم المتحدة برعاة الغنم المدربين من قبل الشرطة والطائرات العمودية التي لم تتمكن من الحركة للأيام الثلاثة الأولى بسبب الأمطار والغيوم التي حجبت الرؤية بالكامل. كما ألقت أمل القبض على عشرات من أنصار حزب الله بما فيهم ـ على حد قول داود ـ أحد الذين شاركوا في تهريب هيغينز الى بيروت. وكان القائمون بالبحث يعتقدون أن هيغينز قد أمضى على الأقل ليلة واحدة في المكان الذي أخذته اليه المرسيدس الحمراء والذي يشك في أنه بيت الشيخ عبد الكريم عبيد الذي اتهم فيما بعد بأنه المخطط للعملية.

وقال داود أن العقل المدبر وراء خطف هيغينز ـ والذي رفض أن يذكر اسمه ـ لم يزل في جنوب لبنان في ٢٠ فبراير/ شباط أي بعد ثلاثة أيام من تاريخ العملية، وذكرت المؤسسة اللبنانية للإرسال المسيحية، أنه عباس ريحاني القائد العسكري لحزب الله في جنوب لبنان، الذي قالت الاذاعة أنه كان يعمل بأوامر قادة الأمن في حزب الله ببيروت وهما عماد مغنية وعبد الهادي حمادي.

في ٨ يناير/ كانون الثاني ١٩٩٠ وبعد قتال ضد حزب الله كشف قادة أمل للصحفيين في بيروت عن مخبأ أرضي بقرية على بعد ثلاثين ميلاً جنوب لبنان يتكون من خمس غرف قالوا أنه استعمل من قبل مختطفي هيغينز وكان له باب غير حقيقي في محل لطلاء السيارات. كما قال مسؤول منظمة أمل الأمني في جنوب لبنان أن المخبأ قد

استخدم لمدة ثلاث سنوات من قبل حزب الله كسجن ومركز للتعذيب وقاعدة للإرهاب.

المعركة من أجل جنوب لبنان

استلمت وكالات الأنباء في بيروت أول ادعاء للمسؤولية عن اختطاف مساعد وزير الدفاع الأمريكي الأسبق في ١٩ فبراير/ شباط ـ أي بعد يومين من العملية ـ وكان ذلك في شكل رسالة مكتوبة بخط اليد باللغة العربية ومرفقة بصورة لبطاقتي تعريف أكدت الأمم المتحدة أنهما خاصتين بهيغينز. جاء في الرسالة أن هيغينز سيقدم للمحاكمة بتهمة «دوره في أعمال تجسسية خطيرة لصالح وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية» أسرعت كلاً من الأمم المتحدة وحكومة الأمريكية الى نفيها. كما طالبت الرسالة مقابل إطلاق سراح هيغينز بانسحاب اسرائيل من منطقة أمن جنوب لبنان وتوقف تدخل أمريكا في المنطقة وإطلاق سراح المسجونين اللبنانيين والفلسطينيين المحتجزين في إسرائيل.

في ٢٢ فبراير/ شباط أرسل المختطفون تسجيلاً مصوراً لمدة سبعين ثانية ظهر فيه هيغينز كثيف شعر الوجه يرتدي كنزته الصوفية التي كان يرتديها عند خطفه، ولكنه في صحة جيدة برغم كآبة منظره، حيث كرر مطالب مختطفيه الثلاثة. كما أرفق الشريط برسالة جاء فيها الحاح على أن تتوقف أمل عن البحث عن هيغينز وتحذير باستمرار خطف الأمريكيين المشكوك فيهم. كان رد الناطق الرسمي باسم البيت الأبيض مارلين فيتزووتر: «نحن لا نعقد الصفقات مع الارهابيين».

تكررت تلك المطالب والتهم ضد هيغينز في رسالة ثالثة بتاريخ ١ مارس/ أذار جاء فيها أن هناك «صفقة أمريكية اسرائيلية يتم اعدادها» تتعلق بالأوضاع في جنوب لبنان وأن تفاصيل تلك الصفقة ستصل لمشايخ الشيعة «بمجرد الانتهاء من التحقيق مع هيغينز».

وصلت رسالة أخرى بتاريخ ٢١ أبريل/ نيسان مرفقة بصورة فوتوغرافية غير ملونة لهيغينز وذلك بعد أربعة أيام من إعلان إذاعة صوت لبنان المسيحية لخبر مقتل هيغينز في مصادمات بين أمل وحزب الله. ذكرت الرسالة أن هيغينز حوكم من قبل «محكمة

المستضعفين» بتهمة التجسس لأنه كان يشرف على فريق تابع للبنتاغون متخصص في محاربة المنظمات العربية وكان يرفع التقارير العسكرية والسياسية عن التطورات في جنوب لبنان.

ثم أعلن المختطفون في ١٢ ديسمبر/ كانون الأول عن صدور حكم الاعدام في حق هيغينز من قبل محكمة المستضعفين وأنه «قدم اعترافات كاملة حول نشاطاته التجسسية».

والسؤال هو: هل كان هيغنز يوم اختطف وقبل ذلك متراخياً في ترتيب أمن برنامج تحركاته؟ لقد أصبح موظفو الأمم المتحدة في لبنان منذ بداية عمليات الخطف عام ١٩٨٤ ملزمين بقواعد خاصة بالتحرك. وقال المتحدث الرسمي لقوات الطوارىء التابعة للأمم المتحدة في جنوب لبنان السيد تيمور غوكسيل وهو تركي الجنسية بعد خطف هيغينز، أنه كان برفقة حراسة عسكرية تابعة للأمم المتحدة. إلا أن متحدثاً رسمياً للأمم المتحدة في نيويورك نفى ذلك بشدة في اليوم التالي حيث قال أن هيغينز «أسوة بأسلافه كان يتحرك في المنطقة بكل حرية وبدون حراسة وأن المراقبين التابعين لمنظمة مراقبة الهدنة في جميع أنحاء الشرق الأوسط لم يكونوا ـ بعكس زملائهم في قوات السلام التابعة للأمم المتحدة ـ يحملون السلاح أو يتنقلون بمرافقة حراسة مسلحة».

بغض النظر عن هذا كله فما هو آت كان أسوأ، وما تلى من تطورات زاد من تدمير العلاقات الأمريكية الايرانية ـ إذا كان بالامكان تدميرها أكثر ـ ومن حدة توتر العلاقات الأمريكية الاسرائيلية كذلك.

قضية الشيخ عبيد

هبطت فرق القوات الخاصة الاسرائيلية بطائراتها خلال الساعات الأولى من فجر يوم ٢٨ يوليو/ تموز ١٩٨٩ بالقرب من بيت الشيخ عبد الكريم عبيد بقرية جبشيت بجنوب لبنان التي دمرتها القوات الاسرائيلية والمعارك الطاحنة بين حزب الله ومنظمة أمل. ألقت تلك القوات القبض على الشيخ عبيد واثنين من مساعديه وطارت بهم الى اسرائيل حيث لا يزالون مسجونين حتى كتابة هذه السطور رغم الانتقاد الدولي الواسع لذلك العمل. ادعت اسرائيل أن للشيخ عبيد ضلعاً كبيراً في الاعتداء على القوات الاسرائيلية وأنه لعب دوراً رئيسياً في اختطاف هيغينز.

رد المختطفون بالتهديد بقتل هيغينز ـ الذي أكدوا أنه لا يزال على قيد الحياة مع استمرار حكم الاعدام ضده ـ اذا لم يطلق سراح الشيخ عبيد ويعاد في ساعة محددة يوم الاثنين ٣١ يوليو/ تموز. في ذلك اليوم أعلنت كلاً من أمل وحزب الله الشيعيتين العدوتين اللتين وحد بينهما اختطاف الشيخ عبيد عن إضراب عام في المناطق المسلمة من لبنان. قبل الموعد بقليل كانت الطائرات الاسرائيلية تحوم في أجواء بيروت في طلعات استكشافية ولكن لم تصل أي أخبار عن هيغيز. كرر وزير الدفاع الاسرائيلي عرض اسرائيل الثابت وفحواه أن إسرائيل على استعداد لاطلاق سراح جميع المسجونين اللبنانيين من الشيعة الذين في حوزتها مقابل اطلاق سراح ثلاثة من الضباط الاسرائيليين أسروا عام ١٩٨٨ وجميع الرهائن الغربيين في لبنان.

بعد ذلك بساعتين استلمت إحدى وكالات الأنباء في بيروت خبراً بأن هيغينز قد أعدم شنقاً في الموعد المحدد وأرفق الخبر المكتوب بصورة لجثمان هيغينز يتدلى من حبل المشنقة، إلا أنه لم يكن هناك ما يؤكد تاريخ الصورة. جاء الخبر يحمل توقيع مجموعة أطلقت على نفسها اسم منظمة المستضعفين في الأرض، تابعة لحزب الله.

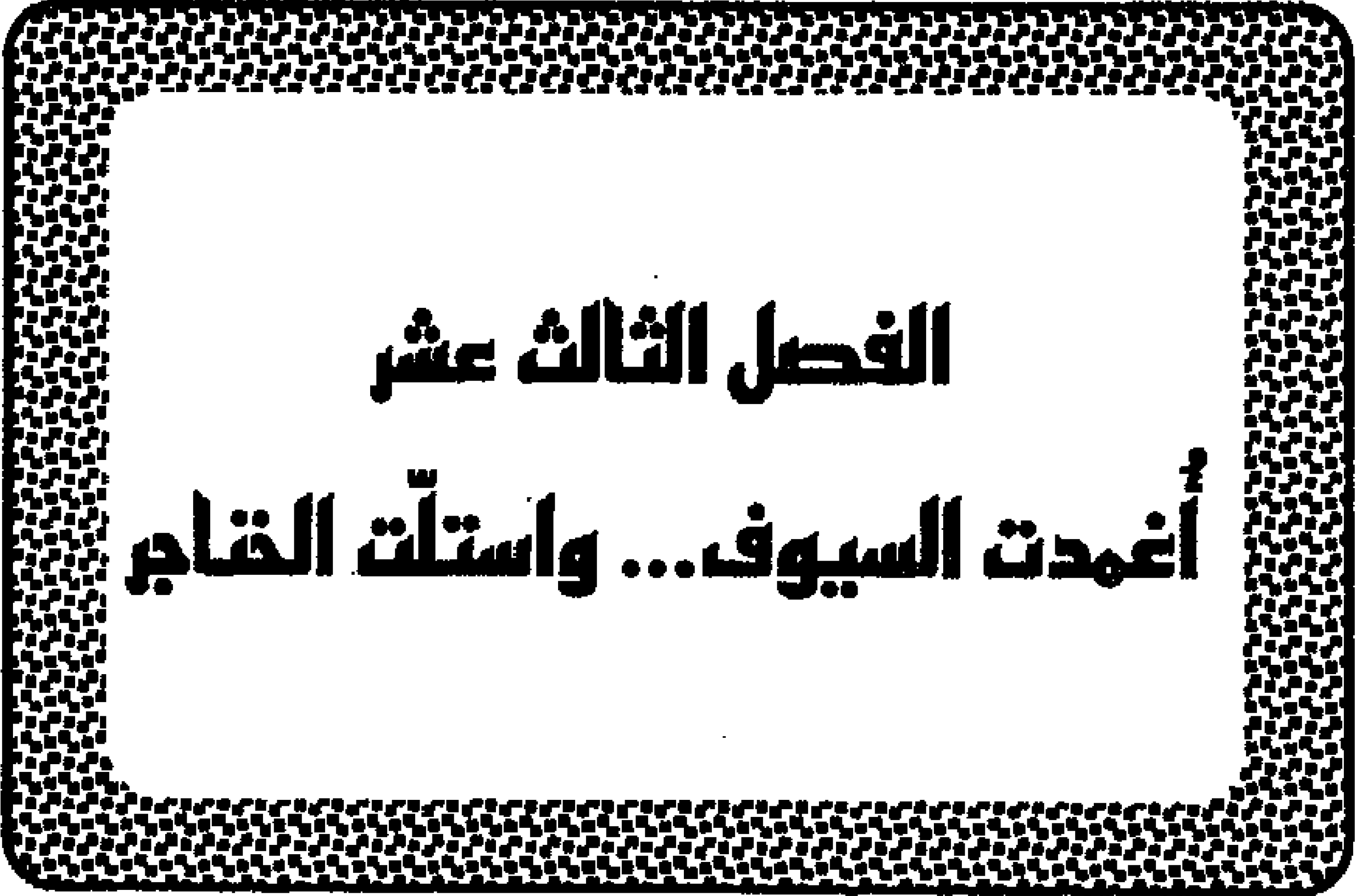
من ضمن عمليات العنف التي أعلنت تلك المنظمة عن مسؤوليتها عنها في السابق خطف اثني عشر يهودياً في بيروت الغربية المسلمة منذ عام ١٩٨٤، وعملية تفجير في مدريد بتاريخ ٢ يونيو ١٩٨٥، وخطف رحلة شركة خطوط الشرق الأوسط من بيروت الى لارنكا في ١٣ يونيو ١٩٨٥. كما تجدر الاشارة الى أنه قبل حادثة هيغينز كانت منظمة حزب الله دائماً تنفي رسمياً المشاركة في عمليات خطف الغربيين.

أكد المختطفون أن شنق هيغينز سيكون «مثلاً ليوم الحساب، ونجدد تأكيد موقفنا بأن يطلق سراح فضيلة الشيخ وأخويه فوراً لأن ما سيأتي سيكون أعظم وسوف تتحمل أمريكا واسرائيل المسؤولية عليه كاملة». كما توعدوا «باجتثاث السرطان الاسرائيلي وقطع يد المكابرين بقيادة أمريكا وتمجيد عقيدة الاسلام وأمة محمد حتى يرفرف علم الوحدة الاسلامية في العالم أجمع»(٢٣).

أغلب الظن أن مقتل ريتشارد هيغينز قد تم قبل ذلك بمدة وبعد «محاكمته» في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٨ أو خلال مشاحنة أو محاولة هرب بعد ذلك التاريخ، إلا

أن المختطفين احتفظوا باعلان خبر موته ـ كما فعلوا مع ويليام بكلي من قبل ـ لمناسبة سياسية هامة.

وهكذا فلم يكتف المختطفون باثارة الرأي العام الغربي والأمريكي بالذات ضدهم، بل استمروا في تغذية الأزمة بتوسيع دائرتها وجر كل من اسرائيل والميليشيات اللبنانية والأمم المتحدة وإيران إليها. فما هو يا ترى التهديد التالي؟ كان ذلك قتل رهينة أمريكي آخر في لبنان وهو جوزيف سيسيبيو الموظف بإدارة جامعة بيروت الأمريكية والذي سنعود الى الحديث عن قصته فيما بعد.



الفصل الثالث عشر

أُغمدت السيوف... واستلّت الخناجر

نهاية رحلة رقم ٦٥٥ للخطوط الجوية الايرانية

في الثالث من يوليو/ تموز ١٩٨٨ كانت الأسر الامريكية في جميع أنحاء الولايات المتحدة تستعد للاحتفال بذكرى الرابع من يوليو/ تموز في نهاية الأسبوع . كان الرئيس ريغان تصحبه زوجته يشارك بصورة رسمية في مهرجانات الاحتفال بذكرى المائة الثانية للثورة الأمريكية بمدينة نيويورك التي كانت تزدهي بالأضواء الكاشفة والألعاب النارية والقوارب العالية وغير ذلك من الاستعراضات ومباهج الاحتفال الرائعة. وكانت المهرجانات تحيي حلفاء أمريكا في تلك الثورة وخصوصا فرنسا، ولم يبدأ في الانتباه الى الصراع المدمر الذي تزرع بذوره ثورة أخرى هي الثورة الايرانية سوى عدد قليل جدا من الأمريكيين.

كانت ايران خلال الشهور السابقة تعج باضطرابات هائلة . فقد كانت على وشك أن تخسر ضد العراق وكان معظم أفراد شعبها يعرفون ذلك. وفي مارس/ أذار قال الجنرال جورج كريست القائد الاعلى للقيادة المركزية ومسؤول العمليات الامريكية في الخليج الفارسي وبحر العرب لاحدى لجان الكونغوس، أن ايران بعد آخر هجوم لها على البصرة لن تستطيع القيام بهجوم كبير اخر. كما ان القصف العراقي الجوي المستمر واستخدام العراق للاسلحة الكيماوية قد حطم معنويات القوات المسلحة والشعب في ايران بصورة واضحة .

ألقى الجيش الايراني الرسمي وقوات الحرس الثوري اللوم كل منهما على الآخر، بعد أن استعاد العراق شبه جزيرة الفاو وأقيلت شخصيات قيادية عليا في كلا القوتين بما في ذلك رئيس أركان حرب الجيش الايراني. قام الخميني في ٢ يونيو/ حزيران بتعيين السيد علي أكبر هاشمي رفسنجاني كقائد عام بالوكالة وأسند اليه المهمة المستحيلة وهي تحقيق انتصار عسكري ضد العراق خلال ستة أشهر. كما تم خلال يومي ١و٢ يونيو/ حزيران اعتقال عدد من أصدقاء السيد مهدي بازرغان الذي طالما دعى الى وقف اطلاق النار والدخول في مفاوضات سلمية وتجرأ على انتقاد الخميني وتحميله وحده شخصيا

المسؤولية على الحرب. وفي ٣ يونيو/ حزيران، وتأكيدا لتصميم رفسنجاني على نقل الحرب الى داخل أراضي العدو، قصفت قاذفة مقاتلة ايرانية قرية عويجة العراقية بالقرب من مسكن أسرة صدام حسين. ومن جهة ثانية عبر صدام حسين مرة أخرى بعد استرداد قطاع مجنون أن العراق على استعداد للسلام (أي القبول بقرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨) واتهم الولايات المتحدة ـ باطلا بالتأكيد هذه المرة ـ بتزويد ايران بمعلومات استخباراتية سرية حول الهجومات العراقية[١] مما يؤذن بمستقبل الصراع القادم بين العراق وامريكا.

مع حلول ١ يوليو/ تموز أصبح المخططون في البنتاغون قلقين حول حشود ايرانية في بندر عباس حيث توجد طائرات أف ـ ٤ وأف ـ ١٤ وفي منطقة مضيق هرمز حيث لوحظ بناء قواعد لصواريخ دودة القز. أعلن البنتاغون في نفس اليوم عن وصول الطرادة فينسين حاملة الصواريخ الموجهة تحت امرة الكابتن ويل روجرز. استلمت الطرادة المجهزة بأرقى ما تمتلكه البحرية الأمريكية من أجهزة التحكم في القتال ـ وهو نظام أيغيس Aegis ـ فجر يوم الثالث من يوليو/ تموز المعلومات نفسها التي استلمتها وحدات القيادة المركزية والتي تفيد بأن ايران قد تستغل انهماك السلطات العسكرية الامريكية في مهرجانات الاحتفال بذكرى الرابع من يوليو/ تموز لشن هجوم مفاجىء من نوع ما.

في اليوم السابق قامت زوارق بوغامر الايرانية المسلحة بالتجمع كأفواج النحل حول ناقلة دنماركية كبيرة واستمرت في اطلاق الصواريخ عليها الى أن تدخلت فرقاطة أمريكية لطردهم. وفي المساء أعطى رفسنجاني في مقابلة تلفزيونية أول أشارة علنية للقيادة الايرانية بأن ايران قد تضطر لايقاف الحرب[٢].

انطلقت طائرة الركاب الايرانية أ ـ ٣٠٠ أيرباص رحلة رقم ٦٥٥ من مطار بندر عباس مابين الساعة العاشرة و٤٥ دقيقة والحادية عشرة صباحا. كانت رحلتها العادية الى دبي عبر الممر الجوي غولف أمبر ٥٩ تمتد لمسافة ١٤٠ ميلا وكانت تحمل ٢٩٠ راكبا من بينهم ٦٦ طفلا. وكانت تلك الرحلة لانخفاض تكاليفها تجد اقبالا كبيرا لدى كثير من الايرانيين الراغبين في التسوق من أسواق دبي الغنية بالبضائع أو زيارة أقربائهم من الجالية الشيعية الكبيرة المقيمة هناك.

قبل موعد انطلاق الرحلة رقم ٦٥٥ بخمس وثلاثين دقيقة اشتبكت الزوارق الايرانية المسلحة بالقرب من بندر عباس مع طائرات عمودية من السفينتين الامريكيتين فينسين و يو. أس. أس. المار مونتغومري، مما أسفر عنه اغراق زورقين والحاق أضرار بثالث. بعد ذلك لاحظ المراقبون على ظهر السفينة فينسين على شاشات الرادار ما اعتقدوا انه طائرة حربية ايرانية من نوع أف ـ ١٤ تتجه نحو السفينة في محاولة لدعم الزوارق التي كانت تلف حولها. حذر الكابتن روجرز تلك الطائرة عبر الراديو سبع مرات وبعد الحصول على اذن قيادة المنطقة بضربها، ظل متردداً بترقب. كانت طائرة الركاب رحلة رقم ٦٥٥ ـ على حد تقرير برج المراقبة في كل من بندر عباس ودبي ـ في سيرها الصحيح على ارتفاع ثابت قدره ١٢ ألف قدم استلمت لتوها اشارة من دبي بالسماح لها بالارتفاع الى ١٤ ألف قدم.

أخيرا وبعد مرور دقيقتين أصدر روجرز الامر ـ الذي سيتحمل مسؤولية شخصية عنه فيما بعد ـ باطلاق صاروخين سطح ـ جو من نوع ستاندرد أصاب واحد منهما على الاقل طائرة أيرباص للركاب احالها اشلاء قطعا وقتل جميع من فيها من الركاب وكان معظمهم ايرانيون ومن بينهم ستة يوغسلاف وايطالي واحد وستة هنود. أعلنت طهران خلال دقائق أن الولايات المتحدة قد ارتكبت «جريمة ضد الانسانية».

شرعت وأنا في بيتي بلندن في متابعة الاخبار عن طريق الاذاعات العالمية ومن خلال الإتصالات الهاتفية بواشنطن واماكن مختلفة في الخليج. أثار الحادث فيضا من الشتائم من طهران بينما ظل الجانب العربي من الخليج ملتزما الصمت. أعلن البنتاغون ابتداء أن السفينة فينسين قد أسقطت على ما يبدو طائرة أف ـ ١٤ ايرانية، ثم أعلن رئيس أركان الحرب المشتركة الامريكي الاميرال وليام كرو أن «الاشارات الالكترونية التي استلمتها السفينة فينسين أكدت لها ذلك» بينما كان الهدف في الحقيقة هو الرحلة رقم ٦٥٥.

ظل المتحدثون الرسميون باسم البنتاغون يشيدون بأجهزة السفينة الالكترونية ونظام أيغيس الدفاعي المتقدم الذي يملك القدرة على متابعة مسار مائتي هدف في آن واحد على بعد مسافة ١٥٠ ميلا وسرعتهم وعلاماتهم الرادارية، وشن هجوم على عشرين هدف في وقت واحد. الا انهم اعترفوا أن صورة الايرباص من الامام في شاشة الرادار لا

تتميز عن صورة أف ـ ١٤ وأن نظام أيغيس لم يكن بمقدوره أن يميز بين انواع الطائرات . وبعد يومين من الحادث صرح متحدث رسمي باسم البنتاغون أن طائرة الركاب كانت تثبت على نفس ذبذبة الاشارات اللاسلكية التي تستخدمها الطائرات العسكرية ، وكتب بعض المتخصصين فيما بعد أن تلك الاشارات تصدر عن مصادر أخرى وليس عن طائرة الركاب .

وقال كاسبر واينبيرغر: «الغرض الرئيسي من نظام أيغيس هو الرصد والمتابعة في بيئة قتالية ، ويؤكد الحادث الاليم مدى مخاطرة ايران بادارة نشاطها التجاري كالمعتاد في الوقت الذي كانت طرفا في نشاطات عدائية في جميع أنحاء الخليج »[٣]. كان الرأي الرسمي الامريكي الذي عبر عنه واينبيرغر وغيره منهم نائب الرئيس جورج بوش ، هو أن ايران هي التي تتحمل الذنب أو ـ على أحسن الافتراضات ـ هي المسؤولة عن ارتكاب ذلك «الخطأ المأساوي» .

ويؤكد طيارون مدنيون لا يرغبون في الافصاح عن هويتهم (تحدثت مع أحدهم من لندن بالتليفون) أن فينسين وغيرها من السفن الحربية الامريكية معروفة بأنها تتصرف بكل تسرع وعدم انضباط وتصدر التهديدات والتحذيرات ضد الطائرات المدنية . وقد اشتكت سلطات برج المراقبة في مطار دبي عدة مرات للسفارة الامريكية في محاولة لالغاء تلك التهديدات .

وفي ١٥ يوليو/ تموز نشرت ايران تسجيلا للاتصالات التي تمت بين برج المراقبة في المطار وطائرة الركاب أكد أنها كانت تثبت على الذبذبة الصحيحة المخصصة للطيران المدني . كما أوضح طيارون آخرون أن قائد الطائرة الايرانية قد يكون مشغولا في التحدث مع برج المراقبة في بندر عباس ودبي ولم يتمكن من التقاط تحذيرات السفينة فينسين أو طلبها للتعريف بنفسه . وبالرغم من أن المراقبين في بندر عباس قد أخروا اقلاع طائرات في السابق عندما أخبروا من قبل القوات الايرانية في عرض البحر بوجود حالة قتال الا انه يبدو أنهم لم يخبروا تلك المرة عن هجوم الزوارق الايرانية على السفينة فينسين .

وتساءل الكابتن أيكهارت ضابط البحرية الامريكي المتقاعد وأحد منتقدي الكابتن روجرز عن سبب السماح للسفينة حاملة نظام الأيغيس بالاشتباك مع زوارق

ايرانية أصلا، وكتب يقول أن «تعريض طرادة قيمتها مليارات الدولارات في مناوشات مع زوارق لا تساوي شيئا، خاصة في قتال لا يستدعي استخدام امكانياتها المتقدمة، لايعتبر قرار منطقيا أو حكيما» وكان الأولى ـ على حد قوله ـ أن تتولى ذلك الفرقاطات المصاحبة للسفينة. وقال ايكهارت «لم يكن امام الكابتن روجرز الا أن يخمن ولكنه خمن خطأ» . رد على ذلك الكلام الضابط البحري المتقاعد الأميرال فريدريك جونسون:

لم يكن اسقاط الطائرة قضاء وقدرا. لعله جاء نتيجة خطأ ولكنه لم يكن قضاء وقدر. لقد عمل نظام الأيغيس الالكترونيك حسب المعتاد تقريبا. لقد أدى رجال السفينة مهمتهم كما يؤديها أي مقاتل محترف ولا يملك أحد سواء كان كبيرا أم صغيرا أن يفصل في الامر ما دام لم يكن على ظهر السفينة اثناء الحادث ولم ير ما حدث من زاوية نظر السفينة فينسين نفسها(٤).

ويبدو أن هذا الرأي الأخير هو الذي ساد على المستويات العليا في الادارة والبحرية الامريكية، بينما عانى الكابتن روجرز وعائلته في محل اقامتهم بولاية كاليفورنيا الكثير من الألم النفسي والمضايقات. فقد منعت زوجته وكانت مدرسة من الاستمرار في وظيفتها واصيبت بصدمة شديدة عندما ألقيت قنبلة على سيارتها. ولعل منح الكابتن روجرز وساما من قبل البحرية الامريكية ـ الامر الذي روقب بمرارة في طهران ـ خفف بعضا من تلك الآلام.

عبر الرئيس ريغان في رسالة سلمت لايران في ٤ يوليو/ تموز عن طريق الحكومة السويسرية عن أسفه على الحادث وتعازيه لاسر الضحايا، بينما أشار البيت الابيض لوسائل الاعلام أنه يعتبر الموضوع قد «أقفل» وفي ١١ يوليو/ تموز بيّن تصريح من واشنطن أنه سيتم تعويض أسر المفقودين ـ ولكن ليس الحكومة أو خطوط الطيران الايرانية ـ بمجرد توفر الامكانية لتحقق ذلك بصورة مباشرة.

الدعوة الى الانتقام

بينما كانت الاحتفالات الامريكية بالذكرى المئوية الثانية متواصلة دون انقطاع في الولايات المتحدة، كان التلفزيون الإيراني في ٣ يوليو/ تموز يعرض المناظر المروعة لأشلاء جثث ضحايا الطائرة المدنية المبعثرة فوق مياه الخليج واصفا الحادث بأنه «أكبر جريمة في عصرنا الحاضر» يشجب « المجرمين القتلة» وينادي بضرب الاهداف الامريكية.

خرج في الجنازة الرسمية في طهران عشرة الاف مواطن ـ وهو نزر قليل من العدد الذي سيحضر جنازة الخميني في يونيو/ حزيران ١٩٨٩ ـ كانوا يهتفون بكل جوارحهم: «الموت لأمريكا».

القليل من قادة ايران ردد الدعوة للانتقام علنا. فقد أعلن الرئيس علي خامنئي أن الجمهورية الاسلامية سوف تستخدم «كل قوتها في المكان والزمان الذي تختار» بينما لزم المتشددون من امثال محمد محتشمي الصمت. وفي مؤتمر صحفي عقد يوم ٥ يوليو/ تموز بينما كانت ايران تطالب بانعقاد مجلس الامن، طالب وزير الخارجية علي اكبر ولايتي بادانة الولايات المتحدة لخرقها للمبادىء والأعراف الدولية مذكرا بتحذيرات ايران المتكررة من خطورة الحشود الامريكية في الخليج.

كان دعم أمريكا أقل من المعتاد. فأعلنت رئيسة وزراء بريطانيا تاتشر قبولها لحق سفن مثل فينسين في «الدفاع عن النفس» ولطفت ذلك بالتعبير عن «أسفنا العميق للخسائر البشرية» جراءذلك الحادث الذي كان «مأساة على جميع الاطراف المعنية». أما ردود فعل الاتحاد السوفياتي فقد جاءت روتينية ومتوقعة حيث وصفت وكالة تاس للانباء الحادث بأنه كارثة نتجت عن حشد القوات الامريكية في الخليج. وتحدثت ليبيا وسوريا عن هذا العمل «الاجرامي» وعن «الارهاب».

أصدر مجلس الامن في ٢٠ يوليو/ تموز قرار يعبر فيه عن «الأسى» ويطالب «بتفصيل كامل حول حقائق الحادث بناء على تحقيق محايد» تقوم به المنظمة العالمية للطيران المدني تلبيةلطلب من ايران، وكرر المجلس الدعوة لوقف اطلاق النار بين ايران والعراق حسب ما نص عليه القرار رقم ٥٩٨. كما اعترف آخر تقرير للبنتاغون نشر في ١٩ أغسطس/ آب بخطأ الولايات المتحدة وكرر فكرة مشاركة ايران في المسؤولية عن الحادث وخلص الى أنه لن تتخذ أي اجراءات تأديبية في حق الكابتن روجرز أو ملاحيه لكونهم مجهدين نفسيا.

يبدو أن فقدان الطائرة المدنية وركابها قد أقنع رفسنجاني وبعض القيادات الاخرى في ايران أن الاستمرار في الحرب «سيؤدي الى خسائر غيرعادية بالنسبة للشعبين الايراني والعراقي»(٦). لذلك قرر أن يصطحب ابن آية الله الخميني أحمد في زيارة للخميني الذي كان يعاني من مرض الشقشقة وكان ـ كما قيل ـ يمضغ الافيون ليخفف من

آلامها، ليؤكدا له أن التقارير الاستخباراتية من جميع الجبهات لا تبشر بخير بالنسبة لايران. كانت السفن الحربية الامريكية مستمرة في صداماتها مع ما تبقى من قوات الحرس الثوري البحرية. وفي العراق كانت منظمة مجاهدي خلق الايرانية اليسارية ـ بقوة قوامها عدة فرق عسكرية ـ تتوغل في الاراضي الايرانية، وكان الانطباع في طهران (الذي رسخته منشورات المنظمة المطبوعة على الورق الفاخر المصقول وبياناتها العسكرية حول الانتصارات) هو أن لو استطاعت تلك المنظمة توطين نفسها في جنوب غرب ايران فسوف تعلن عن حكومة برئاسة مسعود رجوي مرتبطة في قوتها بالعراق. وتفيد التقارير أن رفسنجاني وأحمد الخميني أكدا لآية الله الخميني ضرورة تسوية الحرب قبل أن يختاره الله الى جواره والا فسيكون هناك صراع دموي حول من يخلفه(٧).

وافق الخميني وأصبحت الحرب في حكم المنتهية. وكانت الحرب الاخرى ـ تلك الحرب السرية لتصفية الحساب مع الشيطان الأكبر ـ على استعداد للدخول في مرحلة جديدة.

في بيان أذيع بالراديو يوم ١٨ يوليو/ تموز أعلن رفسنجاني قبول ايران بقرار مجلس الامن رقم ٥٩٨ لوقف اطلاق النار، وبعد ذلك بيومين أصدر آية الله الخميني بيانا أذاعه راديو طهران قال فيه أن قبوله بوقف اطلاق النار كان بمثابة «شرب السم». كما أن ذلك الحماس الملتهب لم يختف بالكامل اذ قال:

«لقد كنا ولا نزال مصممين على نشر نفوذ الاسلام في العالم والتقليص من سيطرة الذين يريدن تفتيت العالم، واذا كان عبيد الولايات المتحدة يصفون ذلك بأنه توسعية فاننا لا نخشاهم ونرحب بما يقولون.

لا بد من تحطيم أيدي القوى العظمى وخاصة الولايات المتحدة وتكسير أنيابها، وليس أمامنا سوى خيارين الشهادة أو النصر ونحن نعتبر أن كلاهما نصر.....».

وخاطب السعوديين والكويتيين وبقية عرب الخليج بقوله: «انكم جميعا متآمرون مع الولايات المتحدة في مغامراتها وجرائمها، ولكننا أمسكنا عن اغراق المنطقة في النار والدماء وزعزعتها بالكامل» موحيا بأن يمكن أن يتم مستقبلا(٨).

استمر العراق في ضغوطه العسكرية ضد ايران حتى اعلان وقف اطلاق النار في ١٨ أغسطس/آب، بينما تغلغلت قوات مجاهدي خلق الى مسافة تسعين ميلا داخل ايران في بعض المناطق مهددة مدينة كرمانشاه وان لم تحتلها فعلا. أدت «طعنة الخنجر» تلك خلال الايام الاخيرة للحرب الى تعاظم الدعم الشعبي وراء رفسنجاني، فقاتلت بقايا الحرس الثوري وقوات الاحتياط النظامية جنبا الى جنب مع القوات الشعبية المسلحة، والحقت بالغزاة من قوات منظمة مجاهدي خلق هزيمة نكراء لم تقم لتلك المنظمة بعدها قائمة تذكر(٩).

شكل مجلس الامن الدولي ما بين ٨و٢٠ أغسطس ترتيبات قوات حفظ السلام لمراقبة خط وقف اطلاق النار الممتد مسافة ما يزيد عن ألف ميل من كردستان الى الخليج. كما شكلت بناء على قرار صدر في ٩ أغسطس/آب مجموعة المراقبة العسكرية التابعة للأمم المتحدة والتي تتكون من ٣٥٠ مراقب غير مسلحين من أربع وعشرين دولة ما عدا الولايات المتحدة انتشروا ما بين ١٠ و ٢٠ أغسطس/آب في محطات مختلفة على طول خط وقف اطلاق النار.

وبعد أن اعلنت ايران يوم ١٩ أغسطس/آب أنها تحتفظ بحقها بناء على قرار وقف اطلاق النار في تفتيش السفن المارة في مضيق هرمز وأعلن العراق شجبه لذلك التصريح أصبح قرار وقف اطلاق النار ساري المفعول. بدأت المرحلة الأولى لمحادثات السلام في جنيف ما بين ٢٥ أغسطس/آب و١٥ سبتمبر/ ايلول ولكنها سرعان ما تعرقلت بسبب الخلاف حول قضية السيادة على منطقة شط العرب والتي لم تنته فصولاً حتى يومنا هذا(١٠).

الاستعداد لأخذ الثأر

ظلت حادثة طائرة الركاب المدنية تنغص على القيادة الايرانية ـ والراديكالية منها على وجه الخصوص ـ بينما كانت جهود السلام تأخذ مجراها. كان هناك تعبير علني عن الانتقام. وقد قضيت شهورا طويلة مع فريق تابع لشبكة أ. بي. سي. للاخبار ABC News نحقق في أحداث عام ١٩٨٨، أكدت لنا خلالها تقارير الاستخبارات أن علي أكبر هاشمي رفسنجاني كان ـ مرة أخرى ـ متزعما الدعوة للاعتدال وتحكيم العقل. وقد ترأس رفسنجاني اجتماعا عقد في طهران ما بين ٣ و٥ يوليو/ تموز لحكومة الخميني

«غير الرسمية» حضره كل من علي أكبر محتشمي وأحمد الخميني ومهدي كروبي ـ تلك الشخصية السياسية القوية الذي كان يسيطر على صندوق الشهداء خلال فترة الحرب ـ حيث ألح عليهم رفسنجاني بضرورة «الا يكون هناك انتقام لأن أمريكا قادرة على أسوأ من ذلك العمل وايران منهكة ولا نستطيع محاربة أمريكا والعراق وكل حلفائهما في وقت واحد، ودعونا الآن نركز على تحقيق السلام والبناء».

وتفيد المعلومات التي وصلتنا أن مهدي كروبي ترأس اجتماعا ثانيا بعد يوم أو يومين من الاجتماع الأول لنفس المجموعة باستثناء رفسنجاني الذي كان غائبا، وكان كروبي يدعو الى الانتقام لحادث طائرة الركاب المدنية وتقدم بمكافأة ثمينة لمن يقوم بأول عمل انتقامي.

احمد جبريل

مع نهاية شهر يوليو/ تموز بدأت تتبلور سلسلة من الاحداث كان لها أثر حاسم في الساحة. ظهر أحمد جبريل قائد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة، في تلك الاحداث المتهم الاول ـ ولم تتم ادانته حتى كتابة هذه السطور ـ في مؤامرة لأكبر عملية ارهابية في حالة السلم ضد مواطنين أمريكيين.

ولد احمد جبريل عام ١٩٣٧ وكان هو واسرته من ضمن الذين هاجروا من فلسطين عام ١٩٤٨ حيث أقام بمدينة القنيطرة ـ التي دمرت في حرب عام ١٩٦٧ ـ بالقرب من مرتفعات الجولان في سوريا. التحق أحمد جبريل بالجيش السوري وهو في التاسعة عشرة من عمره ووصل الى رتبة رائد في فرقة الهندسة، تخصص متفجرات وتدمير بالقنابل. طرد من الجيش «لنشاطاته الثورية» وانتقل الى القاهرة ثم التحق مرة أخرى بالجيش السوري وطرد منه للمرة الثانية.

كما التحق أحمد جبريل بعدد من المنظمات الفلسطينية الارهابية وطرد منها.

تعرف أحمد جبريل في أواخر الستينات على جورج حبش وهو طبيب فلسطيني من خريجي الجامعة الامريكية في بيروت، وكان قد كون منظمة راديكالية ذات توجه ماركسي هي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وبالرغم من اتفاقهما على القضاء على دولة اسرائيل في اقصر مدة ممكنة، الا ان أحمد جبريل وجورج حبش كانا على خلاف حاد حول كل القضايا الاخرى تقريبا. في خلال سنة من الالتحاق بالجبهة الشعبية وفي

اثناء زيارة لجمع الاموال في الكويت أخذ أحمد جبريل يتهم جورج حبش وأصدقاءه من ذوي الافكار السياسية في حركة القوميين العرب بأنهم جبناء لا يهمهم في الحقيقة قتال اسرائيل ولكنهم يريدون السيطرة على الجبهة عقائديا.

لخص لي جورج حبش تقييمه لأحمد جبريل عام ١٩٧٢ كالتالي:

مجموعة جبريل لا تملك الشعور السياسي أو العقائدي، وقد حاربنا على مدى أثنتين وعشرين سنة ولا بد أن يتعلم المرء كيف يقاتل ولا بد من مذهب سياسي ورؤية. لقد تعقدت علاقاتنا مع الحكومات العربية بما لا نهاية بسبب أسلوب جبريل(١١).

شكل أحمد جبريل في عام ١٩٦٨ وحدة قتالية صغيرة عرفت باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة، قامت بتنفيذ عمليات ارهابية كثيرة من قاعدتها في دمشق بما في ذلك الهجوم على موقع داخل اسرائيل بثلاث طائرات شراعية اسفر عن مقتل ستة جنود اسرائيليين وجرح سبعة آخرين في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨٧. كان ذلك الحادث بداية حركة الانتقاضة الفلسطينية في الاراضي المحتلة. كما كان أحمد جبريل مغرما بالهجوم على الطائرات المدنية، كان منها على سبيل المثال الطائرة السويسرية رحلة رقم ٣٣٠ من زيوريخ الى تل أبيب في ٢١ فبراير / شباط ١٩٧٠ التي انفجرت في الجو وسقطت في احدى الغابات السويسرية قتل فيها سبعة واربعون راكبا وملاحا. كما انفجرت في نفس اليوم على ارتفاع عشرة آلاف قدم قنبلة وضعها أتباع أحمد جبريل في طائرة نمساوية متجهة من فرانكفورت الى فيينا، ولكن طيارها تمكن من الهبوط بها في فرانكفورت ولم يصب الا راكب واحد بأضرار طفيفة. وكشف المحققون أن المتفجرات في الحالتين كانت داخل أجهزة تسجيل صوتية ركبت في المانيا الشرقية(١٢).

كان لجبريل ايضا نشاط في القبض على الاسرائيليين وتبادل السجناء مع اسرائيل. فقد ألقى رجاله القبض على ثلاثة جنود اسرائيليين خلال غزو اسرائيل للبنان في عام ١٩٨٢، فردت اسرائيل باختطاف أحد اقاربه في لبنان من اجل الضغط عليه، الا أن جبريل تمكن عن طريق الهيئة الدولية للصليب الاحمر في عملية تمت في ٢٠ مايو/ أيار ١٩٨٥ تبادل الاسرى الاسرائليين مقابل ١١٥٠ سجيناً فلسطينياً وسورياً ولبنانياً كانوا

في سجون اسرائيل. كان من بينهم صديق جبريل الحميم ونائبه حافظ قاسم دلكاموني.

لعل أكبر عدو لجبريل بعد اسرائيل هو رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، أحد دعاة المفاوضات السلمية مع اسرائيل حيث كانت بينهما معارك كثيرة. وقد أخبرني أحد عناصر عرفات الامنية المقربة في تونس في نوفمبر/ تشرين الثاني أن «جبريل بالنسبة لنا أخطر شخصية في العالم العربي لانه يسعى لان يحل محل عرفات» ـ الذي كان على وشك أن يعلن رئيسا لدولة فلسطين في مؤتمر المجلس الوطني الفلسطيني المنعقد آنذاك في الجزائر ـ «كقائد أعلى للحركة».

لقد كانت عداوة جبريل لعرفات شخصية بكل تأكيد، ولكن جبريل كان عقائديا متطرفا كذلك. فهو يؤمن بأن دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة بعد انسحاب اسرائيل لا يمكن أن تتعايش مع دولة يهودية، وكان على استعداد للقتال حتى الموت أو أن يستعيد الفلسطينيون وطنهم.

لقد كان تخوف رجال الاستخبارات الغربية عقب اسقاط طائرة الركاب الايرانية في الخليج في محله، حيث أن تقارير الاستخبارات العراقية التي كانت تحمي ياسر عرفات، والاستخبارات الاسرائيلية التي تتابع تحركات الفلسطينيين بدقة أكدت رؤية أحمد جبريل في طهران بعد ثلاثة أسابيع فقط من الحادث.

ان وكالات الاستخبارات الغربية تعلم أن جبريل يعاني من مشكلة أساسية لا يعاني منها ياسر عرفات وهي قلة الموارد المالية. لقد وفرت سوريا لجبريل المأوى والمأكل ومقرا لمنظمته ومعسكرات للتدريب ومستشفى ومدرسة لليتامى الفلسطينيين، ولكن الاستخبارات السورية لم توفر له المال للقيام بعمليات. كما أن ليبيا قد قللت من دعمها المالي مع منتصف الثمانينات بسبب رفض أحمد جبريل قبول وساطة من القذافي بينه وبين ياسر عرفات.

كان ظهور جبريل في طهران كافيا بأن تقوم الموساد بتحذير الولايات المتحدة من وقوع اعتداء ارهابي للاخذ بالثأر مقابل طائرة الركاب الايرانية. بعد ذلك بأسابيع لوحظ كذلك وجود حافظ دلكموني في ايران وكان يعتقد أنه يتولى مسؤولية الاشراف على أعمال الجبهة الخارجية آنذاك.

يعتقد بعض المطلعين العرب أن دلكموني غير مناسب لمثل ذلك العمل لانه لا يوافق على الاعتداء على المدنيين وعلى الفائدة التي يمكن أن تعود من عمليات ضد اهداف غير اسرائيلية، أو هكذا قيل . ويؤكد أقرباءه أيضا انه لم يكن يوافق على رأي المتطرفين الايرانيين بضرورة الانتقام لحادث الطائرة المدنية بضرب هدف أمريكي. قد لا يكون صحيحا ذلك حيث أن مسؤولية دلكموني على عمليتي الهجوم على الجنود الامريكيين في المانيا (الغربية) ـ والتي حكم عليه فيها بالسجن عام ١٩٩١ ـ ثابتة لدى العديد من المحققين الالمان والعرب.

كانت تلك الملاحظات تبدو غير ذات أهمية في صيف عام ١٩٨٨ ، وظلت الاستخبارات الاسرائيلية والعربية والغربية تعمل منفصلة عن بعض للتعرف على الغرض من تحركات دلكموني واعداد جبريل لقواته، لما كان المقربون يعتقدون أنه عملية في غاية العنف ضد اسرائيل أو أمريكا أو ضدهما معا.

اتصل أحمد جبريل في أواخر يوليو/ تموز بصديقه القديم مروان خريصات الذي اشترك معه في عمليات تفجير الطائرات خلال السبعينات معبرا له عن حاجته لخدماته. وافق خريصات ـ مخبر الاستخبارات الاردنية ـ على مضض على أن يهجر حياته العائلية الهادئة بين زوجته السورية وأطفاله في عمان وأن يعود ـ بعد أن أخبر الاردنيين ـ الى العمل مع أحمد جبريل من جديد.

أخبر جبريل خريصات بأن شركة الخطوط الاسرائيلية العال تستخدم جهازاً أميناً جديداً يعرف باسم الغرفة البارومترية التي توجد في المطارات المعرضة للخطر يتم فيها تقليد درجات ضغط الهواء التي تواجهها الطائرة في الجو. فاذا كانت في احدى الحقائب أو في امتعة المسافرين قنبلة معدة للانفجار عند ارتفاع معين ودرجة ضغط معينة فبالامكان تفجيرها في الغرفة قبل وضع الامتعة في الطائرة. أكد جبريل على دلكمومي ضرورة الحاجة للتغلب على الغرفة البارومترية وكان يتوقع منه ايجاد الحل.

البارومترات الخمسة المضاعفة

لم يكن من الصعب على خريصات وصانعي المتفجرات الآخرين في الشرق الأوسط الحصول على المتفجرات البلاستكية، فقد زودت عناصر أمريكية القذافي خلال السبعينات بأطنان من المتفجر سي ـ ٤ . كما حصلت ليبيا على ٩٦٠ طنا من متفجر

سمتكس من مصنع للذخيرة بالقرب من براغ في تشيكوسلوفاكيا مقابل مبلغ ستة ملايين دولار الذي يعتبر لاشيء بالنسبة للقذافي أثناء تلك السنوات الذهبية التي وصل فيها دخل ليبيا من النفط الى ٢٠ مليار دولار.

قامت مجموعة عمليات خاصة تعمل تحت امرة وزارة الداخلية التشيكية في عام ١٩٨٤ باجراء تجارب سرية لتحديد الكمية المطلوبة من السمتكس لتفجير طائرة بالكامل في الجو واسقاطها. ظلت المعلومات سرية الا انه انكشف فيا بعد أن المكان الذي أجريت فيه تلك التجارب كان ملاصقا لمبنى خاص بتدريب عناصر فدائية من العالم الثالث من بينهم ايرانيون وفلسطينيون. أثبتت التجارب ـ على أي حال ـ أن الكمية المطلوبة لتفجير طائرة كبيرة في الجو واسقاطها هي ٢٠٠ غرام على الأقل(١٣).

ذهب خريصات للتسويق في «سوق المهربين» بالقرب من دمشق حيث يتوقف المسافرون لشراء السجائر والويسكي وغيرهما من المواد الممنوعة والمهربة عن طريق لبنان. ودخل محلا صغيرا للأجهزة الكهربائية لشراء خمسة أجهزة راديو ـ كاسيت من نوع توشيبا. عكف خريصات بعد ذلك على تركيب خمسة بارومترات مضاعفة مستخدما أجهزة راديوـ كاسيت التي اشتراها ومواد متفجرة وصلت من ليبيا عن طريق عناصر تابعة للاستخبارات. الحقت بالاجهزة أداوات توقيت حساسة تتأثر بتغيرات الضغط الجوي. والفكرة هي أن يعدل المؤقت لفترة ٣٥ دقيقة مثلا فإذا لم يتغير ضغط الجو بعد ذلك الوقت تقفل دائرة كهربائية في الجهاز توصل اسلاك الشحنة فيحدث الانفجار. أما اذا حدث تغير في الضغط قبل انتهاء مدة الخمس وثلاثين دقيقة ـ كما يحدث اثناء هبوط الطائرات ـ يعود المؤقت بصورة تلقائية الى نقطة الصفر وكأن شيئا لم يكن، وبذلك ـ كما أكد خريصات لجبريل ـ يتم التحايل على جهاز غرفة الضغط الذي تستخدمه العال الاسرائيلية.

كان ذلك يعني أيضا انه بالامكان استخدام تلك الاجهزة في رحلات قصيرة دون أن تنفجر ما دام معدل الضغط داخل الطائرة لم يتغير لمدة أقل من خمس وثلاثين دقيقة. اما اذا استمرت الطائرة في التحليق على ارتفاع ثلاثين ألف قدم مثلا لأطول من تلك المدة فستنفجر الشحنة في الجو.

طلب من خريصات أن يقدم نتائج عمله للفحص من قبل أحد خبراء المتفجرات

في الجبهة المعروف باسم أبو الياس في معسكر أحمد جبريل الرئيسي خارج دمشق. هناك تناقش أبو الياس مع خريصات وساءله حول تلك الاجهزة ثم طلب منه أن يتركها معه لاستعمالها فيما بعد. مع بداية شهر أغسطس/آب ١٩٨٨ طلب من خريصات التوجه الى قرية كروسياج في يوغسلافيا حيث أقيمت أول قاعدة للعمليات الارهابية في اوروبا تابعة لجبهة احمد جبريل، الا ان تلك الخطة ألغيت عندما منع أحد مساعدي دلكموني وهو عبدالفتاح غضنفر من دخول يوغسلافيا.

شددت الموساد على مراقبة مجموعة أحمد جبريل مما أثار احتكاكا بينها وبين الاستخبارات الالمانية (الغربية). لقد تمكنت الموساد على ما يبدو من اختراق جبهة أحمد جبريل وزرع أحد الشباب المثقفين من عرب اسرائيل الدروز واسمه رمزي دياب الذي التحق بالجبهة، ولكنه اختفى بعد أن كشفت الاستخبارات الالمانية خلية ارهابية تستعد للقيام بأعمال في المانيا (الغربية).

وصل مروان خريصات الى مأوى آمن بمدينة نوس بألمانيا يوم ١٣ أكتوبر/ تشرين أول، وكلفه دلكموني باعادة تركيب نفس القنابل الموقوتة التي كان قد صنعها في دمشق واستخدم فيها متفجر السمتكس الذي لا يمكن الكشف عنه بأشعة أكس وعدل مقاديحها لتفجير الشحنات عند وصول الطائرات التي ستحملها الى ارتفاع معين في الجو.

كان أول هدف هو طائرة أيبيريا الاسبانية رحلة رقم ٨٨٨ من مدريد الى تل أبيب عن طريق برشلونة. كما أخبر خريصات رئيسه في الاستخبارات الأردنية ـ التي قامت بدورها بتوصيل المعلومات للاستخبارات الألمانية ـ أنه قام بتركيب قنابل أخرى للاستخدام في مخازن الأمتعة بطائرات شركة العال الاسرائيلية. كما من ضمن قائمة الأهداف أيضا ملهى ليلي بمدينة فرانكفورت يؤمه الجنود الأمريكان.

عندما أخذ عدد الارهابيين الوافدين على المانيا يزداد وأصبحت مراقبتهم أصعب قررت قوة الشرطة الاتحادية بألمانيا في ٢٦ أكتوبر/ تشرين أول اقتحام ١٤ شقة سكنية في المانيا واعتقلت ١٧ من أعضاء جبهة أحمد جبريل أو من المتعاونين معهم. كما أكتشفت كميات من الاسلحة والذخيرة ووثائق باللغة الاسبانية كانت معدة لاستعمالها

في عملية طائرة أيبيريا الاسبانية. كما عثرت الشرطة الالمانية في سيارة دلكموني على جهاز راديو من نوع توشيبا بومبيت ٤٥٣.

ثم ارتكبت الشرطة الالمانية خطأ فادحا اذ قامت باطلاق سراح جميع المعتقلين السبعة عشر باستثناء ثلاثة منهم وذلك بعد خمسة عشر يوما من اعتقالهم، وكان خريصات ورمزي دياب في مقدمة الذين أفرج عنهم. عاد خريصات آمنا الى الأردن وذهب رمزي دياب الى نهاية غير معروفة قد تكون الاعدام في سوريا. ظل دلكموني وغضنفر محتجزين بتهمة المشاركة في تفجير قطارين عسكريين تابعين للولايات المتحدة في المانيا (الغربية).

وكما بينت تحقيقات شبكة أ. بي. سي. نيوز وباعتراف المحققين الإتحاديين في الولايات المتحدة، لم يكن مروان خريصات هو صانع القنبلة التي فجرت الطائرة الامريكية في أجواء لوكربي بسكوتلانده في ديسمبر/ كانون أول ١٩٨٨ كما ادعت بعض الاطراف، بل ـ على العكس من ذلك ـ فقد كان لخريصات دور في انقاذ الكثيرين وافشال العديد من العمليات الارهابية الكبيرة التي كان يخطط لها اتباع أحمد جبريل.

لم يعثر أحد حتى الان على البارومتر الخامس الذي ركبه خريصات في دمشق، ولا أحد يدري عما اذا كان قد استخدم أم أعطي لجهة أخرى أم هو الجهاز الذي استعمل في تفجير طائرة الرحلة ١٠٣ التابعة لشركة بان ـ آم الأمريكية للطيران!

تحذيرات لشركة بان ـ آم الأمريكية للطيران

في ٨ نوفمبر أخذ البوليس الالماني يوزع معلومات لشركات الطيران وأجهزة أمن المطارات تحذر من قنابل في شكل راديو ـ كاسيت، تلتها تقارير مشابهة من وكالة الطيران المدني الامريكية ومن السلطات البريطانية. وفي تحذير آخر غامض وربما لا علاقة له بالموضوع اتصل شخص عربي يقيم في فنلندا بالسفارة الامريكية في هيلسينكي يوم ٥ ديسمبر ١٩٨٨ محذرا من عملية تستهدف رحلة لشركة بان ـ آم من فرانكفورت الى نيويورك. أخذت السفارة الامريكية في موسكو تلك المكالمة مأخذ الجد فأصدرت تحذيرا للمسافرين كما اصدرت وكالة الطيران المدني الامريكية ايضا تحذيرا بهذا الخصوص (١٤).

وفي أوائل عام ١٩٩٠ أصدرت محكمة سويدية حكما بالسجن مدى الحياة في حق مواطن عربي يدعى محمد أبو طالب ـ الذي يبدو أن لديه اتصالا مع ليبيا ـ بتهمة القيام بعمليات تفجير في الدول الاسكندنافية. كما أكتشف المحققون في حادثة لوكربي أن رجلا تنطبق عليه أوصاف أبوطالب قام بشراء ملابس في مالطا في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨٨ ووجدت قطع من القماش مطابقة لها تماما بالقرب من لوكربي بعد تفجر رحلة ١٠٣ لشركة بان ـآم وسقوطها هناك. وأكدت تحليلات القضاء الشرعي أن تلك الملابس كانت ملفوفة حول القنبلة.

توصل المحققون في حادثة لوكربي فيما بعد إلى أن القنبلة التي فجرت رحلة ١٠٣ لشركة بان ـآم وصلت اليها في حقيبة عن طريق رحلة لشركة الخطوط المالطية الى فرانكفورت حيث تم نقلها هناك كعفش غير مصحوب الى الطائرة الامريكية. اتهمت الشركة المؤمنة على الطائرة الامريكية في ديسمبر ١٩٩٠ شركة الخطوط والحكومة المالطية بجريمة الاهمال لسماحها للحقيبة بالسفر من غير مسافر على الرحلة المالطية وطالبتهما بتعويض قدره ٣٢ مليون دولار. وفي السويد رفض أبو طالب الاجابة على اي اسئلة من المحققين في حادثة لوكربي(١٥).

الحلقة الايرانية

أغلب القيادات السياسية المعنية على علم بتفاصيل الكارثة التي تعرضت لها طائرة شركة الخطوط الأمريكية بان ـ آم ـ المسماة «عروس البحار» ـ التي احالها الانفجار الى كتلة مشتعلة في الجو سقطت على قرية لوكربي الآمنة في سكوتلندا مساء الحادي والعشرين من ديسمبر/ كانون أول ١٩٨٨. الا ان تحفّظ ادارة الرئيس بوش ـ خاصة خلال حملة التحالف العسكرية ضد العراق عام ١٩٩١ ـ بالاعتراف بتورط سوريا (عضو التحالف) وايران (طرف محايد في الحملة ولكنه معادي لصدام حسين) منع الكشف عن الكثير من تلك التفاصيل. كانت هناك ثلاث اتصالات خلال الساعات الأولى من الحادث تدعي مسؤولية ايران تدعو الادارة الامريكية لطرد ابن الشاه الراحل الامير رضا من الولايات المتحدة اذا كانت ـ أي الولايات المتحدة ـ لا ترغب في حدوث كوارث أكبر. ولم يرحل ابن الشاه من أمريكا(١٦).

رجال الاستخبارات الأمريكية ضمن ركاب الرحلة ١٠٣

لا توجد ـ على ما يبدو ـ أي أدلة يمكن أن تقبل بها المحاكم (عدا المعلومات الاستخباراتية الأولية) تؤكد دور ايران في الامر بتنفيذ عملية لتسديد الحساب مع امريكا لاسقاطها طائرة الركاب الايرانية في الخليج. فقد حطمت السلطات الالمانيا خلية دلكموني التابعة لجبهة أحمد جبريل قبل حادثة الرحلة رقم ١٠٣. ولكن يبقى معنا لغز آخر يتعلق هذه المرة بعناصر أمريكية.

فقد كان على متن رحلة البان ـ آم اربعة من رجال الاستخبارات الامريكية دانيال أوكونار ضابط أمن منطقة تابع للخارجية الامريكية في قبرص وماثيو غانن يقال أنه ضابط يتبع الاستخبارات المركزية الامريكية في بيروت ورونالد لاريفيير ضابط أمن منطقة في بيروت والرائد تشارلز ماكي ضابط عسكري أمريكي في بيروت هو الآخر ولعله تابع لوحدة نشاط الدعم الاستخباراتي {ISA}. يعتقد أن أوكونار سافر في نفس اليوم من لارنكا الى لندن في رحلة غير عادية لشركة الخطوط الجوية القبرصية. أما الباقون فقد بدأوا رحلتهم في بيروت متجهين الى لندن عن طريق قبرص. كانت حقائبهم جميعا موجودة في مخزن الامتعة الذي انفجر على متن الطائرة «عروس البحار».

لم تكن حقيبة دانيال أوكونار في الطائرة التي قتل فيها صاحبها ولكنها ظهرت بعد يومين في مطار كينيدي في نيويورك وعليها بطاقة شحن خاصة بمطار هيثرو في لندن. كانت هناك شكوك أن الارهابيين قد استبدلوا حقيبة أوكونار بالحقيبة التي تحمل القنبلة الا انه من المستحيل التأكد من ذلك(١٧).

عملية لانقاذ الرهائن؟

كانت هناك حلقات عرضية تربط بين تدمير الرحلة رقم ١٠٣ وقضية الرهائن التي لا زالت تتأزم في لبنان. فقد وصل الرائد تشارلز ماكي ـ رجل وحدة نشاط الدعم الاستخباراتي {ISA} الذي قتل في تلك الرحلة ـ الى بيروت في يناير/ كانون الثاني ١٩٧٨ وذلك قبل سنة من اختطاف المقدم ريتشارد هيغينز. لم يتمكن ماكي أو أحد من زملائه الثلاثة الآخرين الذين ماتوا في الحادث من عمل الشيء الكثير حيال خطف هيغينز أو غيره من الرهائن الآخرين.

في يناير ١٩٨٩ كانت فرق الشرطة السكوتلندية والجنود والمتطوعين المدنيين لا

زالت تجمع حطام الطائرة بالقرب من لوكربي، وفي منطقة أوتربيرن للتصويب التابعة للقوات الجوية الملكية البريطانية، عثر أحد الجنود على ملف به عدة أوراق من ضمنها ورقة عليها رسم تخطيطي لمدينة يمكن أن تكون بيروت. ساد الاعتقاد على صعيد واسع ـ وان لم يتأكد بعد ـ أنه كانت على تلك الخريطة علامات تحدد الاماكن التي يعتقد أن بعض الرهائن كانوا محتجزين فيها في بيروت مما يشير الى وجود خطة لانقاذهم (١٨).

انتهى تغافل أمريكا عن قضية الرهائن باختطاف اسرائيل للشيخ عبد الكريم عبيد في ٢٨ يوليو ١٩٨٩، الذي ارتبط اسمه باختطاف هيغينز. الا ان الازمة التي تلت ذلك والتي كادت تتطور الى حرب معلنة بين ايران والولايات المتحدة من جديد، كانت تتعلق برجل آخر من موظفي الجامعة الامريكية في بيروت.

كان جوزيف سيسيبيو ـ الايطالي المولد الامريكي الجنسية ـ قد أعلن عن اسلامه وزواجه من سيدة لبنانية مسلمة اسمها الهام غندور قبل سنتين من اختطافه في بيروت الغربية في ١٢ سبتمبر ١٩٨٦. كانت زوجته تعمل في السفارة الامريكية في بيروت الشرقية والتي تم اقتحامها بالمتفجرات قبل يومين من اختطاف سيسيبيو. لم يكن سيسيبيو غريبا على الشرق الاوسط، فقد عمل في منتصف السبعينات مديرا للشحن في المملكة العربية السعودية وفي عام ١٩٨٤ ـ بعد فترة قضاها مع احدى شركات النفط في لندن ـ التحق بالعمل كمحاسب في مستشفى الجامعة الامريكية في بيروت.

اختطف سيسيبيو أمام مبنى الجامعة الذي كان يسكنه وضرب على رأسه ثم حمل في صندوق سيارة على مرأى من أحد حراس الامن الذي كان تحت التهديد. ادعت خلال الايام التالية أكثر من جهة أن سيسيبيو في حوزتها، وحملت منظمة العدالة الثورية مسؤولية العملية. لم يعرف عن سيسيبيو شيئا برغم مناشدات من أسرته حتى ١٧ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٧ حين نشرت صحيفة النهار البيروتية صورا ملونة لسيسيبيو ورهينة أخرى هو ادوارد تراسي الذي خطف في ١٩ أكتوبر ١٩٨٦. لم تكن الصور محققة، الا ان الرهينة الفرنسي جين لويس نورماندين الذي أفرج عنه في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨٧ أخبر اسرته في الولايات المتحدة انه كان محتجزا مع سيسيبيو ومقيدين بالسلاسل معظم السنة الاخيرة التي قضاها نورماندين في الحجز. كما اخبرهم انه يعامل معاملة حسنة. هددت منظمة العدالة الثورية في ٢٤ أبريل

نيسان ١٩٨٨ وفي اعقاب الهزيمة الساحقة التي الحقتها قوات البحرية الامريكية بايران، بقتل كل من سيسيبيو وتراسي اذا اعتدت أمريكا على أي مصالح ايرانية في الخليج، أرفق التهديد بصورة لبطاقة التصريح اللبنانية بالاقامة الخاصة بتراسي.

كما هددت المنظمة في ٣١ يوليو / تموز ١٩٨٩ بقتل سيسيبيو اذا لم تفرج اسرائيل عن الشيخ عبد الكريم عبيد، وحددت موعدا لاعدامه هو ١ أغسطس/ آب ١٩٨٩، ووعدت المنظمة بعرض ذلك على شاشات التلفزيون العالمية. ظهرت زوجته الهام في مؤتمر صحفي عقد في بيروت الشرقية قبل خمس ساعات من ذلك الموعد تتوسل الا ينفذ ذلك الحكم . . وأعلنت المنظمة تأجيل التنفيذ لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة لاعتبارات «انسانية».

أثار خبر مقتل ريتشارد هيغينز والتهديدات ضد سيسيبيو أزمة مصغرة في واشنطن، وأعلن البنتاغون في ٢ أغسطس/ آب عن حشود بحرية أمريكية جديدة في شرق البحر الابيض المتوسط.

قبل أربع ساعات من موعد اعدام سيسيبيو وصلت رسالة أخرى جاء فيها أن الاعدام أجل بناء على طلب سيسيبيو نفسه لمدة سبع ساعات أخرى، وكان مرفقا مع الرسالة تسجيل صوتي قال فيه سيسيبيو: « اطلب من الشعب الامريكي أن يفرض على اسرائيل الافراج عن الشيخ عبد الكريم عبيد فورا، لأن خطفه عمل غير انساني. اننا نحن الشعب الامريكي كنا دائما ضحية السياسة الاسرائيلية ولم يساعد الرئيس بوش في اطلاق سراحنا » ثم ودع زوجته.

بينما كان المسؤولون في واشنطن ووسائل الاعلام العالمية مشدودين الى كل كلمة تصل من بيروت، بلغت تلك اللعبة الوحشية ذروتها قبل خمس واربعين دقيقة من الموعد النهائي لاعدام سيسيبيو. أعلنت منظمة العدل الثوري في بلاغ رسمي عن «تجميد» قرار اعدام سيسيبيو، وطالبت مقابل ذلك بأن تتوقف اسرائيل عن ترحيل الفلسطينيين من الضفة الغربية وغزة وأن تسمح برجوع المرحلين منهم وان تفرج عن الشيخ عبد الكريم عبيد ومائة وخمسين من المعتقلين اللبنانيين وثلاثمائة من الذين سجنتهم اسرائيل خلال الانتفاضة (١٩). وتنفست الولايات المتحدة واوروبا وقادة الاسطول السادس الامريكي في البحر المتوسط الصعداء.

في نفس الوقت كانت قوات بحرية فرنسية منتشرة في شرق البحر الابيض المتوسط استعداداً على ما يبدو لاخلاء مئات المواطنين الفرنسيين المهددين في الحرب المدمرة في لبنان. فالذي لم يكن يعرفه المختطفون، لكن بكل تأكيد وصل لعلم الاستخبارات الايرانية هو ان القوات الفرنسية والامريكية قد ظلت خلال شهر فبراير/ شباط السابق تقوم بتجارب لتقييم قدرتها على تحرير الرهائن واخلائهم من لبنان في عمليات برمائية مشتركة عرفت باسم فينيا ـ ٨٩. شارك في ذلك قوات الرد السريع الفرنسية ووحدة الحملات التابعة لقوات المشاة الامريكية وحاملتا الطائرات الفرنسيتان كليمنصو وفوش والسفينة الحربية الامريكية يو. أس. أس. ثيودر روزفيلت وحاملة الطائرات العمودية الامريكية غواد الكانال وسبع عشرة سفينة بحرية أخرى من البلدين. وبالرغم من أنه قد افرج عن آخر الرهائن الفرنسيين في لبنان في عام ١٩٨٨، الا ان فرنسا كانت ترغب بمشاركتها في تأكيد استمرار دعمها للولايات المتحدة وقوات حلف شمال الاطلسي.

قال متحدث رسمي باسم وزارة الدفاع الفرنسية: «كانت عملية فينيا ـ ٨٩ ناجحة الى أبعد الحدود»[٢٠] وهذا ما قد تبرهن عليه محاولة قادمة لانقاذ الرهائن.

على أي حال أكدت منظمة العدل الثوري أنها ستنفذ ما هددت به بحق سيسيبيو وتراسي اذا ما حاولت القوات الفرنسية التدخل الى لبنان. وفي ٢٣ و ٢٤ ديسمبر/ كانون الأول، واحياءً لذكرى اقتحام ثكنة قوات المشاة البحرية في بيروت ومركز قيادة قوات المظلات الفرنسية، جددت منظمة الجهاد الاسلامي عرضها بتبادل الرهائن الغربيين مقابل سجناء حزب الدعوة في الكويت، وارفقت ذلك بصور لتيري اندرسن والقواعد الامريكية والفرنسية المدمرة[٢١]. واستمر جوزيف سيسيبيو رهن الحجز.

تجدد الحديث بعد تحرير قوات الحلفاء للكويت في أوائل عام ١٩٩١ حول احتمال الافراج عن الرهائن مقابل تقديم أمريكا المساعدات للشيعة المتمردين ضد صدام حسين في العراق، ولكن حتى صيف عام ١٩٩١ لم تتحقق تلك المساعدات.

ايران تحتفل بالعقد الخميني

احتفلت الجمهورية الاسلا مية في فبراير/ شباط ١٩٨٩ بعيدها العاشر في الوقت الذي كانت فيه صحة آية الله الخميني في تدهور. وبالرغم من أن الحرب مع العراق قد انتهت منذ شهر أغسطس/آب الماضي، الا ان العشر سنوات التي تلت رحيل الشاة

من ايران لم تشهد أي تقدم حقيقي نحو سلام دائم. فما زالت الاستثمارات الاجنبية محجوبة عن ايران بسبب أزمة الرهائن، ولا يزال بناء الاقتصاد الايراني المتهالك، الذي يعتمد اعتمادا كليا على النفط، في بداياته الاولى. وظلت أسعار المواد الغذائية الاساسية وغيرها من الضروريات في قمة ما وصلت اليه اثناء الحرب، وظل نظام توزيع المواد الغذائية بالبطاقات معمول به في ايران، وظل الدولار الامريكي في السوق السوداء على أعلى ما كان عليه اثناء الحرب. لم يجد الجنود الذين عادوا من جبهات القتال سوى القليل من الاعمال والوظائف، وسلبت البطالة والفقر أسرا كثيرة مصادر قوتها. وانتشر الادمان على المخدرات وازداد التعامل بها رغم عقوبة الاعدام. واستمر الخميني وهو على فراش الموت في مزاولة تعصبه العنيف باصدار أحكام بالسجن والجلد على اربعة من موظفي الاذاعة والتلفزيون الايراني عندما حاولوا بث مقابلة مع سيدة ايرانية تحكي فيها قصتها مع آية الله الخميني الذي اتهمها بأنها قد اساءت لابنة النبي محمد حين قالت أنها قد لا تمثل النموذج المثالي للمرأة المسلمة.

في نفس تلك الفترة تقريبا كتب الخميني رسالة صريحة للرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشوف الذي كان يواجه مصاعب كبيرة بين مواطنيه من المسلمين في منطقة أذيربيجان السوفياتية على الحدود الايرانية، ينصحه فيها بالتخلي عن النظام الشيوعي - وهو ما كان غوربا تشوف يقوم به من تلقاء نفسه - وأن يقبل على دراسة الاسلام الذي فيه حل لمشاكل الانسانية الاساسية والذي يمكن أن «يملأ الفراغ العقيدي» الموجود في النظام الشيوعي بكل سهولة(٢٢).

الأمر الوحيد المتبقي في سنة ١٩٨٩ العصيبة والذي رفع من حدة الصراع بين ايران والغرب وزاد من عزلتها، هو قضية الكاتب الهندي البريطاني سلمان رشدي.

الفصل الرابع عشر

نهاية العقد الخميني

وجاء سلمان رشدي

لقد قدر في أواخر عقد الثمانينات للكاتب القصاص ـ الهندي الأصل البريطاني الجنسية ـ سلمان رشدي وكتابه «الآيات الشيطانية» ـ الذي اعتبره الكثير من المسلمين عملاً يسيء للاسلام ـ أن يشوها العلاقات بين الغرب والمسلمين الثوريين في جميع أنحاء العالم وأن يسيطرا على تلك العلاقات.

لقد تحولت قضية سلمان رشدي الى معركة ثقافة أو صراع بين نظامين متنافسين دينياً واجتماعياً بل بين تصورين متضادين لدور الانسان في المجتمع.. كما أنها كانت الخاتمة للعقد الخميني.

ولد سلمان رشدي الهندي البريطاني مسلماً، وكان نتاجاً للثقافتين اللتين كانتا في صراع مستمر طوال الحقبة الخمينية وهما الاسلام والغرب.

هاجرت أسرة سلمان رشدي ابان هجرة المسلمين الضخمة من الهند الى الباكستان (بلد الطهارة) ـ الدولة الاسلامية الجديدة ـ وترعرع في حضن ذلك المجتمع ثنائي الثقافة، وهذا ما نجده بارزاً كموضوع رئيسي في جميع كتاباته. كان رشدي يتحدث الأردية والانجليزية معاً في بيته أثناء طفولته وتلقى أكثر تعليمه في أنجلترا، وبعد تخرجه من جامعة كيمبردج في عام ١٩٦٨ لحق بوالديه ليعيش في الباكستان.

كان أول صدام لرشدي مع السلطات الدينية الاسلامية عندما حاول انتاج مسرحية «قصة حديقة الحيوان» للروائي أدوارد آلبي، حيث منعها الرقيب لاحتوائها على كلمة «لحم خنزير». قرر رشدي لاشمئزازه من ذلك التصرف أن يعود الى أنجلترا فوراً حيث استقر هناك لمدة عشر سنوات وانهمك في العمل ككاتب ومحرر للدعايات التجارية.

لم تلق أول رواية نشرت لسلمان رشدي وعنوانها «غريمس» (١٩٧٤) إقبالاً كبيراً، ثم نشرت روايته الثانية وعنوانها «أطفال نصف الليل» التي بنيت أحداث قصتها على خلفيته الثقافية والاجتماعية الآسيوية. بيع من هذه القصة التي تدور حول تاريخ الهند

واستقلالها ما يقرب من مليون نسخة في جميع أنحاء العالم وفاز سلمان رشدي بسببها بجائزة بووكر وهي أعلى جائزة للأعمال الأدبية في بريطانيا. وفي عام ١٩٨٣ نشرت له رواية خيالية بعنوان «العار» تدور أحداثها في بلد يشبه دولة الباكستان المعاصرة، ولكنها منعت من التداول في الباكستان بسبب الأوصاف التي نعت بها الرئيس الباكستاني الراحل ضياء الحق.

بدأ النقاد يصفون أعمال رشدي بأنها «واقعية سحرية» وأخذ يبرز في الدوائر السياسية البريطانية خلال الثمانينات من خلال نقده الشديد لرئيسة الوزراء مارغريت تاتشر وحكومة حزب المحافظين. برزت آراؤه السياسية بصورة واضحة في كتاب «الآيات الشيطانية»، وأخذ حزب العمال البريطاني وخاصة الجناح اليساري منه وحركة نزع السلاح تهتم بسلمان رشدي وتتبنى أفكاره. وكتاب الآيات الشيطانية عبارة عن رواية رمزية لا يتطلب فهمها فهماً مفصلاً للقرآن والمباديء الاسلامية فحسب، بل (بالنسبة للرجل الغربي) وفهم مواضيع خاصة جداً مثل الطريقة التي تعمل بها صناعة السينما في الهند. أما بالنسبة للمسلمين فإن الكتاب يحتوي على مقاطع كثيرة مهينة ومثيرة للغضب بما في ذلك الفقرة التي تتحدث عن نساء يتعاطين البغاء في مدينة إسلامية مقدسة ويحملن أسماء زوجات النبي محمد. إلا أن أكثر الفقرات إثارة بالنسبة للمسلمين هي تلك الفقرة الرمزية الساخرة التي تتحدث عن كاتب من كتّاب الوحي يحمل اسم سلمان الذي يرتكب الاثم الأعظم بتحريف كلمة الله التي يتلوها عليه نبي ذو شخصية خيالية يدعى ماهوند. من رحمة الله على سلمان ـ الشخصية الروائية ـ أنه لا يقتل. هذا وقد نشرت دار فايكينغ بينغوين كتاب «الآيات الشيطانية» في ٢٦ سبتمبر/ أيلول ١٩٨٨.

أول بوادر الضجة الثقافية التي سيحدثها الكتاب ظهرت في مجلتين بالهند، نشرت كل منهما مقابلة مع سلمان رشدي استغلها أحد أعضاء البرلمان الهندي المسلمين لمنع تداول الكتاب رسمياً في الهند. في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٨ ـ والكتاب لم يعرف عنه شيء في إيران بعد ـ سافر السيد فائز الدين أحمد أحد العاملين في منظمة المؤسسة الاسلامية بمدينة ليستر بأنجلترا الى السعودية بنسخ من بعض صفحات الكتاب ليعرضها على منظمة العالم الاسلامي، وهي منظمة إسلامية سياسية وثقافية عالمية ذات قوة ونفوذ كبير في آسيا. أسفر ذلك عن منع تداول الكتاب رسمياً في كل من الباكستان

والسعودية ومصر والصومال والسودان وماليزيا وقطر وأندونيسيا وجنوب أفريقيا. كما منع سلمان رشدي نفسه من السفر لأي من تلك البلاد. وفي عام ١٩٨٩ منعت كل من الأردن وسوريا وبنغلاديش وكينيا وتايلاند والكويت وتركيا ونيجيريا تداول ذلك الكتاب كذلك.

في نفس تلك الفترة اشتدت موجة المعارضة للكتاب في بريطانيا، واجتمع المسلمون في لندن وبرادفورد لتحديد استراتيجية لمواجهة الكتاب. كتب الدكتور سيد باشا، أمين عام اتحاد المنظمات الاسلامية في بريطانيا لرئيسة الوزراء تاتشر يطلب منها تقديم رشدي للمحاكمة فرفضت. وفي ١٤ يناير ١٩٨٩ أحرق المتظاهرون المسلمون في برادفورد نسخاً من الكتاب علناً، ولكن الرأي العام لم يعر الموضوع كثير اهتمام. في اليوم التالي سحبت شركة دبليو. أتش. سميث ـ أكبر موزع للكتب في بريطانيا ـ نسخ كتاب رشدي من محلاتها ومخازنها. كما تظاهر المسلمون يوم ٢٧ يناير في لندن مطالبين دار بينغوين للنشر أن تسحب الكتاب من النشر والبيع.

أثار ترقب نشر الكتاب في أمريكا في فبراير/ شباط ١٩٨٩ موجة جديدة من العنف، حيث قتل في المظاهرات في الباكستان وكشمير يوم ١٢ و١٣ فبراير/ شباط ما لا يقل عن ستة متظاهرين وجرح ١٥٠، كما تداخلت قضية سلمان رشدي في عدد من مناطق شبه الجزيرة الهندية مع القضايا والصراعات الدينية والسياسية المحلية(١).

ثم جاء الخميني ليفجر القضية ويحيلها الى مواجهة عالمية بين أنصار الاسلام والمدافعين عن المبدأ الغربي اللبرالي لحرية الفكر والتعبير. وفي تمام الساعة الثانية بتوقيت إيران من ظهر اليوم الرابع عشر من شهر فبراير/ شباط ١٩٨٩ ـ أي بعد ثلاثة أيام من الذكرى العاشرة للثورة الايرانية ـ أعلن راديو طهران الرسمي أن «الامام والمرشد الأكبر» قد أصدر الفتوى التالية:

أن مؤلف كتاب الآيات الشيطانية الذي يحارب الاسلام والنبي والقرآن وكل من شارك في نشر الكتاب مع معرفة محتوياته محكوم عليهم بالاعدام. كما أدعو المسلمين المؤمنين الى تنفيذ هذا الحكم فوراً حيثما وجدوهم حتى لا يتجرأ أحد بعد ذلك للنيل من المقدسات الاسلامية(٢).

والفتوى في العالم الاسلامي عادة هي «الرأي الشرعي الرسمي الصادر عن المفتي أو

رجل القانون المعتبر وذلك للرد على سؤال يطرح عليه من قبل قاضي أو فرد عادي»[٣]. وعليه من الصعب تحديد عما إذا كانت فتوى الخميني بالحكم على سلمان رشدي بالموت تندرج تحت هذا التعريف أم لا. فقد أجمعت التقارير على أن الخميني قد توصل الى فتواه تلك بناء على مشورة المتطرفين من حاشيته الذين أطلعوه على الكتاب وأكدوا على ما تسبب فيه من منازعات وسفك دماء في شبه القارة الهندية، ولا شك أنهم لفتوا انتباهه الى إحدى شخصيات الكتاب البغيضة وهي شخصية «الامام العجوز».

إلا أن السلطات الايرانية أخذت تتحرك لتأكيد جديتها فيما يتعلق بالفتوى، فأعلنت الجماهير الايرانية في يوم ١٥ فبراير/ شباط عن يوم الحداد ورمت مبنى السفارة البريطانية بالحجارة، وأعلن المشائخ الرسميون عن جائزة قدرها ٦, ٢ مليون دولار لمن يغتال سلمان رشدي مع إضافة مليون دولار آخر إذا كان القاتل إيرانياً.

في ١٨ فبراير/ شباط أصدر سلمان رشدي تصريحاً عبر فيه عن أسفه على ما تسبب فيه الكتاب من قلاقل دون أن يعتذر عن محتوياته، ورفض الخميني في اليوم التالي ما جاء في ذلك التصريح. لجأ رشدي وزوجته الكاتبة الأمريكية ماريان ويغنز الى قبول الحماية من سلطات الأمن البريطانية، وبدأ حياة جديدة مختفياً يتنقل من مكان الى آخر. كما اعتقل أو طرد عدد من الايرانيين وغيرهم ممن كانوا يسعون للفوز بجائزة قتل سلمان رشدي. . . وفي أوائل عام ١٩٩٠ رحلت ماريان ويغنز الى العيش في الولايات المتحدة لأنها وجدت مشاركة زوجها في حياته السرية الجديدة أمراً مستحيلاً.

وتعرضت مكاتب فايكينغ بنغوين للنشر للتهديد بالتفجير في كل من نيويورك ولندن، وقرر الكثير من محلات بيع الكتب الشهيرة في أمريكا سحب كتاب الآيات الشيطانية من الأسواق ثم عادوا يبيعونه من جديد دون عرضه بوضوح في المحلات. كما هب العديد من الجمعيات والمنظمات الأدبية في الغرب للدفاع عن الكتاب ومؤلفه وعن حق نشره، واستقال ثلاثة من أعضاء لجنة التحكيم الخاصة بأكادمية جائزة نوبل وهم لارس غيلنستم وفيرنر أسبنستوم وكيرستن أيكمن احتجاجاً على عدم إدانة الأكادمية لفتوى الخميني (ورفضت الأكادمية قبول الاستقالات لأن قانونها ينص على العضوية مدى الحياة).

وفي أواخر مارس/ آذار ١٩٨٩ اغتيل في بلجيكا أحد القادة المسلمين الشيعة الذي

كان قد أدان الكتاب ولكنه انتقد الأمر بقتل المؤلف، كما استحثت منظمة العفو الدولية في لندن إيران بسحب أمر القتل الموجه ضد سلمان رشدي.

وبرغم وجود أنصار ومعارضين لسلمان رشدي في أمريكا إلا أن المضاعفات الدبلوماسية في الغرب تركزت بدرجة أساسية في أوروبا، وانهارت العلاقات بين دول أوروبا الغربية وإيران الثورة الى أقل المستويات ـ وأقل بكثير مما كان يرغب رجال الأعمال الأوروبيون الذين كانوا يسعون لاستعادة عقودهم وصفقاتهم التجارية المربحة.

في ٢٠ فبراير/ شباط وبعد أسبوع واحد من صدور الفتوى، قررت دول المجموعة الأوروبية استدعاء دبلوماسييها في إيران «للتشاور» تضامناً مع بريطانيا، وهو ما كانت السيدة تاتشر مترددة في القيام به حيث أنه قد أعيدت العلاقات بين بريطانيا وإيران قبل ذلك بمدة قصيرة، وكانت بريطانيا تعقد آمالاً على إيران في مساعدتها للأفراج عن تيري ويت وغيره من الرهائن البريطانيين في لبنان.

لقد أصبحت قضية سلمان رشدي في عام ١٩٩٠ تمثل عائقاً كبيراً أمام الافراج عن الرهائن البريطانيين في لبنان. كما أن إعلان رشدي عن توبته ودخوله في الاسلام في ديسمبر ١٩٩٠ لم يؤثر على السلطات الايرانية المتشددة لترفع قرار الحكم بالموت. أما في أمريكا فقد تلاشت مضاعفات القضية بأسرع مما تم في بريطانيا، حيث أنها في أمريكا لم تكن تمثل سوى فصل من فصول المواجهة الطويلة بين الغرب وإيران يوشك أن يغطي عليه غزو صدام حسين للكويت تغطية كاملة.

أما بالنسبة لآية الله الخميني، فقد كان صدور كتاب الآيات الشيطانية هدية الله له في الأيام الأخيرة من حياته، حيث مكنته الفتوى من الظهور على قمة مسرح الأحداث العالمية وتأكيد قيادته الروحية للعالم الاسلامي التي كانت تسير نحو الانحسار. كما خلقت تلك الأزمة مع الغرب للمتشددين من أتباعه قضية يمكن استغلالها لعرقلة أي إصلاحات أو تغييرات كان ينادي بها رفسنجاني وغيره من اللبراليين، وخصوصاً إعادة فتح إيران من جديد للاستثمارات والأفكار الغربية. كما أعطت الفتوى للعناصر الحركية الاسلامية التي كانت تحتجز الرهائن في لبنان عصا جديدة يسلطونها على رقاب معارضيهم المحليين الموالين للغرب. وظلت الفتوى سارية

المفعول حسب ما جاء في تصريح الزعيم الروحي الايراني خليفة آية الله الخميني ـ علي خمنئي الذي أصدره في أواخر ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٠ .

آلة القتل الايرانية

كان من آخر الأحداث الحاسمة في حياة الخميني الذي جاء في خضم الضجة التي نشأت حول قضية سلمان رشدي، هو عزل آية الله الخميني في ٢٨ مارس/ آذار ١٩٨٩ للسيد محمد منتظري الذي كان قد اختير خليفة له واتهامه بأنه غير قادر أو مستعد لتولي مهمة الامام الأكبر. كانت جريمة منتظري هي انتقاده للثورة الايرانية في رده على مراسلات مع منظمة العفو الدولية التي احتجت على القتل الجماعي واعتقال المسجونين السياسيين في إيران. لقد ذهب منتظري في شكواه للخميني الى حد القول بأن «الناس في بقية بلدان العالم لديهم الانطباع أن القتل هو شغلنا الشاغل في إيران»(٤).

لقد ظلت منظمة العفو الدولية على مدى سنوات تطالب الحكومة الايرانية بمعلومات حول القتل السياسي الذي بدأ منذ قيام الثورة عام ١٩٧٩ وتضاعف مع قرب نهاية الحرب الايرانية العراقية خلال يونيو/ حزيران ويوليو/ تموز ١٩٨٨ . أخيراً استجابت السلطات الايرانية وقالت أنه لم يتم في الواقع إعدام سوى عدد محدود من الناس هم الذين «شاركوا في الغزو المسلح لإيران (في صيف عام ١٩٨٨) الذي قامت به قوات جيش التحرير المعارضة (التابعة لمنظمة مجاهدي خلق) أو ساعدوا عليه . . وأن للحكومة الحق في معاقبة من يرفع السلاح ضدها»(٥).

إلا أنه برغم ذلك الرد الغامض فقد كشفت منظمة العفو الدولية وغيرها من المحققين عن حالات متعددة لمقتل شخصيات قيادية معارضة لآية الله الخميني في ظروف «توحي بتورط السلطات الايرانية». كان من بين تلك الشخصيات آية الله بايحمدي العقيد سابقاً في الاستخبارات الايرانية في عهد الشاه الذي قتل رمياً بالرصاص في غرفة بفندق في دبي في يونيو/ حزيران ١٩٨٩ ، والسيد عبد الرحمن قاسملو زعيم الحزب الديمقراطي الكردي في إيران الذي اغتيل مع اثنين من مرافقيه رمياً بالرصاص في شقة بمدينة فيينا بينما كانوا يجرون مفاوضات مع مبعوثين من الحكومة الايرانية، والسيد باهمان جوادي الزعيم الشيوعي الايراني المتمرس، الذي قتل في أغسطس/ آب

١٩٨٩ (وجرح رفيق له) إثر إطلاق الرصاص عليه من قبل مجهولين في قبرص[٦]. كما تم اغتيال العديد من المهاجرين السياسيين في أوروبا والشرق الأوسط خلال عام ١٩٩٠ ولكن الضجة التي صاحبت أحداث الكويت غطت على تلك الحوادث تغطية كاملة.

وفاة آية الله خميني

تجمع عشرات الآلاف من المسلمين يوم ٣ يونيو/ حزيران في المساجد والأماكن العامة في طهران من أجل الدعاء لآية الله الخميني الذي أجريت له قبل أحد عشر يوماً عملية جراحية في الأمعاء ثم أصيب بأزمة قلبية، وكان الجميع يتساءل في ذهول: هل حقاً سيرحل الامام الأكبر ويتركهم وهو قد بلغ السادسة والثمانين من العمر؟بعد ذلك بقليل أعلن راديو طهران أن «روح قائد المسلمين والشرفاء الطاهرة صاحب الفضيلة الامام الخميني قد بلغت المقام الأعلى وأن القلب المفعم بحب الله وحب شعبه والذي قاسى المحن الكثيرة قد توقف عن الخفقان»[٧].

عرض جثمان الخميني خلال الأيام التي تلت بالقرب من مقبرة بهشت زهرة في تابوت جليدي من الزجاج على نعش ارتفاعه عشرون قدماً بينما بلغت درجة الحرارة في طهران ما يقرب من أربعين درجة مئوية.

لقد فاقت موجات الحزن التي اجتاحت إيران في عنفها وعاطفيتها تلك التي استقبل بها الخميني عند عودته من فرنسا عام ١٩٧٩، فقتل أربعة أشخاص وجرح أكثر من أربعمائة في الازدحام الذي تكون حول النعش، ويقول الذين شاهدوا الموقف عن كثب أنه من المعجزة عدم سقوط عدد أكبر من القتلى، حيث تجمع في ذلك المكان ملايين الايرانيين لتقديم تعازيهم. كما أغمى على الكثيرين ـ بمن فيهم ابن الخميني أحمد ـ بسبب الحر، واهتاجت العواطف عندما حاول بعض المتحمسين انتشال الجثمان من داخل التابوت. وبعد دفن الجثمان في مقبرة بهشتي زهرة الواقعة في ضواحي مدينة طهران والمسماة على ابنة النبي محمد، قال أحد المذيعين على التلفزيون الايراني في رثاء للخميني: «أطفئي نورك أيتها النجوم وأوقفي ماءك أيتها الأنهار»[٨].

وفي يوليو/ تموز ١٩٩٠، وبعد مرور سنة على وفاة الخميني شاهد الصحفيون الذين زاروا ذلك الضريح الفخم الذي أقيم حول قبره، صفوفاً من قبور الشهداء الذين

قتلوا في الحرب مع العراق التي أصر الخميني أن تستمر لكل تلك السنوات، وفوق الضريح ارتفعت مئذنتان عاليتان تحملان منصة شبكية من أنابيب حديدية مطلية بالنحاس. . وكان الضريح يتألق وكأنه قلب ذلك المذهب الثوري المشع الذي سيستمر أتباعه في نشر دعوة الخميني داخل إيران وخارج حدودها. أو على الأقل فسوف يسعون من أجل ذلك.

أعلنت منظمة العفو الدولية عن علمها في عام ١٩٨٩ و١٩٩٠ عن حالات قطعت فيها أربعة أصابع من اليد اليمنى لبعض الأشخاص أو اليد بكاملها، وذلك بتهمة السرقة المتكررة. كما جلد المئات من النساء والرجال بل وقتلت بعض النسوة رجماً. وفي نفس الوقت حاول الحرس الثوري فرض «الحجاب على النساء في إيران. اللاتي كن يؤخذن عنوة من الشوارع والطرقات للضرب والاهانة على أيدي أولئك السفاحين» على حد تعبير مايكل شيرادن في صحيفة الانديبيندنت اللندنية، وذلك لعدم تغطية شعورهن بالكامل أو لبس الملابس الشفافة أو استخدام أحمر الشفاه ومساحيق الزينة(٩).

الخلافة

برغم ما تنبأ به أمثال الأمير رضا شاه بهلوي والرئيس الايراني السابق أبو الحسن بني صدر في أمريكا وفرنسا، من أن موت الخميني تعني نهاية الجمهورية الاسلامية، فإن الواقع لم يؤكد ذلك. ففي خلال أربع وعشرين ساعة وحسب ما ينص عليه الدستور الايراني قام المشائخ في مجلس الخبراء الأعلى باختيار خليفة للامام. وحيث أن الخميني بعد رفضه لمنتظري كخليفة له لم يعين أحداً باعتبار عدم وجود أحد يصلح لتلك المهمة، كان على مجلس الخبراء أن يختاروا أحدهم وهو الرئيس علي خمنئي لتولي منصب الزعيم الروحي لايران بصورة مؤقتة. تنازل خمنئي فيما بعد على ذلك لمحمد علي أراكي أحد مشائخ قم المحبوبين غير المعروفين. عند انتهاء فترة رئاسة علي خمنئي تولى رئاسة الجمهورية علي أكبر رفسنجاني الذي يعتبر أقوى شخصية سياسية في إيران بعد حملة انتخابية حصل فيها على ٩٤٪ من الأصوات. تحول بعد ذلك كل من مجلس البرلمان المكون من ٢٧٠ عضواً انتخبوا مع انتهاء الحرب الايرانية العراقية في أغسطس/آب ١٩٨٨، ومجلس الخبراء المكون من اثني عشر عضواً (منهم ستة بالتعيين وستة منتخبين من قبل البرلمان) الى مركزي قوة حقيقيين في إيران.

وفي استفتاء عقد في نفس الفترة وافق ٩٧,٤٪ على الاصلاحات الدستورية التي تقدم بها رفسنجاني مما زاد من قوة مركز رئيس الجمهورية الذي أصبح يجمع بين رئاسة الحكومة ورئاسة الدولة في آن واحد، وألغي منصب رئيس مجلس الوزراء. بذلك استطاع رفسنجاني أن يشكل حكومة لم يشرك فيها أحداً من العناصر المتطرفة، ضمّت عشرة فقط من وزراء حكومة الحرب، وتخلص من معارضيه من أمثال علي أكبر محتشمي وزير الداخلية الذين ظلوا مع ذلك محافظين على نفوذهم.

إيران تعاني الأمرين

لقد عارض خصوم رفسنجاني محاولاته للاتجاه بالاقتصاد الايراني المنهار الى سياسة السوق المفتوحة التي من شأنها أن تغري مليارات الدولارات من الاستثمارات الغربية التي كانت إيران الجديدة في أمس الحاجة لها. وكان أغلب الخبراء مجمعين على أن التحسن في الاقتصاد الايراني يعتمد في النهاية على عودة العلاقات مع الولايات المتحدة وحلفائها من الدول الأوروبية. ومع عام ١٩٩١ كان رفسنجاني يوجه اقتصاداً أنهكه عجز مالي يقرب من ٢٠٠ مليار دولار وانحسار دخل النفط والسياحة، حيث كانت تكاليف شراء السلاح ـ سواء عن طريق الصفقات المنفردة مع اسرائيل ومع شركة الغرفة الخلفية للبيت الأبيض الذي قام عليها أوليفر نورث وبواندكستر أو عن طريق العقود الضخمة مع دول أوروبا وكوريا الشمالية والصين والاتحاد السوفياتي ـ قد فاقت بكثير دخل إيران من النفط.

قدرت البنوك العالمية في عام ١٩٩٠ أن إيران تحتاج لما لا يقل عن ٨٠ مليار دولار أو أكثر لترميم الأضرار المادية فقط، مثل موانيء النفط والمصانع والبيوت والمدارس والجسور والطرقات. فقد انخفضت أسعار النفط بشكل هائل في عام ١٩٨٦ وأصبح إنتاج إيران للنفط عند انتهاء الحرب أقل من نصف ما كان عليه في عهد الشاه. وبالرغم من أن الحرب كانت سبباً في نشوء صناعة أسلحة محلية، إلا أنها لم تترك شيئاً آخر لإيران، وعليه فلم يكن أمامها ـ في غياب العملة الصعبة ـ إلا اللجوء الى أسلوب المقايضة. وهكذا لجأت الحكومة الى مقايضة المحركات والآلات والأدوية والسلاح وغيرها بالفستق والبسط الايرانية التي أثرى منها رفسنجاني نفسه بشكل كبير.

إلا أن التعاسة التي عاشتها إيران في ظل الخميني لا تزال قائمة. فقد قدرت مجلة

الأكونمست البريطانية في عام ١٩٨٩ أن ٥٥٪ من سكان إيران يعيشون في المدن، بما في ذلك ما يقرب من ستة ملايين (بل يعتقد بعض المراقبين أن العدد يصل الى عشرة ملايين) منهم في طهران التي تنمو بسرعة هائلة. لقد تضخمت مشكلة الاسكان بشكل كبير بعد انتهاء الحرب من جهة(١٠)، وفي يونيو/ حزيران ١٩٩٠ من جهة ثانية عندما أصيبت مناطق شمال إيران بزلازل دمرت مدناً بكاملها ووصل عدد الضحايا الى ٣٦ ألف نسمة. أما بالنسبة للانتاج فإن إيران لا تنتج أكثر من نصف حاجتها من القمح، وكان محصول ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠ ضعيفاً جداً بينما دمر الزلزال منتوج الأرز وهو أحد مواد الغذاء الأساسية في إيران. كما كانت الواردات المدعومة لتوفير الغذاء للجوعى من الايرانيين تكلف الدولة ٣ مليارات دولار في السنة في عام ١٩٩٠ مما كان ينذر بخروج المظاهرات الشعبية وأحداث الشغب من أجل الطعام. وهكذا دُفنت نظريات الخميني المبهمة حول الاكتفاء الذاتي قبل أن يموت الخميني نفسه.

بلغ التضخم المالي أوجه في الفترة ١٩٩٠ ـ ١٩٩١، وأشار تقرير سري من صندوق النقد الدولي للحكومة الايرانية في صيف عام ١٩٩٠ أن على إيران أن تعيد تنظيم وضعها الاقتصادي بإلغاء تعددية أسعار تغيير العملة. كانت السوق السوداء تنمو وتزدهر في بلد كان الثوريون فيه ـ ويا للعجب ـ يعتبرون الدولار أداة من أدوات الشيطان الأكبر. وفي عام ١٩٩٠ خلقت المقاطعة الاقتصادية الأمريكية للعراق فرصاً للتجار هناك لتهريب المواد الغذائية وغيرها من البضائع الى ايران، بينما وجد الزوار والصحفيون الدولار يصرف مقابل ١٤٧٠ ريال إيراني في شوارع طهران. لقد كانت حملة رفسنجاني لترشيد الاقتصاد وإيجاد شيء من المعقولية في الحياة العامة في إيران مهددة من عدة جهات. كانت الاشاعات منتشرة في طهران حول اعتقال ضباط الجيش وإعدامهم بين الفينة والأخرى بتهمة التخطيط لعمليات انقلابية أو اغتيالات، كما قامت منظمة مجاهدي خلق بتنفيذ أعمال عنف ضد عدد من الأهداف المختارة. حول محاولة لاغتيال رفسنجاني نفسه بعد حادث انفجار غامض في طائرة عمودية كان رفسنجاني سافر فيها الى مدينة رشت، وكان ينوي العودة فيها الى طهران أثناء عمليات الانقاذ في أعقاب زلزال صيف عام ١٩٩٠. قرر رفسنجاني بعد وصوله مدينة رشت الرجوع عن طريق البر للاطلاع بنفسه على سير عمليات الانقاذ. جاءت تلك العملية بعد أن قبل رفسنجاني بإعانات خيريةبملايين الدولارات من بريطانيا وفرنسا والاتحاد

السوفياتي، إضافة الى حمولة طائرة كاملة على الأقل من العدو القديم ـ العراق ـ وعرض معونة رمزية من الولايات المتحدة بما قيمته ٢٩٥ ألف دولار.

كان رأي المتشددين ـ بما فيهم محتشمي ـ هو رفض جميع أشكال المعونة من الغرب لاعتقادهم أنها مناورة جديدة لاستعادة النفوذ الغربي في إيران، وضمان الافراج عن بقية الرهائن والمسجونين في لبنان وإيران(١١). إلا أن غزو العراق للكويت هيأ لرفسنجاني ـ الذي كان قد توصل الى اتفاقية سلمية سريعة مع صدام حسين في يوليو/ تموز ١٩٩٠ ـ الفرصة لاستعادة موقع إيران السابق في الخليج الفارسي كطرف هام في لعبة القوى في المنطقة.

مشاكل أمريكا المالية مع إيران

كان في حوزة إدارة الرئيس بوش وسيلة واحدة هامة ولكنها غير معروفة على نطاق واسع يمكن أن تلجأ إليها لانهاء المواجهة الطويلة القائمة بينها وبين إيران الثورة، تلك هي محكمة المطالب الايرانية الأمريكية التي شكلت في لاهاي بناء على اتفاقية عام ١٩٨١ التي أفرج بموجبها في يناير/ كانون الثاني ١٩٨١ عن الرهائن الأمريكيين الذين احتجزوا في طهران.

قامت إدارة الرئيس كارتر عند احتجاز الدبلوماسيين الأمريكيين في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٩ بتجميد ممتلكات إيران الموجودة في الولايات المتحدة، وكان من ضمنها أسلحة وعقود خدمات مثل التدريب العسكري كان الشاه قد سدد ثمنها. كانت أكثر تلك الأجهزة والمعدات من طائرات وسفن حربية ونظم أسلحة وقطع غيار محفوظة في المخازن الأمريكية، وهي التي عناها رفسنجاني عندما أشار الى «إعادة ما هو حق لنا» والذي قدرت إيران قيمتها باثني عشر مليار دولار، وتعرف في سجلات المحكمة باسم المطلب ب ـ ١ . لم تكن الولايات المتحدة راغبة في الافصاح عن قيمة تلك الممتلكات ويذكر بعض الدبلوماسيين على مستويات خاصة أنها في حدود المليار دولار.

لقد كانت تلك المحكمة هي الاطار الوحيد الذي يمكن للبلدين أن يصفوا فيه ما بينهما من خلافات بعد قطع العلاقات الدبلوماسية في بداية العقد الخميني. بدأت المحكمة أعمالها يوم ١٩ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٢ بعد السماح بمرور سنة لتقديم المطالب. وتولى النظر فيها ثلاثة قضاة من كل من إيران والولايات المتحدة وقاض واحد

من كل من هولندا (البلد المضيف) والسويد وسويسرا. مع حلول صيف عام ١٩٩١ تم الفض ـ داخل المحكمة وخارجها ـ في ما يزيد عن ألف وخمسمائة من مجموع ما يقرب من أربعة آلاف مطلب قدمت للمحكمة.

وفي ٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨٩ أعلنت الولايات المتحدة عن إرجاع مبلغ ٥٦٧ مليون دولار لإيران مقابل ممتلكات مجمدة قيمتها ٨١٠ مليون دولار، وسيتم تحويل الباقي الى حساب جانبي في بنك أنجلترا ـ حسب ما نصت عليه الاتفاقية الأصلية لعام ١٩٨١ ـ ريثما يتم تسديد المطالب الأمريكية الخاصة بممتلكات صودرت أو أممت في إيران.

أخبرني السيد علي نوباري وهو أحد الدبلوماسيين المنتدبين للمحكمة، أن الافراج عن ذلك المبلغ «قد هيأ الجو ومهد للاسراع في كل الاجراءات». كما ساعد القرار على الاسراع في تصفية المطالب ـ أغلبيتها خارج المحكمة ـ والتخفيف من تبادل التهم الشخصية التي عرقلت سير عمل المحكمة فيما قبل. (نفى القضاة المشاركون في المحكمة أنه قد تم مناقشة القضايا السياسية أو الرهائن أو غيرها من القضايا الأمريكية الايرانية أثناء مداولات المحكمة سواء داخل المحكمة أو خارجها).

اتجهت كل من إيران والولايات المتحدة ـ بطبيعة الحال ـ الى القضاة والمحامين في لاهاي للبحث عن أي مؤشرات لذوبان الجليد وبداية النهاية في المواجهة بين البلدين. افتتحت المحكمة جلستها الثامنة يوم ١ مايو/ أيار ١٩٩٠ وذلك بعد الافراج عن الرهينة الأمريكي فرانك ريد في لبنان بيوم واحد، وكان موضوع البند المطروح للنقاش هو الفض في ألفين وأربعمائة مطلب صغير (قيمة الواحد أقل من ربع مليون دولار) تقدم بها أمريكان كانوا مقيمين في إيران قبل الثورة وأغلبها يتعلق بممتلكات تجارية أو شخصية تعود اليهم. كانت القيمة الاجمالية لتلك المطالب ١٠٥ مليون دولار، بينما بلغت قيمة المطالب الايرانية المقابلة لها أربعمائة ألف دولار فقط. تم التوصل الى تصفية جميع تلك المطالب خارج المحكمة في خلال أسبوع من المداولات. وبدأت في ٢١ مايو/ أيار المحادثات حول المطالب رقم ب ـ ١ العسكرية،[1] إلا أن التقدم في الاتفاق عليها كان بطيئاً للغاية. قليل من المراقبين كان يتوقع أي تقدم حقيقي قبل انتهاء حرب الخليج بين العراق وحلفاء الكويت، وفعلاً لم يحدث ذلك حتى الآن.

لعل مثل هذه المفاوضات المفتوحة غير الرسمية ستكون هي القناة التي تؤدي في النهاية الى رأب الصدع في العلاقات بين واشنطن وطهران. فقد أدت القناة غير الدبلوماسية ـ أي قناة العمليات السرية ـ الى الاخفاق المؤسف ولم تكن نتيجة جهود وكالة الاستخبارات المركزية المختلفة في الحرب السرية إلا المشاكل والبلاء. ومع ذلك فقد كانت هناك مغريات جديدة للتورط مرة أخرى حيث كان رفسنجاني رغم سياسته اللبرالية المتحررة وانشغاله بالاقتصاد الايراني يعكف سراً على إعادة تسليح بلده ويلعب لعبة التسابق مع العراق في ميدان الصواريخ والتسلح الكيماوي. ففي يونيو/ حزيران ١٩٨٩ ـ على سبيل المثال ـ اشترت إيران مواداً كيماوية من شركة ألمانية (غربية) في دوسلدورف توحي بأن إيران تعمل على إنشاء معمل للغاز السام يشبه المعامل الموجودة في العراق(١٣).

رحيل الاتحاد السوفياتي عن الشرق الأوسط

بينما كانت الأزمة الجديدة حول تهديدات العراق للكويت تجمع قواها مع بداية عام ١٩٩٠، كانت الشيوعية تنهار أولاً في دول أوروبا الشرقية التابعة للكتلة السوفياتية ثم في داخل الاتحاد السوفياتي نفسه. وأشار الرئيس السوري حافظ الأسد في كلمة عنيفة ألقاها في دمشق بتاريخ ٨ مايو/ أيار ١٩٩٠ الى أن تلك التطورات لم تخدم إلا اسرائيل لأنها ألغت وجود الاتحاد السوفياتي كعامل قوة في الشرق الأوسط. كما كان الرئيس العراقي صدام حسين يكرر نفس الأفكار وهو يشجب بعنف عدم رغبة الكويت وجاراتها من دول الخليج في التغاضي عن ديونه التي تراكمت خلال الحرب الايرانية العراقية أو أن تقدم له العون المادي من جديد.

لم يكن في مقدور الدول العربية ـ بعد ذلك ـ مثل سوريا والعراق أو حتى اليمن الجنوبي ـ حيث أسفرت الحرب الأهلية العنيفة هناك عن طرد النفوذ الشيوعي والمستشارين السوفيات ـ أن تعتمد على استغلال الاتحاد السوفياتي ضد الغرب من أجل الحصول على الدعم العسكري. فقد أصبحت المساعدات السوفياتية تنحسر في كل مكان وبقيت الولايات المتحدة هي الدولة العظمى الوحيدة في الشرق الأوسط. وقد ضاعف من كربة نظام غورباتشوف في موسكو ـ الذي أخذ يتخلى تدريجاً عن مواقعه العسكرية في شرق أوروبا من ألمانيا الشرقية الى بلغاريا ويواجه الحركات الاستقلالية

الناشئة في دول البلطيق ـ الاضطرابات المتنامية في الجمهوريات الاسلامية الواقعة جنوب الاتحاد السوفياتي. بمعنى آخر: لقد دارت الدوائر على موسكو. فعندما كان ستالين في أيامه يهدد جيرانه الجنوبيين إيران وتركيا هبت الولايات المتحدة للمساعدة بإعانات عسكرية ضخمة. وها هي الاعانات قد استمرت لتركيا العضو الحليف في منظمة حلف شمال الأطلسي ولشاه إيران الذي نصب نفسه مدافعاً عن المصالح الغربية في الخليج الفارسي.

وفي عام ١٩٩٠ أخذت الشعوب المغلوب على أمرها في جنوب الاتحاد السوفياتي تتطلع نحو الغرب (اتجه الأرمن الى جالية الأرمن ـ الأمريكيين الكبيرة الموجودة في الولايات المتحدة) أو نحو بلدان مثل تركيا وإيران لدعم تحررهم (كما هو الحال بالنسبة لأتراك أواسط آسيا ولسكان أذربيجان الواقعة شمال الحدود الايرانية السوفياتية).

كانت نتيجة هذا كله هو التوجس من النفوذ الأمريكي، ولكن في نفس الوقت فتح المجال له كي يتوسع ويزداد. . . وجاء ذلك في الوقت الذي بدأ الرئيس العراقي صدام حسين يرفع من طموحاته للسيطرة والتفوق في الخليج والجزيرة العربية. إلا أنه نظراً لكونه لم يعد يتمتع بالدعم السوفياتي فقد كان لزاماً عليه أن يصطدم بقوة الولايات المتحدة وجبروتها. . . وكانت ساحة النزال هي الكويت وكان الخصم الذي وجده صدام حسين أمامه هو جورج هيربيرت بوش رئيس جمهورية الولايات المتحدة.



الفصل الخامس عشر

درع الصحراء: أيام التردد والغيظ

قانون «العرّاب»

كان أول ما قاله الرئيس جورج بوش بعيد اندلاع الحرب الجوية ضد العراق في يناير/كانون الثاني ١٩٩١ هو «أنني لن أكون أسير صدام حسين في البيت الأبيض»(١). لقد كان انتصار أمريكا وقوات التحالف في تلك الحرب الجوية والحرب البرية القصيرة التي أعقبتها انتصاراً ساحقاً من شأنه أن يضمن نجاح جورج بوش مرة أخرى في انتخابات الرئاسة الأمريكية في عام ١٩٩٢.

إلا أن الموقف الذي اتخذته الادارة الأمريكية تجاه العراق خلال نزاعها الطويل مع الكويت لم يفصح عن أي نوايا من ذلك النوع. كما أن احتمال تأكيد السيطرة الأمريكية العسكرية والسياسية في منطقة الخليج لم يكن واضحاً للعيان أبان انتهاء الحرب العراقية/ الايرانية في أغسطس/ آب ١٩٨٨.

لقد كان النفط والاقتصاد وغرورصدام حسين وتقديراته المغرقة في الخطأ ثم بكل تأكيد نصائح الأصدقاء، من بين العوامل الحقيقية التي كان لها الدور الأساسي في تغيير موقف الرئيس بوش.

وكان يبدو أن إدارة الرئيس بوش تعيش فترة غرامية غريبة مع دكتاتور العراق منذ انتهاء الحرب العراقية/ الايرانية وحتى احتلال صدام حسين للكويت في الثاني من أغسطس/آب ١٩٩٠. فلم يكن يبدو على تلك الإدارة ـ أو على الأقل على الشخصيات البارزة فيها ـ طوال تلك الفترة من الزمن أنها قد استوعبت فهم طموحات صدام حسين ودعاواه وإصراره الجاد من أجل الهيمنة في الشرق الأوسط بكل الوسائل الممكنة. إلا أن دراسة متمعنة للأسلوب الذي كان صدام حسين يتحرك به في المنطقة منذ هجومه على إيران في عام ١٩٨٠ تبين بوضوح أن صدام كان يتصرف بناء على ما يمكن تسميته بنظرية «آل كابون(٢) للعلاقات الدولية». فقد أقام صدام في منطقة الخليج ما يشبه «فريق فتوة» تحولت نشاطاته فيما بعد الى واحد من أكبر الصدامات الدولية في عصرنا الحاضر.

لقد تقمص صدام حسين خلال سنوات حربه مع إيران شخصية «العراب» أو «الأب الروحي» للمنطقة، يصدر التهديدات تلو التهديدات لجيرانه من الدول الصغرى، ويقمع أكراد العراق بل ويهدد اسرائيل كذلك، بينما يقدم في الوقت نفسه الحماية ـ على غرار ما تفعله تنظيمات المافيا ـ لأصدقائه من الدول كالأردن، أو لدولة مثل الكويت التي كانت تحس بلفيح ثورة الخميني الشيعية القادم إليها من إيران.

أما بالنسبة للمملكة العربية السعودية وإمارات النفط الأخرى في الخليج، والتي اعتادت أن تعتمد على الحماية الأمريكية بدلاً من العراقية، فإن الخطر القادم من إيران كان خطراً حقيقياً لا شك فيه. وقد دفعهم الخوف من هذا الخطر الى تحويل المزيد من الأموال الى خزينة صدام حسين الحربية. إلا أنه بانتهاء تلك الحرب وإيقاف إطلاق النار في أغسطس/آب ١٩٨٨ أمل جيران صدام حسين في الخليج ـ بشكل أو آخر ـ في استرجاع تلك المليارات من الدولارات التي كانوا يعطونها إياه في شكل منح أو قروض من أجل حمايتهم خلال سنوات الحرب. لقد كان همهم الرئيسي أن يأمنوا شره ويبتعدوا عنه، ولكن صدام حسين ظل يفضل استمرار الوضع السابق والتصرف في المنطقة بشخصية «العراب». ولهذا السبب بدأ صدام حسين يهدد من حوله من جديد مطالباً بالغاء الديون الضخمة وبالمزيد من الدعم المالي للمحافظة على الاقتصاد العراقي المتهالك.

وكما هو الحال بالنسبة لرجل المافيا آل كابون، فقد ظلت وسائل صدام حسين تزداد عنفاً تجاه كل من يحاول خداعه أو يرفض دفع الاتاوات له.

أما في الولايات المتحدة فقد كان كل هذا يمر دون ان ينتبه اليه أحد باستثناء بعض المتخصصين. فقد كانت المعاملات التجارية تتم كالمعتاد وكان معظم رجال الأعمال وأعضاء الكونجرس يتجاهلون التقارير الموثقة التي كانت ترد حول سوء المعاملة والتعذيب والاعدامات الفورية وإنتهاكات حقوق الانسان في العراق. لقد أصبحت دول مثل الكويت والامارات العربية المتحدة مهددة عندما اكتشف صدام حسين أنها لا تأخذه مأخذ الجد

عامل النفط

تعتقد بعض الشخصيات الرئيسية في الشرق الأوسط أن أزمة عام ١٩٩٠ ـ ١٩٩١

جاءت نتيجة تواطؤ ـ متعمد أو عفوي ـ بين كل من الولايات المتحدة الأمريكية والكويت، يتمثل في نصب فخ للرئيس العراقي صدام حسين. من بين هذه الشخصيات ولي العهد الأردني الأمير حسن بن طلال الذي أبدى استعداده لمناقشة هذا الاحتمال معي. فقد أخبرني مع عدد من الزوار الآخرين خلال عدة جلسات في خريف عام ١٩٩٠ أن باقي الدول العربية لم تستطع أن تفسر موقف الكويت المتحدي تجاه العراق في نزاعهما حول الحدود والنفط والديون والذي تطور الى أزمة دولية كما فهمها العرب، وإن لم تعتبرها الولايات المتحدة كذلك. لقد اعتبر العرب ان الأزمة قد نتجت ـ ولو بشكل جزئي ـ عن كون الكويت ـ ربما بتشجيع ولكن بالتأكيد دون تثبيط من قبل الولايات المتحدة ـ كانت تضخ اكثر من حصتها المقررة من النفط دافعة بذلك بأسعار النفط نحو الانخفاض بما يقل عن المستويات المفضلة لدى دول منظمة الأوبيك.

في الثامن من أغسطس/ آب ١٩٨٨ ـ وبعد يوم واحد فقط من وقف إطلاق النار في الحرب العراقية/ الايرانية ـ قررت الكويت الرفع من معدل انتاجها للنفط مخالفة بذلك اتفاقيات منظمة الأوبيك. وكان حقل الرميلة الواقع على الحدود العراقية/ الكويتية والذي تطالب العراق بملكيته بالكامل أحد الحقول التي بدأ فيها تنفيذ ذلك القرار.

لقد كانت ظروف العراق الذي أنهكت ثروته ثماني سنوات من الحرب مع إيران، تفرض عليه أن يسعى للرفع من أسعار النفط في السوق العالمية، وأن يزيد من معدل دخله لأعلى المستويات. فقد كان من الواضح لدى صدام حسين منذ بداية حكمه في العراق أن النفط سيكون عاملاً حاسماً في بناء قوة ذلك البلد، وانطلق ينصّب أتباعه في جميع المراكز الهامة في قطاع النفط. وبعد أن تأكد صدام حسين من ضمان حماية بلده بتوقيع اتفاقية دفاعية مع الاتحاد السوفياتي في إبريل/ نيسان ١٩٧٢ اتجه الى تنفيذ عمل سياسي ضخم لا ينطوي على أية قيمة اقتصادية ألا وهو تأميم جزء من ـ وليس كل ـ أسهم شركة النفط العراقية وملحقاتها المملوكة من قبل جهات غربية، ثم استعمل ذلك من أجل تعزيز قوته داخل العراق وتضخيم صورته الدعائية كبطل وطني. وعندما أسفرت الحرب العربية/ الاسرائيلية في عام ١٩٧٣ عن ذلك الارتفاع الصاروخي في أسعار النفط اندفع صدام حسين بكل ذكاء وحماس من أجل استغلال ذلك الوضع.

منذ ذلك الحين استطاعت العراق خلال فترة وجيزة أن ترفع معدل دخلها من النفط الى أحسن المستويات وذلك عن طريق البيع بأسعار مخفضة، مخالفة الاتفاقيات المبرمة مع أعضاء مجموعة الأوبيك الآخرين. وعليه فعندما انخفضت أسعار النفط العالمية خلال السبعينات زاد العراق من معدل انتاجه بينما انخفض المعدل العام لمجموعة دول الأوبيك. وهكذا، فإن العراق لم يكن بمقدوره استغلال ولو جزء بسيط من تلك الثروة الهائلة ـ ناهيك عن استثمارها ـ برغم سياسته في اغداق الأسواق بالمواد والبضائع الاستهلاكية وتمليك السيارات الخصوصية مجاناً لأسر قتلى الحرب العراقية/ الايرانية التي نشبت بعد ذلك. والسبب في ذلك يرجع الى أن العراق ـ على حد قول أحد رجال المصارف العالمية ـ لم يكن يملك «البنية الصناعية الأساسية». ولذا فقد ركز العراق أثناء انشغاله بالحرب خلال الفترة ما بين ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ وانعزاله عن الأسواق التجارية العالمية على بناء الأسلحة الكيماوية والصواريخ والامكانيات الحربية الأخرى وذلك بمساعدة الكثير من المستشارين ورجال المصارف والأموال الغربيين، الذين أقبلوا على ذلك بكل حماس.

أنه ليس من الحقيقة أن يقال أن الكويت وحدها هي التي كسبت من الحرب العراقية/ الايرانية كما يدعي العراق وأنصاره، وذلك لأن الكويت قد تكبدت بعض الخسائر أيضاً. فقد أدى هبوط سعر النفط في السوق العالمي الى انخفاض دخل هذه الامارة الصغيرة من ٤, ١٨ مليار دولار في عام ١٩٨٠ الى ما لا يزيد عن ٩ مليارات دولار في عام ١٩٨٤. كما عانت الكويت خلال تلك الفترة (راجع الفصل. . .) من جراء أعمال إرهابية تخريبية داخل الكويت نفذتها عناصر شيعية مناصرة لآية الله الخميني ومدعومة من قبل إيران. هذا الخطر الخارجي هو الذي دفع بالكويت في عام ١٩٨٧ الى اللجوء لحماية ناقلات نفطها على يد البحرية الأمريكية.

إلا أن الكويت ـ على الطرف الآخر ـ بلد لا يزيد عدد سكانه الأصليين عن نصف مليون مواطن يتمتعون بامتيازات خاصة من المهد الى اللحد، وتقدر استثماراته الخارجية بما يزيد عن مائة مليار دولار مما يُدرّ عليه دخلاً سنوياً أكثر من دخل مبيعاته من النفط، أما العراق فهو بلد يبلغ تعداد سكانه ثمانية عشر مليون نسمة، أرهقته ديون حرب الثماني سنوات ضد إيران التي لم تترك له شيئاً يذكر يستغله في البناء والتنمية. لقد وضعت الكويت والمملكة العربية السعودية استراتيجيتهما الطويلة المدى على مبدأ

الدفع بمعدلات استهلاك البترول العالمية نحو الأعلى والعمل على ضمان أكبر حصة ممكنة في هذه السوق. وقد صاحب هذه الاستراتيجية هدف هام جداً وهو المحافظة على أسعار النفط في مستوى لا يؤهل الدول الصناعية أن تتمكن من تطوير موارد بديلة للطاقة. ولذا فقد كانت الكويت أكثر دول النفط استعداداً للتعايش مع الأسعار المنخفضة، وذلك بعكس العراق الذي كان يسعى للحصول على التسديد المقدم والفوري مقابل مبيعاته من النفط.

والسؤال هو: لماذا ـ إذاً ـ قررت الكويت رفع معدل الانتاج ابان انتهاء الحرب العراقية/ الايرانية؟ .

لقد درجت كل من الكويت والسعودية طوال سنوات تلك الحرب على ضخ كميات من النفط تفوق بكثير حصتهما من الانتاج مما أدى الى انهيار الأسعار العالمية للنفط. لا شك أنه بالامكان إيعاز ذلك عموماً الى حالة الركود الاقتصادي العالمية والخلافات السياسية داخل منظمة الأوبيك. إلا أن هذا الانهيار في الأسعار قد تزامن مع نضوب احتياطي إيران ـ وهي إحدى دول الأوبيك المتنافسة ـ من العملة الصعبة مما ساعد على إسراعها في القبول بإيقاف إطلاق النار، حيث نالت منها الحرب منالها.

يعتقد الأمير حسن بن طلال ـ ولي عهد الأردن ـ ان الكويت برفعها لمعدل إنتاجها من النفط ـ ولعل ذلك قد تم بالتنسيق مع المملكة العربية السعودية ـ كانت تأمل في تكرار نفس العملية ولكن مع العراق هذه المرة وبعلم السلطات الأمريكية في واشنطن بما كان يحدث[٣]. مهما كان الأمر، فإن العراق كان يعلم أن ما قامت به الكويت من رفع الانتاج وتخفيض الأسعار سيقلل من دخل العراق بما يساوي تماماً المبلغ المطلوب لمعالجة الديون العراقية وهو سبعة مليارات دولار في السنة[٤].

في هذا الوقت الذي كان الخلاف بين العراق والكويت في تصاعد مستمر كانت هناك إشارات متعددة من واشنطن لتشجيع صدام حسين في الاستمرار على الخط الذي انتهجه. فقد قام السيد جون كيللي John kelly مساعد وزير الخارجية الأمريكي لشؤون الشرق الأوسط بزيارة لصدام حسين في بغداد في فبراير/ شباط ١٩٩٠. وتفيد مصادر عراقية وأردنية أن كيللي أخبر صدام حسين بأن حكومة الولايات المتحدة تعتبره «قوة اعتدال» في المنطقة وأنها تسعى الى تحسين العلاقات الأمريكية مع العراق. تلقى

صدام حسين هذا الخبر الطيب بارتياح كامل واتصل على الفور بصديقه الملك حسين ـ عاهل الأردن ـ ليزف له الخبر. إلا أن نفسية صدام تعكرت فيما بعد عند صدور إشارتين أخرتين متناقضتين من واشنطن. كانت الأولى التعليق الرئيسي الذي بثته إذاعة صوت أمريكا في الخامس عشر من فبراير/ شباط والذي كان معادياً لصدام حسين بشدة، وكانت الثانية بعد ستة أيام من ذلك التاريخ عندما نشرت وزارة الخارجية الأمريكية تقريرها السنوي عن حقوق الانسان في العالم والذي خصصت اثنتاعشرة صفحة منه لتفاصيل تتعلق باعتداءات ضد الأكراد في العراق من ضمنها التعذيب وانتهاكات أخرى.

لقد كان النزاع حول النفط بين العراق والكويت الموضوع الرئيسي للنقاش في اجتماع مجلس التعاون العربي الذي يضم مصر والعراق والأردن واليمن، والذي عقد في عمان بتاريخ ٢٤ فبراير/ شباط ١٩٩٠. ففي ذلك الاجتماع ألقى صدام حسين خطاباً غاضباً تحدث فيه عن خطورة أثر انتهاء الحرب الباردة على الدول العربية وتقهقر الاتحاد السوفياتي ونمو نفوذ الولايات المتحدة كنتيجة لذلك كله. وأضاف يقول أن موسكو وواشنطن كلاهما تدعم هجرة اليهود السوفيات الى اسرائيل وذلك على حساب عرب فلسطين، وأن التسليح الأمريكي المستمر لأسرائيل سيدفع باسرائيل الى ارتكاب «حماقات جديدة»، وأنه إذا ما قامت الولايات المتحدة بسحب أسطولها الحربي من الخليج فإن ذلك سيضعف مما وصفه بقدرتها على السيطرة الكاملة على أسعار النفط العالمية. ودعا صدام حسين اخوانه من القادة العرب الى إعداد خطة عمل يتم بموجبها تأسيس قوة عربية إقليمية حقيقية في المنطقة، مما يؤهلهم الى فرض طبيعة العلاقات في المنطقة نداً بند مع القوى الكبرى. ولم يفت صدام حسين أن يكيل اللعنات على أولئك القادة العرب «الجبناء، الحقيرون» الذين يعترفون بالولايات المتحدة كدولة عظمى.. وهو يعني بذلك الملك فهد والرئيس حسني مبارك، وكلاهما كان يعلم ذلك جيداً.

أما في واشنطن فقد انتبهت الادارة الأمريكية الى التهديد الذي أصدره صدام حسين فيما بعد، وذلك لأنه كان موجهاً الى اسرائيل بصورة مباشرة. فقد هدد صدام حسين في خطاب ألقاه أمام القوات المسلحة العراقية في ٢ أبريل/ نيسان بأنه سوف «نحرق نصف اسرائيل» بالأسلحة الكيماوية إذا ما قامت اسرائيل بالهجوم على «مصانع المعادن» العراقية، مشيراً الى قضية الصحفي الانجليزي الايراني الأصل فارزاد بازوفت

الذي أُعدم مؤخراً في العراق بتهمة التجسس لحساب اسرائيل، واصفاً إعدامه بأنه «عقوبة عادلة».

لقد ضم التكتل اليهودي القوي في واشنطن صوته الى بقية الأصوات الأخرى التي كانت تنادي بالتريث في «سياسة الاسترضاء» الأمريكية تجاه العراق، بل والتخلي عنها بالكامل. بناء على ذلك قام جون كيللي ودينيس روس Dennis Ross التابع لقسم التخطيط السياسي بوزارة الخارجية الأمريكية باعداد مشروع عقوبات اقتصادية ضد العراق، شملت الغاء تمويل مؤسسة الاعتماد للبضائع لبرنامج المشتريات العراقية الواسع للقمح الأمريكي، ومنع صادرات التكنولوجيا والمعدات العسكرية الأمريكية التي يمكن استخدامها للأغراض العسكرية والمدنية معاً، كطائرات بيل العمودية التي تم بالفعل بيعها للعراق. إلا أن وزارة التجارة ومجلس الأمن القومي اعترضا معاً وتم بذلك القضاء على تلك الخطة.

لقد كانت الدوائر العليا في إدارة الرئيس بوش في ذلك الوقت ـ أي في ربيع عام ١٩٩٠ ـ منهمكة بالانشغال في إعادة توحيد ألمانيا والاعداد للقمة الجديدة بين بوش وغورباتشوف. وفي ١٢ أبريل/ نيسان كان ممثل ولاية كانسيس الجمهوري عضو مجلس الشيوخ روبرت دوول Robert Dole يرأس وفداً عن الكونجرس الأمريكي في اجتماع مع صدام حسين عبر خلاله دوول عن قلق الولايات المتحدة حول برامج العراق الخاصة بالأسلحة الكيماوية والبيولوجية، وأخبر صدام حسين بقرار فصل الصحفي الذي كتب التعليق الذي أذاعته اذاعة صوت أمريكا في شهر فبراير/ شباط والذي كان قد أثار العراق. وعندما أضاف روبرت دوول قوله أن الرئيس بوش حريص على تحسن العلاقات بين أمريكا والعراق، أثنت على ذلك السيدة ابريل غلاسبي، سفيرة الولايات المتحدة في العراق، والتي كانت من ضمن الحاضرين في ذلك اللقاء بقولها أن تلك بالفعل هي سياسة الولايات المتحدة الرسمية(٥).

وفي ٣ مايو/ أيار تقدم السيد طارق عزيز وزير الخارجية العراقي بشكوى حول ارتفاع معدل إنتاج دول الأوبيك للنفط بما يشكل خطراً متصاعداً على العراق. فقد اجتمع وزراء النفط لدول المنظمة في فيينا في شهرمارس/ آذار وكان ذلك الموضوع على رأس جدول أعمال الاجتماع، حيث رفضت كلاً من الكويت ودولة الامارات العربية

المتحدة الموافقة على أي تخفيض في الانتاج. إلا أنه في جلسة طارئة عقدت في نفس الوقت الذي وصلت فيه شكوى طارق عزيز تقريباً، تم الاتفاق على تخفيض الانتاج. ولكن هيئة الطاقة العالمية بباريس أكدت أن إنتاج مجموعة الأوبيك لم يخفض بأكثر من أربعمائة ألف برميل في اليوم - وهي حصيلة كمية التخفيض في إنتاج السعودية وحدها - وذلك أقل بكثير من الكمية التي وعدت المنظمة بها في جلستها الطارئة وهي مليون وخمسة وأربعين ألف برميل في اليوم. واستمرت أسعار النفط في الانخفاض حيث وصل سعر برميل نفط برينت - وهو أكثر أنواع نفط نهر الشمال رواجاً في السوق العالمية، والذي يستخدم كمقياس للنفط العالمي - الى ١٥,٦ دولار مع حلول الخامس من يونيو/ حزيران مقارنة بسعره في ٢٤ أبريل/ نيسان حيث بلغ سعرالبرميل ١٧,٥ دولار وفي ٢٠ فبراير/ شباط حيث بلغ السعر ١٩,٥ دولار وذلك قبل الانخفاض المعتاد خلال فصل الربيع.

ومن الغريب أن الادارة الأمريكية - بقيادة رجل النفط الأسبق جورج بوش - والتي عادة ما تكون حساسة لما يدور في عالم النفط، فاتها أن تنتبه للعلاقة بين تصرفات العراق في الساحة النفطية والتهديدات الأمنية تجاه الكويت. أن خسائر العراق السنوية - على حد قول صدام حسين في الجلسة المغلقة للقمة العربية الطارئة في ٣٠ مايو/ أيار - تصل الى مليار دولار لكل دولار واحد تخفيض في سعر البرميل، واعتبر ذلك «بمثابة حرب ضد العراق». وفي أواخر شهر يونيو/ حزيران قام السيد صادق بوسنة رئيس منظمة الأوبيك بجولة في عدد من الدول الأعضاء في المنظمة في محاولة لحثهم وتشجيعهم على تخفيض الانتاج قبل حلول موعد الاجتماع الوزاري لدول المنظمة المقرر عقده خلال شهر يوليو/ تموز في جنيف. تزامنت تلك الجولة مع مجموعة زيارات قام بها السيد سعدون حمادي نائب رئيس الوزراء العراقي لكل من الكويت والسعودية وقطر ودولة الامارات العربية المتحدة مطالباً - بأسلوبه الأكثر ودية من أسلوب صدام حسين - بتخفيض تلك الدول لمعدلات انتاجها. إلا أن ذلك كله مرّ دون أن يوقظ واشنطن من سباتها المعتاد في أوائل فصل الصيف من كل سنة.

يومي ١٠ و١١ يوليو/ تموز عقد وزراء النفط لكل من العراق والسعودية والكويت وقطر ودولة الامارات المتحدة، آخر اجتماع لهم قبل الحرب في مدينة جدة بالسعودية تمكنوا فيه من الاتفاق على تخفيض الانتاج، وذلك على أساس أن تقوم كلاً من

الكويت ودولة الامارات العربية بتخفيض إنتاجها الى مليون ونصف المليون برميل في اليوم وذلك حتى يصل سعر البرميل الى ١٨ دولار وهو السعر الرمزي الذي حددته منظمة الأوبيك. بناء على ذلك فإن حصة الكويت من التخفيض ستكون ثلاثمائة ألف برميل وحصة دولة الامارات العربية أربعمائة ألف برميل في اليوم.

إلا أنه بعد مرور أقل من أسبوع على ذلك الاتفاق أخذ صدام حسين يقرع طبول الحرب في بغداد. فقد توعد في خطاب بمناسبة الذكرى الثانية والعشرين لثورة ١٧ تموز العراقية «أنه في حالة فشل الكلام في حماية العراقيين، فلا بد من القيام بعمل ما يرجع الأمور الى مجراها الطبيعي ويسترد الحقوق المغتصبة لأصحابها»، وصاحب ذلك مذكرة طويلة شديدة اللهجة تقدم بها طارق عزيز وزير الخارجية لجامعة الدول العربية بتاريخ ١٦ يوليو/ تموز. وقد حذر صدام حسين الدول العربية التي تخدم مصالح أمريكا بأن العراق لن ينسى المثل العربي القائل «وقطع الأرزاق من قطع الأعناق».

لقد شعر السيد الشاذلي القليبي أمين عام جامعة الدول العربية بعد قراءة ذلك الخطاب ومذكرة طارق عزيز، بأن ما جاء فيهما يعد بمثابة إعلان حرب من قبل العراق ضد الكويت. فاضافة الى ملف الديون والتهم الموجهة ضد الكويت حول «سرقة النفط» من العراق عبر حقل الرميلة، ادعى طارق عزيز أن الكويت تقوم بانشاء مراكز عسكرية داخل الأراضي العراقية. كما اتهمت الكويت ودولة الامارات العربية بأنهما «جزء من مؤامرة صهيونية يدعمها الامبرياليون ضد الأمة العربية»، وخصت المذكرة بالذكر وزير خارجية الكويت الشيخ صباح الأحمد الذي وصفته بأنه «عميل أمريكي». إلا أنه كالمعتاد لم تدق في واشنطن سوى أجراس خطر خافتة جداً، ولكن تلك المؤشرات كانت كافية بالنسبة للكويت بأن تضع جيشها في حالة استعداد وأن يعقد مجلسها القومي الذي تم انتخابه حديثاً جلسة طارئة لمناقشة التهم العراقية(٦).

كما شرع الكويتيون ـ في تكتم تام ـ في اتخاذ تدابير أخرى لحماية أمبراطوريتهم المالية العالمية، فبدأ ممثل دولة الكويت في مكتب الاستثمار الكويتي بلندن بتاريخ ١٩ يوليو/ تموز ـ بكل هدوء ـ في بيع كميات ضخمة من ممتلكات الدولة المصرفية والعقارية في الشرق الأقصى(٧). وفي رسالة للأمين العام للأمم المتحدة ذكرت الكويت أن التهم العراقية إنما هي «تزوير للواقع» وطالبت بأن تقوم جامعة الدول العربية بتبني رسم

للحدود المتنازع عليها بين العراق والكويت من قبل لجنة عربية. أما في واشنطن فقد كان يبدو أن المسؤولين هناك كانوا موافقين على ما ورد على لسان الرئيس المصري حسني مبارك، بأن الوضع لا يتعدى كونه «سحابة صيف» سوف تنقشع بين لحظة وأخرى. وظل المتحدثون باسم الادارة الأمريكية يرددون تلك المقولة الخالدة التي لازمت كل إدارة أمريكية منذ عهد الرئيس فرانكلين روزافيلت بأن أمريكا مصممة على ضمان حرية حركة النفط ودعم «أصدقائنا في الخليج».

فشل أجهزة المخابرات وتسرب المعلومات حول التكنولوجيا الدفاعية:

لا شك أن تقارير وكالة الاستخبارات المركزية وغيرها مما أكدته مؤسسة سات ـ انت للأقمار الصناعية الدولية حول حشود مائة ألف من القوات العراقية على الحدود الكويتية قد وصلت لمجلس الأمن القومي والبيت الأبيض في واشنطن. كما يبدو كذلك ان معلومات استخبارية اسرائيلية غير متكاملة قد وجدت طريقها الى وزير الدفاع الاسرائيلي السيد موشي آرينز. لقد تسببت هذه التقارير فيما بعد في فضيحة في اسرائيل تتعلق بقصور منظمة الموساد وأجهزة الاستخبارات العسكرية. ولكن إدارة الرئيس بوش لم تشرع في اتخاذ أي قرارات خاصة بالوضع إلا بعد التحرك الفعلي للقوات العراقية نحو الكويت في ليلة الأول من أغسطس/آب.. ولعل أهم قرار كان ينبغي أن يتخذ آنذاك هو إيقاف بيع المواد الاستراتيجية الأمريكية للعراق.

ففي الأول من أغسطس/آب وافقت الادارة في الواقع على بيع أجهزة بث معلومات متقدمة للعراق.. كما كشفت الوثائق الحكومية الرسمية التي حصلت عليها صحيفة الواشنطن بوست أن إدارة كلاً من ريغان وبوش قد سمحتا للعراق بشراء معدات تكنولوجية عسكرية متقدمة ذات الاستعمال المزدوج بما قيمته ١,٥ مليار دولار ما بين عامي ١٩٨٥و١٩٩٠.

وكان من ضمن تلك المعدات ـ التي دمرتها قنابل الحلفاء أثناء حرب عاصفة الصحراء فيما بعد ـ آلات حاسبة/ كومبيوتر (ووفق على بيع ما قيمته ٣,٤ مليون دولار منها بتاريخ ١٧ يوليو/ تموز، أي نفس اليوم الذي ألقى فيه صدام حسين خطابه الذي هدد فيه الكويت) وأجهزة راديو ومحطات أشعة تخطيطية تستخدم لتصميم الصواريخ وتحليل مساراتها، وعُدد مكنية ذات التكنولوجيا المتقدمة وأجهزة رسم خرائط بالآلات

الحاسبة، ، ومعدات تصويرية لتحليل الصورة الملتقطة بالأقمار الصناعية. لقد كانت معظم تلك التكنولوجيا - بما فيها التي تمت الموافقة على بيعها خلال الأيام الأخيرة التي سبقت احتلال الكويت - مشتراة للوزارات العراقية الرئيسية، مثل وزارة الدفاع والداخلية، وهيئة الطاقة النووية. أما الجامعات والمعاهد العلمية التي تحصلت على بعض من تلك الأجهزة والمعدات فقد تم قصفها فيما بعد من قبل قوات الحلفاء لكونها تشكل جزءاً من مؤسسات الأبحاث النووية العراقية والمنشآت الصناعية المنتجة للغازات السامة.

أما المعدات غير التكنولوجية المتقدمة التي تم بيعها، فقد كان معظمها للاستعمال المزدوج (المدني والعسكري). من ذلك مثلاً ما قيمته ٤٥,٤ مليون دولار من الطائرات العمودية الخاصة بصدام حسين وكبار المسؤولين في الدولة والزوار الأجانب، وقد كان من حظي السفر في واحدة منها الى البصرة خلال الحرب العراقية/الايرانية في عام ١٩٨٧. أما مجموعة الطائرات العمودية الأخرى، وقيمتها ٢٥ مليون دولار، فقد كان من المفروض استخدامها لرش المحاصيل الزراعية، ولكنها استخدمت لرش الغازات السامة ضد المدنيين الأكراد عام ١٩٨٨، وربما استخدمت أيضاً في الهجمات التي شنها العراق ضد المتمردين الذين كانوا يهددون سلطة صدام حسين بعد هزيمته على يد قوات التحالف في فبراير/ شباط ومارس/آذار ١٩٩١. وقد أخبرت بعض المصادر الأمريكية صحيفة الواشنطن بوست أن من بين الشركات التي صنعت تلك المعدات والتي قامت ببيعها للعراق - والتي لم يفصح عن أسمائها رسمياً - كبرى شركات تصنيع التكنولوجيا الأمريكية من أمثال هوليت - باكارد وساينتيفيك اتلانتا وتيكترونيكس ويلترون(٨).

محاولات سلمية لمنظمة التحرير الفلسطينية في اللحظات الأخيرة:

تعتبر منظمة التحرير الفلسطينية من أكبر الأطراف الخاسرة في حرب التحالف ضد العراق. فبوقوفها الى جانب صدام حسين رفضت اسرائيل - بموافقة الولايات المتحدة - قبول المنظمة طرفاً مشاركاً في مفاوضات ما بعد الحرب.

إلا أن هناك جانباً آخر لقصة وضع المنظمة على قدر كبير من الأهمية، ولكنه لم يلق حقه من الفهم لدى إدارة الرئيس بوش خاصة، والشعب الأمريكي عامة. لقد قام السيد ياسر عرفات رئيس المنظمة وعدد من مساعديه بجهود كبيرة لحل الأزمة سلمياً

قبل أن يتم احتلال الكويت . . كما عمل عرفات ـ وكذلك الملك حسين عاهل الأردن ـ جاهداً فيما بعد الاحتلال لضمان انسحاب العراق وتفادي الحرب. ففي ٢٨ يوليو/ تموز كان ياسر عرفات يقوم بإحدى زياراته المتعددة لصدام حسين في بغداد حيث طلب إليه صدام أن يزور الكويت لمقابلة الأمير مؤكداً له أنه على استعداد لتخفيض القوات العراقية المحتشدة على الحدود العراقية/ الكويتية إذا ما وافق الأمير على تسديد مبلغ ١٠ مليارات دولار للعراق مقابل ضخ الكويت للنفط من حقول الرميلة المتنازع عليها .

في اليوم التالي التقى عرفات بالأمير في قصره بمدينة الكويت، ولكن الأمير رفض التحدث عن النفط أو الحدود وطلب من عرفات أن يحدثه عن هجرة اليهود السوفيات لاسرائيل، وهو الأمر الذي يشكل خطراً كبيراً لدى العرب جميعاً: فناقشوا ذلك الموضوع لفترة من الزمن ثم حاول عرفات مرة أخرى أن يعود الى موضوع الأزمة الراهنة، ولكن الأمير رفض مرة أخرى أن يتحدث في ذلك الموضوع وأبلغ عرفات بأنه سيغادر بعد ثمانٍ وأربعين ساعة الى جدة بالمملكة العربية السعودية لمحادثات مع العراق. لقد كان العاهل السعودي الملك فهد قد حصل آنذاك على موافقة كل من العراق والكويت على الالتقاء في مدينة جدة يوم ٣١ يوليو/ تموز.

بعد ذلك اجتمع عرفات في لقاء منفصل مع ابن عم الأمير ولي العهد الكويتي الشيخ سعد العبد الله الصباح رئيس الوزراء حيث أخبر الأمير بأن العراقيين يشكلون خطراً حقيقياً على الكويت ونصحه «بالعمل على حل المشكلة» ولكن ولي العهد رفع يديه فاتحاً راحتيه نحو السماء كما يفعل الرجل العربي في حالة اليأس قائلاً: «إن القرار ليس في يدي».

ولكن عرفات المشهور بقدرته الفائقة على الاقناع ـ وإن كان كثير المراوغة ـ حاول مرة أخرى قائلاً: «هل في استطاعتكم القبول بمواجهة عسكرية؟لا تذهبوا الى جدة وأيديكم خالية». هز ولي العهد رأسه يقول: «نحن لا نملك القوة التي يملكها العراق، ولا نية لنا في محاربته»(٩).

لعل ولي العهد لم يخبر ياسر عرفات بذلك، ولكنه يبدو أن الكويتيين كان لديهم ما يدعو الى الاعتقاد بأنهم لن يضطروا للقتال لأن أمريكا أو بريطانيا ـ أو كلاهما معاً ـ سوف تهرع لانقاذهم في حال قيام صدّام بهجوم ضدهم. يقول أحد مستشاري الملك

حسين، عاهل الأردن، أن الكويتيين قد أخبروا الأردنيين بأن القوات الأمريكية ستهب لانقاذهم خلال أربع وعشرين ساعة. فرغم أن بريطانيا أرسلت قواتها، التي استبدلت فيما بعد بقوات تابعة لجامعة الدول العربية، للدفاع عن استقلال الكويت الحديث العهد عندما هددها العراق عام ١٩٦١، ورغم وجود اتفاقية دفاعية رسمية بين العراق وبريطانيا فإن هذه الاتفاقية لا وجود لها في الواقع.

أما بالنسبة للولايات المتحدة التي كان ياسر عرفات والبعض من الكويتيين يعتقدون أنها سوف تتدخل، فإن الكثير من المسؤولين هناك، قد توصل الى نتائج كانت تظهر معقولة بالنسبة لهم ولكنها أبعد ما تكون عن المعقولية بالنسبة للأطراف المعنية في الضفة الأخرى من المحيط الأطلسي. . بل أنها كانت تبدو غير معقولة حتى في أوروبا. في يوم ٣١ يوليو/ تموز - وهو تاريخ اجتماع قمة جدة الفاشل بين السعودية والعراق والكويت - بيّن السيد جون كيللي في شهادته التي أدلى بها أمام إحدى لجان مجلس الشيوخ الأمريكي في واشنطن موقف أميركا الرافض للتدخل مؤكداً أنه رغم موافقة أمريكا على رفع علمها على ناقلات النفط الكويتية عام ١٩٨٧ لحمايتها، فإن الولايات المتحدة لا تربطها أية اتفاقيات مع دول الخليج برغم مساندتها «لاستقلال تلك الدول وأمنها» واحتفاظها بقوات بحرية في الخليج منذ الحرب العالمية الثانية. وعندما سأله السيد لي هاملتون ممثل ولاية أنديانا الديمقراطي سؤالاً مباشراً حول وجود اتفاقية دفاعية بين الكويت والولايات المتحدة، كرر السيد كيللي قوله بأنه لا توجد أية اتفاقية رسمية تجبر الولايات المتحدة على استعمال قوات أمريكية للدفاع عن الكويت.

وصل هذا الخبر في خلال عدة دقائق الى صدام حسين في بغداد الذي سمعه عبر إذاعة القسم العربي لهيئة الاذاعة البريطانية(١٠).

لقاء صدام حسين وابريل غلاسبي:

لا بد أن صدام حسين اعتبر ما ورد على لسان جون كيللي تأكيداً للمؤشرات التي اعتقد أنه استلمها قبل ذلك من السيدة ابريل غلاسبي الدبلوماسية المحترفة وإحدى المتخصصين في شؤون العالم العربي وسفيرة الولايات المتحدة في العراق. لقد كانت غلاسبي مشاركة في الاجتماع الذي تم بين صدام حسين وعضو الكونجرس الأمريكي

روبرت دوول في شهر أبريل ١٩٩٠ . وفي ٢٥ يوليو/ تموز استدعى صدام حسين ابريل غلاسبي للقاء معه لتحميلها رسالة للرئيس بوش. افتتح صدام اللقاء بالاشارة الى قطع العلاقات الدبلوماسية العراقية/ الأمريكية من قبل العراق ما بين عام ١٩٦٧ و١٩٨٤ ثم أشار الى المشاكل التي برزت بعد عودة تلك العلاقات بسبب قضية إيران ـ جيت وانشغال العراق باحتلال شبه جزيرة الفاو واستطرد يقول: «لقد قبلنا اعتذار الرئيس الأمريكي عن طريق ممثليه فيما يتعلق بايران ـ جيت وفتحنا صفحة جديدة».

ثم قال صدام لغلاسبي: «إلا أنه لسوء الحظ هناك أطرافاً معينة في الولايات المتحدة» لم تقدر قوة العراق الجديدة بعد انتهاء الحرب مع إيران، وأخذت تتحدث عن الذي سيخلف صدام حسين « وبدأت في الاتصال بدول الخليج لتخويفها من العراق وإقناعها بعدم تقديم أي مساعدات اقتصادية للعراق ». لقد خرج العراق من الحرب ضد إيران وقد بلغت ديونه ٤٠ مليار دولار فيما عدا المساعدات الحربية التي قدمتها بعض الدول العربية والتي اعتبرتها ديناً لها على العراق كذلك. وأضاف صدام قائلاً: «إن الحملة الاعلامية التي يشنها بعض المعلقين المعادين للعراق في الولايات المتحدة تقارن وضع العراق بأوضاع بولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا».

ولكن الأخطر من ذلك ـ حسب ما ورد على لسان صدام حسين ـ هو «السياسة المخططة والمتعمدة» التي اتبعتها الكويت ودولة الامارات العربية المتحدة للتخفيض من أسعار النفط في الوقت الذي «أخذت الكويت تتوسع في أراضيها على حساب أراضينا». وذكر صدام حسين السيدة السفيرة بأن العراق ـ وليست الولايات المتحدة ـ «هي التي كانت تحمي أصدقاءكم خلال فترة الحرب مع إيران»، بحيث لو قدر للايرانيين ـ على حد قوله ـ أن يكتسحوا المنطقة «فإن القوات الأمريكية لم تكن لتستطيع إيقافهم أللهم إلا باستعمال الأسلحة النووية. إن مجتمعكم لن يستطيع أن يتحمل عشرة آلاف قتيلاً في معركة واحدة». ثم تقدم صدام بتحذير واضح بأن العراق سوف «يأخذ حقوقه واحداً تلو الآخر» وأتبعه بانذار أوضح بأنه في حالة عرقلته من قبل الولايات المتحدة سوف يطلق جماح الارهاب بكل أنواعه. «اننا لن نستطيع الذهاب اليكم في الولايات المتحدة ولكن أفراداً عرباً قد يصلوا إليكم» وكأنه كان يتوقع الحرب التكنولوجية المتقدمة التي ستندلع ضده في أقل من ستة أشهر.

واستطرد صدام حسين يقول: «إننا عندما نشعر بأنكم تريدون جرح كرامتنا وسلب العراقيين فرصة الحياة بمستوى عال من المعيشة فإننا عندئذ لن نبالي وسيكون خيارنا هو الموت، ولن نعبأ إذا ما أطلقتم مائة صاروخ مقابل كل صاروخ واحد ينطلق من عندنا . . وذلك لأن الحياة بدون كرامة لا قيمة لها».

وبعد أن تحدث صدام بعض الشيء عن اسرائيل ومخططاتها ضد العراق، تمكنت السفيرة غلاسبي من التحدث بما كان صدام حسين قد اعتبره نوعاً من التشجيع له. إذ قالت أن الرئيس جورج بوش «قد أصدر تعليماته للادارة الأمريكية برفض جميع المقترحات لتطبيق العقوبات الاقتصادية ضد العراق». كما أضافت تقول إن وسائل الاعلام الأمريكية، كانت بحق غير منصفة وأنها شعرت بأن مقابلة الصحفية دايان صويا مع الرئيس صدام حسين التي أذيعت في برنامج برايم تايم لايف الذي تبثه شبكة آ. بي. سي. كانت من النوع «الرخيص والمجحف» وإن «ظهوركم في وسائل الاعلام ولو لمدة خمس دقائق من شأنه أن يعيننا على تمكين الشعب الأمريكي من أن يفهم العراق ويزيد من التفاهم المتبادل بيننا. . . ولو أن الرئيس كان قادراً على التحكم في وسائل الاعلام لكانت مهمته أيسر بكثير مما هي عليه».

واستطردت السيدة السفيرة تقول إن الرئيس بوش «لن يعلن حرباً اقتصادية على العراق». كما اتضح خلال الحديث أنها على اتفاق مع الرئيس العراقي على أن العراق والولايات المتحدة لا تحبذان ارتفاع أسعار النفط أكثر من اللازم وردت على قول صدام حسين إن «٢٥ دولاراً للبرميل ليس سعراً عالياً» بقولها إن هناك « الكثير من الأمريكيين الذين يرغبون في أن يرتفع السعر الى ما فوق الخمسة والعشرين دولاراً لأنهم ينتمون لولايات منتجة للنفط في أمريكا». كما أضافت أنها تقدر حاجة العراق لاعادة البناء.

بعد ذلك ورد على لسان السيدة السفيرة ما اعتبره صدام ـ حتماً ـ أقوى إشارة مشجعة له على الاطلاق إذ قالت: «ليس لدينا رأي محدد فيما يتعلق بالخصومات القائمة بين الدول العربية، كالخلاف على الحدود بينكم وبين الكويت. فقد كنت في أواخر الستينات أعمل بالسفارة الأمريكية في الكويت وكانت تصل إلينا التعليمات آنذاك بأن الموضوع لا يخص أمريكا وعلينا ألا نعطي أي رأي محدد حوله، وقد أصدر جايمس بيكر تعليماته للمتحدثين الرسميين للتأكيد على تلك التعليمات» . وأضافت

غلاسبي قائلة أن أفضل الحلول هو حل عربي يطبق من خلال أجهزة الأمن المشترك التابعة لجامعة الدول العربية، أو حل يقترحه الرئيس المصري حسني مبارك.

عند ذلك قدم صدام حسين تحذيراً آخر مطولاً فحواه أن «المعتدي» ـ ويقصد به الكويت ـ يجب ألا «يشعر أنه سيحصل على أي دعم لتنفيذ عدوانه»، وأخبر ابريل غلاسبي بأنه قد وافق على قبول الاقتراح السعودي باللقاء مع الملك فهد والكويتيين في مدينة جدة يوم ٣١ يوليو/ تموز، وأنه قد رد على ما عبر عنه الرئيس حسني مبارك من قلق بخصوص الحشود العراقية ضد الكويت. قال صدام إنه طلب من الرئيس مبارك «أن يطمئن الكويتيين ويعطيهم كلمتنا بألاّ نقوم بأي عمل حتى يتم اللقاء بيننا وبينهم وإذا ما اتضح من خلال اللقاء أن هناك أملاً في الحل فلن يحدث أي شي، وإذا فشلنا في إيجاد حل فمن الطبيعي أن العراق لن يقبل بالموت ، وإن كانت الحكمة فوق كل شيء». (ادّعى السيد حسني مبارك فيما بعد أن صدام حسين قد وعد بألاّ يهاجم الكويت على الاطلاق). في تلك اللحظة قطع صدام حسين حديثه مع ابريل غلاسبي ليرد على مكالمة هاتفية من الرئيس حسني مبارك.

بعد ذلك أخبرت السيدة غلاسبي صدام حسين ووزير الخارجية العراقي السيد طارق عزيز الذي كان حاضراً في ذلك اللقاء، بأنها سوف تسافر الى الولايات المتحدة يوم ٣٠ يوليو/ تموز وأنها سوف تنقل جميع ما دار في ذلك اللقاء الى الرئيس جورج بوش(١١).

وسمحت وزارة الخارجية الأمريكية للسيدة ابريل غلاسبي يوم ٢٠ مارس/ آذار ١٩٩١ بالتحدث حول ذلك الاجتماع بعد صمت طويل، وفي شهادة أدلت بها أمام لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ الأمريكي، ادعت السيدة غلاسبي أن الاشارات الى التحذيرات التي قدمتها هي لصدام حسين حول استخدام القوة لحل نزاعه مع الكويت قد حذفت من النسخة العراقية لمحضر ذلك الاجتماع. أي أنها في الوقت الذي لم تفنّد فيه صحة ما جاء في تلك النسخة فإنها تقول إن ما أسقط منها كان ذا أهمية لأنه يبين أن الولايات المتحدة قد حذرت صدام حسين من استخدام القوة.

الجهود الاخيرة للملك حسين

في ٢٨ يوليو/ تموز هبطت في بغداد الطائرة التي كانت تقل العاهل الأردني الملك

حسين الذي اتجه فور وصوله الى مقابلة صدام حسين في قصره المحصن. . وقد أخبرني الملك حسين فيما بعد أن صدام حسين كرر من جديد في ذلك اللقاء شكواه ضد الكويت فيما يتعلق بالنفط والحدود والمشاكل المالية. فقد أكد بشدة على حاجة العراق الى منفذ بحري في الخليج مما يحتم احتلال جزيرتي بوبيان ووربة التابعتين للكويت واللتين طلب العراق مراراً وتكراراً استئجارهما من الكويت كي يتمكن العراق من تنفيذ خطته القديمة بتوسعة الميناء البحري الصغير الكائن بأم قصر وتأمين ممر بحري منها الى الخليج. كما أكد صدام أنه لن يقوم بأي عمل عدواني ضد الكويت إلا إذا ما فشلت المحادثات المزمع استئنافها في ٣١ يوليو/ تموز بمدينة جدة بالسعودية.

وهكذا خرج العاهل الأردني من ذلك اللقاء بشعور قوي بأن كل شيء متوقف على لقاء قمة جدة، وأن الأزمة قد وصلت الى درجة عالية من الحدة قد تمثل نقطة انفجار. . فقد شاهد بنفسه مدى غضب صدام حسين الذي احتشدت قواته على الحدود الكويتية. قرر الملك حسين أن يتجه مباشرة الى مدينة الكويت ليشجع المسؤولين هناك على ضرورة الذهاب الى جدة بروح إيجابية. إلا أنه في الطريق إلى مطار بغداد استمع الملك الى تقرير من رئيس وزرائه السيد مضر بدران عن لقائه مع نائب رئيس الوزراء العراقي طه ياسين رمضان الذي أخبره بأن المخابرات العراقية قد استلمت تقريراً مفاده أنه في حال احتلال العراق للكويت فإن القوات المسلحة الكويتية ستعمل على التصدي له في منطقة الحدود لفترة ٢٤ ساعة ريثما تتمكن القوات الأمريكية من الوصول الى المنطقة. عزز هذه المعلومات ما سمعه بعض مستشاري الملك حسين الآخرين أثناء حديثهم مع زملائهم العراقيين.

في الكويت أكد الأمير وبقية أفراد الأسرة الحاكمة وبعض مساعديهم أنهم «لن يتخلوا عن شبر واحد من التراب الكويتي» مما يشير الى استبعاد احتمال التوصل الى أي اتفاق من شأنه أن يضع جزيرتي بوبيان ووربة أو حقل الرميلة في أيدي العراقيين. وقد أشار وزير الخارجية الكويتي قائل: «لن نستطيع المساومة على شبر واحد من الأرض فذلك مخالف لدستورنا، وإذا أراد صدام حسين أن يعبر الحدود فليعبر وسوف يطرده الأمريكان تحت ضغوط اسرائيلية وسوف يتحول الأمر الى إحراج كبير في العلاقات الأمريكية/ الاسرائيلية».

في اليوم التالي رجع الملك حسين والوفد المرافق له الى عمان حيث قام باستدعاء القائم بالأعمال الأمريكي باتريك ثيروس وأحد المساعدين الكبار في السفارة البريطانية في عمان ليتبادل معهما أحاسيسه بالخطر الملوح في الأفق. لقد أخبرني الملك حسين بأنه لم يكن يشعر «بارتياح كبير حول لقاء جدة لأنني كنت أعلم أنه إذا لم يحرز اللقاء تقدماً حقيقياً فإن النتيجة ستكون مشكلة كبيرة، ولكنني لم أكن أتصور أن الأمور ستؤول الى احتلال عراقي للكويت» بالشكل الذي تم.

مهزلة لقاء جدة ـ ٣١ يوليو/ تموز: ١ أغسطس/ آب ١٩٩٠:

لقد كانت آخر محاولة قمة دبلوماسية عربية لحل الأزمة هي مؤتمر مدينة جدة بالسعودية، لقد رفض الأمير جابر الأحمد الصباح حاكم الكويت الحضور للقاء شخصياً، وأرسل سعد العبد الله الصباح ولي العهد وكلاً من وزير الخارجية والعدل ليحلوا محله. عندما بلغ هذا الخبر الى صدام حسين انتابه شعور قاتل بالاهانة، فألغى سفره هو شخصياً أيضاً وأرسل نيابة عنه السيد عزت ابراهيم نائب رئيس مجلس قيادة الثورة في العراق. رافق عزت ابراهيم في الوفد كلاً من سعدون حمادي نائب رئيس الوزراء وعلي حسن الماجد ابن عم صدام حسين وأحد المقربين اليه، الذي أشرف على مشاريع العراق لاقتناء التكنولوجيا الدفاعية الغربية وتأسيس الصناعات الحربية العراقية، والذي قدر له فيما بعد أن يكون حاكماً للكويت بعد احتلالها.

في الجلسة الافتتاحية التي استمرت لمدة تسعين دقيقة قرأ عزت ابراهيم ـ صاحب الوجه الشاحب والشعر الأحمر ـ على الحاضرين قائمة طويلة من التهم العراقية الموجهة ضد الكويت، ثم رد الشيخ سعد العبد الله ولي العهد الكويتي بدوره على كل تهمة من تلك التهم. بعد ذلك كرر عزت ابراهيم بكل الحاح مطلب صدام حسين القديم بأن تدفع الكويت للعراق مبلغ عشرة مليارات دولار كقرض إذا لم يكن من الممكن تقديمها كمنحة. ولكن ولي العهد الكويتي لم يقبل سوى بدفع تسعة مليارات رفضها عزت ابراهيم قائلاً بأن تعليمات صدام حسين له ألا يقبل بدولار واحد أقل من عشرة مليارات.

بعد أن أدّى الحاضرون الصلاة في مصلى مركز المؤتمرات، التقوا السيد عبد الله بشارة الدبلوماسي الكويتي النشط رئيس مجلس التعاون لدول الخليج الذي اقترح خطة

حل تدريجية ـ خطوة خطوة ـ من أجل بناء الثقة بين الطرفين يسبقها سحب الحشود العسكرية وإيقاف الحملات الاعلامية المعادية بين البلدين.

أثناء تناول العشاء الرسمي الذي أقامه الملك فهد أعلن الملك أنه سيتولى دفع المليار دولار الاضافي لاستكمال العشرة مليارات التي طلبها العراق وشكره العراقيون بكل أدب على ذلك وآوى الملك فهد الى فراشه مطمئناً الى أن الأمور قد انتهت على خير.

وواجه ولي العهد الكويتي عزت ابراهيم مرة أخرى بقوله أنه قبل البت في موضوع التسعة مليارات لا بد من الاتفاق فوراً ودون تأجيل ولو للحظة واحدة على الخط الحدودي بين العراق والكويت على الخريطة التي كانت أمامهما في تلك اللحظة على الطاولة. ولكن العراقيين رفضوا ذلك مباشرة، ورد عزت ابراهيم على ولي العهد بقوله: «نحن نعرف جيداً كيف نحصل على الأموال التي نحتاجها سواء منكم أو من السعوديين».

رد ولي العهد الكويتي يقول: «أرجوك ألا تهددنا.. فإن للكويت أصدقاء أقوياء ولديها حلفاء كذلك.. وسوف نجبركم بالقوة على تسديد جميع الأموال المدينين لنا بها».

في اليوم التالي انصرف الجميع دون صدور أي بيان مشترك عن ذلك اللقاء. وفي بغداد دعا صدام حسين لاجتماع لمجلس قيادة الثورة اتخذ فيه قرار اجتياح الكويت، وفي طريق عودته الى الكويت أسرّ ولي العهد الكويتي سعد العبد الله لمرافقيه في الطائرة قوله: «لديّ شعور بأن كارثة ستحل بنا» وهرع فور وصوله الكويت ليخبر ابن عمه الحاكم بما دار في ذلك الاجتماع(١٢).

في نفس تلك الليلة بدأت الاجتماعات المشتركة بين الأجهزة الأمريكية في واشنطن في تداول الأزمة، ودعا الجنرال كولين باول رئيس هيئة رؤساء أركان الحرب المشتركة قادة العمل العسكري ومساعديه الرئيسيين للاجتماع.

وكنت وصلت لتوي الى أثينا قادماً من دمشق بعد الانتهاء من مهمة عمل هناك، وذلك للالتحاق بزوجتي وابني لقضاء أيام في عطلة استراحة على أحد شواطيء البحر اليونانية، عندما بدأت في استلام المكالمات الهاتفية من بعض الأصدقاء في الخليج ومن مكتب شبكة ABC NEWS في لندن. ومنذ ذلك التاريخ وحتى انتهاء عملية عاصفة

الصحراء في مارس/آذار ١٩٩١ لم تكن المكالمات الهاتفية وبرامج السفر لتتوقف بالنسبة لمعظم الصحفيين من أمثالي.

في عمان هرع السيد مضر بدران رئيس الوزراء لتهيئة أعضاء حكومته والبرلمان الأردني ـ الذي جرى انتخابه ديمقراطياً في شهر ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٩ ـ لأخبار انحدار أزمة الخليج نحو الحرب. وفي اسرائيل علمت السلطات الخبر في ساعة متأخرة جداً ـ مما أثار فيها بعد تساؤلات حول إخفاق أجهزة المخابرات الاسرائيلية ـ وقامت بتوصيل الخبر الى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية على الفور (١٣). لقد كانت المؤشرات كثيرة جداً ولكن يبدو أن المسؤولين في واشنطن قد غضوا أبصارهم وأسماعهم عنها.

الاجتياح

لقد أُخذت ـ على ما يبدو ـ القوات المسلحة الكويتية الصغيرة الحجم على غرة كاملة عندما بدأت الصفوف الأمامية للقوات العراقية تتحرك نحو الكويت في تمام الساعة الواحدة والنصف بتوقيت الكويت المحلي من صباح الثاني من أغسطس/ آب ١٩٩٠. هذا، بالرغم من تقارير الاستخبارات التي أرسلها الملحق العسكري الكويتي في البصرة وسات ـ انت التابعة للولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من التقارير التي أما أن تكون الكويت لم تستلمها أو استلمتها ولكنها لم تنتبه لها أو لم تعيرها اهتماماً جاداً. لقد اشترك في الهجوم العراقي ثلاثون ألفاً من بين المائة ألف جندي المحتشدين على الحدود، بما فيهم وحدات الحرس الجمهوري الخاصة، ومعهم الدبابات والطائرات العمودية والطائرات الهجومية المسلحة وحاملات الجنود والطائرات المقاتلة ووحدات البحرية وناقلات المشاة.

لقد كان أول ما تبادر الى ذهن ولي العهد الكويتي سعد العبد الله عندما أوقظ من نومه في تمام الساعة الثانية صباحاً بإشارة من مركز عسكري قرب الحدود، هو أن العراق كانت تنوي الاستيلاء على جزيرتي وربة وبوبيان المتنازع عليهما وحقل الرميلة النفطي فقط. فأظهرت بعض الوحدات العسكرية الكويتية شيئاً من المقاومة هنا وهناك وحلق بعض الطيارين المقاتلين الكويتيين بطائراتهم مهاجمين بعض القوات العراقية الزاحفة، وذلك قبل أن يتجهوا بها الى المأوى الآمن في المملكة العربية السعودية.

وعند الساعة الرابعة اتجه أمير الكويت وبعض أفراد عائلته وحاشيته في سياراتهم الى السفارة الأمريكية حيث استقبلهم السفير الأمريكي ناثانيال هاول الذي تولى ترحيل الأمير وبعض أفراد الأسرة الحاكمة بالطائرات العمودية وبقية الحاشية وأعضاء الحكومة عن طريق البر الى الحدود الكويتية السعودية. وهناك اتخذ الأمير ومرافقوه لهم مأوى آمناً في مدينة الطائف ـ العاصمة الصيفية للسعودية والواقعة فوق جبال أراضي الحجاز المقدسة ـ حيث مكثوا هناك حتى تم تحرير الكويت على يد قوات التحالف في مارس/ آذار ١٩٩١.

بعد مقاومة بسيطة من قوات المدفعية على ضواحي مدينة الكويت دخل العراقيون المدينة عند حوالي الساعة السابعة صباحاً. وعلى أعتاب قصر دسمان الأميري الفاخر ـ الواقع على شاطىء البحر ـ قام الشيخ فهد الأحمد الصباح ـ أحد أخوة الأمير جابر ـ وبعض حراس القصر بمجازفة شجاعة للمواجهة انتهت بقتلهم جميعاً.

مع حلول عصر اليوم الثاني من أغسطس/ آب تمكنت القوات العراقية من الوصول الى مركز المدينة بينما تحصنت بعض وحدات الجيش الكويتي في مواقعها بمدينة الشويخ الواقعة شمال مدينة الكويت. كما قامت القوات العراقية بإنزالات وتحصينات سريعة في كل من جزر الكويت الرئيسية وربة وبوبيان وفيلكه. وفي الجهرة غربي الكويت بالقرب من خليج الكويت قاتلت كتيبة المغاوير الكويتية الخاصة ببسالة للدفاع عن معسكراتها هناك، ولكنها دحرت من قبل الدبابات والطائرات العراقية متكبدة خسائر في الأرواح تقدر بألف قتيل.

بينما كانت القوات العراقية تنتشر في أرجاء الكويت، واتجه عدد من وحداتها فوراً نحو الحدود الكويتية ـ مما أطلق أجراس الانذار في كل من واشنطن والرياض ـ أخذت إذاعة بغداد تبث مجموعة من الادعاءات والبيانات. كان أول تلك البيانات يقول أن القوات العراقية دخلت الكويت استجابة لدعوة من عناصر «ثورية» كويتية قامت بانقلاب على حكم الأمير جابر وطلبت العون من الرئيس صدام حسين. أعادت هذه العبارات الى أذهان الخبراء المتمرسين في الغرب ذكرى ادعاءات هتلر في سبتمبر/ أيلول ١٩٣٩ بأن «الألمان الأحرار» في مدينة دانزيق استولوا على السلطة وطلبوا من القوات الألمانية تحريرهم من «الطغاة» البولنديين مما تسبب في احتلال ألمانيا لبولندا ونشوب

الحرب العالمية الثانية في أوروبا. إلا أن الفرق الأساسي بين الحالتين هو أنه في الوقت الذي كان لهتلر طابور خامس ذو نفوذ من الأنصار داخل مدينة دانزيق «الحرة» لم يكن لصدام قوة تذكر داخل الكويت باستثناء بعض العناصر التابعة للمخابرات العراقية. في الوقت نفسه ـ وبينما كانت القوات العراقية مستمرة في زحفها ـ أخذت «حكومة الكويت الحرة المؤقتة» الموالية للعراق تعلن عبر الاذاعة أنها قد حلت محل نظام الصباح «الفاسد المنهار» وأنها قد أمرت باغلاق الحدود وإعلان حظر التجول لأجل غير محدد. وعبر إذاعة بغداد هدد مجلس قيادة الثورة أنه «سيحيل الكويت الى مقبرة» لكل من يحاول التدخل في الوضع. وأغلقت العراق أجواءها وحدودها البرية، وأصدر صدام حسين تعليمات بإعادة تنظيم خمس عشرة فرقة للمشاة والمدرعات كان قد تم تسريحها عقب وقف إطلاق النار مع إيران في عام ١٩٨٨ . . . كما بدأ تشجيع المتطوعين للجيش الشعبي من أجل توسيع الميليشيا الشعبية والخدمة في العراق والكويت.

وفي بغداد انطلقت المظاهرات الشعبية العارمة تحيي الاحتلال، بينما نشرت صحيفة الأهرام الصادرة في القاهرة يوم ٣ أغسطس/ تقريراً ـ أورده بعض الدبلوماسيون العرب الفارين من الكويت كذلك ـ مفاده أن صدام حسين قد نفذ حكم الاعدام في مائة وعشرين ضابطاً عراقياً لمعارضتهم للإحتلال. وفي مدينة الكويت نفسها التزم أغلبية السكان المدنيين المذعورين بيوتهم فيما حاول البعض الخروج بسرعة خاطفة الى المتاجر والأسواق لاقتناء حاجاتهم وذلك لاحساسهم بأن القوات المحتلة ستبدأ عن قريب في النهب والسلب. وحزم البعض الآخر أمتعتهم وممتلكاتهم في سيارتهم وانطلقوا نحو الحدود السعودية. كما حاول الفرار كذلك العاملون الأجانب في الكويت الذين يصل عددهم الى مليون عامل وموظف، أكثر من نصف مليون منهم من الباكستان والفلبين وبلدان جنوب وجنوب شرق آسيا يقوم أغلبيتهم بأداء الأعمال اليدوية، إضافة الى أربعمائة ألف فلسطيني أغلبيتهم من الفئات المتعلمة الذين كانوا يقومون بوظائف فنية ومهنية وإدارية في الكويت. وقد أفلح بضعة آلاف من هؤلاء في الوصول الى السعودية قبل قفل الحدود. أما آلاف المواطنين الأمريكان والبريطانيين وغيرهم من المواطنين الأوروبيين الذين وجدوا أنفسهم محتجزين في الفنادق الفخمة أو في شقق سكنهم فقد أصابتهم الحيرة في التصرف، ولكن ما هي إلا ساعات وإذا بدوريات الحرس العراقية تتعقبهم وتلقي القبض عليهم.

لقد تمكن عدد قليل من هؤلاء أن يصلوا الى سفارات بلدانهم في الكويت ويحتموا فيها حيث أصبحت تلك السفارات تحت الحصار. لقد استطاع السفير الأمريكي نات هاول ونظيره البريطاني أن يأووا أكبر عدد ممكن من مواطنيهم عندما بدأ صدام حسين في اتباع أسلوب آية الله الخميني وأتباعه في إيران ولبنان واحتجاز المواطنين الأجانب كرهائن.

وهكذا ـ بالاضافة الى أشياء أخرى كثيرة ـ أصبح احتلال الكويت يمثل أكبر أزمة رهائن بشرية منذ عمليات الاحتلال التي قام بها هتلر وستالين أثناء الحرب العالمية الثانية في أوروبا (١٤).

يومان حافلان بالقرارات

لقد تمت خلال اليومين الثاني والثالث من شهر أغسطس/آب ١٩٩٠ عدة محادثات، واتخذت فيهما مجموعة من القرارات الحاسمة التي رسمت الخطوط الأولى على طريق الحرب. وقد لعب الأدوار الرئيسية في تلك المحادثات والقرارات كل من الرئيس الأمريكي جورج بوش ورئيسة وزراء بريطانيا مارغريت تاتشر والرئيس العراقي صدام حسين والملك حسين عاهل الأردن والرئيس المصري حسني مبارك.

في تمام الساعة السادسة والنصف من مساء أول أغسطس/آب بتوقيت مدينة واشنطن، غادر السيد برينت سكوكروفت مدير مجلس الأمن القومي ومساعده لشؤون الشرق الأوسط السيد ريتشارد هاس مبنى وزارة الخارجية الأمريكية متجهين نحو البيت الأبيض حيث ناقشا أزمة الكويت مع الرئيس بوش لمدة خمس وأربعين دقيقة. في أثناء تلك المحادثات كان مساعد وزير الخارجية الأمريكي السيد روبرت كيميت ـ الذي كان يتولى مسؤولية الشؤون الخارجية أثناء وجود الوزير جيمس بيكر ونائبه لورانس ايغلبرجر في الاتحاد السوفياتي للاجتماع بوزير الخارجية السوفياتي أدوارد شيفرنادزة ـ في اتصال هاتفي معهما لابلاغهما بخبر إطلاق النار على الحدود الكويتية العراقية. أبدى شيفرنادزة اندهاشاً عظيماً عندما أبلغه بيكر ذلك الخبر قائلاً: «إنه (أي صدام حسين) أحد زبائننا» مشيراً بذلك الى المساعدات العسكرية التي كانت تتدفق على صدام حسين منذ توقيع اتفاقية الصداقة والتعاون بين العراق والاتحاد السوفياتي في عام ١٩٧٢، «ولا أعتقد أنه قد خطط لعملية احتلال كامل». لقد كان واضحاً على كل من بيكر

وشيفرنادزة أثناء المؤتمر الصحفي المشترك الذي عقد بعد انتهاء اجتماعهما بقليل أنهما لم يكونا على علم بالهجوم الموسع الذي قام به العراق(١٥).

في الساعات الأولى من يوم ٢ أغسطس/آب أقيمت قنوات اتصال مرئية مشفرة بين كل من وزارة الدفاع (البنتاغون) والخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية وهيئة رؤساء أركان القوات المسلحة الأمريكية من جهة، وغرفة العمليات في البيت الأبيض من جهة أخرى. شارك في المداولات الأولى كل من مدير وكالة الاستخبارات المركزية السيد وليام ويبستر ونائبه السيد روبرت كار وروبرت كيميت مساعد وزير المالية، وجون روبسن رئيس هيئة رؤساء الأركان بالوكالة والأدميرال دافيد جيراميه والسيد بول وولفويتز من وزارة الدفاع. كما استدعى البيت الأبيض مجموعة من رجال القانون التابعين لوزارة العدل وطلب منهم استصدار وثائق بصورة فورية لتجميد الأرصدة والممتلكات العراقية في الولايات المتحدة والمصارف الأمريكية وتجميد الممتلكات الكويتية في جميع أنحاء العالم. لقد كان من شأن ذلك الاجراء أن يمنع أعوان صدام حسين من الوصول الى ممتلكات وأرصدة دولة الكويت الضخمة الموجودة في الخارج والاستيلاء عليها.

لقد تم حتى تلك اللحظة تفادي موضوع العمل العسكري.

مقترح أمريكي سري يقدم لصدام حسين:

قبل أن تجلس السيدة مارغريت تاتشر الى الرئيس جورج بوش لمناقشة الوضع في الخليج بما يزيد عن عشرين ساعة، افتتح في ساعة متأخرة من ليلة أول أغسطس/آب اجتماع جرى تنظيمه على عجل لمجلس الأمن في منظمة الأمم المتحدة.. وفي الساعة الرابعة والنصف بتوقيت مدينة نيويورك تمت الموافقة بالاجماع على قرار مجلس الأمن رقم ٦٦٠ وامتنعت اليمن ـ التي قال ممثلها أنه لم يستلم أي تعليمات من حكومته، والتي اتخذت فيما بعد مواقف قوية الى جانب العراق ـ عن التصويت. أما سفير العراق (في الأمم المتحدة) فقد احتج على القرار قائلاً أن حكومته قد أرسلت قواتها الى الكويت استجابة لطلب مساعدة من «شباب ثوريين كويتيين» وهو تصريح لعله من أسخف التصريحات التي سمعت في قاعة الأمم المتحدة المهيبة في تاريخها كله.

أدان قرار مجلس الأمن الاحتلال العراقي للكويت وطالب بانسحاب القوات

العراقية الفوري وغير المشروط ودعا بالتحديد الى الوصول الى اتفاق عن طريق التفاوض بين العراق والكويت. الجزء الأخير من ذلك القرار هو الذي احتجت على تجاهله دول مثل اليمن والجزائر والسودان التي كانت تسعى الى إيجاد «حل عربي» دون تدخل من الدول الغربية. كما أشار القرار كذلك الى الباب السابع من ميثاق الأمم المتحدة الذي ينص على العقوبات ضد الدولة المعتدية والتي إذا ما فشلت يجوز للمنظمة أن تقيم «الحصار وغيره من العمليات الجوية والبحرية والبرية نيابة عن الدول الأعضاء في المنظمة». وهكذا وضع الأساس القانوني الدولي لارسال قوات حملة التحالف العسكرية.

بينما كانت مداولات مجلس الأمن مستمرة ألقى السيد ثوماس بيكيرينج ممثل الولايات المتحدة الأمريكية لدى الأمم المتحدة وأحد الدبلوماسيين القدامى الماهرين ذوي الخبرة الجيدة باسرائيل والعالم العربي وخاصة الأردن حيث كان سفيراً لأمريكا في كل من اسرائيل والأردن. . . ألقى بنظره الى الجانب المقابل من القاعة إذ وقعت عيناه على السفير الأردني الكئيب السيد عبد الله صلاح. انطلق السفير الأمريكي متجهاً نحو السيد عبد الله صلاح ـ وهو يعلم جيداً مدى انشغال الملك حسين بالجهود القائمة لحل الأزمة ـ فجلس الى جواره ووضع ذراعه على كتفه وقال: «تشجع يا سعادة السفير وابعث برسالة مستعجلة الى عمان وطالبهم بالرد، فما زال هناك أمل في إنقاذ الموقف».

وضع السفير الأمريكي لنظيره الأردني قائمة بالنقاط الهامة التي يجب أن تحتويها رسالته.

أولاً: لا بد من انسحاب صدام العلني من الكويت وإعلان جدول زمني لذلك، وإن كان ذلك ليس مستعجلاً وبالامكان تحديده فيما بعد. ثانياً: يمكن إرجاء قضية رجوع الأمير وأسرته الى الكويت الى وقت آخر. ثالثاً: إن الولايات المتحدة تعتقد أن لموقف العراق في النزاع القائم مع الكويت قدر من الوجاهة، وبالرغم من أنها لن تتحيز لأي من الطرفين، فإن الولايات المتحدة ستبذل كل الجهود اللازمة من أجل توفير الوسائل المطلوبة من وساطة وغيرها لحل النزاع رابعاً: أن الولايات المتحدة تقدر حاجة العراق لمنفذ أفضل على ممرات الخليج المائية، ومن الوارد أن تميل الولايات المتحدة الى

توفير حرية الوصول الى جزيرتي وربة وبوبيان. خامساً: تقترح الولايات المتحدة أن يدعو العراق الى إجراء استفتاء شعبي تدعمه الأمم المتحدة لتمكين المواطنين في الكويت من تحديد مستقبلهم.

هرع السيد السفير عبد الله صلاح الى مكتب البعثة الأردنية في الأمم المتحدة وأرسل رسالة مشفرة الى عمان. أوقظ السفير تلك الليلة من نومه لاستلام الرد في مكالمة تلفونية من السيد زايد بن شاكر رئيس الديوان الملكي الأردني الذي قال أن مذكرة النقاط الخمس الأمريكية «مدهشة حقاً ولكن هل هي من بنات أفكار بيكيرينج أو مجرد بالونة اختبار من إدارة الرئيس بوش؟».

اتصل عبد الله صلاح بالسفير بيكيرينج وطرح عليه ذلك التساؤل فأجابه أنه لا يعلم ولكنه متأكد بأن ما ورد في تلك النقاط قريب جداً من وجهة نظر الادارة الأمريكية. اتصل بعدها بيكيرينج بوزير الخارجية جايمس بيكر الذي رد عليه خلال خمس دقائق ـ وبالتأكيد دون الرجوع للرئيس بوش وإن كان بإمكانه ذلك عن طريق خط مباشر آمن خاص ـ قائلاً: «بإمكاننا القبول بهذه النقاط».

لقد كان من المفروض أن يتولى الديوان الملكي الأردني إيصال تلك الرسالة الهامة الى صدام حسين بأسرع ما يمكن إلا أنه بإجماع كل المسؤولين المختصين لم يتم ذلك الأمر ولم يستلم صدام الرسالة ولعل ذلك يرجع الى فشل وسائل الاتصال(١٦).

أما الدليل الآخر على احتمال أعطاء الرئيس بوش فرصة لحل سلمي عربي فقد برز خلال اليوم الثاني من أغسطس/آب وبمشاركة الملك حسين كذلك.

أوقظ العاهل الأردني الملك حسين من نومه في الصباح الباكر من ذلك اليوم بمكالمة هاتفية من الملك فهد ملك السعودية بالرياض ـ وهو يتملكه الفزع ـ أخبره فيها أن صدام حسين قد دخل الكويت وان القوات العراقية قد وصلت الى مدينة الكويت نفسها. يروي الملك حسين أن الملك فهد قال له: «أرجو بالله عليك أن تعمل ما تستطيع . . . وبكل سرعة». أمضى الملك حسين صباح ذلك اليوم كله يحاول الوصول الى الرئيس العراقي الذي كان قابعاً في غرفته المحصنة تحت الأرض والتي من المستحيل الوصول اليها، ولكنه تمكن من الاتصال بوزير الخارجية طارق عزيز الذي أكد للملك ما كان قد وصله من أخبار.

وفي قرابة الساعة الواحدة ظهراً اتصل صدام حسين بصديقه العاهل الأردني يقول «لقد اضطررنا الى الدخول ولم يكن لنا خيار غير ذلك ونحن الآن في سيطرة كاملة على الأمور».

وبالرغم من أن رسالة بيكيرينج لم تصل على أغلب الظن الى صدام حسين، إلا أن صدام أضاف في حديثه مع الملك حسين يقول: «إننا نتعهد بالانسحاب وسنشرع فيه خلال أيام وسوف يستغرق عدة أسابيع، وأرجوك أن تبذل جميع مساعيك مع القادة العرب لتؤكد لهم أن الادانة والتهديدات لا تنفع معنا ويمكن أن ينتهي الأمر الى أن تصبح الكويت جزءاً من العراق. كما أنه من المهم جداً ألا يوفر الزعماء العرب أي غطاء للتدخل الخارجي».

اتصل الملك حسين بعدها مباشرة بالرئيس المصري حسني مبارك في الاسكندرية ونقل اليه تأكيدات صدام حسين بعزمه الانسحاب ورغبته ألا يتعرض له الزعماء العرب بالادانة خلال تلك الفترة. . واقترح عقد مؤتمر قمة عربي مصغر صباح يوم الرابع من أغسطس/آب في السعودية أو القاهرة. بعد المكالمة الهاتفية استقل العاهل الأردني طائرته متجهاً الى الاسكندرية لمقابلة حسني مبارك شخصياً قبل أن يسافر الى بغداد للحصول على موافقة صدام حسين على خطة السلام التي أعدها. ويؤكد العاهل الأردني أن الرئيس حسني مبارك قد وافق خلال حديثه معه على الهاتف وأثناء لقائهما وجهاً لوجه في الاسكندرية على إيقاف الهجمة الاعلامية على العراق خلال فترة المساعي المبذولة للتوصل الى حل سلمي، ولكن مبارك رفض اقتراح الملك حسين بالتحدث مع صدام شخصياً لادعاء مبارك بأن «صدام حسين قد خدعني».

طلب الملك حسين بحضور الرئيس مبارك في الاسكندرية مكالمة هاتفية خاصة عن طريق الراديو مع الرئيس جورج بوش الذي كان في طريقه الى مدينة آسبن بولاية كولورادو للقاء برئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر. حولت بدّالة البيت الأبيض المكالمة الى الرئيس بوش على متن طائرة القوات الجوية الأمريكية رقم(١)، انسحاب قوات صدام حسين من الكويت. أجاب الملك حسين قائلاً: «هذا ما نسعى لتحقيقه»، ولكن الرئيس بوش طلب تحديد موعد تقريبي للانسحاب.

فرد عليه الملك حسين ـ على حد قوله ـ قائلاً: «أعطني فرصة كافية من الزمن يا جورج . . . أعطني ٤٨ ساعة».

لقد أخبرني الملك حسين فيما بعد يقول: «لقد كان انطباعي أن جورج بوش سيعطيني المهلة التي أحتاج»(١٧).

بعد التحدث مع جورج بوش أخبر الملك حسين الرئيس مبارك أن الحل هو أن ينسحب العراق الى منطقة الحدود المتنازع عليها، وبإمكانه على الأغلب بعد ذلك الاحتفاظ بالجزيرتين والحقل النفطي، وأن تتعهد المملكة العربية السعودية بتوفير المبالغ المالية المطلوبة . . وأن الأمر الوحيد الذي قد يفسد تلك الخطة هو القيام بأي حملات كلامية معادية للعراق قبل ٤ أغسطس/ آب. يؤكد الملك حسين أن حسني مبارك وافق على كل ذلك.

التقى الرئيس بوش بعد وصوله مدينة آسبن واجتماعه مع رئيسة الوزراء تاتشر مع الصحفيين في حديقة منزل السيد السفير كاتو حيث أخبرهم بأنه يشعر بالاطمئنان عقب «محادثات هاتفية مع كل من الرئيس مبارك والملك حسين والرئيس اليمني علي عبد الله صالح الذين اعتبرهم جميعاً أصدقاء للولايات المتحدة والذين يبذلون المساعي من أجل التوصل الى ما يشيرون اليه بحل عربي للقضية. هذه مجهودات جماعية تقوم بها دول ذات اعتبار ونأمل أن تكون النتيجة حلاً مرضياً لهذه الأزمة العالمية».

لقد ظلت علاقات الرئيس الأمريكي مع حكومة رئيس الوزراء الاسرائيلي أسحاق شامير أقل تقارباً مما تكون عليه العلاقات الأمريكية الاسرائيلية عادة، واعترف جورج بوش أن تلك العلاقات لم تكن تدار من قبله هو شخصياً. ومن المثير حقاً أن جورج بوش أخبر المؤتمر الصحفي المشار إليه أعلاه أن اسرائيل «قد طلبت التريث واعطاء مهلة زمنية قصيرة لبروز الحل العربي والسماح له بأخذ مجراه الطبيعي»(١٨).

لقد أدان الكثيرمن المراقبين فيما بعد الملك حسين عاهل الأردن بسبب«تحيزه الى صف صدام حسين»، ولكن الملك حسين في الواقع كان قد أدان الهجوم على الكويت منذ الساعات الأولى للأزمة والتزم في النهاية باجراءات المقاطعة والحصار التي قررتها الأمم المتحدة رغم الثمن الباهظ الذي دفعه الاقتصاد الأردني المنهك، من خسائر في التجارة والمساعدات وتحمل الانفاق على اللاجئين. إن قراءة متفحصة لما ورد على لسان الرئيس الأمريكي بخصوص اسرائيل من شأنها أن تعين منتقدي الملك حسين على فهم أمر ليس بامكانهم بأي شكل من الأشكال استيعابه، ألا وهو أن الملك حسين كان

يبذل كل ما في وسعه من أجل البقاء آخذاً بالاعتبار ما يلقاه صدام من شعبية لدى الشعب الأردني.

لقد استوعبت اسرائيل ذلك تماماً. يقول أحد المسؤولين الكبار في الأردن في حديث خاص لي معه في مارس/آذار ١٩٩١ : «إننا كثيراً ما نعتقد أن اسرائيل ـ المفترض أنها عدونا الأول ـ تفهمنا اكثر مما تفهمنا الولايات المتحدة أو بغض المسؤولين في أمريكا».

صرح كلاً من الرئيس بوش ورئيسة الوزراء تاتشر بعد محادثاتها في آسبن أنهما سيسعيان الى مجهود جماعي من قبل الأمم المتحدة لضمان انسحاب العراق من الكويت، وأضاف بوش أنه «لا مكان في عالم اليوم لمثل هذا العدوان السافر، وعليه فقد قمت باتخاذ مجموعة خطوات معينة». كما أشارت السيدة تاتشر في المؤتمر الصحفي المشترك مع الرئيس بوش الى قطع جميع وسائل النقل والاتصال مع العراق وفرض الحصار عليه بل وإيقاف الخدمات البريدية معه حيث قالت: «أود أن أعبر عن شعوري بالقلق العميق حيال ما يجري من أحداث، وفي الوقت الذي لم نحدد فيه خياراتنا فإننا لم نرفض أي خيار من الخيارات حتى الآن» (١٩).

الاتحاد السوفياتي يلحق بالركب:

في محادثاته مع السيدة تاتشر أخبرها الرئيس بوش بما دار بينه وبين وزير الخارجية جايمس بيكر خلال المكالمة التلفونية من موسكو وهو على متن طائرة القوات الجوية الأمريكية رقم (١) في طريقه الى مدينة آسبن(٢٠).

انطلق جايمس بيكر وأدوارد شيفرنادزا وزير الخارجية السوفياتي الى مطار مدينة اربوستك بعد مؤتمرها الصحفي هناك، حيث عاد شيفرنادزا الى موسكو يرافقه موظف قسم التخطيط السياسي الأمريكي السيد دينيس روس بينما اتجه بيكر في طريقه الى مدينة أولان باتور عاصمة منغوليا.

أثناء الرحلة وصلت بيكر تقارير من الرئيس بوش وغيره من المسؤولين الأمريكيين عن تفاصيل الغزو العراقي، وقام هو بدوره بنقل بعض منها الى رجال الصحافة المرافقين له في الطائرة. في الوقت نفسه وصل شيفرنادزه الى موسكو ليجد نفسه في إحراج كبير أمام الصحفيين الذين كانوا في انتظاره والذين وصلتهم أخبار الغزو قبل أن

تصله هو. اتجه دينيس روس الى السفارة الأمريكية في موسكو مباشرة حيث اتصل هاتفياً بجايمس بيكر ليقترح عليه إصدار بيان أمريكي/ سوفياتي مشترك يدين الغزو ويدعو الى عمل مشترك ضد العراق. أصدر بيكر ـ بعد استلام موافقة الرئيس بوش ـ تعليماته لروس بأعداد صيغة البيان مؤكداً عليه أن «تكون صيغة جيدة».

اختصر بيكر زيارته الى مونغوليا وقفل راجعاً الى موسكو لقراءة التصريح المشترك مع شيفرنادزه الذي أكد روس لمساعده سيرغي فاراسينكو أن الفكرة في البيان هي إقناع الدول العربية الأخرى بعدم الوقوف الى جانب العراق ومنع صدام حسين من استغلال التنافس بين الدولتين العظميين كما حاول أن يفعل عدة مرات في السابق. وهكذا صدر البيان في صورته النهائية مديناً لغزو الكويت وداعياً لانسحاب العراق ومقترحاً مقاطعة عسكرية دولية ضده.

إجهاض «الحل العربي»:

بعد انتهاء اجتماعها مع الرئيس بوش في مدينة آسبن صرحت السيدة تاتشر تقول: «ليس بيننا أحد يستطيع مواجهة هذا الموقف لوحده، فنحن في حاجة الى إرادة دول الأمم المتحدة الجماعية والفعالة». في نفس تلك اللحظات كانت وفود معظم الدول العربية المعنية مجتمعة في القاهرة في جلسة خاصة لمجلس جامعة الدول العربية في محاولة لاثبات وجود إرادة جماعية لدى الدول العربية كذلك. بدأ الاجتماع ـ وكان يرأسه السيد فاروق قدومي وزير الخارجية الفلسطيني بحكم رئاسة المنظمة لدورة المجلس ـ بطلب من المندوب الكويتي بتطبيق بنود معاهدة الدفاع العربي المشترك فوراً ولم يوافقه على ذلك سوى مندوب دولة الامارات العربية المتحدة. رفعت الجلسة بعد ذلك لانتظار وصول نائب رئيس الوزراء العراقي السيد سعدون حمادي الذي كان الحاضرون يأملون أنه يحمل إليهم اقتراحات بناءة من صدام حسين في بغداد. عندما وصل حمادي في مساء ذلك اليوم لم يتقدم للاجتماع بخطة حل سلمي وإنما اقتصر على تعديد إدانات العراق للكويت دون أي إشارة الى الاستعداد لتقديم أي تنازلات.

في نفس ذلك الوقت كان الملك حسين عاهل الأردن قد وصل الى بغداد حيث ذكره صدام حسين بأنه في حال فشلت المحادثات فإنه سوف يلجأ الى وسائل أخرى وحيث اتضح له أن التدخل الأجنبي يمثل أكبر خطر على الخطة وهو ما عارضه مجلس الجامعة

العربية كذلك في اجتماعه مساء نفس اليوم في القاهرة. لقد اختارت وسائل الاعلام التعتيم على هذه الحقيقة ونسيانها بالكامل بعد ذلك التحول الكبير في الموقف العربي الذي شجعت عليه ـ إن لم تكن قد فرضته بالقوة ـ الولايات المتحدة في القمة العربية التي عقدت في القاهرة بتاريخ ١٠ أغسطس/آب. كما ذكر صدام حسين للعاهل الأردني قبل افتراقهما تلك الليلة أنه يعتبر أن العرب يواجهون خطراً آخر وهو «عناد الأمريكان وجهلهم بالعالم العربي».

لم يصدر في الصحافة العربية في اليوم التالي ٣ أغسطس/ أي شيء يساند موقف الكويت، ولم تنشر شيئاً من دعواتها المتهيجة لطلب المساعدة، ولكن سفير الكويت في واشنطن كان قد تقدم بطلب رسمي للمساعدة العسكرية من الولايات المتحدة الأمريكية كان الرئيس بوش ومستشاروه عاكفين على دراسته. في بغداد تمكن الملك حسين في اجتماع حاسم من الحصول على موافقة صدام حسين على حضور القمة المصغرة في المملكة العربية السعودية كي يطرح تأكيداته السابقة من جديد باعتزامه الانسحاب بشرط حل «خلافاته» مع الكويت. كما وافق صدام على التفاوض مع الملك فهد وليس مع أفراد أسرة الصباح الحاكمة في الكويت، ولكنه ـ على حد قول أحد مستشاري الملك حسين ـ توعد بأنه في حالة إدانته من قبل جامعة الدول العربية فإنه سوف يعلن عن ضم الكويت الى العراق رسميا(٢١).

وجد الملك حسين لدى وصوله مطار عمان مكالمة هاتفية مستعجلة من وزير خارجيته السيد مروان القاسم فبادر بأخبار القاسم بقوله: «لدي أخبار سارة. . فقد أكد لي صدام حسين عدداً أنه سوف ينسحب من الكويت». . وقد كان ذلك ما أخبر به صدام حسين عدداً من الرؤساء والملوك العرب (٢٢) ولكن الأخبار التي كانت في حوزة السيد وزير الخارجية لم تكن سارة بنفس القدر.

أخبر وزير الخارجية العاهل الأردني بأن «المصريين قد أصدروا بياناً يهاجمون فيه صدام حسين لغزوه للكويت» وقرأ له مقتطفات هامة من ذلك البيان. كان رد الملك أن «ذلك سوف يحطم كل شيء ويزيد من احتمالات توسيع النزاع» وانطلق لكي يتصل هاتفياً بالرئيس حسني مبارك يطلب منه توضيحاً للأمر. أجاب حسني مبارك بأنه كان «تحت ضغوط كبيرة من قبل وسائل الاعلام ومن قبل شعبي في مصر. . وأن مخي يكاد

يتوقف عن العمل». رد الملك حسين على ذلك بقوله: «إذاً رد علي عندما يعود الى الشغل مرة ثانية».

لقد أخذ الاحباط من العاهل الأردني مأخذه. . . حيث أنه كان يعتزم السفر لمقابلة الملك فهد في السعودية بعد لقائه بحسني مبارك في الاسكندرية وذلك قبل لقائه بصدام حسين مرة أخرى أو بعد ذلك مباشرة، على أمل أن يحكم الترتيبات الخاصة بعقد لقاء القمة المصغر الذي وافق صدام حسين على حضوره في السعودية ولكن الملك حسين لم يفلح في الاتصال بالملك فهد.

بعد مغادرة الملك حسين بغداد بقليل أصدر صدام حسين بياناً يقول فيه أنه يعتزم الانسحاب من الكويت ابتداء من ٥ أغسطس/ آب ولكنه ذكر بالتحديد أنه لن يسمح لأسرة الصباح بالعودة الى الحكم في الكويت.

مع حلول يوم الأحد أخذ التلفزيون العراقي يعرض لقطات مصورة لشاحنات مسطحة وحاملات الدبابات التي قيل أنها متجهة نحو العراق، كما أذاع راديو بغداد بياناً جاء فيه أن وحدات عسكرية أخرى سوف تنسحب يوم ٧ أغسطس/ آب.

أما في واشنطن فقد أخذ الرئيس جورج بوش ـ عبر محادثات هاتفية مع الملك فهد وغيره من الشخصيات الرئيسية في المنطقة ـ يسعى الى إقناع أصدقائه من القادة العرب والحلفاء بأن توسع صدام حسين نحو السعودية أمر لا محالة منه.

كما بدأت التقارير الاخبارية ترد حول دخول القوات العراقية المنطقة المحايدة. بين السعودية والكويت. . تلك المنطقة الصحراوية البلورية الشكل التي تحتوي على عدد من حقول النفط. بناء على ذلك وضعت القوات المسلحة السعودية في حالة تأهب واستعداد، ولكن الملك فهد وقادة عرباً آخرين ظلوا على أمل أن صدام حسين سيبدأ في الانسحاب الجدي من الكويت.

إلا أن أجهزة الاستخبارات والمراقبين الأجانب لم يلحظوا أي دليل على انسحاب العراق، فأخذت السعودية في رفع درجة استعداد قواتها المسلحة وأصدرت الولايات المتحدة مجموعة تصريحات تحذر العراق من غزو المملكة العربية السعودية(٢٣).

نظم الرئيس جورج بوش خلال الأيام الثلاثة الأولى بعد الغزو سلسلة من

الاجتماعات خاصة بشؤون الأزمة لدائرة مصغرة من مستشاريه كان من بينهم وزير الدفاع ريتشارد تشيني والجنرال كولين باول رئيس هيئة الأركان ووزير الخارجية جايمس بيكر ومدير شؤون البيت الأبيض جون سونونو ومستشار الأمن القومي برينت سكوكروفت ومساعده روبرت غايتس رجل المخابرات المحترف الذي كان قد تولى مسؤولية مدير وكالة الاستخبارات المركزية CIA بالوكالة. مع تطور الأزمة خلال الخمسة أشهر التالية والانتقال تدريجياً من عملية درع الصحراء الى عملية عاصفة الصحراء ظل هؤلاء مسؤولين على اتخاذ أغلبية قرارات الادارة الأمريكية في واشنطن الخاصة بالأزمة، مع العلم بأنه كانت تتم كذلك استشارة عدد آخر من المتخصصين في شؤون الشرق الأوسط من أمثال فؤاد عجمي الشيعي المذهب والاستاذ بمعهد جون هوبكينز للدراسات الدولية المتقدمة والسفير السابق لوشيوس باتل(٢٤).

بدأ جورج بوش يناقض ما أنكره قبل لقائه بالسيدة تاتشر يوم ٢ أغسطس/آب من أنه لا ينوي إرسال قوات عسكرية للسعودية، حيث شرع الفريق الأمريكي لادارة الأزمة في التركيز على الخطط العملية لحملة ضخمة سوف يتولى قيادتها الجنرال نورمان شوارتزكوف الذي جاء بروزه بعد مدة كبطل أمريكا الديناميكي لآخر عمليات الولايات المتحدة العسكرية في الخارج. في ٧ أغسطس/آب صرح بوش في واشنطن أن صدام حسين «قد كذب علينا» بخصوص الانسحاب وشجب الادارة «المؤقتة» التي أعلنت في الكويت والمتكونة من مجموعة من الضباط العراقيين واصفاً إياها بأنها «دمية» عراقية(٢٥).

لقد كان الجنرال كولين باول يعمل مساعداً لوزير الدفاع الأمريكي كاسبر واينبرغر أثناء عمليات تحرك القوات المسلحة الأمريكية في لبنان في عام ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤ حيث تعلم واينبرغر درس تجربة حرب فيتنام عند إصدار تعليماته الخاصة بالعمليات الحربية. كانت فحوى ذلك الدرس هي «أنه لا يمكن للولايات المتحدة أن تلزم قواتها المسلحة بالعمل خارج أراضيها دون وجود ضمانات معقولة بالحصول على دعم الشعب الأمريكي وممثليه في الكونجرس». يضاف الى ذلك أنه في حال الالتزام بعمل عسكري في الخارج «فيجب أن يتم ذلك بكل جدية وإخلاص وبنيّة واضحة لاحراز النصر» وإن لم يكن ذلك هو الحال بالنسبة للبنان. من الواضح جداً أن اختيار كولين باول للوحدات العسكرية من الفرق الجوية رقم ٨٢ و١٠١ وفرقة الفرسان رقم ٣ كان بهدف

ردع بل وصد أي محاولة من قبل العراق لغزو الأراضي السعودية . . . وكان من الضروري توفر قوات كافية بحرية وجوية مقاتلة وقوات برمائية كما كان الحال في لبنان. لقد بلغ حجم تلك القوة الى ما يزيد عن مائة ألف جندي(٢٦).

في ٥ أغسطس/ آب سافر وزير الدفاع الأمريكي ريتشارد تشيني الى السعودية من أجل إقناع السعوديين بالحاجة الى وجود القوات الأمريكية في المنطقة، وذلك في الوقت الذي كان صدام حسين يبحث فيه عن بصيص من الضوء الأخضر من أمريكا لمساندة الحل العربي الذي كان يسعى إليه. استدعى صدام الدبلوماسي الرئيسي الأمريكي الوحيد المتبقي في السفارة الأمريكية في بغداد القائم بالأعمال السيد جوزيف ويلسون وطرح أمامه من جديد تفاصيل الموقف العراقي فيما يتعلق بالكويت. ولكي يدلل صدام حسين ـ حسب ما جاء في محضر ذلك اللقاء ـ على حسن نواياه تجاه السعودية وعدم رغبته في الهجوم عليها أشار الى اتفاقية عدم الاعتداء الموقعة بين العراق والسعودية والتي كان قد عرض اتفاقية مثلها على الكويت ورفضت القبول بتوقيعها. وأضاف صدام يقول: «الحمد لله على ذلك، وإلا فما كنا نستطيع أن نقوم بالغزو». وأكد صدام حسين في ذلك الاجتماع للسيد ويلسون أن السعودية في أمان من العراق محذراً الولايات المتحدة من إثارة مخاوف السعوديين، ومؤكداً من جديد أن وعده بعدم التحرك عسكرياً ضد الكويت كان ملزماً ما دامت المفاوضات جارية بين الطرفين. كما اعترف صدام حسين لويلسون بأن الولايات المتحدة قادرة على تدمير التكنولوجيا العراقية والاقتصاد العراقي وصناعاته النفطية إلا أن ذلك سيدفع بالعراق الى استهداف المصالح الأمريكية كلها في المنطقة. أما بالنسبة للانسحاب من الكويت فقد أشار صدام حسين الى أن «دخول الكويت قد استغرق من القوات العراقية ثلاثة أيام وعليه فلا يمكن أن يتم الانسحاب في يوم وليلة، بل يجب أن يتم بناء على اتفاق دولي، وأن العراق لن يتخلى عن الكويت كي يتركها فريسة في يد قوة أخرى، وأنه إذا ما زادت التهديدات فسوف ندفع بقوات إضافية ولكن إذا ما توقفت التهديدات فإن قواتنا ستقوم بالانسحاب».

في نفس تلك الفترة كان وزير الدفاع الأمريكي ريتشارد تشيني قد وصل العاصمة السعودية الرياض لتوقيع اتفاق عسكري سري ـ حسبما يروي مصدر عربي ـ مع كل من الملك فهد ووزير الدفاع والطيران السعودي الأمير عبد الله بن عبد العزيز حددت بموجبه سلطات القادة العسكريين لكل من السعودية وأمريكا وباقي دول الحلفاء بما

كفل للقائد العسكري السعودي سلطات القائد الأعلى داخل الأراضي السعودية. كما نص الاتفاق على أن تتولى السعودية توفير الاسناد والمعدات السوقية من وسائل نقل الجنود و إيوائهم وتموينهم إلخ. وأن تخضع قوات الولايات المتحدة للقرار السعودي النهائي فيما يتعلق بالعمليات الهجومية خارج الأراضي السعودية(٢٧). عاد تشيني عقب ذلك الى أمريكا ليعلن القرار الأمريكي بإرسال وحدات عسكرية أمريكية جوية وبرية مقاتلة الى السعودية كجزء من قوة متعددة الجنسيات يتم التباحث حولها مع كل من بريطانيا والسعودية وفرنسا ومصر وغيرها من الدول الحليفة. أخذت القوات الأمريكية بعد ذلك في التحرك نحو السعودية حيث بدأت الوصول إلى مطار الظهران ـ الذي أصبح القاعدة الجوية المركزية لعمليات درع الصحراء وعاصفة الصحرا ء ـ في مساء اليوم السابع وصباح اليوم الثامن من أغسطس/آب. في نفس ذلك اليوم قررت تركيا ـ حليفة منظمة شمال الأطلسي (NATO) و الواقعة شمال وغرب العراق ـ إقفال أنابيب النفط العراقية الحيوية وجميع المنافذ العراقية على الأراضي التركية بمجرد ابتداء وصول القوات الأمريكية الى السعودية سحب صدام حسين وعده بحضور مؤتمر القمة العربي الجديد وانتهى الحديث بالكامل حول الانسحاب من الكويت، وبدا الرئيس بوش منذئذ بوصف العراقيين بأنهم «مجرمون وقطاع طرق دوليين». يؤكد مراقبون في مؤتمر القمة العربي الذي عقد في القاهرة يوم ١٠ أغسطس/آب أن الضغوط الأمريكية لتفادي «الحل العربي» للأزمة وضمان قبول الدول العربية الحليفة بالمشاركة في حملة لقوات ائتلافية قد وصلت الى درجة حرجة. لقد قضيت آنذاك عدة أيام في العاصمة الأردنية عمان حيث كان الملك حسين وأعضاء حكومته يراقبون بقلق بالغ أي إشارات تفيد أن اسرائيل يمكن أن تنتهز فرصة الأزمة لتطرد المواطنين الفلسطينيين من الضفة الغربية وغزة الى الأردن تنفيذاً لما عرف بـ «خطة شارون» لتحويل الأردن الى فلسطين. في الوقت نفسه كان الاسرائيليون يراقبون الأحداث بقلق مماثل ليعرفوا ما إذا كان صدام حسين مستعداً لنقل قواته العسكرية داخل الأردن وعبور «الخط الأحمر» الذي رسمته.

قمة القاهرة

شارك في قمة القاهرة عشرون من قادة الدول العربية بناء على دعوة من الحكومة السورية. وبالرغم من أن اجتماعات المؤتمر لم تستمر سوى خمسة أيام، لكنها كانت بالنسبة للرئيس المصري حسني مبارك أياماً حاسمة وحافلة حيث استعادت فيها مصر

موقعها المرموق في الجامعة العربية. وبالنسبة لواشنطن فقد كان المؤتمر تجربة ناجحة في التأثير على حلفائها من الدول العربية بطريقة التحكم عن بعد، ودليلاً على أن قضية الكويت تتمتع بدعم واسع في المنطقة. أما بالنسبة للدول المحايدة أو المتعاطفة مع صدام حسين مثل اليمن والسودان والجزائر ـ وبالنسبة للملك حسين عاهل الأردن ـ فقد كان المؤتمر كارثة محققة.

لقد كان أثر غياب صدام حسين عن لقاء القمة سلبياً للغاية، وقد حاول كل من ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ومساعده صلاح خلف (أبو أياد) يوم التاسع من أغسطس/آب في بغداد، إقناعه بالحضور ولكن دون جدوى. فقد بين لهما صدام حسين خطته لجر اسرائيل الى الحرب إذا ما نشبت وتفتيت التحالف المعادي له، مؤكداً القول: «سوف أهاجم اسرائيل من أول لحظة يقوم فيها الهجوم على العراق وسوف يتحول العدوان بعد ذلك الى مؤامرة صهيونية/ أمريكية حقيقية وستغير الدول التي تقف الآن الى صف أمريكا مثل سوريا ومصر مواقفها عند ما تجد اسرائيل مشاركة في الحرب». كما طرح صدام أمام عرفات وصلاح خلف خطته الدفاعية داخل الكويت، وخطة للقيام بأعمال فدائية داخل المملكة العربية السعودية وذلك بالتعاون مع عناصر قبلية سعودية معارضة للنظام السعودي في حوزتها أسلحة من صنع بلدان أوروبا الشرقية قد هربت للسعودية عن طريق اليمن الذي يقوم بينه وبين السعودية خلاف قديم ومستمر حول حدودهما المشتركة.

ومع انتهاء اللقاء بين قادة منظمة التحرير الفلسطينية وصدام حسين تأكد لدى عرفات ومساعده أن قمة القاهرة لن تزيد الأمور إلا سوءاً بالنسبة للأمن العربي المشترك وللعلاقات العربية عموماً[٢٨].

وفي القاهرة جرى افتتاح مؤتمر القمة بقاعة المؤتمرات الجديدة بمدينة ناصر في ضواحي القاهرة بجلسة غير رسمية لوزراء خارجية الدول العربية. لم يسمح للصحفيين بدخول قاعة الاجتماع إلا بتصاريح خاصة مما اضطر رجال الصحافة من أمثالي الى مشاهدة أعمال الاجتماع وتحركات أعضاء الوفود عبر حاجز من الزجاج في قاعة جلوس خصصت للصحفيين. لقد كانت المعلومات التي تنقل إلينا في تصريحات المسؤولين المصريين لا قيمة لها بينما كان بعض أعضاء الوفود العرب يخرجون فرادى بين فترة وأخرى

للتحدث بصفة شخصية لبعض أصدقائهم الصحفيين. لقد فرض علينا أن نراقب في صمت ونتساءل عما يدور عن بعد ثم نبعث بتقاريرنا القائمة على الحدس والتخمين عبر التلفون أو التليكس. وفيما بعد وصلتنا تفاصيل عن حدة التوتر التي كانت قائمة بين الوفدين العراقي والكويتي حيث كان أمير الكويت من بين الحاضرين في القاعة بينما غاب صدام حسين كما هو معروف. كما علمنا أنه أثناء تناول طعام الغذاء رمى نائب رئيس الوزراء العراقي طه ياسين رمضان بطبق من الأكل على ولي عهد الكويت الشيخ سعد العبد الله كاد يصيبه بينما تراشق بعض أعضاء الوفود الآخرين بقطع الخبز. . وأصابت الصدمة أحد أعضاء الوفد الكويتي بالاغماء.

تراس الرئيس حسني مبارك الجلسة الرسمية المغلقة التي عقدت بعد الظهر، ويقول السيد ياسر عرفات أنه عندما التحق بالجلسة بعد أدائه الصلاة، وجد أمامه على المنضدة نسخة البيان الختامي للمؤتمر الذي تم إعداده، والذي بدى لركاكة أسلوبه وتعبيراته كأنه قد كتب في الأصل باللغة الأنجليزية ثم ترجم الى العربية (وقد كان ذلك أيضاً رأي العديد من أعضاء وفود المؤتمر والصحفيين الذين حضروا اللقاء واطلعوا على النسخة العربية التي وزعت). كما يؤكد السيد ياسر عرفات أن الرئيس حسني مبارك الذي كان يترأس الجلسة لم يسمح له بأن يقول كلمة واحدة حول خطة منظمة التحرير الفلسطينية لوساطة عربية. كما تفيد عدة تقارير أخرى أن الرئيس مبارك قد سارع الى طرح القرار للتصويت دون أن يسمح بنقاش حقيقي حوله، وذلك حتى تم التصويت عليه بموافقة اثنتي عشرة دولة من مجموع العشرين دولة الحاضرين(٢٩).

لقد جاء القرار الختامي لمؤتمر القمة العربية مسانداً لسيادة دولة الكويت واستقلالها ومؤيداً لقرارات الأمم المتحدة الخاصة بانسحاب العراق من الكويت ومؤكداً على حق المملكة العربية السعودية في الدفاع عن أراضيها باللجوء الى قوات أجنبية وتكوين قوة عسكرية عربية مشتركة للغرض نفسه. لقد تجاوزت الجامعة العربية لتمرير ذلك القرار أسلوبها المعهود في إصدار قراراتها باجماع الأعضاء الحاضرين وتمت الموافقة على قرارات قمة القاهرة بالأغلبية البسيطة فوافقت اثنتا عشرة دولة فقط من مجموع عشرين حيث غابت تونس وامتنعت الجزائر واليمن عن التصويت وتحفظت كل من الأردن والسودان وموريتانيا. وفي خلال ساعات من انتهاء قمة القاهرة كانت الوحدات المصرية التابعة للقوة العربية في طريقها الى السعودية. بلغ حجم القوات المصرية في البداية ثلاثة آلاف

جندياً أضيف اليها خلال الأشهر اللاحقة ما لا يقل عن ستة وثلاثين ألفاً آخرين كما ضمت القوة العربية ألفاً وثلاثمائة جندياً من المغرب إضافة الى الجنود الخمسة آلاف المغاربة العاملين منذ أوائل الثمانينات في القوات المسلحة لدولة الامارات العربية ـ ولم يتم استخدامهم في عملية عاصفة الصحراء ـ بينما ازداد حجم القطاع السوري من ألف ومائة الى ما يقرب من خمسة عشر ألف جندياً(٣٠).

أثناء فترة انعقاد مؤتمر القمة العربية في القاهرة كان راديو بغداد يذيع نداء من صدام حسين باعلان الجهاد المقدس «لانقاذ مكة وقبر رسول الله من أن تحتلها القوات الأمريكية». في الحادي عشر من أغسطس/ آب جاء رد العاهل السعودي الملك فهد بأن «القوات الأجنبية لن تقوم بأي أعمال هجومية من الأراضي السعودية» بينما أعلنت رابطة العالم الاسلامي في مكة أن الأماكن المقدسة في السعودية «خالية من أي احتلال أجنبي».

الربط مع القضية الفلسطينية:

بعد يومين من انتهاء قمة القاهرة ظهر صدام حسين بمحاولة لاقناع الشعب العربي وبقية دول العالم بالربط بين قضية الكويت والصراع العربي/ الاسرائيلي، الأمر الذي ظل مصراً عليه حتى اللحظات الأخيرة قبل اندلاع الحرب. جاء في تصريحه بتاريخ ١٢ أغسطس/ آب أن قضية «احتلال الكويت» لا يمكن حلها إلا بحل قضايا «الاحتلال» الأخرى القائمة في منطقة الشرق الأوسط مثل احتلال سوريا للبنان وبقايا القوات العراقية في إيران والاحتلال الاسرائيلي للأراضي الفلسطينية. فهذه كلها ـ على حد قوله ـ قضايا يجب التفاوض على حلها في نفس الوقت الذي توضع فيه «ترتيبات» معينة بين العراق والكويت. كما طالب صدام في تصريحه بالغاء العقوبات الاقتصادية والمقاطعة التي فرضتها الأمم المتحدة حديثاً على العراق وانسحاب قوات التحالف من المملكة العربية السعودية واستبدالها بقوات عربية لا تشترك فيها مصر. رفضت الولايات المتحدة واسرائيل هذه الأفكار مباشرة بينما أعلنت إيران رفضها لها في اليوم التالي أي ١٣ أغسطس/ آب.

أخذت الدفعات الأولى من القوات العربية تصل الأراضي السعودية في ١١ أغسطس/ آب بينما بدأت المظاهرات الشعبية المؤيدة لصدام حسين تجتاح شوارع مدن

الضفة الغربية في فلسطين المحتلة وقطاع غزة والقدس الشرقية كوجه جديد للانتفاضة الفلسطينية تظهر فيه صورة صدام حسين في الكثير من اللافتات. وبالرغم من أن الكثير من الفلسطينيين المقيمين في الكويت قد بدأوا يرسلون التقارير المفزعة عن التجاوزات التي كانت ترتكبها القوات العراقية في الكويت فإن الكثير من الفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحتلال الاسرائيلي يعتبرون الكويت بلداً بعيداً لا يمثل حقيقة واقعية ـ رغم الدعم المالي الذي كانت الكويت تقدمه للمنظمات والهيئات الخيرية الفلسطينية ـ مقارنة بما يعانونه هم من حياة البؤس والتعاسة كل يوم.

بدأت المخاوف تتسرب الى قادة الحكومة الاسرائيلية، إذ وصف رئيس الوزراء اسحاق شامير تصريح الربط الذي أصدره صدام حسين بأنه «مناورة لاضعاف التحالف الدولي القائم ضده»(٣١). . وقد دلل على تلك المخاوف إطلاق الشرطة الاسرائيلية النار على المتظاهرين العرب في جبل المعبد بمدينة القدس في شهر أكتوبر/ تشرين الأول. ثم بدأ التراشق بالاتهامات بين المتطرفين من المسلمين واليهود حول المسؤولية على أحداث العنف وعما إذا كانت الشرطة قد أطلقت النار دفاعاً عن النفس أو بسبب استفزازها من قبل المتظاهرين. حاول صدام حسين من طرفه توظيف الموقف كجزء من حملته الدعائية العالمية وأعلن في الراديو أن العراق يملك صاروخاً يسمى «الحجارة» تيمناً بثورة الحجارة ضد قوات الأمن الاسرائيلية في فلسطين وكرر تهديداته بضرب اسرائيل بمجرد قيام أي عدوان ضد العراق.

لقد ظلت اسرائيل منذ فترة طويلة تعتقد أن القوات العراقية تشكل أكبر خطر عسكري عليها. وكما هو معروف فقد ساندت اسرائيل إيران طوال حربها ضد العراق التي استمرت من عام ١٩٨٠ وحتى عام ١٩٨٨ وكادت تنجح في تحقيق صفقة السلاح مقابل الرهائن بينها وبين إيران والولايات المتحدة. وقد زاد من الخطر الاستراتيجي الذي تمثله العراق ـ الذي شارك في معظم الحروب العربية ضد اسرائيل منذ عام ١٩٤٨ ـ بالنسبة لاسرائيل امتلاك العراق للنفط وموارد المياه وجيشه القوي وقدرات شعبه المتعلم نسبياً على استخدام الوسائل التكنولوجية. وفوق ذلك كله فقد ضرب صدام حسين على الوتر الحساس عندما أعلن عن إمكانيات بلده العسكرية المتنامية. هذا، وقد لاحظ المراقبون الأمريكان لدى انتهاء الحرب العراقية/ الايرانية في عام ١٩٨٨ وجود عدة مؤشرات تفيد أن اسرائيل قد تحاول تدمير قواعد الصواريخ العراقية كما دمرت

المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١. . كما أصدرت العراق عدة تحذيرات بأن عملاً مثل ذلك سيكون سبباً في نشوب اعتداءات بين الطرفين.

لقد كان الاسرائيليون قد وقعوا اتفاقيات مع الولايات المتحدة لتطوير صاروخ (آرو Arrow) الاسرائيلي المضاد للصواريخ، ولم يكن في حساب الاسرائيليين إمكانية الحصول على صواريخ باتريوتPatriot الأمريكية التي أرسلت مع طواقمها الأمريكية فيما بعد الى اسرائيل في عجالة عندما بدأت صواريخ سكود Scud العراقية تضرب اسرائيل خلال عمليات عاصفة الصحراء(٣٢).

لقد أبدت الحكومة الاسرائيلية منذ سبتمبر/ أيلول وقبل أحداث جبل المعبد رغبتها في المشاركة في التخطيط للحرب الجوية ضد الأهداف العراقية، وأبدت استعدادها لتبادل المعلومات مع قوات الحلفاء حول الأهداف، فرُفضت. وقد أخبر دبلوماسي بريطاني في واشنطن الصحفي جون نيوهاوس الكاتب بمجلة نيويوركر أن واشنطن قد ردت على ذلك بقولها «نحن قادرون على مواجهة العراق وأن أكبر ما نخشاه أن تحاولوا مساعدتنا»(٣٣). لقد كانت الثقة تكاد تكون مفقودة بين الحكومتين الأمريكية والاسرائيلية آنذاك، ولم تكن العلاقة جيدة بين الرئيس بوش وجايمس بيكر وزير الخارجية من جهة وحكومة إسحاق شامير من جهة أخرى. . إلا أن حرب صدام حسين جاءت لتعكس ذلك الوضع بصورة كاملة.

في سؤال تقدم به ممثل ولاية نيويورك الديمقراطي ستيفن سولارتز لوزير الخارجية بيكر أمام لجنة الشؤون الخارجية التابعة لمجلس البرلمان الأمريكي في سبتمبر/ أيلول تساءل السيد سولارتز ـ دون أن يذكر بالتحديد الخطر العراقي على اسرائيل ـ عما إذا كان انسحاب صدام حسين غير المشروط من الكويت يعتبر «نصراً باهظ الثمن بالنسبة للمجتمع الدولي باعتبار أنه سيُبقي على برامج التسليح النووية والبيولوجية والكيماوية العراقية سليمة بالاضافة الى جيش المليون جندي العراقي وبقية البنية العسكرية العراقية ككل». . وعما إذا كان من المفروض أن يكون القضاء على القدرة العسكرية العراقية هدفاً من الأهداف؟.

كانت إجابة بيكر على ذلك أن التخلص من الأسلحة النووية والبيولوجية والكيماوية العراقية لا يتم إلا بتدميرها، وإنه بالامكان التوصل الى «نظام أمني» لحماية

جيران العراق من استخدام تلك الأسلحة. إلا أن عضو البرلمان الأمريكي ستيفن سولارتز لم يكتف بتلك الاجابة وأخذ يسعى بالتعاون مع السفير السعودي الأمير بندر بن سلطان وعدد من الدبلوماسيين المصريين والكويتيين وبعض أعضاء الكونجرس من الحزبين الديمقراطي والجمهوري لانشاء مجموعة ضغط تنادي بتبني سياسة حازمة ضد العراق. أطلق على تلك المجموعة اسم لجنة الأمن والسلام في الخليج التي لقيت ـ على حد ما كتبه مايكل ماسينغ في مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس ـ «تعاطفاً من برينت سكوكروفت ومساعده الأول لشؤون الشرق الأوسط السيد ريتشارد هاس».

لقد دعا السيد ريتشارد هاس كمدير لشؤون الشرق الأدنى وجنوب شرق آسيا في مجلس الأمن القومي في كتابه بعنوان: نزاعات لا نهاية لها: الولايات المتحدة والمنازعات الأقليمية، الى استمرار التقارب والدعم الأمريكي لاسرائيل وضرورة وقوف أمريكا الى صف الدولة اليهودية في الأزمات. كما كان السيد هاس قلقاً أيضاً فيما يتعلق بأمن مصر والمملكة العربية السعودية(٣٤).

إن شخصيات من أمثال هاس وسولارتز لم يكن لها دور في إعانة الرئيس بوش على المحافظة على تصميمه الذي شجعته عليه السيدة تاتشر وغيرها فحسب بل دفعته الى انشاء علاقة حميمة جداً مع اسرائيل.

فشل الدبلوماسية:

قبل انطلاق عمليات عاصفة الصحراء ظل هناك مجال لبذل أقصى الجهود لاتباع الوسائل الدبلوماسية للوصول الى حل للأزمة، وأن أسفرت النتيجة في النهاية على لا شيء.

في ١٩ أغسطس/آب طرح صدام حسين اقتراحاً جديداً فحواه أن يتم إطلاق سراح جميع الرعايا الأجانب المحتجزين في العراق والكويت مقابل جلاء القوات الأمريكية التي كانت تتوافد آنذاك على منطقة الخليج. لقد كان ذلك بمثابة رد العراق على آخر قرارات مجلس الأمن في الأمم المتحدة رقم (٦٦٤) الذي طلب من العراق إخلاء سبيل جميع الرعايا الأجانب والسماح لهم بالمغادرة. وفي ٢٠ أغسطس/آب وصل نائب رئيس الوزراء العراقي سعدون حمادي الى موسكو سعياً وراء الدعم السوفياتي، حيث أكد له وزير الخارجية السوفياتي أدوارد شيفرنادزه على ضرورة اخلاء سبيل الرعايا

الأجانب وانسحاب العراق من الكويت. كما اتصل شيفرنادزه أيضاً بوزير الخارجية الأمريكية جايمس بيكر يطلب منه تأجيل التصويت على أي قرارات جديدة للأمم المتحدة حتى ٢٧ أغسطس/آب ريثما يتضح أثر رسالة الاتحاد السوفياتي تلك على صدام حسين. في نفس الوقت حصل بيكر على موافقة من شيفرنادزه على استصدار قرار في ٢٤ أغسطس بعد ما حاول الأخير ـ على ما يبدو ـ أن يحذر بيكر من أن الضغوط على بوش من أجل التحرك السريع في الخليج يقابلها ضغوط في الاتجاه المعاكس في الاتحاد السوفياتي، حيث تحث المؤسسة العسكرية السوفياتية على التريث. على أثر ذلك جاء قرار مجلس الأمن رقم (٦٦٥) والذي يسمح باستخدام القوة لفرض المقاطعة الدولية للعراق والذي حصل على موافقة ١٣ دولة مقابل صفر مع امتناع كوبا واليمن عن التصويت.

لقد أتت الجهود الدبلوماسية الدائبة التي بذلها وزير الخارجية الأمريكي بيكر وجاراه فيها وزير الخارجية السوفياتي شيفرنادزه أتت ثمارها بالحفاظ على تشجيع الاتحاد السوفياتي لجهود التحالف وذلك في ٩ سبتمبر/ أيلول، حيث أعلن عن توصل الرئيس بوش والرئيس غورباتشوف في اجتماعه قمة هيلسينكي الى اتفاق ضمني على حل وسط يستمر بموجبه مبعوث الاتحاد السوفياتي في الشرق الأوسط السيد يفغيني بريماكوف في الاتصال بصدام حسين مقابل تأييد غورباتشوف ـ أو على الأقل عدم معارضته ـ لأي أعمال عسكرية تقوم بها أمريكا. جاء البيان المشترك لتلك القمة مؤيداً للتسوية السلمية ومؤكداً أنه في حالة فشل الحلول الدبلوماسية فإن الطرفين على استعداد للنظر في اتخاذ مبادرات أخرى «بما يتمشى وميثاق الأمم المتحدة».

لقد كانت بعض الجهود الدبلوماسية التي بذلت في تلك الفترة موجهة لتسريح مئات الآلاف من الرعايا الأجانب الذين احتجزوا داخل العراق، والذين أرسل البعض منهم وخاصة الأمريكان والبريطانيين والفرنسيين والألمان في كل من العراق والكويت كـ «دروع بشرية» لحماية المنشآت الصناعية والعسكرية العراقية ضد الاعتداء. أما بالنسبة للعمال الأجانب الآسيويين كالباكستانيين والهنود والفلبينيين وغيرهم فقد هربوا من الكويت الى العراق للانضمام الى آلاف آخرين في طريقهم الى الأردن. نتيجة لذلك تجمعت أعداد كبيرة من اللاجئين في معسكرات داخل الأراضي الأردنية حيث بذلت هيئات الاغاثة الأردنية بدعم من بعض المنظمات التطوعية العالمية جهوداً جبارة

لاطعامهم وإيوائهم وحمايتهم خلال تلك الأيام القاسية من الخريف وتسهيل عملية ترحيلهم إلى بلدانهم. لم تكن تلك المهمة يسيرة بالنسبة للأردن الذي كان يعاني من التزامه بشروط المقاطعة العراقية والذي كان سكانه أنفسهم محرومين من الغذاء الكافي ناهيك عن إطعام آلاف آخرين من اللاجئين.

ولعل أكبر مظهر من مظاهر فشل الوسائل الدبلوماسية تجلى في هروب الكويتيين أنفسهم من الكويت والوضع الذي حل بمن بقي منهم داخلها، إذ تفيد المعلومات التي نشرتها منظمة العفو الدولية في تقريرها الصادر في ١٩ ديسمبر/ كانون الثاني ١٩٩٠ أنه قد هرب من الكويت ما يقرب من ثمانمائة ألف مواطن عربي، منهم ثلاثمائة ألف كويتي وما يقرب من نصف مليون أجنبي مقيم في الكويت. وأضافت المنظمة أن الجنود العراقيين قد قتلوا مئات من الكويتيين العزل وأن مئات آخرين «اختفوا» في أماكن الاعتقال. كما أكدت انتشار وسائل التعذيب في الكويت المحتلة بقدر ما هو من قطع الوجه والأعضاء بالسكاكين الحادة الى خلع العينين وقطع اللسان والأذنين . كما أكد شهود عيان للمنظمة وقوع حالات خصي وضرب المسامير في اليدين بين السجناء الكويتيين، وقد كان أكثر من عانى من هذه المعاملة القاسية أعضاء سابقين في القوات المسلحة الكويتية الذين اتهموا فيما بعد مواطنين فلسطينيين مقيمين في الكويت، بالتعاون مع العراقيين في مثل تلك الممارسات. كما كان من بين الضحايا مواطنون كتبوا شعارات ضد العراق على الحيطان أو رفعوا العلم الكويتي أو وجدت أعلام كويتية في حوزتهم.

لقد ترتب على قرار العراق بضم الكويت في ٨ أغسطس/ آب إجراءات مشددة حاول العراقيون عن طريقها طمس كل علامات الوجود المستقل للكويت. فقد أجبروا السكان على تغيير أسماء الشوارع وصادروا بطاقات التعريف الشخصية وأرقام السيارات ومنعوا الرجال من إطلاق اللحى، كما وردت تقارير عن قيام بعض الجنود العراقيين باستخدام الكلاليب لسل شعر لحى بعض الكويتيين(٣٥).

نادراً ما كان صدام حسين يقدم على خطوة سياسية أو عسكرية هامة دون أن يحمي نفسه من فتح جبهة ثانية ضده. من أجل ذلك قام أخوه برزان التكريتي سفير العراق لدى الأمم المتحدة في جنيف قبل غزو الكويت بسلسلة من الاتصالات الدبلوماسية

على مستوى عال مع إيران كانت تهدف الى تعزيز اتفاق إيقاف إطلاق النار في أغسطس/ آب ١٩٨٨ وتحويله الى اتفاقية سلام دائم. هذا من شأنه أن يمكن صدام حسين من حماية الجناح الشرقي وتحويل ما يزيد عن خمسمائة ألف جندي للدفاع عن الكويت ومداخل العراق الجنوبية الشرقية. . وقد ساعد على إنهاء الكثير من هذه الترتيبات الشيعي الوحيد الموجود في مركز قيادي حقيق في العراق وهو سعدون حمادي نائب رئيس الوزراء.

في يوم ١٧ أغسطس كنت في زيارة لمكتب وكالة أنباء الأسوشييتد برس في البحرين عندما التقطت أجهزة الوكالة بثاً إذاعياً من راديو بغداد لرسالة من صدام حسين موجهة للرئيس الايراني هاشمي رفسنجاني يقبل فيها بأغلبية شروط إيران لتوقيع اتفاقية سلام مع العراق والتي كان العراق قد رفضها من قبل بما في ذلك الخط الوسطي الحدودي في ممر شط العرب والذي كان رفض صدام لقبوله في عام ١٩٨٠ سبباً من أسباب الحرب بين البلدين. كما وافق العراق على إخلاء الأراضي الايرانية التي لا زالت تحت الاحتلال العراقي وتبادل أسرى الحرب والذي سرعان ما تولت الاشراف عليه هيئة الصليب الأحمر الدولية في جنيف. وفي ٩ و١٠ سبتمبر/ أيلول قام وزير الخارجية العراقي طارق عزيز ويرافقه وزير النفط بزيارة لطهران لاستعادة العلاقات الدبلوماسية، بالرغم من أن إيران رفضت أن تساعد العراق على كسر الحصار النفطي الذي فرضته قوات التحالف(٣٦).

وهكذا حيّد العراق جارته إيران القوة الضاربة الأخرى في الخليج، بينما كان الرئيس الأمريكي جورج بوش يقود تحالفاً سياسياً تحت مظلّة الأمم المتحدة تسانده قوة عسكرية ضخمة، وبدعم دبلوماسي من الاتحاد السوفياتي. وبذلك أصبحت الساحة ممهدة لوضع تفاصيل خطة أكبر حملة عسكرية طموحة خططت لها الولايات المتحدة خلال جيلين من تاريخها الحديث، والتي سيغير نجاحها وجه منطقة الشرق الأوسط على مدى الأجيال القادمة.

الفصل السادس عشر
عاصفة الصحراء

التخطيط للحرب

كانت الدوائر العليا في العسكرية الأمريكية قبل شن عملية عاصفة الصحراء ـ وهذا ديدن أسلافهم على مدى التاريخ ـ أكثر تحفظا من كثير من كبار المسؤولين المدنيين حول ارسال الجنود للقتال في الحرب. فقد كان العديد من المسؤولين الامريكيين والاوروبيين أن العقوبات الاقتصادية وحدها كافية لطرد العراق من الكويت، كما أن قرارات مجلس الأمن شلت صادرات العراق النفطية وأغلب معاملاته التجارية الأخرى. خذ مثلا على ذلك الجنرال نورمان شوارتزكوف القائد الميداني الرفيع والمخطط الاستراتيجي البارع وبطل عملية عاصفة الصحراء. قال الجنرال شوارتزكوف يوم ٢٨ سبتمبر/ أيلول ١٩٩٠ ردا على الحاح البعض في أمريكا وفي الكونغرس على التحرك المبكر: «انه من السابق لأوانه أن يقال أن هناك ضرورة لقيام عمل معين خلال أسابيع. . فالكل يرغب في إنهاء هذه القضية ولكن ليس من الواقعية أن نعتقد أن العقوبات الاقتصادية سيكون لها أثر خلال أسابيع قليلة. . . فهي إجراء طويل الأجل» (١). كأني بشوارتزكوف في حديثه ذاك كان يعبر عن رأي الرئيس الأمريكي جورج بوش ورأي الكثير من المراقبين العقلاء.

كانت هناك شخصيات مدنية أخرى تترقب المكاسب التي يمكن ان تعود على الاقتصاد الامريكي من عملية درع الصحراء. . . ذلك الاقتصاد الذي أنهكه الانحسار الاقتصادي والفيض المستمر الناتج عن الاستثمارت الضخمة والقروض الفاشلة. من بين هؤلاء وليام سيدمان رئيس مؤسسة تأمين الايداع الاتحادية {fdic} الذي قال في نفس اليوم الذي تحدث فيه شوارتزكوف أن الأزمة تبشر بأنها «أفضل حدث خلال السنوات العشر الأخيرة بالنسبة للاقتصاد ونظام المصارف في الولايات المتحدة، ذلك أن قدرتنا على التحرك وحماية أكبر مصدر للنفط في العالم وبدعوة من المملكة العربية السعودية يجعلنا في وضع أكثر استقراراً فيما يتعلق بالطاقة مما نحن عليه لمدة عدة سنوات(٢).

لم تكن لدى البنتاغون خطة انتشار محددة لكيفية طرد القوات المسلحة العراقية من الكويت، بالرغم من احتفاظه بخطة من أيام الحرب الباردة للتجاوب مع غزو سوفياتي لايران، والتي بنيت حولها كثير من الخطط والألعاب الحربية الأخرى. أما الخطة الاضطرارية التي وضعها شوارتزكوف الآن فتتطلب انتشار وتحريك جميع المهام العسكرية بمستويات مختلفة، ابتداء من رجال المدفعية وسائقي الدبابات والطباخين والفنيين الطبيين وحتى ذوي الاختصاص الناطقين باللغة العربية. كان من الضروري أن يحمل جميع هؤلاء معداتهم وأجهزتهم معهم لعدم توفرها مسبقا في منطقة الخليج والمحيط الهندي. كانت المرحلة الأولى للانتشار تشمل حوالي مائتي ألف من الجنود مما شبهه الجنرال كولن باول فيما بعد «بترحيل سكان مدينة ريتشموند بولاية فرجينيا عن بكرة أبيهم الى صحراء السعودية على بعد ثمانية آلاف ميل».

بمجرد صدور الأوامر من البنتاغون قامت قيادة النقل الجوي العسكري الامريكية {mac} دون أن يوفر لها وقت الانذار اللازم للحشد، بتنفيذ أكبر وأنجح عملية نقل جوي في التاريخ. فقامت القيادة خلال الاسابيع الثلاثة الأولى من عملية درع الصحراء بنقل أعداد من الجنود وكميات من الاجهزة والمعدات الى الخليج أكثر مما نقل خلال الثلاثة أشهر الاولى في الحرب عام ١٩٥٠. أكد الصحفيون العاملون في قاعدة الظهران الجوية أن الطائرات كانت تصل كل عشر دقائق تقريبا. وفي قمة عملية النقل كانت طائرات سي-١٤١ ستارلفتر تنطق من قواعدها في الولايات المتحدة الى محطات انطلاق في اوروبا حيث كانت طائرات هيركيوليس سي-١٣٠ تكمل بقية المشوار. كما شاركت طائرات مدنية في أول استخدام للاسطول الجوي المدني الاحتياطي الامريكي.

كما شارك في قيادة الطائرات طيارون احتياط حتى قبل اللجوء الى استدعاء وحدات الحرس الوطني الجوية وذلك للتخفيف على طياري قيادة النقل الجوي العسكري المنهكين الذين كانوا يطيرون ساعات اضافية. وفي أوائل نوفمبر/ تشرين الثاني أعلن الرئيس بوش عن انتشار المزيد من القوات في الخليج لتوفير الخيار الهجومي، فعادت قوات قيادة النقل الجوي العسكري الى عملها من جديد لنقل مائتي ألف آخرين من الجنود مع كل معداتهم (٣).

ساعات مضنية من التقييم واعادة التقييم

أثارت المرحلة الاولى من انتشار القوات في عملية درع الصحراء جدلا واسعا في

أمريكا وداخل حليفاتها من الدول الاخرى حول هدف تلك العملية الضخمة التي عززتها قوات أخرى أصغر من عدد من الدول الاوروبية والعربية والافريقية والحكمة من ورائها. كان شعور وزير البحرية الاسبق جايمز ويب أن الولايات المتحدة «بالغت في ردة الفعل عسكريا بينما ظلت ردت الفعل الدبلوماسية، قاصرة على مدى سنوات عديدة» (٤)، كما حذر وزير البحرية في حكومة كينيدي جون كونلي أن الصدام المسلح مع العراق سيؤدي الى «كارثة» وسيكلف الولايات المتحدة ضحايا بشرية «قد تربو عن الخمسين ألف» ونصح ببذل كل الجهود الممكنة لتفادي الحرب، وأنه في حالة نشوب حرب فعلى الولايات المتحدة أن تختصرها وتقلل من الخسائر في الأرواح باستخدام الأسلحة النووية (٥).

لقد كان الكثير من قادة الكونغرس وعلى رأسهم سام نن رئيس لجنة مجلس الشيوخ للقوات المسلحة حريصين على أن ينتظر الرئيس بوش نتائج مفعول العقوبات الاقتصادية قبل الدخول في حرب مع العراق. وفي أواخر أكتوبر/ تشرين الأول وأوائل نوفمبر/ تشرين الثاني شجب كل من الرئيس بوش ووزير الخارجية الامريكية جايمز بيكر معاملة العراق «البربرية» للرهائن وللموظفين المحاصرين في السفارة الامريكية في الكويت المحتلة وأخذا يتحدثان بالتحديد عن القيام بعمل عسكري اذا دعت الضرورة. كانت الادارة الامريكية حتى تلك اللحظة تخفف من أهمية وضع الرهائن أملا في تفادي الخطأ الذي ارتكبته كل من ادارة كارتر وادارة ريغان بالسماح للعامل الانساني المثير خلال أزمة الرهائن الامريكيين في ايران ولبنان أن تكون له الاسبقية على الاهداف الاستراتيجية الكبرى.

كان يبدو للكثيرين أن الرئيس الامريكي ووزير خارجيته يقومان بارسال إشارات متضاربة. فقد أيد بوش والناطق الرسمي باسم البيت الابيض مارلن فتزووتر دعوة الكونغرس الى التريث برغم ازدياد الوطء على الرهائن. وأكد فيتزووتر بالذات أن «العقوبات الاقتصادية تملك كل فرص النجاح» ونفى وجود جدول زمني لدى الادارة الامريكية للقيام بعمل عسكري أو أن الحرب تعتبر أمرا لامفر منه. الا ان بوش استمر في الوقت نفسه يهاجم صدام حسين بشدة في محاولة ـ على حد قول فيتزووتر ـ لاعداد الشعب الامريكي نفسيا لأي احتمال من الاحتمالات» (٦).

في نوفمبر/ تشرين الثاني ـ وكنتيجة لمجادلات طويلة بين دول التحالف حول

تسلسل سلم القيادة ـ أعلن المسؤولون في أمريكا والسعودية عن ملخص الاتفاق السري الذي توصل اليه وزير الدفاع الامريكي ريتشارد تشيني مع السعودية في شهر أغسطس/ آب جاء في الاتفاق أن أي مبادرة عسكرية تنطلق من الأراضي السعودية لابد أن يوافق عليها الرئيس بوش والملك فهد، وبمجرد الحصول على ذلك الاذن تكون لقوات الولايات المتحدة كامل الحرية في التخطيط لأي هجوم خارج الحدود السعودية وتنفيذه دون مشاركة القوات العسكرية السعودية. الا ان القوات السعودية كانت في واقع الامر مشاركة عن قرب وبحجم كبير في عاصفة الصحراء، مما زاد من تعزيز التحالف العسكري بين السعودية والولايات المتحدة(٧).

بعد التغلب على تلك الصعوبة شعر الرئيس بوش في ٨ نوفمبر/ تشرين الثاني بالحرية ليعلن عن زيادة حجم القوات في الخليج باضافة مائتي ألف جندي آخرين. كما أعلن أنه سيتم تعزيز القدرة الهجومية لخوض حرب برية بتحويل فرق آليات ومدرعات من ألمانيا بالاضافة الى وحدات جوية اضافية وثلاث مجموعات معارك تابعة لحاملات الطائرات (ليكون العدد الاجمالي في منطقة الشرق الاوسط ست حاملات طائرات) وسفينة حربية اضافية ومجموعة برمائية. أعطت عملية الانتشار الجديدة تلك للسياسيين والدبلوماسيين الذين كانوا يأملون في حل الازمة عن طريق المفاوضات ما اعتبروه فسحة من الزمن، حيث أن الفترة اللازمة لاعداد كل تلك القوة العسكرية للتحرك الفعال جعلت من غير المرجح أن تقوم الولايات المتحدة وحلفاؤها بأي هجوم خلال شهر ديسمبر/ كانون الأول.

لقد ساور بعض المراقبين الشك فيما إذا كان الجنرال كولن بأول يقصد التمويه والتضليل عندما رفض تأكيد عما اذا كانت تلك التعزيزات كافية في حالة الحرب حيث قال: «اننا لا نخطط للدخول في حرب مع جيش صدام حسين»(٨).

الحل العربي

استمر السيد ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ونائبه أبو اياد (صلاح خلف) خلال الفترة ما بين أغسطس/ آب ١٩٩٠ ويناير/ كانون الثاني ١٩٩١ في بذل المساعي للتوصل الى حل عربي للأزمة، وقد عقد أحد الاجتماعات الحاسمة في بغداد يوم ٢٦ أغسطس/ آب. فقد أعلن صدام حسين منذ بداية الأزمة في ٢

أغسطس/ آب أن هدفه الرئيسي هو حل نزاعه مع الكويت بالقوة ومع حلول موعد اجتماع ٢٦ أغسطس/ آب كان ذلك الهدف قد تطور بشكل كبير.

يروي أبو اياد أن صدام حسين قال في ذلك الاجتماع: «أما وقد اتسعت أزمة الخليج فكيف يكون بإمكاني حصرها في الجزر وحقول النفط، خاصة بعد أن تنازلت عن شط العرب؟ هذا لا يكفي. واذا قلت للشعب العراقي أني سوف أنسحب لانني حققت حل القضية الفلسطينية مثلا فسيكون ذلك مفهوما لديهم، ولكن الشعب لن يقبل بالانسحاب مقابل الجزر وحقول النفط فقط... لأن ذلك سيعتبر أسوأ من خسران الحرب».

وأكد صدام لضيفيه أنه لايخشى الحرب وانه يقدر التفوق التقني الذي سيجعل القصف الجوي الامريكي وسيلة مدمرة، ولكنه يعتقد أن الاضرار ستكون جزئية ولن تصل الى القوات العراقية كلها. كما كان متفائلا حول قدرة العراق على مواجهة قوات التحالف في حرب برية في الكويت وعرقلة تقدمها. وعندما ذكر ياسرعرفات أن لديه معلومات أن الامريكان سوف يستهدفون صدام حسين شخصيا ابتسم الرئيس العراقي قائلا: «هل تخيفني وتدفع بي الى الاستسلام؟ لا! هذه مجرد نكتة!»

وصلت تلك المعلومات بسرعة عن طريق شخصيات في منظمة التحرير الى الغرب وخاصة فرنسا، وظل ياسر عرفات نفسه يرفض ادانة صدام حسين علنا. لقد ارتكب ياسر عرفات ذلك الخطأ الفادح بالظهور أمام عدسات المصورين وهو يحتضن صدام حسين، وكثيرا ما نقلت عنه وسائل الاعلام اشادته بصدام حسين كبطل للقضية الفلسطينية. كان ثمن ذلك كله غالياً بالنسبة لعرفات، حيث انقطع الدعم المالي الوارد من السعودية وحلفائها من دول الخليج. وبفقدان العديد من الفلسطينيين في دول الخليج لوظائفهم واعمالهم فقد عرفات قدرا كبيرا من شعبيته بين دول التحالف العربي وبين الكثير من عقلاء فلسطين، وان لم يكن بين ابناء الشعب الاردني أو الموطنين في الأراضي المحتلة.

في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٠ عقد صدام حسين اجتماعا آخر في بغداد مع ياسر عرفات وأبو اياد قدر له أن يكون اجتماع نحس وشؤم على كل من أبو اياد شخصيا وعلى مستقبل منظمة التحرير الفلسطينية. فقد فقد إبو اياد أعصابه في ذلك الاجتماع وتجرأ على توجيه النقد لصدام حسين لقيامه بغزو الكويت.

لقد كان أبو اياد يوما ما أحد العقول المدبرة للارهاب. فهو أحد الذين شاركوا في فكرة تكوين حركة أيلول الاسود وقيادتها، تلك الحركة التي كان من ضمن أعمالها ذلك الهجوم الشنيع على الرياضيين الاسرائيليين خلال دورة الالعاب الالومبية في مدينة ميونخ عام ١٩٧٢. الا ان أبو اياد أصبح ـ على مرور الايام وكما أتيح لي شخصيا أن اراقب عن كثب من خلال عدة لقاءات معه ما بين ١٩٧٢ و١٩٩٠ ـ من أعتى المعارضين للارهاب ومن الدعاة المتحمسين لحل سلمي مع اسرائيل، وذلك فيما كان يكتبه في الصحف والمجلات الغربية وما كان يوفي به الى بعض العناصر اليسارية الاسرائيلية. بل لقد كان أبو اياد محل نقد من قبل زملائه الفلسطينيين لاهتمامه الزائد بملاحقة عناصر حركة أبو نضال (صبري البنا) الارهابية المعادية لعرفات وللحل السلمي والقضاء عليهم. وحركة أبو نضال هي التنظيم الذي يحمل اسم مجلس فتح الثوري والذي انشق عن ياسر عرفات في أوائل السبعينات حيث أصدر كل من عرفات والبنا حكم الاعدام في حق الاخر.

كان ابو اياد يقيم في تونس وكانت له زوجة وأطفال مقيمين في الكويت، وقد أغضبه احتلال الكويت غضبا شديدا. وعندما واجه أبو اياد صدام حسين في ذلك الاجتماع بقوله: « تقول أنك تريد مساعدة الحركة الفلسطينية في الكويت ولكنك حطمت مستقبل أسرتي هناك، حيث فقدوا وظائفهم جميعاً... أمر صدام حسين بأخراجه من الاجتماع. ظل ياسر عرفات يقنع صدام حسين بألا يقوم بأعتقال ابو اياد لأن ذلك سيكون خطأ سياسيا خطيرا، فسلفر أبو اياد وعرفات سويا من بغداد وكان أبو اياد يعقد الأيمان بأنه لن يقابل صدام حسين مرة أخرى أبدا.

في ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٠ وافق مجلس الأمن على القرار رقم ٦٦٨ الذي تقدمت به الولايات المتحدة والذي يسمح باستعمال القوة اذا ما لم ينسحب العراق من الكويت قبل يوم ١٥ يناير/ كانون الثاني ١٩٩١. كانت نتيجة التصويت ١٢ صوتا مقابل ٢ ـ وهما كوبا واليمن ـ وامتنعت الصين عن التصويت. جاء ذلك الدعم القوي نتيجة جهود جايمز بيكر الدبلوماسية التي لم تفل. في اليوم التالي قدم الرئيس بوش دعوة لوزير الخارجية العراقي طارق عزيز بالحضور الى واشنطن يوم ١٠ ديسمبر/ كانون الأول للتفاوض، وصرح عزيز أنه قدم الدعوة لوزير الخارجية الامريكية جايمز بيكر لزيارة بغداد والالتقاء بصدام حسين « في وقت مناسب للطرفين» قبل ١٥

يناير/ كانون الثاني. بادر المسؤولون في العراق في البداية بالتجاوب مع تلك الجهود، كما انخفض سعر النفط في نفس اللحظة تقريبا بمعدل أربع دولارات للبرميل الواحد.

بمجرد وصول أخبار الاتصالات الامريكية العراقية المزعمة لمكتب منظمة التحرير في تونس، استدعى عرفات كبار مساعديه لصياغة رسالة سرية لصدام حسين أرسلت اليه عن طريق السفارة العراقية في تونس. كانت الرسالة تحتوي على ثلاث نقاط رئيسية هي: أن يقبل صدام بالعرض الامريكي قبل أي محادثات مع أمريكا، وأن يطلق سراح جميع الرهائن الاجانب، وأن ينسحب العراق من الكويت. كما أشارت الرسالة الى أن الملك فهد سوف يسمح للعراق بالاحتفاظ بالجزر وبحقول النفط في الرميلة (وان لم يكن هناك ما يوضح سبب اعتقاد عرفات بأن الملك فهد قد قبل أو سيقبل بذلك). طار عرفات الى عمان بعد ذلك للحصول على مساعدة الملك حسين في تلك المبادرة، بينما طار أبو اياد الى اليمن لتأمين دعم الحكومة اليمنية.

في يوم ٤ ديسمبر/ كانون الأول التقى كل من ياسر عرفات والملك حسين ونائب رئيس جمهورية اليمن بصدام حسين لمدة خمس ساعات في بغداد، وبعد يومين أعلن صدام عن الافراج عن الرهائن الأجانب.

قبل يوم واحد من بداية الحرب الجوية في ١٥ يناير/ كانون الثاني ١٩٩١ اغتيل في تونس أبو اياد ورئيس الاستخبارات في منظمة التحرير الفلسطينية أبو الهول وأحد أفراد الحرس على يد أحد رجال الحرس الخاص بأبو نضال، مما أثر احتمال تورط حركة أبو نضال في تلك العملية. الا ان عدد من الشخصيات الفلسطينية المطلعة تعتقد ان صدام حسين هو الذي أمر بقتل أبو اياد جزاء تحديه له في اجتماع بغداد يوم ١٦ نوفمبر/ تشرين الثاني. وبغض النظر عن هوية المسؤول فقد أضعفت تلك الجريمة وضع منظمة التحرير في وقت كانت أزمة الكويت قد سددت لقيادة المنظمات عددا من الضربات القاسية(٩).

لقد كان أبو اياد لأكثر من اعتبار عقلية فريدة والساعد الثابت لياسر عرفات الذي صرح بعد موته تصريحات حمقاء لم تزد وضعه الشخصي الا سوءاً، كقوله أن البنتاغون يعد لاستخدام أسلحة كيماوية. مع حلول شهر مارس/آذار ١٩٩١ نزلت أسهم عرفات داخل المنظمة الى أدنى الدرجات، وقرر اجتماع في لندن لعشرة من

الاثرياء الفلسطيتين بتسع أصوات مقابل صوت واحد مطالبة عرفات بتقديم استقالته من رئاسة المنظمة. كان من بين الذين حضروا الاجتماع رجل الاعمال الفلسطيني المعروف حسيب صباغ الذي طالما ذهب كمبعوث شخصي لياسر عرفات لدى البيت الابيض وغيره من مراكز الحكم في العالم[10]. الا ان قرارا مثل ذلك لا يمكن اتخاذه الا في اجتماع للمجلس الوطني الفلسطيني، ويظل عرفات في الوقت الحالي زعيما للمنظمة.

البعد السوري

كانت سوريا من أوائل الدول التي شجبت غزو العراق للكويت. أرسل الرئيس حافظ الأسد وزير الخارجية السوري فاروق الشرع لحضور قمة القاهرة والوقوف الى جانب الرئيس المصري حسني مبارك والتصويت الى جانب القرارات التي تقدمت بها مصر. كما أرسلت القوات السورية فورا الى السعودية للقيام بمهمة دفاعية بحتة. وبذلك تمكن الرئيس حافظ الأسد من ضرب عدة عصافير بحجر واحد كان في مقدمتها سيادة الموارنة المسيحيين في لبنان.

قرر السفير الامريكي في دمشق ادوارد جريجيان بموافقة ضمنية من صديقه الشخصي الحميم وأكبر خبير سوفياتي في شؤون الشرق الاوسط الكسندر زوتوف سفير الاتحاد السوفياتي في سوريا، اعطاء حافظ الأسد حرية كاملة للتفاهم مع الجنرال ميشيل عون في لبنان بالطريقة التي تحلو له مقابل مشاركة سوريا في التحالف ضد العراق. وهكذا ظلت القوات السورية والقوات اللبنانية الحليفة لها تقصف مركز قيادة ميشيل عون المحصن طوال شهري نوفمبر/ تشرين الثاني وديسمبر/ كانون الأول في حي بعبدا بضواحي بيروت حتى استسلم، واحتمى عون بالسفارة الفرنسية في بيروت طلبا للجوء السياسي. كما قرر الرئيس ميتران الذي يعد لتكون ثالث قوة عسكرية في التحالف بعد أمريكا وبريطانيا على الابقاء على عون في السفارة، ولم يمنح اللجوء السياسي في فرنسا الا في صيف عام ١٩٩١، ولم تتدخل اسرائيل لصالح الجنرال عون.

كماسعت سوريا الى رفع العقوبات الاقتصادية التي فرضتها ضدها بريطانيا والولايات المتحدة ودول السوق الاوروبية منذ القرار الذي اتخذته السيدة مارغريت

تاتشر لقطع العلاقات مع سوريا بسبب قضية زهير هنداوي عام ١٩٨٦ . أعيدت تلك العلاقات فور تسلم حكومة جون مايجر في بريطانيا بعد استقالة تاتشر في ٢٨ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٠، وبدأت الحكومات الغربية والمجموعة الاقتصادية الاوروبية في تخفيف العقوبات ورفع الحظر المفروض على سوريا شيئا فشيئا. لقد منعت الحكومة السورية المشاركة في العديد من المشاريع المشتركة مع عدة شركات نفط أمريكية كبرى جميع أنواع المظاهرات المضادة للحرب ، كما كممت أفواه العديد من المنظمات الارهابية والفدائية وعلى رأسها منظمة أحمد جبريل، ومنعت من التعبير عن مواقفها وأرائها لوسائل الاعلام الغربية. كما اخرت وسائل الاعلام السورية التي تتحكم فيها الحكومة اذاعة أخبار المناوشات السورية العراقية التي جرت على الحود السعودية العراقية في ١٠ فبراير/ شباط ١٩٩١ . واستمرت سوريا أحد اعضاء التحالف الراسخين، وأرسلت كتيبة كاملة الى الكويت لتحارب الى صف القوات المصرية والسعودية والعربية الاخرى المتحالفة عندما بدأت الحرب البرية في ٢٤ فبراير/ شباط (١١).

المغرب العربي في حالة غليان

لقد كانت العواطف المؤيدة للعراق ولصدام حسين التي تفجرت في بلدان المغرب العربي الاربعة وهي ليبيا وتونس والجزائر والمغرب، باعثا من بواعث اليأس بالنسبة للدبلوماسيين الامريكيين العاملين في المنطقة، حيث تأثر النفوذ الامريكي في شمال افريقيا بسبب تدخل أمريكا العسكري في الخليج.

غابت تونس عن القمة العربية في القاهرة يوم ١٠ أغسطس/آب، واتخذت الحكومة التونسية موقفا محايداً تماما في أزمة الخليج. أما الشعب التونسي فقد تعاطف مع صدام حسين واعتبرت الاحزاب الساسية المصرح لها وحركة النهضة الاسلامية الاتجاه غير المصرح لها، والمفكرون التونسيون، أن التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة في الخليج محاولة لاعادة فرض الاستعمار القديم.

وفي الجزائر التي كان لها الدور الرئيسي في حل ازمة الرهائن بين الولايات المتحدة وإيران خلال الفترة ١٩٧٩ ـ ١٩٨١ والتي هبت لمساعدة امريكا في حوادث ارهابية أخرى، كان التعاطف متجها هذه المرة نحو العراق بأعنف مما هو عليه في تونس. وقد

صدرت عن وزير الخارجية الجزائري أحمد غزالي وهو الرجل التكنوقراط الذي ساهم في الماضي في توجيه تجارة النفط والغاز الطبيعي المزدهرة في الجزائر نحو اوروبا الغربية والولايات المتحدة، تصريحات فيها تعاطف صارخ مع موقف العراق.

وفي ٢٢ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٠ أعلن الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد بعد لقاء له مع الرئيس الفرنسي ميتران في باريس أن «صدور أشارة محددة حول القضية الفلسطينية» من طرف الولايات المتحدة والغرب ستكون «خطوة حاسمة» نحو حل أزمة الكويت. كما أعلن بعد الاجتماع بصدام حسين في بغداد أن العراق سيدفع ثمنا معينا» (لم يتم تحديده) من اجل التوصل الى حل (١٢). وفي واشنطن رفض الرئيس بوش ـ الذي كانت خططه الحربية قد قطعت شوطا طويلا مع نهاية ديسمبر/ كانون الأول ـ طلبا مستعجلا من الشاذلي بن جديد لزيارته في واشنطن، ويبدو أنه أقنع الملك فهد ـ وهو صديق خاص للشاذلي ـ بعدم مقابلته أيضا (١٣). وقد حاول بوش فيما بعد التعويض عن ذلك التصرف باشارات دافئة للشاذلي بن جديد في كلمته الرسمية السنوية للشعب الامريكي لعام ١٩٩١.

أما الملك الحسن الثاني ملك المغرب وهو الحليف التقليدي الاول لامريكا في المنطقة، فقد كان موقفه أكثر تعقيدا. فقد كان المغرب «محايدا» في النزاع العراقي الكويتي الا ان الملك اعترف بحق العراق في المطالبة بالعدالة الاقتصادية. كما اعترف الملك لصدام حسين بالفضل في «تنبيه الضمير العالمي للأزمة العربية الاسرائيلية ودعا صدام «بالخروج من بوابة الشرف العظيمة».

وفي فبراير/ شباط ١٩٩١ أكد الملك الحسن لي ولزميلي بيار سالينجر في مقابلة لنا معه في الرباط عدم موافقته على استعمال القوة ضد العراق. كما قامت الاسرة المالكة في المغرب بشحن كميات كبيرة من الطعام والدواء للتخفيف من معاناة الشعب العراقي عقب ظهور مسيرات ضخمة مؤيدة للعراق في الرباط في أوائل فبراير/ شباط.

ووقفت المغرب على خلاف مع فرنسا التي تسببت في اثارة الكثير من المشاعر المعادية للغرب على الصعيدين الرسمي والشعبي بسبب تعاونها مع الولايات المتحدة في عمليتي درع وعاصفة الصحراء، وبالسماح لنشر كتاب ضد الملك الحسن في باريس، وبسبب المطالب المتزايدة للاصلاح في المغرب نفسها. الا انه لرغبته في الاستفادة من

عضوية التحالف قرر الملك في عام ١٩٩١ الابقاء على قواته في السعودية والمتكونة من الف وثلاثمائة جندي (يقومون على حماية معمل تكرير النفط في الصفانية على ساحل الخليج) وقواته الموجودة في دولة الامارات العربية المتحدة وقوامها خمسة الاف جندي. أما في داخل المغرب فقد استمر الملك في الوقت نفسه راكبا موجة الشعور المعادي لامريكا واسرائيل التي تولدت عن قيام الحرب.

دفع ذلك كله بالمسؤولين الامريكان في المغرب الى الشك في مستقبل الاتفاقيات التي أبرمتها ادارة الرئيس كارتر مع الملك الحسن في عام ١٩٨٠، والتي تمكن أمريكا مستقبلا من استخدام القواعد العسكرية الضخمة التي اقامتها أمريكا (والتي يرفرف فوقها العلم المغربي في الوقت الحاضر) في سيدي سليمان والقنيطرة وبن غرير. وفي بداية عام ١٩٩١ أفادت تقارير السكان في سيدي سليمان بوصول طائرات ضخمة ناقلة للنفط الى هناك، كانت تقوم بتخزين الوقود لاغراض غير معروفة. وفي بن غرير استمرت ادارة الطيران والفضاء الوطنية الامريكية nasa في استعمال القاعدة كمحطة رصد فضائية ومطارا احتياطيا لهبوط المكوكات الفضائية في حالات الضرورة (١٤).

الدول الأوروبية وعملية عاصفة الصحراء

لقد وفت بريطانيا بوعدها كاملا في مساندة عمليتي درع وعاصفة الصحراء. بدأ انتشار القوات البريطانية في الخليج بمجرد وصول الوحدات المتقدمة للفرقة الجوية الثانية الامريكية الى قاعدة الظهران في ٧ـ ٨ أغسطس/آب. ارسلت حكومة تاتشر الى القواعد التي تستخدمها القوات الجوية الملكية في كل من عمان والبحرين والمملكة العربية السعودية طائرات مقاتلة وطائرات حراسة وعدد من الطائرات العمودية كان معظمها ليشارك في عملية عاصفة الصحراء. اما بالنسبة للقوات البرية البريطانية التي ارسلت الى الخليج فقد وصلت في البداية الى ١٦ ألف جنديا. كما ارسلت بريطانيا المدمرات والفرقاطات والقطع البحرية الاضافية وكاسحات الالغام لتساعد القوات البحرية الامريكية في كشف الالغام التي زرعت بالقرب من الساحل الكويتي.

لم يغير مجيء جون مايجر للحكومة من مجهود بريطانيا في العملية، وكان آخر ما قامت به مارغريت تاتشر قبل استقالتها من الحكومة ارسال ١٤ ألف جندي آخر لعملية درع الصحراء مما ضاعف من حجم القوة البريطانية تقريبا. وصلت تكاليف

التحرك البريطاني في الخليج الى ما يقرب من عشرة ملايين جنيه استرليني (أي حوالي ١٩،٨ مليون دولار) في الأسبوع، وهو مبلغ غير بسيط بالنسبة لخزينة الشعب البريطاني الذي ينحدر اقتصاده بسرعة نحو ركود اقتصادي (١٥).

فيما عدا المجهود البريطاني انهمكت بقية الدول الاوروبية في الثرثرة. كان موقف منظمة حلف شمال الاطلسي يبدو حازما في البداية حيث أنها كانت تواجه مايسميه محللوها لشؤون الدفاع مشكلة «خارج نطاق المنظمة». وفي اجتماع طارىء يوم ١٠ أغسطس/آب وافق وزراء خارجية دول المنظمة الست عشرة على انتشار القوات العسكرية الامريكية ونادوا باحكام العقوبات الاقتصادية التي وافقت عليها الامم المتحدة ضد العراق. كما وافق يوم ٢١ أغسطس اتحاد غرب اوروبا الذي يضم أيضا دولاً غير أعضاء هي الدنمارك واليونان وتركيا كمراقبين على تنسيق الوجود العسكري في الخليج، وألح هو الآخر على مجلس الأمن في الأمم المتحدة أن يعزز تنفيذ الحصار المفروض على العراق. بناء على قرارات من ذلك المجلس ارسلت في اليوم التالي كل من بلجيكا واسبانيا واليونان وايطاليا وهولندا وحدات بحرية الى الخليج. وفي الوقت نفسه أمر الرئيس ميتران القوات الفرنسية بتحرك مستقل تم التنسيق بينه وبين القيادة الامريكية السعودية المشتركة.

في ١٢ سبتمبر / أيلول قرر البرلمان الاوروبي إلزام العراق باستعادة استقلال الكويت والافراج عن جميع الرهائن الاجانب، وأيدت الحصار المفروض من قبل الامم المتحدة، واشادت بتدخل الولايات المتحدة العسكري السريع في الخليج. وفي ٢٤ سبتمبر/ أيلول عبر الرئيس ميتران أمام الجمعية العمومية في الامم المتحدة عن تصميم فرنسا على موقفها وقال أنه «اذا أكد صدام حسين استعداده لسحب قواته واطلاق سراح الرهائن فان كل الاحتمالات تكون ممكنة بعد ذلك» واوحى في كلامه أن فرنسا أقل تحمسا من الولايات المتحدة وبريطانيا لاستعادة أسرة الصباح غير المحبوبة الى الحكم في الكويت. ومما ابتهجت له الدول العربية قول ميتران أن أسلوب المفاوضات ينبغي أن يتبع في جميع المنازعات القائمة في الشرق الاوسط بما في ذلك النزاع العربي الاسرائيلي.. وهذا هو الربط الذي كانت تخشاه اسرائيل وترفضه الولايات المتحدة (١٦).

وقد كانت فرنسا في شهر يناير/ كانون الثاني ١٩٩١ خلال الساعات الاخيرة الحرجة التي سبقت الحرب، من أنشط العناصر التي شاركت في باليه الدبلوماسية الدولية التي كانت تهدف الى اقناع صدام حسين بالانسحاب سلمياً من الكويت قبل موعد ١٥ يناير/ كانون الثاني النهائي، الذي حددته الامم المتحدة. فقابل عضو البرلمان الفرنسي ميشيل فوزيل كلا من صدام حسين وطارق عزيز في بغداد يوم ٢ يناير/ كانون الثاني، ثم ذهب الى تونس لمقابلة ياسر عرفات، لكن دون جدوى. كما أصدر وزراء خارجية مجموعة السوق الاوروبية في اجتماعهم يوم ٤ يناير/ كانون الثاني بعد وصول خبر الاجتماع المزمع عقده بين عزيز وبيكر في جنيف يوم ٤ يناير/ كانون الثاني، بيانا عاما يتعهدون فيه بالعمل المشترك، وقدموا الدعوة لطارق عزيز لزيارة لوكسمبورغ، الا ان العراق رفض ذلك كما رفض عرضاً سابقا في ٩ يناير/ كانون الثاني لمحادثات في الجزائر.

كانت النتيجة خيبة أمل بالنسبة لدول اوروبا حيث لم يذهب بيكر الى بغداد ولم يذهب طارق عزيز الى واشنطن، وان كان تم اجتماع بينهما لمدة ست ساعات في جنيف وصلا فيه الى طريق مسدود. أفاد أحد مستشاري ياسر عرفات في جنيف أن العراق لم يكن قابلا بمحادثات في بغداد قبل ١٧ يناير/ كانون الثاني أي بعد يومين من التاريخ الذي حدده لانسحابه من العراق، والذي اعتبره نوعا من الانذار النهائي. تشاور كل من بيكر وميتران في ذلك مع الرئيس بوش بالهاتف اثناء ذلك الاجتماع ولكن بوش رفض.

اجتمع وزراء خارجية المجموعة الاوربية في بروكسل يوم ١٤ يناير/ كانون الثاني بعد رحلة فاشلة قام بها الى بغداد الأمين العام للأمم المتحدة بيريز دكويلار وصرحوا بأنهم لن يستمروا في المحاولة لعرض مبادرة اوروبية للسلام. الا ان فرنسا تقدمت في اللحظات الاخيرة ـ وبدون سابق اعلام المجموعة الاوروبية أو بريطانيا ـ بمقترحات سليمة لمجلس الأمن الدولي كانت تنادي بسلسلة من التحركات. الأولها انسحاب العراق من الكويت وآخرها عقد مؤتمر خاص بالشرق الاوسط «في موعد مناسب»، وهو التعبير الذي استخدم من قبل في بعض تصريحات ادارة الرئيس بوش حول احتمال عقد مؤتمر دولي. تخلت فرنسا عن مقترحاتها نتيجة معارضة أمريكية وبريطانية شديدة، واخفى رئيس الوزراء الفرنسي ميشيل روكار حقيقة أن الفكرة «لم تلق أدنى تجاوب من الجانب العراقي»(١٧).

بدأت فرنسا في تنفيذ التزامها العسكري بارسال حاملة الطائرات كليمنصو وما يرافقها من السفن الى الخليج. وفي ١٣ أغسطس/آب بينما كان الرئيس ميتران يبلور استراتيجيته الثنائية القائمة على الانتشار العسكري والمفاوضات، تحركت طرادة فرنسية وما يزيد عن ثلاثة الاف جندي مجهزين بوسائل النقل والطائرات العمودية المهاجمة. كما أعلنت فرنسا في ٢١ أغسطس/آب عن خطتها لإرسال قوات برية وذلك بعد مضايقة العراقيين لعدد من السفارات في الكويت من ضمنها السفارة الفرنسية. وفي بداية عملية عاصفة الصحراء يوم ١٧ يناير/كانون الثاني أعلن رئيس الوزراء روكار أن القوات الفرنسية ستوضع تحت إمرة القيادة العسكرية الامريكية «لمدة ومهمات محددة بدقة»، إلاأن وزير الدفاع الفرنسي جان بيير شيفنمون قدم استقالته من الحكومة بعد أن أعلن ان القوات الفرنسية لن تحارب الا داخل الكويت، وليس في العراق. في النهاية شاركت قوات الفيلق الخارجي الفرنسية مع الفرقة (١٠١) الجوية الامريكية في عملياتها الساحقة من الاراضي السعودية الى غربي العراق. شاركت القوات الجوية الفرنسية بطائراتها غابريل سي-١٦٠-جي التي كانت موجودة في قاعدة الحسا الجوية جنوبي الظهران، وكانت مهمتها التجسس الالكتروني والتشويش لصالح قوات التحالف الجوية التي كان من ضمنها عدد من الطائرات الفرنسية المقاتلة الموجودة في قطر.

كان عدد القوات الفرنسية التي انتشرت أغلبيتها في شمال السعودية بدايةً، حوالي ١٣٥٠٠ جنديا (في الوقت الذي وصل فيه حجم القوات الامريكية نصف مليون والبريطانية خمسة وثلاثين ألفا)[١٨].

برغم ذلك القدر من الالتزامات الاوروبية ظلت منذ منتصف أغسطس/آب ١٩٩٠ الشكاوي المتكررة تصدر في الولايات المتحدة حول غياب الدعم الخارجي للموقف الامريكي. وعندما زار الملك حسين عاهل الاردن الرئيس بوش بولاية ماين في ١٦ أغسطس/آب قوبل بوابل من النقد في الاعلام الامريكي لأنه طلب المساعدة الامريكية دون أن ينضم للتحالف الغربي.

وفي ٥ ديسمبر/كانون الأول حذر وزير الخارجية الامريكية جايمز بيكر في جلسة للجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ أن الصعوبات الاقتصادية الناتجة

عن المقاطعة التجارية والعقوبات الاقتصادية التي فرضتها الامم المتحدة ستعود بأضرار على دول معينة أكثر من غيرها، وذكر بالتحديد بولندا ومصر وتركيا مما أثار عضو مجلس الشيوخ بوول ساربانيس (ولاية ميريلاند) الذي صرخ في وجه بيكر يقول: «تدر هذه الازمة دخلا على السعودية قدره خمسين مليار دولار في السنة فلما لا تخصص السعودية جزء منها لدول اوروبا الشرقية للتخفيف عليها اقتصاديا» . كان رد بيكر ان التقديرات السعودية لدخل النفط أقل بكثير من خمسين مليار دولار، وعلى أية حال فان السعودية تقوم بإعالة ثمانين ألف جنديا من قواتها بالاضافة الى التزام غير محدد لتوفير المياه والوقود والتسهيلات الاساسية والنقل المحلي للولايات المتحدة.

وفي الكونغرس الامريكي كان المتحدثون باسم شؤون الدفاع يؤكدون على تباطؤ حلفاء ألمانيا واليابان في الايفاء بعهودهم بتقديم الدعم المالي (في عام ١٩٩٠ وحده بلغت مساهمة اليابان ٢ مليار دولار ومساهمة المانيا ١،٥ مليار دولار). وفي نوفمبر/ تشرين الثاني قيّم رئيس لجنة القوات المسلحة التابعة للبرلمان الامريكي السيد ليز آسبن (ولاية ويسكاونسن) أداء الحلفاء في دعمهم العسكري والمالي وغيرهما لعملية درع الصحراء، واشار الى ما أسماه بطاقة المشاركة في تحمل العبء، حيث منح كلا من مصر وتركيا أعلى علامة. فقد سمحت تركيا أثناء عملية عاصفة الصحراء للطائرات أف-١١١ الامريكية بشن غارات جوية داخل العراق من قاعدتها الجوية في انجيرليك، كما أقفلت أنبوب النفط العراقي المار عبر أراضيها. ومنح آسبن علامةمن الدرجة الثالثة لكل من اليابان والمانيا ، وتجاوبت ألمانيا فيما بعد بارسال سرب من طائراتها المقاتلة للدفاع عن تركيا في حال قيام صدام حسين بضرب قاعدة انجيرليك أو أي مواقع تركية أخرى. برر مستشار المانيا هيلموت كول ذلك القرار للشعب الالماني بأن تركيا كألمانيا عضو في منظمة حلف شمال الاطلسي وأن هذا العمل جزء من التزام المانيا الدفاعي للمنظمة.

ولعل ما قاله زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ الامريكي جورج ميشيل (ولاية ماين) يعبر باختصار عن مشاعر الكثير من ابناء الشعب الامريكي عندما قال أن مواجهة العدوان ليس واجبا على الولايات المتحدة وحدها، وأن على الآخرين أن يساهموا في أي معركة قادمة بدلا من تقديم مجرد الدعم الاسمي[١٩].

لقد سهلت الكميات الضخمة من المعدات التي كانت موجودة مسبقا في جزيرة دياغو غارثيا وغيرها من المواقع القريبة، اضافة الى امكانيات السعودية الممتازة من طرق وموانيء ومطارات عسكرية، عملية انتشار القوات الامريكية الهائلة. كما كان للبحرية الامريكية حضور أكبر اثناء مرافقتها لناقلات النفط الكويتية التي كانت ترفع العلم الامريكي خلال ١٩٨٧ـ ١٩٨٨.

لقد فرضت ظروف الصحراء المترامية الشاسعة ـ ذلك العدو اللدود لكل القوات العسكرية البرية في الشرق الاوسط منذ أيام الاغريق والرومان ـ وحرارة الصيف على قوات التحالف أن توفر الظل الصناعي أثناء النهار، وتنفيذ الكثير من عمليات الحراسة أثناء الليل. وكان الجنود يرتدون الاقنعة والملابس الواقية، ولكن لأسباب عدة لم ينفذ صدام حسين تهديداته باستخدام الاسلحة الكيماوية.

وبالرغم من عدم تحقق الحرب الكيماوية التي كانت متوقعة، الا ان مسؤولاً أمريكيا رفيعا واحد على الاقل كان دقيقا في نبوآته حول الحرب الجوية التي شنتها قوات التحالف في يناير/ كانون الثاني ١٩٩١، وهو قائد القوات الجوية الامريكية الجنرال ركن مايكل دوغان. ففي مقابلة صحفية في سبتمبر/ أيلول ١٩٩٠، بَيَّن دوغان تفاصيل عمليات القصف الضخمة السريعة وهجومات صواريخ الطرادات والسفن الحربية الامريكية التي ستشل البنية الاساسية للمؤسسة العسكرية والمدنية العراقية. كما تحدث دوغان عن الاساليب التي سوف تتبع لزحزحة القوات العراقية من الكويت، وهي القصف الكاسح بالقنابل وتدمير الدبابات العراقية باستخدام طائرات أ ـ ١٠ الهجومية (وارتهوغ) والطائرات العمودية. كما اقترح دوغان بالتحديد استهداف صدام حسين شخصيا وقتله. قام وزير الدفاع الامريكي ريتشارد تشيني مباشرة بعد ذلك بعزل دوغان من منصبه بحجة أن اغتيال القادة السياسيين الاجانب مخالف لامر تنفيذي رسمي في قانون الولايات المتحدة، ذلك الأمر الذي كان الهدف من ورائه منع وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية من التورط في مؤامرات اغتيال خلال السبعينات(٢٠).

بيريز ديكويلار والطريق المسدود

اتجه السيد بيريز ديكويلار الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة الى بغداد في مهمة

شخصية بعد فشل محادثات بيكر وعزيز في جنيف في ٩ يناير/ كانون الثاني كما أشير سابقا ، وفي نفس الفترة تقريبا التي كانت فرنسا تبذل آخر مساعيها السلمية. أكد الأمين العام لصدام حسين ـ حسب ما جاء في نسخة من محضر لقائهما سربت للصحافة في الاردن ـ أنه يتحدث بصفته الشخصية وليس باسم الأمم المتحدة ككل ولا باسم الولايات المتحدة، واستجداه أن ينسحب من الكويت. بعدإبداء بعض الملاحظات اللاذعة في حق ديكويلار جلس صدام حسين ينصت إليه.

قال الأمين العام انه يملك «دعم الاتحاد السوفياتي الكامل» كما عبر عنه الرئيس غورباتشوف في ١١ يناير/ كانون الثاني، وانه التقى بكل من الرئيس الفرنسي ووزيرخارجية يوغسلافيا يوم ١١ يناير/ كانون الثاني في باريس ومع عاهل الاردن الملك حسين مساء ذلك اليوم. إلا أن الأمين العام دون ان يكون بحوزته أي تفويض من مجلس الأمن او من التحالف أو من الولايات المتحدة فلن يستطيع ان يضمن للعراق أكثر من انه لن يهاجم اذا ما التزم بقرارات مجلس الأمن. كما ليس بامكانه أكثر من اقتراح خطط عامة حول تقرير الكويت لمصيرها بما قد يزيل نظام حكم آل الصباح (وهو ما تعترض عليه أمريكا وبريطانيا بشدة) وتقديم الوعود بطرح القضية الفلسطينية للنقاش في وقت لاحق. الا ان مسؤول البيت الابيض جون سينونو أصر في ١٣ يناير/ كانون الثاني على أنه لن يكون هناك أي ربط بين قضية الكويت والقضية الفلسطينية، واعترف بوجود «فرص بعد حل أزمة الخليج » لعقد مؤتمر حول القضية الفلسطينية.

رجع ديكويلار لمجلس الأمن الدولي خالي اليدين، ثم تقدم بنداء أخير بعد فشل المحاولة الفرنسية يناشد فيه صدام حسين «بتغيير مجرى الاحداث بعيداً عن الكارثة، ونحو عهد جديد من العدالة والتفاهم. . . »(٢١).

وبدأت الحرب الجوية

كانت هناك تحذيرات كافية للصحفيين وفرق شبكات التلفزيون المتجمعين في فندق الرشيد في بغداد حول ما هو آت من أحداث. ففي ليلة ١٥ من يناير/ كانون الثاني وبعد اعلان فشل مبادرتي بيريز ديكويلار والرئيس ميتران للسلام، أمرت الحكومة الفرنسية الصحفيين بمغادرة العراق وسافر معظمهم بكل أدب الى عمان

صباح اليوم التالي. تلى ذلك مساء نفس اليوم أمر شبكة أ. بي. سي . نيوز ومعظم شبكات التلفزيون الاخرى ـ ما عدا شبكة كايبل للأخبار {cnn} ـ موظفيها بالخروج كذلك، ويقي الصحفيون المستقلون. لقد استلمت واحدة من شبكات التلفزيون الاخرى على الاقل رسالة سرية مشفرة من مراسلها في البنتاغون تفيد أن العمليات ستبدأ تلك الليلة وكان معظم المراسلين والفنيين يعدون للرحيل في اليوم التالي. ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك، فعند الساعة الثانية وأربع دقائق بتوقيت بغداد تقريبا (السابعة وأربع دقائق في واشنطن) استيقظ المصور التلفزيوني التابع لشبكة أ. بي. سي. نيوز فابريس موسّوس الذي سجل صور اغتيال الرئيس السادات في أكتوبر ١٩٨١ ، على فرقعة نيران المدافع المضادة للطائرات المتواصلة التي انطلقت تلاحق قاذفات التحالف المحلقة في الجو. لم تسمع أصوات انذار بالهجوم ولم تكن هناك أي تحذيرات مسبقة. فقد حلقت طائرات التجسس الالكتروني وطائرات التدابير المضادة في مقدمة قاذفات القنابل لتقوم بتعطيل الرادارات العراقية والتشويش على ترددات الاجهزة الدفاعية. تلى ذلك دوي أصوات القنابل وصواريخ كروز التي بدأت تهطل على مدينة لم يتوفر لديها الوقت الكافي أو بعد النظر لاطفاء أنوارها. امتلأت أجواء بغداد بأنوار المنازل المبعثرة تحت سماء ملونة بالأضواء الحمراء والبنفسجية المتوهجة وموسّوس يسجل ذلك كله من خلال عدسته.

علم الشعب الامريكي ببداية عاصفة الصحراء من خلال شاشات التلفزيون قبل أن يصدر الرئيس بوش في البيت الابيض تعليماته لمارلين فيتزووتر بإعلان ذلك رسميا. . وظهر هذا الاخير في غرفة الصحافة بالبيت الابيض ليعلن عند السابعة وست دقائق بتوقيت واشنطن انه قد «بدأ تحرير الكويت».

وفي اليوم التالي شاهد الأولئك الصحفيون الذين كان من حسن حظهم ـ أو في رأي البعض من سوئه ـ أن بقوا في بغداد وجمهور التلفزيون في جميع انحاء العالم تلك المشاهد الخيالية التي لا تصدق. دفعات وأمواج متوالية من طائرات أف ـ١٥ وأ ـ٦ الاقتحامية وأف/ أ ـ ١٨ وأف ـ ١٧ ستيلز المقاتلة التي لم يكن الرادار العراقي ليحس بوجودها، ظلت تدمر بغداد. وفي خارج العاصمة ارسلت القوات الجوية الملكية البريطانية ـ التي كان من مهماتها الترصد للهجومات العراقية التي لم تتحقق ـ طائرات تورنادو لتحطم المهابط في المطارات العسكرية وتدمر الطائرات العراقية على الارض

داخل المخابيء وخارجها مستخدمة قنابل خاصة من نوع ادجي. بي. ـ ٢٣٣ ولتنشر الألغام الموقوتة حول الاهداف لمنع الفصول اليها وترميمها خلال الساعات الاولى الحاسمة.

كانت عدسة موسّوس تسجل الاهداف من شباك غرفة الفندق وكان من الصعب التعرف عليها جميعا. الا انها تضمنت قصر الرئاسة الحصين الخاص بصدام حسين الذي أصيب بصواريخ تومهوك التي كانت تزمجر عبر أجواء بغداد، ووزارة الدفاع ومطار صدام الدولي ومحطةالدورة لتكرير النفط وعشرات من المباني الحكومية والمنشآت العامة. ثم جاء بعد فترة قصيرة دور محطات الطاقة والكهرباء ومخازن المياه والانابيب وغيرها من الاهداف الحيوية الضرورية للحياة العسكرية والمدنية معا. كما استهدفت بالتحديد مصانع الاسلحة الكيماوية والمواقع السرية الخاصة بالاعمال والابحاث النووية المختلفة. وارسلت طائرات ب ـ٥٢ قنابل سمارت الموجهة بأشعة ليزر وصواريخ الهجوم عن بعد، لتدمر مراكز القيادة والتحكم والاتصال والاستخبارات التي كانت تعتبر الاجهزة العصبية المركزية لتحرك القوات العراقية في الكويت.

هجوم صواريخ سكود

الغريب أن عددا قليلا جدا من الطائرات العسكرية العراقية تحرك لمواجهة تلك الصواعق التي كانت ترد من قوات التحالف، ولكن كان للعراق رد آخر مباشر وإن لم يكن هو ما وعد به صدام حسين. نزلت في تل أبيب باسرائيل خلال الساعات الاولى من صباح يوم ١٧ يناير/ كانون الثاني سبع صواريخ سكود وصاروخ واحد آخر بالقرب من مدينة الظهران في السعودية. انطلقت صفارات الانذار وكان راديو اسرائيل يستحث الأسر على لبس الاقنعة المضادة للغاز السام والاتجاه الى المخابيء الخاصة المعدة لذلك، فقد كان يخشى أن صدام حسين سيوفي بوعده باستخدام الاسلحة الكيماوية.

كان العالم كله يشاهد آثار تلك الصواريخ على شاشات التلفزيون حيث قتل اربعة اشخاص وجرح ١٢٠ آخرين خلال الاسبوع الاول من الحرب الجوية. كانت تلك الصواريخ من الدفعات القديمة التي صنعت في الاتحاد السوفياتي، وقد آسر أحد الخبراء العسكريين السوفيات في بغداد لبعض الصحفيين التابعين لشبكةأ. بي. سي.

نيوز أن الصواريخ «من طراز الخمسينات البالي الذي كنا نرمي به أو نبيعه لعملائنا من دول العالم الثالث من الطراز الثاني أو الثالث.

انتاب الادارة الامريكية تخوفاً شديداً أن اسرائيل قد تتدخل بصورة مباشرة في الحرب، خوفا من ان يحقق ذلك هدف صدام حسين بشق التحالف العربي ومنع مصر والسعودية وسوريا من الاستمرار في الحرب في نفس الجانب الذي فيه اسرائيل. كما هرعت ادارة بوش بارسال صواريخ الباتريوت بكامل قواعد اطلاقها وطواقمها الى الدولة اليهودية وكانت تلك المرة الاولى التي يقوم فيها جنود أمريكان بالدفاع مباشرة عن اسرائيل. لم يكن اداء صواريخ الباتريوت البالغ طول الواحد منها حوالي ١٧ قدما آداءً مثاليا، حيث تسببت قطع الصواريخ نفسها التي رجعت الى الارض في بعض الضحايا. كما انها لم تتمكن في بعض الحالات من تدمير صواريخ سكود بالكامل في الجو. وفي الظهران بالسعودية انطلق اثنان من صواريخ باتريوت تلقائيا فدمرا بعض المباني بينما دمر آخر وهو يلاحق صاروخ سكود مبنى لاحدى شركات التأمين في الرياض.

في ١٨ يناير / كانون الثاني توعد وزير الدفاع الاسرائيلي موشي أرينز بقوله: «سوف يكون لنا رد بكل تأكيد»، الا انه عندما بينت كل من مصر وسوريا انها لن تخرج من التحالف إذا ردّت اسرائيل، لم يحقق أرينز ما وعد به. ارسل الرئيس بوش وزير الخارجية بالوكالة لورنس ايغلبيرغر الى اسرائيل فيما تسميه وزارة الخارجية الامريكية بمهمة «الشد على اليدين»، وكان بامكانه أن يؤكد في ٢١ يناير/ كانون الثاني تعهد اسرائيل بالتعاون مع الولايات المتحدة وتبادل المشورة قبل القيام بأي عمل بمفردها.
كما أعلن وزير الخارجية الاسرائيلي دايفد ليفي في ٢٢ يناير/ كانون الثاني أن الولايات المتحدة تقدم لاسرائيل تقارير عن المعارك ومعلومات سوقية ومعلومات استكشاف الاقمار الصناعية فور استلامها عن طريق «جهاز تنسيق مشترك». في الوقت نفسه أخبر وزير المالية الاسرائيلي السيد ايغلبيرغر أن اسرائيل تطلب الحصول على ١٣ مليار دولار اضافة للخمسة مليار دولار التي تتلقاها من الولايات المتحدة في شكل مساعدات عسكرية واقتصادية، وذلك لتغطية الخسائر المترتبة عن حرب الخليج حتى منتصف فبراير/ شباط من أجل استيعاب اليهود المهجرين من الاتحاد السوفياتي.

الا ان توعدات اسرائيل بالرد استمرت ، كما استمرت هجمات الصواريخ العراقية ، وكانت القطع التي تصل الارض منها تفحص بدقة وعناية للتعرف عما اذا كانت الاسلحة الكيماوية قد استخدمت فيها، بينما أخذ الاسرائيليون يعوِّدون أنفسهم على قضاء الساعات الطويلة في الغرف المحكمة ضد الغاز.

لم تكن أسوأ الضربات الصاروخية العراقية لتصيب اسرائيل ولكنها أصابت ثكنة لقوات المشاة البحرية الامريكية بالقرب من قاعدة الظهران الجوية في السعودية مساء ٢٥ فبراير/ شباط. كانت مديرة مكتب أ. بي. سي. نيوز للراديو في لندن لندا آلبن تتابع الاحداث من فندق انترناشنال بالقرب من القاعدة، عندما سمع دوي هز جدران الفندق وأطلق صفارة الانذار فيه. ظنت لندا أن ذلك صوت اطلاق صاروخ باتريوت بينما كان الجميع يرتدون الملابس الواقية ضد الغاز، ولم يكن قلقهم أكثر من المعتاد. بعد فترة أحضر أحد المصورين شريطا به صور المبنى وهو يحترق واذا بأحد جنود قوات المشاة يقول: «انه المبنى الذي نقيم فيه». عندما وصلت لندا ومجموعة من الصحفيين الى ذلك المكان كان أغلبية الموتى والجرحي قد أخرجوا من حطام المبنى الذي أصيب بضربة مباشرة من صاروخ سكود (أومصيبة أخرى لأن ذلك لم يتضح اطلاقا) أحالته ـ على حد تعبير لندا ـ الى «ما يشبه البسكويت المفحمة الملوية».

بعد قليل انتبه اولئك الرجال والنساء من الصحفيين الى حقيقة تلك الحرب المفجعة التي تجسدت امامهم في ضحايا التحالف الذين فاق عددهم ضحايا أي حادث آخر من احداث الحرب، حيث قتل ٢٨ جندي امريكي وجرح ما يزيد عن المائة.

أسرى الحرب والتقدم

كان أسوأ تطورات الحرب بالنسبة للتحالف أثناء تقدم الحرب الجوية عرض التلفزيون العراقي مقابلات مع سبعة من اسرى الحرب الطيارين يوم ٢٠ يناير/ كانون الثاني كانت تبدو على بعضهم آثار جروح. لقد شاهدت ذلك بنفسي في قبرص عندما قدم كل واحد من الاسرى نفسه وارسل تحيات لاسرته وعبروا بشكل أو بآخر عن نقدهم لمجهود التحالف الحربي. ردت اذاعة بغداد على اتهام التحالف بأن ذلك مخالفة صريحة لاتفاقية جنيف وقواعد الحرب ونددت بقصف قوات التحالف للأهداف

المدنية، وأضافت انها لن تعامل جميع الاسرى كأسرى حرب لعدم توفير قوات التحالف لمعلومات دقيقة عن خسائرها الجوية، وأن بعضهم قد يستخدموا كدروع بشرية في المواقع المستهدفة. شجب الرئيس بوش «المعاملة الوحشية» التي يلقاها الاسرى مؤكداً أن استخدامهم كدروع بشرية لن يؤثر على حملات القصف الجوية المستمرة. وفي ٢١ يناير/ كانون الثاني صرح كل من الرئيس بوش ورئيس وزراء بريطانيا جون مايجر أن صدام يعتبر المسؤول عن معاملة الاسرى وسيحاسب على ذلك.

في ٢٣ يناير/ كانون الثاني وقبل شهر من بداية مرحلة الحرب البرية في عاصفة الصحراء، أعلن الجنرال كولن باول أن قوات التحالف قد حققت تفوقا عاما في الاجواء العراقية والكويتية، وان منشآت العدو النووية قد دمرت ولم تعد الطائرات العراقية قادرة على التحرك من أكثر من خمس مطارات عسكرية من مجموع ستة وستين. وأضاف أن فاعلية الرادار العراقي الدفاعية قد انخفضت بمعدل ٩٥٪ وأنه بالرغم من قيام التحالف بعشرة آلاف طلعة جوية فلم تدمر سوى ٤١ طائرة عراقية بينما لجأت أكثر من مائة طائرة أخرى الى ايران، ولا يزال صدام وقادته العسكريون يتحكمون في قواتهم بفاعلية. كما اشار باول الى أن الحرب الجوية ستستمر لفترة أطول قبل ان تبدأ الهجومات البرية. ثم قال باول كلمته المشهورة التي كانت نبؤة صحيحة حول مصير الجيش العراقي في الكويت وهي: «سوف نقوم بعزله الأولا ثم نقضي عليه» (٢٢).

الحرب البيئية

لقد حذر صدام على مدى شهور طويلة وبعبارات واضحة انه في حال قيام هجوم عليه سوف يطلق «اسلحة مرعبة»، الا ان الغرب لم يعر تلك التهديدات أي اهتمام حتى أوقد جنود صدام النار في مئات من الابار والمنشآت النفطية في الكويت. كان اول ما قاموا به هو ضخ النفط الخام من المستودعات الكويتية في مياه الخليج وحرق بعض المستودعات بعد ذلك مباشرة. ادعى العراق أن انسياب النفط الخام في الخليج كان ناتجا عن قصف قوات التحالف لناقلتي نفط عراقيتين يوم ٢٢ يناير/ كانون الثاني.

حملت الرياح وتيارات البحر النفط المشتعل خلال أيام قليلة في اتجاه الجنوب حيث أخذ يدمر الحياة البحرية في الخليج. كان هناك تخوف كبير حول تأثير ذلك في شمال الخليج الخالي من التيارات القوية ومؤثرات المد والجزر لكونه محاطا باليابسة من

جميع الجهات. اتجه رجال الصحافة من الظهران نحو مناطق الشمال الواقعة على الخليج للتعرف على الاحتياطات والاجراءات التي كانت تتخذ لحماية محطات تحلية المياه على شواطيء السعودية والبحرين. مع حلول يوم ٢٧ يناير/ كانون الثاني كان العراقيون قد افرغوا ما بين خمسة وعشرة ملايين برميل من النفط في الخليج، وكانت تلك على الارجح أكبر بقعة نفط عرفت في التاريخ والوحيدة التي نتجت عن نية مبيتة.

قرر العميد بستر غلوسن ومساعدوه في مركز القيادة بالرياض الذين كانوا يقومون بتوجيه الحرب الجوية أن يتخذوا اجراءات صارمة لايقاف البقعة النفطية في الخليج، فأرسلوا يوم ٢٦ يناير/ كانون الثاني طائرات أف ـ ١١١ لتدمير ٦٢ مضخة من مضخات الضغط التي تتحكم في تدفق النفط من الخزانات بميناء الأحمدي في الكويت، مما نتج عنه انخفاض معدل تسرب النفط الخام وانحسار البقعة النفطية في جنوب الخليج تدريجيا. كانت هناك كذلك بقع نفطية صغيرة نتجت عن تدمير العراق لمنشآت نفط سعودية أثناء هجومها على مدينتي الخفجة والمصعب بالقرب من الحدود الكويتية.

بدأت وفود خبراء البقع النفطية ترد الى المنطقة من كل بقاع العالم، وكانت عمليات الغسيل الاولية مقتصرة على تخفيض ما يصل من النفط لمنشآت تحلية المياه. الا ان اهتمام العالم اتجه فيما بعد الى خطر كبير وهو نيران آبار النفط التي بدأت في اواخر يناير/ كانون الثاني ثم تضاعفت في فبراير/ شباط ومارس/ آذار عندما فجر العراقيون الغاما وشحنات كانت موضوعة في الآبار مسبقا، وقد نتج عن تلك النيران الملتهبة سحب كثيفة من الدخان نشرت الظلام في جميع منطقة الخليج وظلت تهدد البيئة ونظام حياة سكان المنطقة الى مدى غير محدد.

على حافة الحرب البرية

كانت بداية الحرب البرية الهجوم الذي قامت به كتيبتان عراقيتان في ٢٩ يناير/ كانون الثاني على مدينة الخفجة السعودية الحدودية التي تم اخلاؤها من السكان قبل بداية الحرب الجوية بأيام. لم يكن لقوات التحالف وجود يذكر هناك، ودخلت الدبابات العراقية بمدافعها موجهة الى الخلف وهو علامة الاستسلام حسب ما جاء في نشرات التحالف التي كانت الطائرات الامريكية تلقيها من الجو. كانت تلك خدعة عراقية حيث فتحت الدبابات نيرانها بعد لحظات على الجنود السعوديين والقطريين

الموجودين هناك ثم جاءت الامدادات في شكل قوات المشاة البحرية الامريكية والطائرات والطائرات العمودية واستمرت المعارك لمدة ست وثلاثين ساعة.

الا انه برغم القصف الجوي لصفوف الجنود العراقية المكشوفة فقد دخلت السعودية وحدتان اخريان عراقيتان... وعندما اتصل أحد مراسلي وكالة الاسوشيتيد برس للانباء بأحد فنادق خفجة رد عليه جندي عراقي أعلن اعتزازه بعراقيته وقال له: «الى اللقاء في القدس» ثم انقطع الخط. كانت الضحايا ١٢ قتيلا من جنود قوات المشاة الامريكية و١٥ سعودي و٣٠ عراقي وتدمير عدد من الدبابات، كما أسر ما يقرب من خمسمائة جندي عراقي وأعلن عن فقدان أو أسر ٣١ أمريكيا بما فيهم امرأة واحدة.

وصف الجنرال شوارتزكوف أضرار هجوم العراق المفاجيء على خفجة بأنها كأضرار «بعوضة في ظهر فيل»، وقال بوش أن العراق فشل في فرض حرب برية قبل ان يكون التحالف مستعدا لها والتي قال انها سوف تبدأ «حسب جدولنا الزمني وليس حسب جدول صدام حسين»(٢٣).

برغم مظاهرات الاحتجاج المستمرة ضد الحرب في الولايات المتحدة فقد وصلت شعبية بوش في استفتاء نشر في ٢٩ يناير/ كانون الثاني الى نسبة ٧٩٪. وناشد بوش في كلمته السنوية للشعب الامريكي الجميع بالوقوف معه مؤكداً أن الثمن في الارواح «سيكون أكثر مما نتصور ولكن ثمن غض الطرف عن العدوان سيكون أكثر مما تتخيل البشرية كلها». ثم اضاف ان الولايات المتحدة وحدها هي التي تملك «الموقف الاخلاقي والوسائل التي تدعم ذلك الموقف» الذي يؤهلها للقيادة، وحدد أهداف الحرب بأنها «طرد العراق من الكويت وعودة حكومة الكويت الشرعية وضمان الأمن والاستقرار في تلك المنطقة الحساسة.. فنحن لا نسعى لتدمير العراق أو حضارته أو شعبه، وانما نسعى لايجاد العراق الذي يستخدم امكانياته لبناء حياة افضل لشعبه وجيرانه» (٢٤).

عبرت الدول الاوروبية مع اقتراب الحرب البرية على درجات متفاوتة من الدعم. فاستمرت جمهورية ارلندة التي ظلت محايدة كعضو في المجموعة الاوروبية وليس في منظمة حلف شمال الاطلسي كما كانت منذ أغسطس/آب ١٩٩٠، تسمح للطائرات

العسكرية الامريكية باستخدام مطار شانن. وارسلت تشيكوسلوفاكيا التي تحررت حديثا من ربقة الكتلة الشيوعية الخبراء العسكريين الى السعودية بما في ذلك وحدة خاصة بازالة التلوث من الاسلحة الكيماوية، وارسلت المجر الاطباء العسكريين وبولندة مستشفيين عائمين.

اما الاتحاد السوفياتي فاستمر في مراقبة التحركات الايرانية ومحاولة دعم الجهود الدبلوماسية العربية المتواصلة لايقاف الحرب، ولكن دون جدوى. واستمرت ايران على حيادها داعية الى انسحاب العراق من الكويت ووضع حد للوجود العسكري الامريكي وقوات التحالف في الخليج.

وفي واشنطن أصدر وزير الخارجية بيكر ووزير الخارجية السوفياتي الكسندر بيزميرتنخ - الذي كان اقل ميولا نحو الولايات المتحدة من سلفه ادوارد شيفرنادزه - بعد ثلاثة أيام من المحادثات بيانا مشتركا يوم ٢٩ يناير/ كانون الثاني أشار فيه الى ان القتال يمكن ان يتوقف اذا ما قدم العراق « التزاما واضحا» بالانسحاب من الكويت، واتخذ «خطوات فورية ومحددة» للالتزام بقرارات مجلس الأمن التي صدرت منذ ٢ أغسطس/ آب».

وبالرغم من تحفظات ميخائيل غورباتشوف فقد كان الاتحاد السوفياتي لا يزال سائراً في ركب التحالف.

حرب المائة ساعة

في ليلة السبت ٢٣ فبراير/ شباط أمر الرئيس بوش بالشروع في الحرب البرية. لقد كان القائد الأعلى لقوات التحالف الجوية الجنرال تشارلز هورنر وعدد كبير من القادة العسكريين والمحللين يرغب في الانتظار والسماح للهجمات الجوية المتواصلة أن تستمر قبل المخاطرة بالقوات البرية. كانت حجة المعارضين أن القصف المدمر لبغداد قد زرع الشك في النفوس حول الكيفية التي تدار بها الحرب، كما أن الفورة الجديدة من الجهود الدبلوماسية بين موسكو وبغداد عن طريق ايران قد تضعف من المجهود الحربي لقوات التحالف بأشكال كثيرة لا يمكن التنبؤ بها . من جهة أخرى فقد انخفضت تقديرات كومبيوتر البنتاغون للخسائر البشرية الامريكية من أربعين ألف الى خمسة آلاف نتيجة القصف المستمر للوحدات العراقية المتمترسة في الكويت ولقوات الحرس الجمهوري

الخاصة في الشمال. كما ساعد الرئيس على اتخاذ القرار حجة العسكريين الخاصة باقتراب موسم الحر وغير ذلك من العوامل.

صدر الامر عند الساعة الثالثة بتوقيت مسرح العمليات (الثامنة مساء في واشنطن) إلمعناصر الاولى من الفرقة الثامنة عشرة بالتحرك من السعودية نحو غرب الكويت ثم التوجه مباشرة الى داخل العراق.

كان الجنرال شوارتزكوف في ذلك الوقت قد شن هجوما وصفه فيما بعد بهجوم «عاشت ماريا» الذي التفت فيه قوات التحالف حول القوات العراقية من اقصى الغرب. كان ذلك يتطلب نقل الفرقتين الثامنة عشرة والسابعة مع كميات ضخمة من العتاد والمعدات مسافة ثلاثمائة ميل عبر الصحراء بمحاذاة طريق الحدود على خط أنبوب نفط بناه الامريكان قديما يبدأ في منطقة الظهران. استخدم في العملية اربعة الاف وخمسمائة شاحنة بدأت في التحرك قبل عشرة أيام من بداية الهجوم والتزمت الصمت الكامل في الاتصالات بالراديو ولم يتمكن العراق على ما يبدو أو أي من حلفائه معرفة ما كان يجري في تلك المنطقة.

ومن عمليات الخداع الكبرى التي نظمها شوارتزكوف والقائد البريطاني الجنرال دولابيلير بالتعاون مع القادة البحريين، هي عملية الانزال البرمائية لاستعادة جزيرة قاروة الكويتية الواقعة على بعد ٣٥ كيلو متراً من الشاطيء الكويتي. كان لتلك العملية ايضا اهمية رمزية كبيرة. كان في الجزيرة وحدة مدفعية عراقية مضادة للطيران وقامت طائرات التحالف بقصفها يوم ٢٤ يناير/ كانون الثاني وبعد سقوط عدد من الضحايا العراقيين استسلم الباقون وكان عددهم ٢٩ جنديا.

بينما كانت وحدات الاسطول الامريكي والاسطول البريطاني تقيم المناورات التي استخدم فيها الجنود والبحارة، تظاهراً بالاستعداد لانزال برمائي ضخم من جهة الخليج، كان الجنرال شوارتزكوف يعد لتحركات خداعية أخرى في البر. فقد أصدر الأوامر للواء المشاة الامريكي الاول بمهاجمة هدف واضح وهو ممر وادي الباطن في غربي الكويت. هذه التحركات الخداعية البرية والبحرية احتجزت عشر فرق عسكرية عراقية وشلت حركتها بالكامل (٢٥).

لاشك ان الفضل الاكبر لاستعدادات قوات التحالف يرجع الى امكانياتها الممتازة لجمع المعلومات والاسرار. شملت تلك الامكانيات مجموعة من الاقمار الصناعية المجهزة بآلات التصوير والتي أطلقت في عام ۱۹۹۰ ومعلومات جمعت عن طريق قوات خاصة مثل القبعات الخضر وفرق البحرية الامريكية العاملة في البحر والجو والبر المعروفة باسم seal وقوات الجو الخاصة البريطانية sas . وصلت بعض معلومات الاقمار الصناعية عن طريق مركبات فضائية أطلقت بعد اسبوع واحد فقط من غزو الكويت[٢٦]. كان من ضمن الاجهزة المستخدمة المناطيد المثبتة في اماكن معينة من الارض استخدمت لانذار الطائرات المدنية خلال الحرب الايرانية العراقية، وقد كان لأحدها الفضل يوم ٢ أغسطس/آب ١٩٩٠ في كشف التحرك العراقي نحو الكويت وتوفير المعلومات التي انذر بها أمير الكويت وأسرته مما مكنهم من الهرب قبل وصول القوات العراقية الى الكويت[٢٧]. وبعد هجمات سكود العراقية ضد السعودية واسرائيل، وجهت محطتان فضائيتان أمريكيتان للانذار عن الصواريخ الى نقطة فوق خط الاستواء لرصد حركة صواريخ سكود وكانت ترسل اشعة انذارية الى أجهزة الدفاع الجوية في كل من اسرائيل والخليج قبل وقت كاف بما يمكن القوات على الارض من تشغيل صواريخ باتريوت المضادة وانذار الناس لاستعمال الاقنعة والملابس الواقية[٢٨].

ولكن لا يمكن لأرقى انواع التقنية أن تعمل دون تدخل الذكاء البشري. ولقد اعترف الجنرال ليونارد بيروتس مدير وكالة الاستخبارات الدفاعية حتى عام ۱۹۸۹ أن أغلبية عيون وآذان امريكا الصناعية الفضائية في عام ۱۹۹۰ كانت موجهة نحو الاتحاد السوفياتي وليس نحو الخليج. فبينما استطاعت بعض اقمار التجسس الصناعية ان تساعد القاذفات في مهامها الا ان المعلومات التي يوفرها مصدر بشري - أي انسان يمشي على الارض - قام بالتجسس على الهدف بصورة مباشرة تلعب دورا اساسيا. فقد دمر أحد المباني الاستراتيجية في بغداد - على سبيل المثال - لان رسومات انشائه الاصلية كانت موجودة عند بريطانيا[٢٩]. كما تسربت عناصر القوات الجوية الخاصة البريطانية الى داخل العراق ووصلت على مقربة نصف ميل من بعض الاهداف وساهمت في توجيه قنابل سمارت باستخدام أجهزة ليزر يدوية لا يرها الا الطيار المهاجم.

وكانت صواريخ توم ـ هوك الموجهة تسير بناء على خرائط الكترونية تحدد مسارها ونقط أهدافها بد قة مع اعتراف الجنرال بيروتس أن تلك الخرائط قد يكون لها مفعول عكسي تماما. فقد اتضح ان احد المصانع الذي قصف قصفا شديدا من قبل الامريكان على اساس انه مصنع للاسلحة البيولوجية هو في الحقيقة مصنع لحليب الاطفال كما ادعى العراق. كذلك الحال بالنسبة لمخبأ العامرية في بغداد الذي يقول الجنرال بيروتس انه لم يكن مركزا للقيادة والتحكم برغم اصرار امريكا على ذلك في تقارير مسؤوليها(٣٠). وقد زار المكان عدد كبير من الصحفيين والمصورين ولم يعثروا على أي ادلة تشير الى أنه كان مركزا للقيادة والتحكم.

كما دخل ـ على حد تقرير هيئة الاذاعة البريطانية ـ العقيد وليام كاون التابع لوحدة نشاط الدعم الاستخباراتي، سراً الى داخل الكويت بعد الغزو «مع مجموعة من اصدقائه العسكريين القدامى لانقاذ بعض رجال الأعمال الذين احتجزوا كرهائن هناك». تمكن ذلك الفريق عن طريق استخدام أجهزة ارسال لا سلكية يدوية من توصيل معلومات الى اقمار صناعية في الفضاء قامت بدورها بارسالها الى مركز قيادة الجنرال شوارتزكوف في السعودية(٣١). كما تمكن فريق من القوات الخاصة البريطانية العامل داخل العراق لتقصي مواقع صواريخ سكود وتدميرها أو اخبار القوات الجوية عنها كي تدمرها، خلال الايام الاولى من الحرب من الاستيلاء على جهاز مدفعية مضاد للطائرات بكامله واخراجه باستخدام الطائرات العمودية الى السعودية.

ولعل اشهر «لعبة خداع» قامت بها القوات الامريكية هي ارسال اربع طائرات عمودية تحمل فرقا لقوات خاصة كانت تعمل على مسافات طويلة داخل العراق وراء الخطوط الامامية العراقية. كانت تلك الطائرات قد طليت بألوان الطائرات العراقية وبلغ بعض الصحفيين بأنها طائرات عراقية تحمل جنودا وضباطا عراقيين فارين الى السعودية وقد انطلت تلك الخدعة على بعض المؤسسات الاعلامية الغربية المحترمة لفترة تضمن عدم السماح للعراق باتخاذ اجراءات مضادة(٣٢).

الهجوم البري

في اليوم الذي كان محدداً لبداية الحرب البرية وهو ٢١ فبراير/ شباط تمكن طارق عزيز من الوصول الى موسكو من طريق ملتوٍ متفاديا أجهزة المراقبة الجوية للتشاور مع

غورياتشوف بخصوص انسحاب عراقي من الكويت على الاقل. قرر الرئيس بوش اعطاء صدام حسين انذارا نهائيا للبدء في الانسحاب وهو منتصف نهار ٢٣ فبراير/ شباط بتوقيت واشنطن. الا انه عندما حل الموعد ولم يتم الانسحاب تحركت قوات التحالف.

احتلت الفرقة الجوية (١٠١) منطقة جنوب غربي العراق مناسبة لهبوط الطائرات العمودية والطائرات الصغيرة. كما تحركت الى الغرب من ذلك فرقة المدرعات الخفيفة السادسة الفرنسية وأحد ألوية الفرقة (٨٢) الامريكية للاستيلاء على اول مدينة عراقية تحتل وهي السلمان. من هناك بدأت القوات العراقية في الاستسلام بالجملة وذلك حرصا على انهاء تلك المعاناة والآلام التي خلفتها الحملة الجوية، وزادها النقص في المؤن الحيوية. حاولت الفرقة الثالثة العراقية في الكويت أن تقاوم بعض الشيء ولكنها أبيدت على يد قوات المشاة البحرية الامريكية. حاول لواء «توكّلنا» التابع لقوات الحرس الجمهوري التحرك نحو جنوب الكويت ولكن جميع وحدات الحرس الجمهوري في الكويت كانت محاصرة بسبب تدمير الجسور والطرقات المؤدية الى البصرة. تقدمت قوات التحالف عن طريق وثبات جوية وبرية الى غربي العراق كجزء من «عاشت ماريا» التي رسمها شوارتزكوف.

تمكنت وحدتان سعوديتان في الليلة الاولى للهجوم من اختراق الدفاعات العراقية والتوجه بمحاذاة الشاطيء الكويتي في اتجاه مدينة الكويت وتحركت بعدها قوات مصرية وسورية. تمكن اللواء الأول والثاني لقوات المشاة الامريكية من التغلب على دفاع الحدود والتقدم في صحراء الكويت وذلك في الوقت الذي كانت فيه الفرقة (١٠١) الجوية قدأنشأت قاعدة إمداد في عمق الاراضي العراقية. تحرك كل من اللواء الآلي الرابع والعشرين واللواء (١٠١) وكثير من الجنود يرتدي الاقنعة المضادة للغاز السام داخل الاراضي العراقية في اتجاه وادي دجلة والفرات. لقد عرقل سير تلك القوات ريح جنوبية عمت المنطقة ذلك اليوم والأعداد الهائلة من أسرى الحرب العراقيين الذين غصت بهم الطرقات المؤدية الى الكويت.

في يوم الثلاثاء ٢٦ فبراير/ شباط كان وزير الدفاع تشيني والجنرال باول على استعداد لاخبار الرئيس بوش أن النصر سيتم خلال أربع وعشرين ساعة. حط لواء

المشاة الآلي رحاله يوم ٢٤ فبراير/ شباط جنوب نهر الفرات متحكما في مسالك الهروب من الكويت والطريق الرئيسي المؤدي الى بغداد. وهناك بدأت محرقة الجيش العراقي المنسحب من الكويت كما أعلن راديو بغداد.

استمرت طائرات ب ـ٥٢ في القصف الكاسح في الكويت وجنوب العراق ملقية قنابلها على صفوف القوات العراقية الهاربة نحو العراق شمال مدينة الكويت خاصة في منطقة المطلع. قصفت طائرات أ.أتس ـ٦٤ العمودية بقايا لواء حمورابي العراقي باستخدام القنابل الحارقة بفاعلية كبيرة. كما زاد من صعوبة التحرك الامطار الغزيرة التي كانت تهطل وما أحدثته من طمي في الطرقات مما تسبب في تخفيف المذبحة لعدم صلاحية الجو للطيران... وحطم كل من اللواء الاول والثالث واللواء الآلي الاول كلا من لواء توكلنا ولواء المدينة التابعين للحرس الجمهوري العراقي.

اجتمع الرئيس بوش اجتماعاً أخيراً مع مستشاريه يوم ٢٧ فبراير/ شباط حيث أخبره الجنرال باول ـ حسب تقرير مجلة نيوزويك ـ أنه «مع مساء هذا اليوم لن يكون في الحقيقة هناك عدو نحاربه وإذا استمرينا ليوم واحد آخر فسوف نقاتل فلولاً ليس إلا»، وأشار المجتمعون على الرئيس بوش باعلان وقف اطلاق النار عند منتصف الليل ٢٧ فبراير/ شباط (٢٣).

في مقابلة مع التلفزيون البريطاني فيما بعد، ذكر الجنرال شوارتزكوف أن قوات التحالف في رأيه ينبغي أن تستمر في ملاحقة الجيش العراقي المهزوم كما سحق هانيبال ـ أحد الابطال الذين يكن لهم شوراتزكوف الاعجاب ـ جيوش الرومان في معركة كاناي عام ٢١٦ قبل الميلاد حيث حاصر الجيش الروماني داخل دائرة وقطعهم إرباً وأشلاء. قال شوارتزكوف: «لقد كان رأيي بصراحة الاستمرار في الزحف وكان بامكاننا قفل الابواب واحالة المعركة الى معركة ابادة كاملة إلا أن الرئيس قرر التوقف في لحظة معينة وفي مكان معين مما ترك بعض أبواب الهرب مفتوحة للجنود أن يعودوا الى العراق، وأعتقد أن ذلك القرار كان قراراً انسانياً من السيد الرئيس وقرارا شجاعا في نفس الوقت» (٢٤). لم يوافق على ذلك الرأي فيما بعد الكثير من المتمردين الشيعة في جنوب العراق والاكراد الذين سيطروا على مواقع كثيرة في الشمال، اضافة الى غيرهم ممن قاوموا فلول الحرس الجمهوري الذي كان يحمي حسين في بغداد وواجهوا نيرانه.

مهما كان رأيه في ذلك الوقت فقد امتثل شوارتزكوف لأوامر الرئيس عندما تحدث إليه الجنرال باول بالتلفون المباشر من البيت الابيض، وسكتت نيران مدافع قوات التحالف عند منتصف ليلة السابع والعشرين من فبراير/ شباط وتوقفت اساطيله عن القصف واقتصر الطيران على الطلعات الاستكشافية. بعد ايام اجتمع الضباط العراقيون مع شوارتزكوف والجنرال ديلابيلير وضباطهم للاتفاق على وقف إطلاق النار المؤقت بعد أن صارت الكويت حرة محطمة تشتعل فيها النيران وتغطي سماءها سحب الدخان الكثيفة التي تتصاعد من آبار النفط. كانت قوات التحالف آنذاك محتلة ما يقرب من ٣٠٪ من أراضي جنوب العراق.

استغرقت الحرب البرية مائة ساعة من الزمن تماما. وتفيد التقديرات المبدئية أن عاصفة الصحراء قد كلفت ما لا يقل عن ١٥٠ قتيلا ومئات من الجرحى، كما قتل آلاف العراقيين أكثرهم من الجنود ومئات المدنيين. وهكذا انتهت أعنف مرحلة من مراحل حرب أمريكا الطويلة في الشرق الأوسط ـ واهمها من الناحية التاريخية ـ التي ظل يستعر أوارها بشكل او بآخر منذ سقوط شاه إيران عام ١٩٧٩. ولكن لا أحد يعلم من الذي سيكسب السلام وكيف ومتى سيكسبه.

الفصل السابع عشر

كيف تنتهي حرب أمريكا الضروس في الشرق الأوسط

عقد كامل من تسوية الحسابات

يقول مثل لبناني: لو لم يتسرع البشر في أحكامهم لدخل الناس كلهم الجنة. ولقد تسرع الكثير من المسؤولين الأمريكيين وأخطأوا في أحكامهم في ما يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط على مدى تاريخ تعامل الولايات المتحدة الطويل مع شعوب المنطقة، وخاصة خلال العقد الأخير الذي هو محور هذا الكتاب. أدى ذلك التسرع الى عدد كبير من المشاكل السياسية ابتداء من سقوط الشاه في إيران الى أكبر حرب مكلفة ـ ليس فقط من الناحية المالية ولكن في الخسائر والمعاناة البشرية كذلك ـ منذ حرب فيتنام.

وكثيراً ما يبدو لصحفي مثلي عبر رحلة امتدت لمدى الحقبة المذهلة الماضية كلها من حياة الشرق الأوسط، أن كل محاولة صادقة من أمريكا لتحقيق السلام والحرية والسعادة ـ تلك المكونات الأساسية للحلم الأمريكي ـ في المنطقة قد قدر لها أن تصطدم مع أشباح الماضي من حروب الفرس ضد العرب وكفاح الشعوب ضد الاستعمار وكفاحها بعده، والوعود المتضاربة التي تقطع من قبل رجال السياسة في الغرب للعرب ولليهود وللايرانيين وللأكراد ولغيرهم من الأقليات. تظل تلك الأشباح مطلة في الأفق سواء بسواء مع الكثير من الانجازات الطيبة من مدارس وكليات وجامعات قائمة على النموذج الأمريكي والتي حملت الى المنطقة الشيء الكثير من التنوُّر.

ولقد حاول الكثير من المسؤولين في أمريكا ممن ساندوا سلطة الشاه في إيران ابتداء ثم عارضوها فيما بعد، أن يضعوا سياسات جديدة أفضل ولكن سرعان ما اصطدمت تلك السياسات بالمنازعات القديمة التي لم يكن أولئك المسؤولين قادرين على فهمها أو التعامل معها. ولا يسعني هنا إلا أن أذكر ما قاله العالم المسلم الشيعي فؤاد عجمي لتوماس فريدمان في صحيفة نيويورك تايمز من أن «الناس اعتقدوا أنهم قد أخذوا المنعطف الصحيح ولكن ماذا وجدوا أمامهم؟ لقد وجدوا الماضي!»(١).

لقد بدأت سلسلة تصفية الحسابات مع أمريكا وتسديد مستحقاتها مقابل الأحكام الخاطئة وسوء الفهم بشاه إيران. فقد كرست جهود جيل كامل من السياسيين والجنود

والأكاديميين ورجال الأعمال وغيرهم من الأمريكيين، لبناء «ملك الملوك» ليكون الدعامة التي تدافع عن المصالح الأمريكية. كما اعتبر رؤساء أمريكا من روزفيلت الى كارتر أن مصالح إيران الشاه مطابقة ـ بشكل طبيعي ـ لمصالح الولايات المتحدة. كما تغاضى أكثر الدبلوماسيين والصحفيين الأمريكيين ـ وأنا أحدهم ـ عن تلك الكراهية الشعبية العارمة تجاه ذلك الرجل في إيران ـ أو لم يعيروها اهتمامهم ـ وعن طغيان جهاز السافاك وعن فساد حاشية الشاه وظلمها. . والتي صاحبت الكثير من الانجازات الخيرة التي حققها لشعبه ولبعض جيرانه. لقد كان الشاه طاغية كريماً، ولقد بعث سقوطه المفاجيء على يد عناصر متطرفة تنتمي الى الجزء الشيعي الايراني من العالم الاسلامي الذي لا نعرف عنه إلا القليل، وعناصر ثورية كنا حتى ذلك الوقت نتجاهلها، بعث ذلك كله الذعر بين الأمريكيين الذين اعتمدوا على قوة الشاه واطمأنوا الى أحكامه وتقديراته، وقدموا له كل ما يريد ـ باستثناء الأسلحة النووية ـ من أجل أن يستمر في حماية المصالح الغربية والمصالح الاسرائيلية.

لقد كانت عملية تسديد الحساب لأمريكا مقابل اعتمادها على هذا الرجل بمفرده عملية مدمرة. فبسقوطه فقدت أمريكا موقعها المنيع في إيران والذي كان حتى ذلك الوقت ومن عدة أوجه أهم قاعدة على الجناح الجنوبي للاتحاد السوفياتي خلال الحرب الباردة ـ كما تحطمت آمال وثقة أولئك الناس داخل إيران وحكام الدول المجاورة لها ـ الذين كانوا يخشون على حياتهم كذلك ـ في الولايات المتحدة.

ومنذ أن سحبت بريطانيا قواتها العسكرية من الخليج عام ١٩٧١، ترك رحيل الشاه كلاً من اسرائيل والمملكة العربية السعودية الحليفتان الأساسيتان لأمريكا في الشرق الأوسط تحملان لواء المحافظة على المصالح الأمريكية في المنطقة، رغم اختلاف أولوياتهما. لقد كان التزام أمريكا نحو اسرائيل الذي سبق تكوين الدولة اليهودية التزاماً عاطفياً وعقائدياً قبل كل شيء. ولكن القدرات المالية الهائلة ـ خاصة التي يملكها اليهود الأمريكان ـ والتعاطف المسيحي نحو اسرائيل، ثم قوة الحكومة الأمريكية الاقتصادية والعسكرية هي التي كانت السند الأساسي لاسرائيل. كان المقابل لذلك عداوة العرب التي زادت ـ وحتى توقيع اتفاق عام ١٩٧٩ السلمي بين اسرائيل ومصر ـ من تعقيد حياة ومهمة الأمريكيين الذين يتعاملون مع المنطقة.

كان من نتيجة تلك المعاداة، أن لجأت الدولة اليهودية الى كسب حلفاء غير عرب على حدود العالم العربي، ووجدت ذلك في إيران المسلمة والفارسية. لقد جرّت علاقة الشاه السرية باسرائيل ورغبة اسرائيل في حماية اليهود الايرانيين، بإدارة الرئيس ريغان إلى صفقات سرية خاصة بأمريكا ساهم فيها تجار السلاح وشخصيات متهورة مغامرة مثل العقيد أوليفر نورث. ففي بداية الصفقات الاسرائيلية لتزويد إيران بالأسلحة كانت إيران تحتجز الرهائن الأمريكيين في طهران ثم بعد ذلك ـ وبرغم نجاح نورث وشركاه في الافراج عن عدد قليل من الرهائن مقابل السلاح ـ فقد استمرت تغض الطرف ـ على الأقل ـ عن احتجاز الأمريكيين وغيرهم في لبنان الذين لا يزال البعض منهم رهن الاعتقال. وفي الوقت نفسه فإن الممتلكات العسكرية والمالية التي حجزت عليها الولايات المتحدة عند سقوط الشاه لا تزال مجمدة في أمريكا.

كان من ضمن الجزاء الذي تلقته أمريكا، من جراء صفقات السلاح بين هذا المثلث النتن المتكون من إيران وإسرائيل والولايات المتحدة، هو تركة الشك وانعدام الثقة التي ورثتها أمريكا في الشرق الأوسط. ففي أعقاب فضيحة إيران ـ غيت مثلاً، كانت قيادات إيران لا تثق في تقارير الاستخبارات الأمريكية عن العراق أثناء حربه ضد إيران. كما كانت العناصر الايرانية «المعتدلة» التي كان يزورها نورث وماكفارلين وغيرهما من مبعوثي الرئيس ريغان في طهران في مايو/ أيار ١٩٨٦ غير مطمئنة ـ ولذلك مبرراته ـ الى نوعية شحنات الأسلحة السرية التي كانت تصل اليهم. كما لم يكن لدى العراق أو إيران الثقة الكاملة فيما يصدر من أمريكا من تصريحات وعروض بعد تلك الفضيحة. . وكانت النتيجة عرقلة الكثير من المعاملات الرسمية وغير الرسمية بين الأمريكيين وبين كل من تلك الدولتين.

استأنفت الولايات المتحدة علاقاتها الدبلوماسية مع العراق عام ١٩٨٤ بعد أن قطعت بسبب الحرب الاسرائيلية العربية عام ١٩٦٧، وأخذت واشنطن تميل نحو العراق تبيعها التقنية الاستراتيجية ثنائية الاستخدام، أو تغمض عينيها عن بيع جهات أخرى لها والتي وصلت في النهاية الى المؤسسة العسكرية العراقية التي دمرتها قوات التحالف خلال عاصفة الصحراء عام ١٩٩١. وجرياً وراء أمل إيقاف العراق للمد الايراني الثوري المتطرف، تجاهلت إدارة كارتر وإدارة بوش انتهاكات حقوق الانسان المتضاعفة التي عانى منها أكراد العراق وغيرهم من المعارضين الذين اعتبروا في واشنطن

ولندن وباريس ـ كما يعتبرهم العراق ـ أدوات في يد آية الله خميني ومن خلفه في إيران .

وعندما قامت اسرائيل بغزو لبنان في عام ١٩٨٢ أملاً في أن تدمر قواعد منظمة التحرير الفلسطينية وتنصيب نظام حكم مسيحي موالي لاسرائيل هناك، تحركت سوريا ـ المعادية لاسرائيل ـ لتسمح لايران بإرسال قوات الحرس الثوري الى لبنان وكان السبب الظاهر لذلك هو للمساعدة في التصدي لاسرائيل. إلا أن الحرس الثوري قام ـ بدلاً من ذلك ـ بمساعدة الشيعة في لبنان ـ تلك الفئة المحرومة من ذلك المجتمع الطائفي الممزق ـ لتنظيم خلايا حزب الله المتطرفة والعمل بذلك الى تحويل ذلك البلد الصغير الذي أنهكته الحرب الى جمهورية إسلامية تدور في فلك إيران .

وبالرغم من أن القليل جداً من الأمريكيين قد انتبه لذلك في حينه، إلا أن حزب الله وأسيادهم الايرانيين قد أصبحوا طليعة في حملة من الارهاب والخطف تهدف الى إزالة مائة وخمسين سنة من النفوذ الثقافي الأمريكي في المنطقة. كان من ضمن أهداف تلك الحملة الجنود وقوات المشاة البحرية الذين اعتقدت إدارة ريغان ـ بكل سذاجة ـ أنه بإمكانهم السيطرة على معارك اللبنانيين الداخلية وحماية سيادة حكومة مارونية مسيحية في نفس الوقت. بدأت عمليات الخطف في يوليو/ تموز ١٩٨٢ عندما كانت القوات تحاصر منطقة بيروت الغربية المسلمة حيث توجد الجامعة الأمريكية في بيروت، وكان أول الرهائن دايفد دودج رئيس الجامعة بالوكالة وحفيد إحدى الأسر الأرستوقراطية العريقة التي كرس ابناؤها حياتهم لخدمة التعليم العالي في الشرق الأوسط. بلغت عمليات الخطف ذروتها في فبراير/ شباط ١٩٨٨ حين اختطف ضابط قوات المشاة البحرية الأمريكية المقدم وليام هيغينز المنتدب لقوات الأمم المتحدة في جنوب لبنان. ومات هيغينز فيما بعد على يد مختطفيه. وكان ذلك كله تسديداً للحساب العسير مع أمريكا مقابل ما وظفته من عقول ومواهب وقدرات في الشرق الأوسط .

ولخدمة نفس الهدف ـ وهو طرد النفوذ الأمريكي من المنطقة ـ جاء الهجوم الانتحاري بالمتفجرات ضد السفارة الأمريكية في بيروت الغربية عام ١٩٨٣ وتفجير مقر قيادة قواة المشاة البحرية في بيروت والهجوم الانتحاري الآخر على مبنى السفارة الأمريكية في بيروت الشرقية عام ١٩٨٤ واختطاف طائرة تي. دبليو. أ. الى بيروت التي قتل فيها أحد جنود البحرية الأمريكيين. وتلاحقت الاعتداءات فيما بعد. فكان هناك

مقتل المسافر اليهودي عام ١٩٨٥ على ظهر باخرة الركاب أكيلي لاورو وتفجير النادي الليلي الخاص بالجنود الأمريكيين في برلين (الشرقية) عام ١٩٨٦ . . وسددت أمريكا حساب أحد الذين كانوا وراء تلكما العمليتين وهو العقيد الليبي معمر القذافي، وذلك في الغارة الجوية الأمريكية على مدينتي طرابلس وبنغازي في منتصف أبريل/ نيسان١٩٨٦ .

ثم جُرَّت الولايات المتحدة الى مشاركة مكثفة وإن كانت محدودة في الحرب الايرانية العراقية بعد اعتداء العراق على المدمرة البحرية الأمريكية ستارك في الخليج عام ١٩٨٧ . ومن أجل طمأنة حليف أمريكا المذعور والمهم في الخليج وهو المملكة العربية السعودية، قررت الولايات المتحدة رفع العلم الأمريكي على ناقلات النفط الكويتية عام ١٩٨٨ وحراستها. فأخذت سفن أمريكا الحربية وطائراتها في ملاحقة وإغراق العديد من السفن الحربية الايرانية بما في ذلك القوارب المسلحة السريعة التابعة لقوات الحرس الثوري الايراني البحرية. لقد أكدت تلك العملية للكويتيين أن أمريكا لن تتردد في التحرك من أجل مساعدتهم في المستقبل.

جاءت نهاية المرحلة الأخيرة والمدمرة في تورط أمريكا في الحرب الايرانية العراقية في يوليو/ تموز ١٩٨٨ عندما أسقطت السفينة البحرية الأمريكية فينسين ـ خطأ ـ طائرة إيرانية للركاب وقتلت جميع ركابها وملاحيها. ارتكبت أمريكا في ردها على ذلك الحادث فألقت اللوم أولاً على إيران نفسها ثم قدمت ما ظهر للبعض كنوع من الاعتذار الباهت والعرض المتأخر عن أوانه بالاستعداد لتعويض أسر الضحايا.

وعندما أعلن آية الله الخميني بعد إلحاح من علي أكبر هاشمي رفسنجاني انتهاء الحرب الايرانية العراقية في أغسطس/ آب ١٩٨٨، قامت العناصر المتطرفة الايرانية بالتخطيط ـ أو هكذا يبدو ـ لأسوأ عملية إرهابية في عصرنا الحاضر وهي تفجير رحلة رقم ١٠٣ لطائرة الركاب الأمريكية في أجواء مدينة لوكربي بسكوتلندة في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٨ وقتل ٢٧٠ راكباً أغلبيتهم من الأمريكيين. لم يقدم أحد للعدالة في هذا الحادث حتى تاريخ كتابة هذه السطور، إلا أن المحققين قد جمعوا أدلة قوية تشير الى تورط خليط من العناصر الايرانية والفلسطينية وغيرها بما في ذلك عناصر تابعة لأجهزة استخبارات دول عربية.

لقد استدعى الواقع السياسي الذي فرضته الحاجة الى تكوين التحالف الدولي لطرد قوات صدام حسين من الكويت عام ١٩٩٠ ـ ١٩٩١، الى تجاهل إدارة الرئيس بوش لتورط سوريا وإيران في أعمال إرهابية في السابق وكان ذلك مخالفاً للتقاليد. فقد اختارت الولايات المتحدة ولأسباب وجيهة خاصة بها قبل عاصفة الصحراء بوقت طويل أن تقدم الدعم لاسرائيل ومصر والسعودية والكويت وغيرها من دول الخليج من أجل مواجهة أعداء مثل إيران وسوريا المتحالفة مع قوى فلسطينية متطرفة لا ترتبط بمنظمة التحرير الفلسطينية الأصلية التي يقودها السيد ياسر عرفات. وكان الثمن الذي ظلت تدفعه أمريكا قبل عاصفة الصحراء هو عمليات التخريب التي تنظمها إيران وسوريا تمشياً مع المثل العربي القديم: عدو عدوي صديقي!وعكسه: صديق عدوي عدوي!.

لقد اتضح لأمريكا مع بداية صيف عام ١٩٩٠ أنه برغم ما لديها من نفوذ في الشرق الأوسط فهو لا يكفي لتحرير الكويت. ليس معنى ذلك أن الحرب كانت خياراً لا مفر منه، إذ أن الجمع الصحيح بين الدبلوماسية العربية والعقوبات الاقتصادية كان بإمكانه أن يفرض على صدام حسين أن ينهي احتلاله للكويت سلمياً. وكان بالامكان تحقيق تلك النتيجة لو اختارت قوى معينة في المنطقةمسلكاً غير الذي سلكته ما بين ٢ أغسطس/آب وهو يوم الاحتلال و١٢ أغسطس/آب وهو اليوم الذي أعلن فيه صدام حسين عن ضم الكويت الى العراق.

مهما يكن من أمر فقد كان على أمريكا مع انتهاء عاصفة الصحراء تسديد جزء آخر من الحساب، ألا وهي تلك المسؤولية الكبيرة التي تعهدت بها إدارة الرئيس بوش ـ بكامل حريتها ـ تجاه الملايين من الأكراد الفارين من مذابح قوات صدام حسين. لقد أخفق ـ على ما يبدو ـ مخططو سياسة الولايات المتحدة الذين انهمكوا في التخطيط العسكري لعملية عاصفة الصحراء في إعداد أي خطط سياسية بعيدة المدى لآثار ما بعد الحرب. وهكذا يبدو ذلك «النظام العالمي الجديد» الذي أعلن عنه الرئيس بوش ـ بعدتأمل قصير ـ كلمات جوفاء لا روح فيها. وهكذا ترث الولايات المتحدة مشكلة أخرى ستظل تصارعها على مدى أجيال قادمة. ومع ذلك فلم ينته بعد، ذلك التاريخ المنهك الطويل لتسديد الحسابات.

نظرة نحو المستقبل

لقد بدأ أبناء الشعب الأمريكي في الولايات المتحدة يتنبهون الى ما عرفه الذين حاربوا عن كثب في عمليات عاصفة الصحراء، من أن آلافاً مؤلفة من أبناء الشعب العراقي من عسكريين ومدنيين قد قتلوا في تلك الحرب. بل الأسوأ من ذلك فإن أنظمة الكهرباء والمياه والنقل انتهت الى خراب، واندحر الملايين من أبناء الشعب العراقي - الأكراد في الشمال والعرب في الجنوب - الذين هبوا للثورة بمباركة الرئيس بوش ضد صدام حسين. وظلت سلطة صدام حسين برغم ترنحها وإنهاكها قائمة متماسكة.

وفي الكويت التي غطت سماءها سحب الدخان الأسود المتصاعد من نيران حقول النفط التي أشعلتها قوات صدام حسين المتقهقرة، يظل حكام آل الصباح غير راغبين في استعادة حتى بدايات متواضعة للديمقراطية هناك. وفي السعودية كذلك لم يحرص حكام آل سعود على السماح لشعبهم - وخاصة النساء - بالمشاركة في الحكم. لا يبدو في الواقع وجود أي فرصة في القريب لظهور الديمقراطية في أي من بلدان الخليج العربية أكثر مما كان في ظل حكومة رجال الدين في إيران.

وتظل القضية الرئيسية وهي النزاع العربي الاسرائيلي حتى منتصف عام ١٩٩١ قائمة دون وجود حل لها. لقد ذهبت كل القوى المحلية في المنطقة تقريباً - بما في ذلك اسرائيل - الى الظن بأن اليد الأمريكية القوية كفيلة بإزاحة العقبات، ولكنهم لم يقدموا سوى النزر القليل لتعزيز تلك اليد. وعندما كانت صواريخ سكود العراقية تهطل على تل أبيب كان المتحدثون الرسميون باسم الحكومة الاسرائيلية يؤكدون على أنه يجب على العرب الآن - اعترافاً بالجميل الأميركي نحوهم في دحر عدوهم اللدود صدام حسين - أن يوافقوا على السلام مع اسرائيل. وكانت اسرائيل تشعر - على الطرف الآخر - أن امتناعها عن الرد على صدام حسين يؤهلها للمزيد من العون الأمريكي بما يفوق بكثير ما يصلها من معونات.

ولكن المتحدثين باسم الأطراف العربية في التحالف كانوا يقولون بعكس ذلك تماماً. فلم تتردد السعودية في البداية في الموافقة على حضور مؤتمر السلام الذي ستطرح فيه القضية الفلسطينية للنقاش فحسب، بل أن حكومات عربية أخرى كانت تنادي - بدلاً من مديونية العرب لأمريكا - بمكافأة أمريكا للعرب مقابل الدعم الذي مكن

لعاصفة الصحراء أن تتم. فقد كان العرب ينتظرون من أمريكا أن توظف نفوذها لاقناع اسرائيل بمبادلة الأرض العربية مقابل السلام، ولكن حكومة الليكود الاسرائيلية رفضت ذلك. وهكذا يبدو أن المصلحة المشتركة التي نشأت بين دول التحالف العربية واسرائيل أثناء الحرب صارت تتلاشى، إلى أن وافقت سوريا في يوليو/ تموز١٩٩١ على محادثات السلام مع اسرائيل.

والأكثر من ذلك فقد فقدَ الفلسطينيون أنفسهم ذلك القدر من الاحترام الدولي الذي أكسبتهم إياه الانتفاضة قبل الحرب. ويمكن إرجاع ذلك وما لقيه الفلسطينيون من اضطهاد في الكويت بعد الحرب، الى الدعم الاستعراضي لصدام حسين الذي عبر عنه ياسر عرفات. وبذلك أخذت منظمة التحرير الفلسطينية تضطرب ـ في خضم موجة دعوة اسرائيل والسعودية وغيرهما لابعادها عن عملية السلام ـ وتفقد مواقعها لحساب عناصر أصولية أكثر تعصباً ضد اسرائيل والولايات المتحدة.

وهكذا تظل الولايات المتحدة تواجه جميع القضايا القديمة في المنطقة وأكثرها قابل للانفجار أو يقود الى الحرب. من أهم تلك القضايا الأساسية مشكلة الحدود التي وضعت من قبل القوى الاستعمارية بينما كانت الدول العظمى تراقب بلا اكتراث أو بالموافقة. كثير من دول المنطقة لا تعترف بالحدود المرسومة لها. فالعراق الذي ورثت أرضه بريطانيا عن الدولة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى، لم يعترف في يوم من الأيام بالحدود مع الجارة الكويت التي رسمتها بريطانيا في ذلك الوقت، كما لم تبد أي دولة عربية الرغبة في الاعتراف بحدود دولة اسرائيل. ويرد العرب على ذلك بقولهم أنه لم تقم أي حكومة اسرائيلية حتى اليوم بالتعبير عن استعدادها لتحديد ما تعتبره حدوداً لها وتسجل ذلك على الورق باستثناء الحدود مع لبنان، ثم مع مصر منذ اتفاقية السلام لعام ١٩٧٩.

ولعل أكبر نزاع لا يزال يلاحق المنطقة منذ عهد الرئيس الأمريكي ودرو ولسن هو مشكلة الأكراد التي يبدو من المؤكد أنها ستولد المزيد من العنف بها سيشد انتباه أمريكا في المستقبل. لقد وعد الأكراد بدولة قومية بناء على اتفاقية سيفرس لعام ١٩٢٠، ولكن لأسباب متعددة لم يتم الايفاء بذلك الوعد وولدت دولة الأكراد ميتة. قليل جداً من زعماء الأكراد الذي يطالب اليوم بالاستقلال ولكن أغلبيتهم يسعون من أجل تحقيق

الحكم الذاتي لهم في العراق وتركيا وإيران. وبذلك يشكل الثلاثون مليوناً من الأكراد اليوم - كما اكتشفت الولايات المتحدة مؤخراً بعد سنوات من الاهمال - خطراً يهدد استقرار البيئة السياسية الهشة في المنطقة بأكملها.

وستظل سياسة النفط في المنطقة تكبل الولايات المتحدة. فنظراً لفشل صدام حسين في الاحتفاظ بنفط الكويت أو استغلاله، فقد اختار أن ينزل بالمنطقة كارثة بيئية بإشعال النيران في آبار النفط. نتج عن ذلك اختفاء ثلاثة ملايين برميل يومياً من النفط الكويتي من السوق العالمية، مع استمرار غياب النفط العراقي - حتى كتابة هذه السطور - كذلك بسبب العقوبات المفروضة من قبل الأمم المتحدة على العراق. لقد شلت تلك العقوبات والمقاطعات الاقتصاد العراقي الذي أنهكته الديون، ولا يزال على صدام حسين - بناء على قرارات الأمم المتحدة - تقديم التعويضات للتخريب الذي أحدثه في الكويت.

ومن المشاكل المحلية الأخرى التي تواجه صانعي السياسة في الشرق الأوسط، مشكلة المياه، حيث تعتمد كل من تركيا وسوريا والعراق على مياه نهر الفرات الذي ينبع من تركيا. وسوف يعني استكمال بناء سد أتاتورك العملاق في تركيا عام ١٩٩٠ استطاعة تركيا - إن شاءت - أن تقطع وصول المياه الى جارتيها. وفي الأردن وسوريا كانت المياه توزع بالتقسيط في عام ١٩٨٩. أما في اسرائيل التي تستهلك كميات أكبر مما تستهلكه الأردن أو سوريا فقد قررت الحكومة التخفيض من حفر آبار مياه الشرب من قبل السكان العرب في الأراضي المحتلة لحاجة اسرائيل الى المياه من أجل بناء وتعمير المستوطنات اليهودية الجديدة. وبالرغم من مباركة أمريكا لمشروع من تصميم أمريكي لبناء سد مشترك بين سوريا والأردن على نهر اليرموك، إلا أن العمل في هذا المشروع قد توقف بسبب خلافات حول الحصص بين الدولتين من جهة وبين كل منهما واسرائيل من جهة أخرى. أما مصر فإنها تخشى - كما حدثني أحد دبلوماسييها الكبار - أن حربها القادمة قد تكون حول مياه نهر النيل - شريان الحياة المصرية - إذا ما قامت أثيوبيا بإيقاف تدفق مياه ذلك النهر الى مصر(٢).

ولا تزال قضية التضخم السكاني تتفاقم برغم الفقر الذي تعيش فيه مختلف دول المنطقة، ويتحتم على مصر وإيران - بالذات - استيراد المزيد من المواد الغذائية كل سنة

لاطعام الأفواه الجائعة مما يتطلب صرف مبالغ أكبر من العملة الصعبة النادرة. وحتى سوريا التي كانت قديماً مخزن حبوب امبراطورية الرومان عليها اليوم شراء مواد غذائية من الخارج بما قيمته ملايين الدولارات لكفاية الثلاثة عشر مليون نسمة من السكان الذين يتزايد عددهم باطراد، والتي تنفق ـ أسوة بدول الشرق الأوسط الأخرى ـ نصيب الأسد من ميزانيتها على التسليح.

لقد خصصت الولايات المتحدة في الماضي برامج إعانات طموحة جداً لعدد من دول الشرق الأوسط خاصة في مجال الزراعة، إلا أن تلك المساعدات تركزت مع منتصف العقد الماضي في اسرائيل ومصر، وتركت الاعانات الاضطرارية في مثل حالات الجفاف والحروب ـ كما كان الحال في أثيوبيا والسودان والعراق كذلك ـ للجهود الخاصة أو لاختيار دول النفط العربية. واليوم فإن السعودية لا تعير كثير اهتمام لمساعدة بلدان مثل السودان أو اليمن أو الأردن التي تشعر أنها قد وقفت ضدها خلال عاصفة الصحراء. ومن نفس المنطلق قرر الكونغرس الأمريكي قطع المساعدات على الأردن.

وقد أثبت نزاع الخليج لعام ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ كم من قوى متعددة تعمل ضد اتخاذ سياسات مركزية تخص الشرق الأوسط من قبل أي إدارة أمريكية. فلم يقتصر الأمر على لامركزية صناعة القرار الأمريكي الذي تتقاسمه جهات عدة منها الرئيس نفسه ومجلس الأمن القومي والكونغرس، بل أنه في حالة الشرق الأوسط هناك لوبيات وكتل ذات مصالح خاصة لها نفوذ وتأثير في ذلك. أشهر تلك اللوبيات وأكثرها فاعلية في واشنطن هي لجنة الشؤون العامة الاسرائيلية الأمريكية التي تنظم حملات التأثير بالمراسلات وعن طريق التلفون وتستخدم ـ في إطار القانون ـ مساهماتها المالية لمرشحي الرئاسة في الحملات الانتخابية لاقناع أعضاء الكونغرس وأنصارهم للتصويت في الاتجاه الذي يخدم الحكومات الاسرائيلية. وتحاول مجموعات الضغط العربية مثل الرابطة القومية للعرب الأمريكان ورابطة خريجي الجامعات الأمريكية العربية أن تضغط في الاتجاه المعاكس، ولكن كثيراً ما تعرقل جهودهم الخلافات القائمة بين الحكومات العربية والارتباك وعدم الوضوح في أسلوب عرض القضية الفلسطينية على الشعب الأمريكي.

لم تعد شركات النفط الأمريكية العالمية مثل أكسون وتيكسكو وأوكسيدنتال بنفس القدر من النشاط والمساعي لتوجيه الرأي العام الأمريكي للتعاطف مع وجهات النظر

العربية. وينطبق ذلك أيضاً على شركات أخرى مثل بيكتل صاحبة النشاط الواسع في مشاريع البناء والتعمير في الشرق الأوسط، وذلك لأن تلك الشركات لا تحتاج لبذل جهد كبير محلياً للحصول على المشاريع والعقود في بلد مثل الكويت، وينصب همها على الأعمال في الخارج وليس فيما يتعلق بالرأي العام داخل أمريكا إلا بما يؤثر على مصالحها.

ولا يحتاج المرء الى أكثر من أن يتذكر كيف أثار هجوم كوريا الشمالية المسلح على كوريا الجنوبية إدا رة الرئيس ترومان المتراخية عام ١٩٥٠، وجر الولايات المتحدة الى حرب في تلك المنطقة، أو كيف حرك هجوم العراق على الكويت إدارة الرئيس بوش لكي يفهم كيف يمكن لأي عمل تقوم به أي دولة من دول الشرق الأوسط للاستيلاء على أراضي أو نفط أو مصادر مياه أو مساندة مجموعة من المجموعات المضطهدة كالأكراد، أن يفرض على حكومة الولايات المتحدة في المستقبل أن تتحرك للتدخل.

إن الصعوبات القائمة أمام محاولة كسر حواجز الجهل وسوء الفهم التي تفصل الشعب الأمريكي عن الستة أو السبعة مليارات من بقية سكان العالم، تبرز على وجه الخصوص فيما يتعلق بدور الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. فلا يمكن حماية المصالح الأمريكية في تلك البقعة من العالم إلا بمزيد من المعرفة والتعاطف والتوافق وبمحاولة فهم شعوب المنطقة بدلاً من الارتجال والاعتماد على شرطي محلي مثل الشاه أو اسرائيل أو ملوك السعودية.

إن الارتجال ـ كما رأينا ـ يولد الخوف والاحتقار وسوء الظن. وإذا كانت أمريكا تسعى بحق في حقبة ما بعد الشيوعية أن تثبت للشعوب الأخرى في الخارج أن الديمقراطية هي الحل لبلدانهم فإنه ليس بمقدور الولايات المتحدة أن تقبل بسياسة الأخطاء وسوء التقدير وتسديد الحسابات العسير. فمقابل كل عنصر إرهابي هناك في تقديري آلاف الناس الخيرين الذين يتطلعون بكل تفاؤل نحو الولايات المتحدة لمزيد من الأمل ودواعي السلام والحياة الأفضل. إن أبناء الشعب الأمريكي في حاجة حقيقية لمعرفة ما يجري في المناطق البعيدة مثل كردستان والسعودية كي تكون سياسة بلادهم الخارجية قابلة للتمحيص من قبل قطاعات واسعة وواعية من الشعب، ولا تقتصر على الخلص من ذوي الاختصاص والمصالح المحدودة الذين غالباً ما تكون آراؤهم متأثرة بحاجاتهم وعصبيتهم.

إن حضور الولايات المتحدة في الشرق الأوسط هو اليوم أكبر مما كان عليه في أي وقت مضى. وإذا كانت رغبة الأمريكيين هي الدعوة الى الديمقراطية في أحسن معانيها وما يصاحبها من قيم في المنطقة، فعليهم أن يحسنوا فهم شعوب المنطقة ومجتمعاتها. فإن ذلك هو السبيل الوحيد نحو سياسة نيرة طويلة الأجل تحقق الوعد بإنهاء حرب أمريكا الطويلة والسرية في الشرق الأوسط.

الهوامش

الفصل الأول: ملك الملوك، نور الآريين

١ ـ أرسل بازرغان مباشرة بعد توليه رئاسة أول حكومة مؤقتة في عهد الخميني قوات أمنية لانهاء أول احتلال قام به المتطرفون الثوريون للسفارة الأمريكية في طهران في فبراير/ شباط ١٩٧٩. دفع ذلك الأمريكيين الى المراهنة على أن بازرغان يستطيع أن يقوم بذلك عندما احتجز الرهائن الأمريكان في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٧٩، إلا أن بازرغان حاول ولم يفلح وخسر الأمريكان الرهان وخسر بازرغان وظيفته كرئيس للحكومة وعلاقته الخاصة بآية الله الخميني.

٢ ـ بالرغم من أن آية الله شريعة مداري يعتبر شخصية ذات هيبة كبيرة خاصة في بلده أذيربيجان، إلا أن الاشارة إليه في وثائق السفارة التي استولى عليها الثوريون بأنه على علاقة ود مع أمريكا كانت كفيلة بأن يقضي بقية أيامه في خزي وعار.

الفصل الثاني: عيون على الأرض وجواسيس في السماء

١ ـ بيار سالينجر: America Held Hostage:The Secret Negotiations (أندريه دوتش ـ لندن (١٩٨١)ص ٢٣.

٢ ـ أدوارد. أدجاي أبستاين: Deception:The Invisible War Between the KGB and the CIA (دبليو. أتش. ألن ـ لندن ١٩٨٩) ص٥٢ ـ ٥٤ و ٣١١ ـ ١٩.

٣ ـ «وثائق من وكر الجواسيس» كما وردت في كتاب جيمس بيل: The Eagle and The Lion:The Tragedy Of American-Iranian Relations (جامعة يايل للنشر ـ نيو هايفن ولندن ١٩٨٨) ص٢٨٧ ـ ٨٨.

٤ ـ مجلة تايم: ٩ فبراير/ شباط ١٩٨١ ص١٩.

٥ ـ مقابلة خاصة بتاريخ ١٠ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٠. احتوى المقال على ملخص لسلسلة من الاعتداءات على الاتصالات الأمنية الأمريكية أو اختراقها ابتداء من

الاعتداء الاسرائيلي «الصدفة» على سفينة التجسس الأمريكية ليبرتي بالقرب من سيناء عام ١٩٦٧ وحجز كوريا الشمالية للسفينة المشابهة الأصغر بوايبلو في عام ١٩٦٨ (كريستيان ساينس مونيتر ـ ٨ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٠ ص ٩ ـ ١٠ .

٦ ـ عقيد (متقاعد) تشارلز بكويث و دونالد نوكس : Delta Force:The US Counter-Terrorist Unit and the Iranian Hostage Rescue Mission (آرمز آند آرمر بريس : لندن ١٩٨٤) ص ٢٨٢ ـ ٨٣ .

٧ ـ مجلة تايم : ٩ فبراير/ شباط ١٩٨١ ص١٩ .

٨ ـ كيفن كللي (محرر) : The Home Planet:Images and Reflections Of Earth from Space Explorers (شركة أديسون ويزلي للنشر و يو. أس آند مير للنشر ـ موسكو ١٩٨٨) ص ٥٤ .

٩ ـ من تجربة المؤلف الخاصة . راجع أيضاً جون كوولي : The Water War بمجلة فورن بولصي (عدد الربيع ١٩٨٤) ص ٣ ـ ٢٦ .

١٠ ـ رجنولد تيرنل (محرر) : Jane's Spaceflight Directory,1989-90 (جاينز للنشر ـ لندن ١٩٨٩) ص ٤١٩ .

١١ ـ نفس المصدر ص ٤١٩ ـ ٢٠ .

١٢ ـ وليام آركن (محرر) : Nuclear Battlefields (مؤسسة الدراسات السياسية للنشر ـ واشنطن ١٩٨٦) ص١٩ .

١٣ ـ جيمس بامفورد : The Puzzle Palace (سيدويك آند جاكسن ـ لندن ١٩٨٢) ص ١٩٨.

١٤ ـ نايجل ويست : The Secret Wireless War,1900-68 (كورونت بوكس، هودر آند ستوتن ـ لندن ١٩٨٦) ص٣٤٥ ـ ٤٦ .

١٥ ـ بامفرد : المصدر السابق ص ١٩٩ .

١٦ ـ جون كوولي : U.S.Secret Code Network:A History Of Costly Slipups (مجلة كريستيان ساينس مونيتر ـ ٨ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٠) ص ٣ .

١٧ ـ الجنرال روبرت هويسار: Mission To Tehran (أندريه دوتش ـ لندن ١٩٨٦) ص ١٨٠.

١٨ ـ نفس المصدر ص ١٨١ ـ ٨٥.

١٩ ـ نفس المصدر ص ٦٤.

٢٠ ـ اتصال شخصي، واشنطن دي. سي. ٣ يونيو/ حزيران ١٩٨١.

٢١ ـ بيل: المصدر السابق ص٤٠١.

٢٢ ـ نفس المصدر ص ٤٠١ ـ ٢.

٢٣ ـ صحيفة نيويورك تايمز ـ ١٥ و٢٩مايو/ أيار ١٩٧٩.

الفصل الثالث: من بابل الى موشي ديان

١ ـ من برنامج «بيرسبكتف» من إعداد كريستين باول والمذاع براديو أ. بي. سي. نيوز يوم ١١ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨٩.

٢ ـ اتصال شخصي بقريب أحد المسجونين في فبراير/ شباط ١٩٩٠.

٣ ـ نفس المصدر.

٤ ـ سالينجر: America Held Hostage، ص ٢٦٨. الغريب في هذا أن غيرهارت ريتزل نفسه هو أحد المهاجرين المعادين للنازية. عين ريتزل بعد انتهاء وظيفته كسفير مستشاراً لرئيس دولة ألمانيا (الغربية) لشؤون الاستخبارات.

٥ ـ نفس المصدر ص٢٤.

٦ ـ آية الله روح الله الخميني: الحكومة الإسلامية، الترجمة الانجليزية من إعداد جوينت ببليكاشنز ريسيرش سيرفس (مانر بوكس ـ نيويورك ١٩٧٩) ص ٨٨ ـ ٩١.

٧ ـ نفس المصدر ص ٦٦.

٨ ـ نفس المصدر ص٩٥.

٩ ـ نفس المصدر ص٩٦.

١٠ ـ غيرهارت كونزلمان: Allahs Schwert (هيربغ ـ ميونخ وبرلين ١٩٨٩)ص٢٤٧ ترجمة المؤلف.

١١- The New Oxford Annotated Bible,With The Aopcrypha الطبعة الأساسية المنقحة (قسم النشر بجامعة أكسفورد- نيو يورك ١٩٧٣) ص٨٦- ٨٧.

١٢- أ. جي. آربري (محرر): Religion in the Middle East (قسم النشر بجامعة كمبردج- كمبردج ١٩٦٩) المجلد الأول ص ١٢٦.

١٣- كونزلمان: المصدر السابق ص١٩.

١٤- نفس المصدر ص ٨٥.

١٥- نفس المصدر ص ٨٦.

١٦- أربري: المصدر السابق المجلد الأول ص١٤٤ و١٥٨.

١٧- نفس المصدر ص ١٩٤- ٩٥.

١٨- نفس المصدر١٩٠.

١٩- بيل: المصدر السابق ص٤٣٠.

٢٠- يوسي ملمان و دان رافيف TheImperfect Spies:The History of Israeli Intelligence (سدجويك آند جاكسن- لندن ١٩٨٩) ص ٥٩- ٦٢.

٢١- نفس المصدر ص٨٩- ٩٠.

٢٢- نفس المصدر ص٩١.

٢٣- نفس المصدر ص٩٢.

الفصل الرابع: جذور قضية إيران- جيت

١- بيل: المصدر السابق ص٢٠٤.

٢- ملمان ورافيف: المصدر السابق ص٨٩.

٣- بيل: المصدر السابق ص٢٠٥.

٤- نفس المصدر ص٣٦٥.

٥- نفس المصدر ص ٣٦٦.

٦ ـ ستيفين غرين: Living by The Sword:American and Israeli in the Middle East,1967-1987 (فايبر آند فايبر ـ لندن ١٩٨٨) ص١٩٩ .

٧ ـ مايكل ليدن و وليام لويس: Debacle:The American Failure in Iran (نوبف ـ نيويورك ١٩٨١) ص١٢٦ .

٨ ـ Facts On File (فاكتس أون فايل ـ نيويورك ١٩٧٩) ص١٢٦ .

٩ ـ جون كوولي: Iran,The Palestinians and The Gulf (مجلة فورن أفايرز الفصلية ـ صيف عام ١٩٧٩) ص١٠١٧ ـ ٢٢ .

١٠ ـ نفس المصدر ص١٠٢٢ .

١١ ـ نفس المصدر ص١٠٢٣ ـ ٢٤ .

١٢ ـ غرين: المصدر السابق ص٢٠٠ .

١٣ ـ نفس المصدر ص ١٩ .

١٤ ـ وارن كريستفر وآخرون (محررون): American Hostages in Iran:The Conduct of a Crisis (مجلس العلاقات الخارجية وقسم النشر بجامعة ييل ـ نيويورك ١٩٨٥) ص٥٥ ـ ٥٦ .

١٥ ـ نفس المصدر ص٢٠١ .

١٦ ـ نفس المصدر ص١٦٤ .

١٧ ـ نفس المصدر ص٣٠٣ .

١٨ ـ نفس المصدر ص٣٠٣ ـ ٣٠٥ .

١٩ ـ نفس المصدر ص١٦٦ .

٢٠ ـ نسخ فوتوكوبي زود بها المؤلف .

٢١ ـ جاك درغوي و هيسي كارمل: Israel:Ultra-Secret (روبرت لافون ـ باريس ١٩٨٩) ص١٥٢ .

٢٢ ـ فلهيلم دايتل: Waffen fur die Welt:Die Milliardengeschafte der Rustungsin-

dustrie (كنور ـ ميونخ ١٩٨٦) ص ١٤٤ ـ ٤٥ .

٢٣ ـ ملفات الأمن القومي : The chronology:The Documented Day-by- Day Account Of The Secret Military Assistance to Iran and The contras (وورنر بوكس ـ نيويورك ١٩٨٧)ص٣ .

٢٤ ـ جون بولك و هارفي موريس:-The Gulf War: Its Origins,History and Conse quences (ميثوين ـ لندن ١٩٨٩) ص١٧ .

٢٥ ـ ملفات الأمن القومي : المصدر السابق ص٦ .

٢٦ ـ نفس المصدر ص ٨ . صحيفة واشنطن بوست ٢٧ يوليو/ تموز ١٩٨١ ص١ واتصالات خاصة في لندن .

٢٧ ـ ملفات الأمن القومي : المصدر السابق ص١١ ـ ١٢ .

٢٨ ـ أحاديث خاصة للمؤلف خلال المؤتمر السنوي للمعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية المنعقد في مدينة برشلونة بأسبانيا ـ سبتمبر/ أيلول ١٩٨٨ .

الفصل الخامس : الطريق الى مكة ـ النفط السعودي والدفاع الأمريكي

١ ـ زبغنيو بريجينسكي : Power and Principle:Memoirs Of The National Security Adviser,1978-81 (وايدنفيلد ونكلسن ـ لندن ١٩٨٣) ص٤٥٢ .

٢ـ نفس المصدر ص٤٥٢ .

٣ـ نفس المصدر ص٥٥٢ والملحق رقم ٢ ص٥٦٨ .

٤ ـ نفس المصدر ص٤٥٣ .

٥ ـ نفس المصدر ص٤٥٤ .

٦ ـ اسماعيل نواب وبيتر سبيرز وبوول هووي (محررون) : ARAMCO and its World Arabia and the Middle East (شركة النفط الأمريكية العربية ـ الظهران وواشنطن دي . سي .) ص١٨٤ ـ ٢٠٢ .

٧ ـ رسالة فوريستال لوزير الخارجية جيمس بايرنز بتاريخ ١ أغسطس/ آب ١٩٤٥ كما وردت في كتاب آرون دايفد ميلر: Search for Security (قسم النشر بجامعة شمال

كاليفورنيا ـ تشابل هل ١٩٨٠) ص١٤٥ المشار إليه في كتاب وليام كوانت: Saudi Arabia in the 1980S:Foreign Policy,Security and Oil(معهد بروكينكز ـ واشنطن دي . سي . ١٩٨١) ص٤٧ ـ ٤٨ .

٨ ـ اسماعيل نواب وآخرون: المصدر السابق ص١٦٤ .

٩ ـ آرون ميلر: المصدر السابق ص١٣٠ .

١٠ ـ نشرت المقابلة مع الملك فيصل في كل من صحيفة واشنطن بوست وصحيفة كريستيان ساينس مونيتر بتاريخ ٦يوليو/ تموز ١٩٧٣ . الجزء الخاص بعزل أحمد زكي يماني منقول عن كتاب جيفري روبنسن: Yamani:The Inside Story(سايمون آند شوستر ـ لندن ١٩٨٨) ص٢٧٩ . ، ورغم أني لم أتمكن من التأكد من صحة ذلك من زكي يماني شخصياً إلا أنني سمعت نفس القصة من أشخاص آخرين لم يطلعوا على كتاب روبنسن.

١١ ـ تعرضت مع فريق من الصحفيين في يناير/ كانون الثاني ١٩٦٧ لهجوم جوي مصري في قرية نجران الواقعة على الحدود السعودية حيث ذهبنا عن طريق الجبال في اليمن الشمالي للاطلاع على الأوضاع في قرية قطاف «الملكية» حيث لقي ما لا يقل عن عشرين من المواطنين حتفهم من جراء الاعتداءات المصرية بالغاز السام .

١٢ ـ كوانت: المصدر السابق (صفحات متفرقة)، وأحاديث خاصة بالمؤلف مع مستشارين للرئيس كينيدي ومع دبلوماسيين أمريكيين وعرب في عهد كينيدي. لقد أطلعني الدكتور وليام بلك على الكثير من تجاربه كمبعوث خاص للرئيس كينيدي في كل من مصر والسعودية واليمن واسرائيل .

١٣ ـ كوانت: نفس المصدر ص٥٢ .

١٤ ـ أنتوني كوردزمان: The Gulf and The Search for Strategic Security (ويستفيو برس ـ بولدر كولورادو ١٩٨٤) ص١٣١ ـ ٣٤ وغيرها. يعتبر هذا الكتاب أحسن ما صدر حول كافة الجوانب العسكرية والفنية لتلك الصفقة، كما يتعرض لبعض جوانبها السياسية أيضاً .

١٥ ـ لقد كتب الكثير حول ثورة مكة إلا أنني اعتمدت بصورة أساسية على ما كتبه

فلهيلم ديتل بعنوان Holy War ترجمة مارثا همفريز (ماكميلان - نيويورك ١٩٨٤) ص٢١١ - ٢٧ . راجع أيضاً Holy Terror لأمير طاهري (سفير بوكس - لندن ١٩٨٧) ص١٥٨ - ٦٤ .

١٦ - توني غير أختي : The Bullet Catchers:Bodyguards and the World of Close Protection (غرافتون بوكس - لندن ١٩٨٨) ص٤٠٥ - ٦ .

١٧ - أمير طاهري : المصدر السابق ص١٦٠ .

١٨ - ديتل : المصدر السابق ص٢١١ - ٢٧ وغيرها .

الفصل السادس : الثورة الاسلامية في لبنان

١ - جوليانا بك : The Reagan Administration and The Palestinian Question (معهد الدراسات الفلسطينية - واشنطن دي . سي . ١٩٨٤) ص٦٧ - ٦٨ . رفضت اسرائيل الفكرة وتمسكت بها حصلت عليه في النهاية وهو إخلاء لبنان بالكامل من جميع المقاتلين الرسميين التابعين لمنظمة التحرير.

٢ - روبن رايت : In The Name of God:The Khomeiny Decades (سايمون أند شوستر - لندن ونيويورك ١٩٨٩) ص١١٥ وغيرها . من أحسن المراجع في قضية دودج ومتوصلي كذلك كتاب The Best Laid Plans:The Inside Story Of America's War Against Terrorism للمؤلفين دايفد مارتن و جون و الكوت (هاربر آند رو - نيويورك ١٩٨٨) ص١٠٠ وما بعدها . كما أعتمدت كثيراً على وثائقي ومذكراتي الخاصة أثناء التحقيق في قضية دودج الذي سمحت لي شبكة أ. بي . سي . نيوز مشكورة بالاستمرار فيه ضمن واجباتي كمراسل للشبكة وذلك حتى تاريخ نشر التحقيق في عام ١٩٨٣ .

٣ - روبرت برنتن بتس : Christians in The Arab East (ليكابيتوس برس - أثينا ١٩٧٨) ص١٦٣ .

٤ - تريفر موسطي (محرر) : The Cambridge Encyclopedia Of The Middle East and North Africa (قسم النشر بجامعة كامبردج - كامبردج ١٩٨٨) ص١٤١ .

٥ - نفس المصدر ص ١٤٧ .

٦ - نفس المصدر ص١٥٥ .

٧ ـ لاري بنتاك: -Beirut Outbreaks:A TV Correspondent's Portrait Of America's En counter With Terror (لكسينغتون بوكس ـ لكسينغتون ماسيتشوستس ١٩٨٨) ص٧٧.

٨ ـ نفس المصدر، ص٨٢. راجع أيضاً كينيث أندرسن: -US Military Operation 1945 1984(هاملن ـ لندن ١٩٨٤) ص١٨٤.

٩ ـ زعيف شيف و أيهود يعري: Israel's Lebanon War (سايمون آند شوستر ـ نيويورك ١٩٨٤) ص٢٨٦.

١٠ ـ بنتاك: المصدر السابق ص٨٣.

١١ ـ اتصال خاص بالمؤلف ـ طرابلس، ٨ يناير/ كانون الثاني ١٩٨٢.

١٢ ـ مارتن و والكوت: المصدر السابق ص٨٦ ـ ٨٧.

الفصل السابع: أمريكا تواجه إيران في لبنان

١ ـ بنتاك: المصدر السابق ص١٠٣. راجع كذلك جاين ماير و دويل ماكماناس Landslide:The Unmaking Of President Reagan (فونتانا/ كولينز ـ لندن ١٩٨٩) ص١٤٢.

٢ ـ صحيفة اللواء بتاريخ ١٩ أبريل/ نيسان ١٩٨٣، ص١.

٣ ـ من ضمن المصادر المتعددة في هذا الصدد بنتاك: المصدر السابق ص١٠٤ ومارتن و والكوت: المصدر السابق ص١٠٥.

٤ ـ اتصال خاص بين كوريت والمؤلف في يناير/ كانون الثاني ١٩٩٠.

٥ ـ مارتن و والكوت: المصدر السابق ص١٠٧.

٦ ـ كوريت: اتصال خاص مع المؤلف في يناير/ كانون الثاني ١٩٩٠.

٧ ـ نفس المصدر.

٨ ـ أمير طاهري: The Iranian Triangle:The Untold Story Of Israel's Role (هتشنسن ـ لندن ١٩٨٥) ص٢٢٤.

٩ ـ ساموئيل سغيف : The Iranian Triangle:The Untold Story Of Israle's Role in The Iran-Contra Affair (فري برس ـ نيويورك) ص١٢٤ ـ ٢٥ .

١٠ ـ من ضمن من كانوا على علم بذلك دايفد اغناتيوس مراسل صحيفة وول ستريت جورنال آنذاك . راجع ما كتبه في الصحيفة بتاريخ ١٠ فبراير/ شباط ١٩٨٣ ، وما ورد في ملمان ورافيف : المصدر السابق ص٢١٠ ـ ١٢ .

١١ ـ ملمان ورافيف : المصدر السابق ص٢٨٩ ـ ٩٠ .

١٢ ـ مارتن و والكوت : المصدر السابق ص١٠٩ .

١٣ ـ نفس المصدر ص١٠٩ ـ ١٠ .

الفصل الثامن : نيوجيرسي . . نيوجيرسي

١ ـ مارتن و والكوت : المصدر السابق ص١١٩ ـ ٢٠ .

٢ ـ نفس المصدر ص١٢٤ .

٣ ـ مصدر أغلب المعلومات في هذا الفصل هو كتاب بول ستيلويل Battleship New Jersey (آرمز آند لآرمر برس ـ لندن ١٩٨٦) ص٢٦٠ ـ ٦١ .

٤ ـ كوربت : المصدر السابق .

٥ ـ مارتن و والكوت : المصدر السابق ص١٢٥ ـ ٢٦ .

٦ ـ نفس المصدر ص١٢٨ ـ ٢٩ .

٧ ـ نفس المصدر ص١٣٠ .

٨ ـ كوربت : المصدر السابق .

٩ ـ ستلويل : المصدر السابق ص٢٦٣ .

١٠ ـ مارتن و والكوت : المصدر السابق ص١٣٣ .

جورج ولسن : Supercarrier:An Inside Account Of Life Aboard The World's Most Powerful Ship,The USS John F.Kennedy (بيركلي بوكس ـ نيويورك ١٩٨٦) ص١٢٠ .

١٢ ـ نفس المصدر ص١٢١ ـ ٢٢ .

١٣ ـ نفس المصدر ص١٢٥ ـ ٣٠ .

١٤ ـ بنتاك : المصدر السابق ص٢٠٤ ـ ٥ .

١٥ ـ ولسن : المصدر السابق ص١٣٦ .

١٦ ـ نفس المصدر ص١٣٧ ـ ٦٠ .

١٧ ـ ستيلويل : المصدر السابق ص٢٦٤ .

١٨ ـ روبرت فسك : Pity The Nation:Lebanon atWar (أندريه دوتش ـ لندن ١٩٩٠) ص٥٢٧ ـ ٢٨ .

١٩ ـ مارتن و والكوت : المصدر السابق ص١٤٥ .

الفصل التاسع : وداعاً بيروت

١ ـ فسك : المصدر السابق ص٥٣٢ ـ ٣٣ .

٢ ـ نفس المصدر ص٥٣٤ .

٣ ـ نفس المصدر.

٤ ـ ستيلويل : المصدر السابق ص٢٦٨ ـ ٧٢ .

٥ ـ كوربت : المصدر السابق .

٦ ـ غير أختي : المصدر السابق ص٢٤٠ ـ ٤٤ .

٧ ـ كوربت : المصدر السابق .

الفصل العاشر: رهائن سوء الحظ .

١ ـ أمير طاهري : المصدر السابق ص١٥٤ .

٢ ـ نفس المصدر ص١٥٥ .

سيس ليفن : Beirut Diary:A Husband Held Hostage and a Wife Determined to Set Him Free (أنترفارستي برس ـ داونرز غروف ، الينوي ١٩٨٨) صفحات متفرقة .

٤ ـ غوردن توماس Journey into Madness:Medical Torture and The Mind Controllers

(بانتم برس ـ لندن ١٩٨٨) ص٣٥٨ .

٥ ـ نفس المصدر ص٣٥٢ ـ ٥٥ ، ومصادر منظمة العفو الدولية .

٦ ـ مارتن و والكوت : المصدر السابق ص١٥٤ و أنطوان جلخ: Le Hezbollah Sous Pression(أرابيز ـ باريس ١٩٨٩) ص٢١ .

٧ ـ وثائق في حوزة المؤلف .

٨ ـ اتصالات خاصة للمؤلف مع مسؤولين في منظمة التحرير الفلسطينية، ومصادر إيرانية خاصة .

٩ ـ جيفري ريتشاردسن : The U.S.Intelligence Community (الطبعة الثانية ، بالينجر ـ كمبردج ماستشوستس ١٩٨٩) ص٦٤ .

١٠ ـ نفس المصدر ص٦٥ ـ ٦٦ .

١١ ـ غوردن توماس : المصدر السابق ص٦٩ .

١٢ ـ نفس المصدر ص٧٧ ـ ٧٨ .

١٣ ـ نفس المصدر ص٧٩ .

١٤ ـ نفس المصدر ص٩٠ .

١٥ ـ نفس المصدر ص٩١ .

١٦ ـ ساموبل سغيف : المصدر السابق ص٢٦٩ .

١٧ ـ جيفري ريتشاردسن : المصدر السابق ص٣٤٥ .

١٨ ـ نفس المصدر ص٣٤٦ .

١٩ ـ غوردن توماس : المصدر السابق ص٣٢٨ و ساموبل سغيف : المصدر السابق ص ١٢٩ .

٢٠ ـ ساموبل سغيف : المصدر السابق ص١٩٢ .

٢١ ـ نفس المصدر ص١٦٥ .

٢٢ ـ مارتن و والكوت : المصدر السابق ص٢١٧ و٣٢٥ .

٢٣ ـ جيمس آدمر: Secret Armies:The Explosive Inside Story Of The World's Most Elite Warriors (بانتم بوكس ـ نيويورك ١٩٨٩) ص٣٦٠ـ ٦١.

٢٤ ـ ماير و ماكاناس: المصدر السابق ص٢٠٤ وشريط المؤتمر الصحفي الذي عقده جايكبسن بكنيسة ساينت برايدز بلندن يوم ١١ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨٦.

٢٥ ـ ماير و ماكاناس: المصدر السابق ص٢٠٤ ـ ٥.

٢٦ ـ نفس المصدر ص٢٠٣.

٢٧ ـ ملخص لمعلومات عن أندرسن في مذكرات لمستشار خاص في نيقوسيا بقبرص وهو هاشيلد بعنوان The Foreign Hostage Crisis in Lebanon منقحة بتاريخ ١٥ فبراير/ شباط ١٩٩٠ وتظهر رسالة أندرسن في الصفحة العاشرة.

٢٨ ـ ساموبل سغيف: المصدر السابق ص١٧٨.

٢٩ ـ اتصال خاص للمؤلف مع دون مل ١٩٨٦.

٣٠ ـ نفس المصدر.

الفصل الحادي عشر: التدمير بالجملة

١ ـ مذكرات المؤلف الخاصة وما أذاعه من السفينة تشاندلر. راجع أيضاً In The Gulf:One Close Encounter للمؤلف نشر في صحيفة انترناشنال هيرالد تريبيون بتاريخ ١٩ فبراير/ شباط ١٩٨٨ صفحة الافتتاحيات.

٢ ـ ادغار أوبلانس: The Gulf War (براسي ديفينس ببلشيرز ـ لندن ١٩٨٨) ص٨٨.

٣ ـ نفس المصدر ص٩٦ ـ ٩٧.

٤ ـ نفس المصدر ص١٢٢.

٥ ـ نفس المصدر ص١٤٢.

٦ ـ نفس المصدر ص١٤٦.

٧ ـ نفس المصدر ص١٤٦ ـ ٤٧.

٨ ـ Maghreb-Machrek,La Documentation Francaise رقم ١٠٦ ـ باريس ١٩٨٤ ص٧٨ ـ ٨٢.

٩ ـ اتصالات خاصة للمؤلف مع دبلوماسي أمريكي وعدد من الوزراء في دول الخليج ما بين ١٩٨٧ ـ ٩٠ .

١٠ ـ أوبالانس : المصدر السابق ص١٥٦ .

١١ ـ نفس المصدر ص١٥٧ .

١٢ ـ توماس : المصدر السابق ص٣٥٩ .

١٣ ـ نفس المصدر ص١٨٦ .

١٤ ـ نفس المصدر ص١٩١ .

١٥ ـ نفس المصدر ص١٩٦ واتصالات خاصة للمؤلف في بغداد .

١٦ ـ نفس المصدر ص١٩٦ .

١٧ ـ جون كوولي : Poison Gas:No Place to Hide in the Middle East صحيفة أنترناشنال هيرالد تريبيون بتاريخ ١٣ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٨ صفحة الافتتاحيات .

١٨ ـ أوبلانس : المصدر السابق ص١٤٠ .

١٩ ـ بولك و موريس : المصدر السابق ص٢٦١ .

٢٠ ـ أوبالانس : المصدر السابق ص١٤٩ ـ ١٥٠ .

٢١ ـ هولدر كوب و أغمنت كوخ: Bomben-Geschafte:Todliche Waffen fur die Dritte Welt (كنسبيك و شولر ـ ميونخ ١٩٩٠) ص٢٢٨ ـ ٢٩ ترجمة المؤلف .

٢٢ ـ نفس المصدر ص٢٢٤ .

٢٣ ـ بولك وموريس : المصدر السابق ص٢٦٢ .

٢٤ ـ نفس المصدر ص٢٦٣ ـ ٦٤ . راجع أيضاً مايكا بارون وغرانت يوجيسوفا : The Almanac Of American Politics,1990 (ناشنال جورنال ـ واشنطن ١٩٩٠) صفحات مفرقة .

٢٥ ـ عادل درويش وغريغوري الكساندر: Unholy Babylon:The Secret History Of Saddam's War (فيكتر غولانتز ليمتد ـ لندن ١٩٩١) ص٧٩ ـ ٨١ .

الفصل الثاني عشر: أمريكا تدخل الحرب الايرانية العراقية

١ ـ الشهادة التي أدلى بها ريتشارد سيكورد أثناء التحقيق معه كما وردت في كتاب Men of Zeal:A Candid Inside Story of The Iran-Contra Hearings (بنغوين بوكس ـ نيويورك ١٩٨٩) ص٧٣.

٢ ـ أوبالانس: المصدر السابق ص١٧٣ ـ ٧٩.

٣ ـ مقابلة مع نائب الرئيس العراقي طه ياسين رمضان ـ بغداد ١١ أبريل/ نيسان ١٩٩٠.

٤ ـ مقابلة مع غاري سك ـ ١٨ يونيو/ حزيران ١٩٨٧.

٥ ـ لجنة الشؤون الخارجية للبرلمان البريطاني، جلسة عام ١٩٧٨ ـ ٨٨ التقرير الثاني بعنوان Current U.K.Policy Towards The Iran-Iraq Conflict (مكتب صاحبة الجلالة للقرطاسية ـ لندن يونيو/ حزيران ١٩٨٨) ص١٢.

٦ ـ مقابلة مع غاري سك ـ نيويورك ٢٣ يونيو/ حزيران ١٩٨٧

٧ ـ كاسبر واينبيرغر: Fighting for Peace:Seven Critical Years at the Pentagon (مايكل جوزيف ـ لندن ١٩٩٠) ص٢٧٤ ـ ٧٥.

٨ ـ المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية: Strategic Survey,1987-1988 (لندن ١٩٨٨) ص٧٥ـ٧٦.

٩ ـ واينبيرغر: المصدر السابق ص٢٧٧.

١٠ ـ بولك وموريس: المصدر السابق ص٢٢٦ ـ ٢٧.

١١ ـ واينبيرغر: المصدر السابق ص ٢٨٧.

١٢ ـ Maghreb-Machrek رقم ١١٨ ص١٠٦ ـ ٧.

١٣ ـ بولك وموريس: المصدر السابق ص٢٢٤ ـ ٢٥.

١٤ ـ جيمس آدمز: Trading in Death:Weapons,Warfare and the New Arms Race (هتشنسن ـ لندن ١٩٩٠) ص١٢٣.

١٥ ـ نفس المصدر ص٧١ ـ ٧٢ .

١٦ ـ Maghreb-Machrek رقم ١١٩ ص٩٨ .

١٧ ـ فاهي بتروشيان: Iran's Tactical Shift Heralds Gulf War Escalation (مجلة مدل أيست دايجست ـ ١٧ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٧) ص٢٠ .

١٨ ـ واينبيرغر: المصدر السابق ص٢٩٧ .

١٩ ـ Meghreb-Machrek رقم ١٢٠ ص٨٩ ـ ٩٠ .

٢٠ ـ نفس المصدر رقم ١٢١ ص ٨.

٢١ ـ نفس المصدر ص٨٥ ـ ٨٦ .

٢ ـ اتصال خاص بالمؤلف مع مسؤول في الحكومة السورية ـ دمشق في يناير/ كانون ثاني ١٩٨٨ .

٢٣ ـ تقرير لوكالة الأنباء الفرنسية ـ بيروت ٣١ يوليو/ تموز ١٩٨٩ .

الفصل الثالث عشر : أغمدت السيوف واستلت الخناجر

١ ـ Maghreb-Machrek رقم ١٢٢ ص٩٥ ـ ٩٦ .

٢ ـ روبن رايت : المصدر السابق ص١٨٦ .

٣ ـ واينبيرغر: المصدر السابق ص٣٠١. اعتمدت في هذا على تقارير صحفية وإذاعية وتلفزيونية مختلفة. راجع أيضاً الملخصات الموجودة في Keesings' Contemporary Archives,Vol 4 (أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٨) ص٣٦١٦٩ ـ ٧١.

٤ ـ كابتن اكهارت: The Vincennes Incident,Proceedings Of the U.S.Naval Institue (مارس/ أذار ١٩٩٠) رقم ٣٢.

٥ ـ رايت : المصدر السابق ص١٨٧ .

٦ ـ بولك وموريس: المصدر السابق ص٢٤٦ .

٧ ـ نفس المصدر ص٢٤٧ ـ ٤٨ .

٨ ـ تقرير لوكالة أنباء الجمهورية الاسلامية بتاريخ ٢٠ يوليو/ تموز ١٩٨٨ ـ لندن .

٩ ـ Maghreb-Machrek رقم ١٢٢ ص٧٨ ـ ٧٩ .

١٠ ـ نفس المصدر ص٨٠ .

١١ ـ جون كوولي: Green March,Black September:The Story Of The Palestinian Arabs (فرنك كاس ـ لندن ١٩٧٣) ص١٤٠ . .

١٢ ـ نفس المصدر ص١٥٣ . راجع أيضاً ستيفن أمرسن وبراين دفي : The Fall Of Pan Am 103:Inside The Lockerbie Investigation (بتنم ـ نيويورك) ص١١٤ ـ ١٥ .

١٣ ـ فقرة تلفزيونية عرضتها شبكة أ. بي. سي. نيوز في برنامج Prime Time Live من برنامج وثائقي مدته ساعة كاملة بعنوان Trial Of Destruction عرضته محطة تايمز للتلفزيون البريطانية يوم ٢٨ يونيو/ حزيران ١٩٩٠ من إنتاج مايكل كريسمان وتقديم جوليان مانيون .

١٤ ـ هذه الوثائق جميعها موجودة ضمن ملف التحقيق الخاص بشبكة أ. بي. سي. نيوز .

١٥ ـ أغلب هذه التفاصيل موجودة في مادة برنامج أ. بي. سي. نيوز الذي عرض بتاريخ ٣٠ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨٨ .

١٦ ـ اتصالات خاصة للمؤلف مع مواطنين إيرانيين في لندن ما بين يناير/ كانون الثاني ١٩٨٩ ويونيو/ حزيران ١٩٩٠ .

١٧ ـ ملفات تحقيق أ. بي. سي. نيوز.

١٨ ـ نفس المصدر.

١٩ ـ نشرة نيوزباك الصادرة عن محطة الاذاعة البريطانية تحت عنوان The Foreign Hostage Crisis in Lebanon ص١٥ ـ ٢٠ .

٢٠ ـ ألكساندرا شفارتزبرود : French U.S.Forces Practice for Hostage Rescue in Mediterranaen منشور في مجلة آرمد فورسس أنترناشنال ـ أبريل/ نيسان ١٩٨٩ ، ص٢٣ .

٢١ ـ تقرير لوكالة الأخبار الفرنسية بتاريخ ٢٤ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٩ .

٢٢ ـ رايت : المصدر السابق ص١٩٧ ـ ٩٨ .

الفصل الرابع عشر : نهاية العقد الخميني

١ ـ 1990 Britannica Book Of The Year (انسايكلوبيديكا بريتانكا ـ شيكاغو ١٩٩٠). نيوزباك من إعداد وإنتاج ميمو (نيقوسيا، قبرص ١٩٩٠) ص١٥ ـ ١٨ .

٢ ـ تقرير لوكالة أنباء الجمهورية الاسلامية في ١٤ فبراير/ شباط ١٩٨٩ .

٣ ـ غب و كرايمر (محرران) Shorter Encyclpedia of Islam(بل ـ لايدن ١٩٦٤) ص١٠٢ .

٤ ـ تقرير منظمة العفو الدولية لعام ١٩٩٠ (لندن ١٩٩٠) ص١٢٥ .

٥ ـ نفس المصدر.

٦ ـ نفس المصدر ص١٠١ ـ ٢ .

٧ ـ تقرير لوكالة أنباء الجمهورية الاسلامية بتاريخ ٤ يونيو/ حزيران ١٩٨٩ .

٨ ـ رايت : المصدر السابق ص٢٠٤ .

٩ ـ مايكل شيرادن : "Iran Limps into the "New Era بصحيفة الأنديبندنت ـ لندن بتاريخ ٦ يوليو/ تموز١٩٩٠ . نشرت تقارير مشابهة لدايفد هيرست بصحيفة الغارديان ولمراسلي وكالات الأنباء المختلفة.

١٠ ـ The Shape Of The World Today (أكونومست بوكس، هتشنسن ـ لندن ١٩٨٩) ص٢٦١ .

١١ ـ مايكل شيرادن : المصدر السابق ومقال آخر بعنوان At The Heart Of the Hostage Diplomacy نشر بصحيفة أنديبندنت أون صنداي بتاريخ ٨ يوليو/ تموز ١٩٩٠ ص ١٢ .

١٢ ـ مقابلات شخصية للمؤلف في لاهاي خلال فبراير/ شباط ١٩٨٨ وأكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٩ وأبريل/ نيسان ١٩٩٠ . راجع أيضاً تقرير وكالة أسوشيتد برس الأنباء من أمستردام بتاريخ ٩ مايو/ أيار ١٩٩٠ وتقرير وكالة رويتر للأنباء من لاهاي بتاريخ ٢١ مايو/ أيار ١٩٩٠ .

١٣ ـ سغيف : المصدر السابق ص٨ ـ ٩ .

الفصل الخامس عشر: درع الصحراء: أيام التردد والغضب

١ ـ مشار إليه في Arms Control Today (مارس ١٩٩١) ٣٠.

٢ ـ انني مدين بكثير من معلومات هذا الجزء لمقال للكاتب غسان سلامة بعنوان Les Enjeux d'une crise المنشور بمجلة Maghreb-Machrek العدد رقم ١٣٠ (أكتوبر/ تشرين الأول ـ ديسمبر ـ كانون الأول ١٩٩٠) ص٥ ـ ١٣ والمشار إليه في مقالي بعنوان Pre-War Gulf Diplomacy المنشور بمجلة Survival 33 رقم ٢ (مارس/ أذار ـ أبريل/ نيسان ١٩٩١).

٣ ـ اتصال خاص للمؤلف مع شخصية مصرفية عالمية في مايو/ أيار ١٩٩٠ وأحاديث خاصة للمؤلف مع الأمير حسن بن طلال في عمان بالأردن في أغسطس/ آب ١٩٩٠.

٤ ـ بيار سالينجر و اريك لوران: حرب الخليج الملف السري (أوليفييه أوربان ـ باريس الطبعة الخامسة من النسخة العربية) ص٨ ـ ٩.

٥ ـ نفس المصدر ص٤٠، والنسخة الكاملة منشورة في Foreign Broadcast Information Service,Daily Report,Near East and South Asia ٩٠ ـ ٠٧٤ (١٧ أبريل/ نيسان ١٩٩٠) ص٥ ـ ٩.

٦ ـ نص مذكرة قدمت لجامعة الدول العربية تحصل عليها المؤلف في تونس في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٠ كذلك Keesings Contemporary Archives:Record Of World Events (لونغمان ـ هارلو، أنجلترا أغسطس/ آب ١٩٩٠) ص٣٧٦٣.

٧ ـ أتصال خاص للمؤلف مع شخصية مصرفية عالمية في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٠.

٨ ـ ستيوارت أورباخ: U.S. Sold Hi-Tech Devices to Saddam Day Before Invasion المنشور بصحيفة واشنطن بوست وصحيفة الغارديان (لندن) ١٢ مارس/ أذار ١٩٩١ ص٥.

٩ ـ حديث خاص للمؤلف مع أبو أياد (صلاح خلف) في تونس في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٠. راجع أيضاً مقال بيار سالينجر بعنوان PLO Peace Effort المنشور في صحيفة الغارديان بتاريخ ٥ فبراير/ شباط ١٩٩١ ص١٩.

١٠ ـ سالينجر و لوران: المصدر السابق ص٨٨ ـ ٨٩، وأكد تلك المعلومات للمؤلف أحد مستشاري الملك حسين في عمان في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٠ .

١١ ـ نسخة من محضر اجتماع صدام حسين وأبريل غلاسبي، ترجمة عادل درويش حصلت عليها أ. بي. سي. نيوز في بغداد في أغسطس/ آب ١٩٩٠ .

١٢ ـ حديث خاص للمؤلف مع عاهل الأردن الملك حسين ووزير خارجية الأردن آنذاك السيد مروان القاسم في عمان في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٠ و٦ مارس/ أذار ١٩٩١ .

١٣ ـ سالينجر و لوران: المصدر السابق ص١٠٢ .

١٤ ـ الصحف الرئيسية وهيئة الاذاعة البريطانية يومي ٢ و٣ أغسطس/ آب ١٩٩٠ .

١٥ ـ سالينجر ولوران: المصدر السابق ص١٠٣ .

١٦ ـ اتصالات خاصة مع مستشارين للملك حسين في عمان في ٦ مارس/ أذار ١٩٩١ , ١٧ حديث خاص للمؤلف مع الملك حسين يوم ٦ مارس/ أذار ١٩٩١ .

١٨ ـ تقرير لوكالة الأسوشييتيدت برس من مدينة آسبن بولاية كولورادو يوم ٢ أغسطس/ آب ١٩٩٠ .

١٩ ـ ورد حديث السيدة تاتشر في مجلة The Washington Report on Middle East Affairs 9,no.4 (أميريكان اديوكشنال ترست أبريل/ نيسان ١٩٩٠) ص١٠ .

٢٠ ـ اتصال خاص مع الملك حسين في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٠ وحديث آخر خاص مع رجل أعمال عراقي في لندن في ديسمبر/ كانون الثاني ١٩٩٠ .

٢١ ـ أكد ذلك الملك الحسن الثاني ملك المغرب في مقابلة خاصة مع المؤلف في الرباط في فبراير/ شباط ١٩٩١ .

٢٢ ـ صحيفة نيويورك تايمز يوم ٩ أغسطس/ آب ١٩٩٠ ص١ و- Keesings Contempo-rary Archives أغسطس/ آب ١٩٩٠ ص٣٧٦٣٣ .

٢٣ ـ مايكل ماسينغ: The Way to War بمجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس ٣٨ رقم ٦ (٢٨ مارس/ أذار ١٩٩١) ص١٦ .

٢٤ ـ نص حصلت عليه شبكة ا. بي. سي. نيوز في بغداد في سبتمبر/ أيلول ١٩٩٠ .

٢٥ ـ مايكل ماسينغ: المصدر السابق.

٢٦ ـ النص الصادر عن الحكومة العراقية في بغداد في سبتمبر/ أيلول ١٩٩٠ .

٢٧ ـ اتصالات خاصة في لندن في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٠ .

٢٨ ـ حديث خاص مع أبو أياد في تونس في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٠ .

٢٩ ـ تقارير المؤلف لشبكة أ. بي. سي. نيوز في ١٠ أغسطس/ آب ١٩٩٠ وحديث المؤلف مع أبو أياد في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٠ .

٣٠ ـ ملحق خاص بحرب الخليج لصحيفة لو موند الفرنسية (باريس) في ديسمبر ١٩٩٠ ص٣٥.

٣١ ـ نفس المصدر.

٣٢ ـ ستيفن بيلليتيير و دغلاس جونسن و ليف روزنبيرغر: Iraqi power and U.S. Security in the Middle East (كلية الحرب التابعة للجيش الأمريكي ـ ثكنة كارلايل بولاية بنسلفانيا ١٩٩٠) ص٤٥ ـ ٤٦ .

٣٣ ـ جون نيوهاوس: The Diplomatic Round المنشور بمجلة نيويوركر في ١٨ فبراير/ شباط ١٩٩١ ص٧٧.

٣٤ ـ مايكل ماسينغ: المصدر السابق ص١٨ ـ ١٩ .

٣٥ ـ تقرير منظمة العفو الدولية كما لخصته مجلة الأكونومست (لندن) ٢٢ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٠ ص٨٠.

٣٦ ـ سالينجر ولوران: المصدر السابق ص٢٢٠ ـ ٢٢١ .

الفصل السادس عشر: عاصفة الصحراء

١ ـ كما ورد في مجلة The Washington Report On the Middle East (نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٠) ص٢٦ .

٢ ـ نفس المصدر.

٣ ـ الجنرال .هانسورد جونسن: Operation مقال منشور بمجلة أفياشن ويك (٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٠) ص١٤ ـ ١٥.

٤ ـ كما ورد في Talk of the Town بمجلة نيويوركر (٢١ يناير/ كانون الثاني ١٩٩١) ص٢٤.

٥ ـ كما ورد في Washington Roundup بمجلة أفياشن ويك (٥نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٠) ص١٩.

٦ ـ نفس المصدر.

٧ـ The Washington Report on the Middle East (يناير/ كانون الثاني ١٩٩١) ص٤٧.

٨ ـ أفياشن ويك (١٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٠) ص١٩.

٩ ـ معلومات حصل عليه المؤلف خلال أحاديث خاصة مع أبو أياد في أكتوبر/ تشرين الأول ونوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٠، وردت مقتطفات منها في مقال بيار سالينجر بعنوان The PLO Tries for peace المنشور بصحيفة الغارديان (لندن) بتاريخ ٥ فبراير/ شباط ١٩٩١ ص١٩.

١٠ ـ حديث خاص للمؤلف مع شخصية فلسطينية في لندن في مارس/ أذار ١٩٩١.

١١ ـ سالينجر ولوران: المصدر السابق ص٢٣٩ ـ ٢٤٣ وأحاديث خاصة للمؤلف مع دبلوماسيين سوريين وسوفيات وأمريكيين في دمشق في مارس/ أذارا ١٩٩١.

١٢ ـ أحاديث خاصة في دمشق في مارس/ أذارا ١٩٩١.

١٣ ـ ملحق صحيفة لوموند: المصدر السابق ص٣٥.

١٤ ـ مقابلات للمؤلف مع مسؤولين مغاربة ودبلوماسيين غربيين في الرباط في فبراير/ شباط١٩٩١.

١٥ ـ أفياشن ويك (٣ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٠) ص٢٦.

١٦ ـ Maghreb- Machrek رقم ١٣٠ (أكتوبر/ تشرين الأول ـ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٠) ص٣٥.

١٧ ـ نفس المصدر.

١٨ ـ Keesings يناير/ كانون الثاني ١٩٩١ ص٣٧٩٣٥ وأحاديث خاصة للمؤلف مع نبيل شعث المستشار الدبلوماسي لياسر عرفات في لندن في فبراير/ شباط ١٩٩١.

١٩ ـ أفياشن ويك (٢١ يناير/ كانون الثاني ١٩٩١) ص٦٢ وKeesings يناير/ كانون الثاني ١٩٩١ ص٣٧٩٣٦.

٢٠ ـ أفياشن ويك ٢٤ سبتمبر/ أيلول ١٩٩٠ ص١٦ ـ ١٨ وصحيفة واشنطن بوست ١٥ سبتمبر/ أيلول ١٩٩٠ ص١.

٢١ ـ أحاديث خاصة للمؤلف مع مسؤولين أردنيين في عمان في مارس/ أذار ١٩٩١ و Keesings يناير/ كانون الثاني ١٩٩١ ص٣٧٩٣٥.

٢٢ ـ هذا الجزء حصيلة تقارير وسائل الأعلام الدولية المختلفة وتقارير المؤلف الصحفية من نيقوسيا بقبرص وتقارير مراسلي شبكة أ. بي. سي. نيوز في بغداد والسعودية واسرائيل.

٢٣ ـ مجلة نيوزويك الطبعة الدولية (١١ فبراير/ شباط ١٩٩١) ص١٠.

٢٤ ـ Keesings يناير/ كانون الثاني ١٩٩١ ص٣٧٩٤٢.

٢٥ ـ الصحف العالمية في ٢٤ ـ ٢٨ فبراير/ شباط ١٩٩١ ومجلة تايم ومجلة نيوزويك (١٨ مارس/ أذار ١٩٩١) والتلفزيون البريطاني.

٢٦ ـ أفياشن ويك (١٤ أغسطس/ آب ١٩٩٠) ص٢٦ ـ ٢٧.

٢٧ ـ نفس المصدر (٢٤ سبتمبر/ أيلول ١٩٩٠) ص٢١ ـ ٢٢.

٢٨ ـ نفس المصدر (٢٨ يناير/ كانون الثاني ١٩٩١) ص٢٤.

٢٩ ـ برنامج بانوراما لهيئة التلفزيون البريطانية BBC بعنوان America's Secret بث بتاريخ ٢٥ مارس/ أذار ١٩٩١.

٣٠ ـ نفس المصدر.

٣١ ـ نفس المصدر.

٣٢ ـ نفس المصدر.

٣٣ ـ تسلسل أحداث المعارك منشور في مجلة نيوزويك (١٨ مارس/ أذار ١٩٩١) ص٣٢.

٣٤ ـ كما ورد في صحيفة الغارديان (لندن) بتاريخ ٢٧ مارس/ أذار ١٩٩١ ص٢٤.

الفصل السابع عشر: كيف تنتهي حرب أمريكا الضروس في الشرق الأوسط

١ ـ توماس فرايدمان: From Beirut to Jerusalem (فرار وستراوس وغيروس ـ نيويورك ١٩٨٧) ص٤٩٣.

٢ ـ راجع مقال The Water War للمؤلف في مجلة Foreign policy العدد رقم ٥٤ (ربيع عام ١٩٨٤) ص٣ ـ ٢٦ ومقال جويس ستار بعنوان Water Wars في العدد ٨٢. من نفس المجلة (ربيع عام ١٩٩١) ص١٧ ـ ٣٦.

الفهرس

المؤلف

جون كوولي صحفي وكاتب أمريكي شهير عاش عن قرب ـ ومنذ أواخر الخمسينات ـ أحداث منطقة الشرق الأوسط بكل أبعادها وآثارها كمراقب ومراسل صحفي وكاتب.

بدا جون كوولي علاقته مع العالم العربي في أواخر الخمسينات كمراسل صحفي في شمال أفريقيا، حيث عاصر انتصار الثورة الجزائرية. انتقل بعد ذلك الى بيروت كمراسل لصحيفة الكريستيان ساينس مونيتر في الشرق الأوسط من عام ١٩٦٥ الى عام ١٩٧٨، ثم استلم عمله الحالي كمراسل لشبكة ABS NEWS الأمريكية في لندن حيث استمر يراقب أحداث وشؤون الشرق الأوسط.

جون كوولي شاهد عيان على جميع الأحداث الهامة التي مرت بالمنطقة منذ الثورة وحرب التحرير الجزائرية ثم الحروب الاسرائيلية ـ العربية والحرب الأهلية في لبنان والانقلابات العسكرية المتتالية والثورة الايرانية وحرب الخليج الأولى العراقية ـ الايرانية ثم ـ أخيراً وليس آخراً ـ حرب الخليج الثانية بين التحالف الأمريكي والعراق. إنه ـ باعتراف الكثيرين من زملائه ـ من القلائل في الغرب الذين استحقوا صفة «خبير في شؤون الشرق الأوسط».

جون كوولي كاتب غزير الانتاج. فإضافة الى تقاريره التلفزيونية والاذاعية اليومية عبر شبكة ABS NEWS، يقوم كوولي بالكتابة بانتظام في عدد من الصحف اليومية والدوريات المتخصصة مثل Foreign Affairs وNew Republic وSurvival وChristian Science Monitor وInternational Herald Tribune The وSunday Telagraph وNewsweek وغيرها.

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب في جولة تحليلية موثقة ومثيرة التطورات والأحداث الهائلة التي شهدتها المنطقة العربية منذ الثاني من أغسطس/ آب ١٩٩٠، والتي لعبت فيها الولايات المتحدة الأمريكية الدور الرئيسي بقيادة التحالف العسكري ضد العراق وما ترتب على ذلك من تورط عسكري وسياسي مباشر في أوضاع المنطقة.

ومن عناوينه الملفتة: عيون على الأرض وجواسيس في السماء ـ من بابل الى موشي دايان ـ نيوجرسي ـ الولايات المتحدة تغمض عينيها في لبنان ـ رهائن سوء الحظ (كايسي ـ كيلي وظهور «غوربا» على المسرح) ـ نهاية رحلة رقم ٦٥٥ للخطوط الجوية الإيرانية ـ بداية رحلة ١٠٣ لشركة بان. آم الأمريكية ـ عاصفة الصحراء ـ المستقبل.

ويبدأ الكتاب بالأيام الأخيرة لحكم الشاه في إيران (مقابلة للمؤلف مع الشاه تنشر لأول مرة) وقيام ثورة الخميني، وتصادم أمريكا منذ الأيام الأولى مع إيران الاسلامية مما أدى الى تعقد العلاقات الأمريكية الايرانية واحتلال السفارة الأمريكية في طهران واحتجاز الرهائن الغربيين في لبنان ثم فضيحة إيران ـ جيت الشهيرة.

ويتناول الكتاب علاقة الولايات المتحدة الأمريكية مع المملكة العربية السعودية وبقية دول الخليج والجزيرة العربية، ودور النفط العربي في هذه العلاقة التي تطورت مؤخراً الى تحالف عسكري شبه مصيري.

ويتعرض الكتاب الى الحرب الأهلية الطاحنة التي شهدها لبنان منذ منتصف السبعينات، وما تكبده من خسائر بشرية وسياسية وعسكرية بسببها، ويتحدث عن تشابك الصراع الطائفي في لبنان الذي أفرز مشكلة الرهائن.

ثم يعرج الكاتب نحو الحرب العراقية الايرانية (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨) والدور الذي لعبته أمريكا ـ بصورة مباشرة وغير مباشرة ـ في المنطقة أثناء تلك الحرب. ويكشف الكاتب النقاب عن بعض أسرار وخفايا ذلك الدور من دعم عسكري للعراق وإيران وتورط مباشر في الحرب تمثل في إسقاط طائرة الركاب الايرانية (رحلة رقم ٦٥٥) في مياه الخليج بصواريخ أمريكية في ٣ يوليو (تموز) ١٩٨٨، ثم الرد على ذلك بتفجير طائرة الخطوط الجوية الأمريكية بان آم (١٠٣) وسقوط حطامها في قرية لوكربي بسكوتلانده في ٢١ ديسمبر (كانون أول) ١٩٨٨.

يعتمد الكاتب الصحفي القدير جون كوولي John Cooley في هذا الكتاب على مصادر علمية موثوق بها ووثائق سرية وعشرات المقابلات [illegible] شخصيات عاصرت الأحداث أو شاركت في صناعتها.

«الحصاد» كتاب فريد يقدم عرضاً حياً موضوعياً لأهم الأحداث المعقدة والمتشابكة التي صنعت التطورات والأوضاع السياسية [illegible] الشرق الأوسط خلال عقد الثمانينات، والتي طبعت وبلورت [illegible] للمنطقة خلال التسعينات وحتى مطالع القرن الحادي والعشرين.

إنه كتاب يجمع بين الرصانة والدقة العلمية والعرض [illegible] والمعلومات القيمة الموثقة المفيدة.